استراتيجية الفتوحات الإسلامية



أحمد عادل كمال

دار النفائس



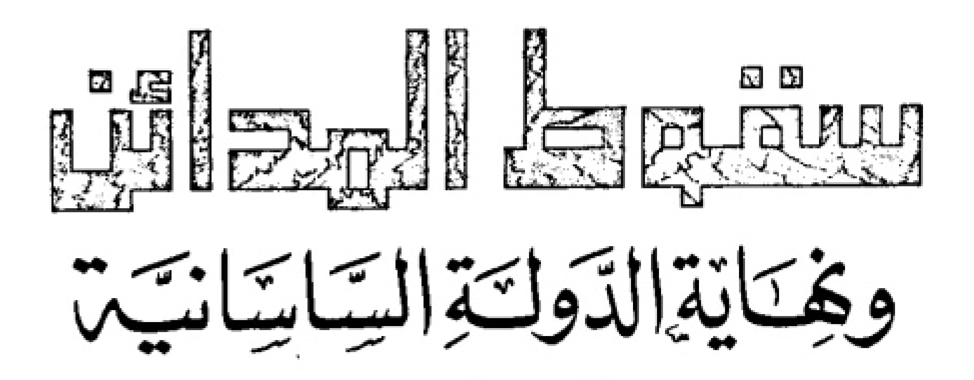
سقوط المدائن

ونهاية الدولة الساسانية

بسم الله الرحمن الرحيم

استراتيجية الفتوحات الإسلامية

٣



احمد عادل كمال

دار النفائس

الطبعة الأولى : ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م
الطّبعة الرّابعة : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

○ دار النفائس
بيروت - ص.ب : ١١/٦٣٤٧ - هاتف : ٨١٠١٩٤ - برقياً : دانفايسكو

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا كتابنا الثالث عن الفتوح الاسلامية نحو الشرق ، بعد كتابنا الأول « الطريق إلى المدائن » وكتابنا الثاني « القادسية » ، هذه الكتب الثلاثة تمّت كتابتها جميعاً في جهد متصل، فهي من حيث موضوعها ، ولو أن كلاً منها يعالج فترة من الفترات، إلا أنها جميعاً سِفرٌ واحد من حلقات يتمم بعضها بعضاً ويفضي بعضها إلى بعض .

ومنذ وصل « الطريق إلى المدائن » إلى أيدي القرّاء ، كان التجاوب تاماً بين القارىء والمؤلف بصورة جعلت منه أعظم جزاء لهذا الجهد .

لقد درجنا ، منذ بدأنا دراسة هذه الفتوح ، على نهج معيّن ذكرناه تفصيلاً في « الطريق إلى المدائن » ، حيث تناولنا في القسم الأول منه كافة الخلفيات اللازمة لدراسة الفتوح ، ثم انتقلنا في جزئه الثاني إلى حملة خالد بن الوليد لفتح العراق ، بينما خصصنا جزءه الثالث لحملة أبي عبيد بن مسعود الثقفي وحملة المثنى

ابن حارثة الشيباني . وعلى نفس المنوال في الدراسة والبحث – الذي انفرد به « الطريق إلى المدائن » – تناول الكتاب الثاني تلك المعركة الواحدة الحاسمة « القادسية » بالدراسة والشرح والتفصيل، بصورة لم تُنشَر ولم تُبحَث من قبل.

والآن نتابع ذلك الزحف المظفر من بعد معركة القادسية على تخوم صحراء العراق على خط طول ٤٤° شرقاً نحو المدائن عاصمة امبراطورية بني ساسان الفارسية ، فيتمُّ اقتحامها في معركة عبور مثالية ، ثم تستطرد جيوش المسلمين تقتطع أجزاء فارس من بين أنياب الأسد في معركة ضارية في أول الأمر ثم لا تلبث الدولة وهي تترنح أن تنهار وتتحول الفتوح إلى ما يشبه السكين يشقُّ قالب الزبد في سهولة ويُسْر في عملية استلام لذلك الميراث الضخم .. وعلى ذلك فقد تمَّ فتح العراق والجزيرة والأهواز [خوزستان] ، وفتحت أقاليم همذان وأصفهان والري وجرجان وآذربيجان والباب وأرمينية وأقاليم فارس من خراسان وأصطخروفسا ودرابجرد ، ثم كرمان وسجستان ومكران ، وتناولنا ما كان من مصير يزدجرد الثالث آخر ملوك بني ساسان ، ومصرعه في مرو وهويفر أمام جيوش الصحابة والتابعين التي تعقَّبَتْهُ إلى آخر شبر من دولته [مما يقع الآن في أفغانستان وفي تركستان الروسية الآسيوية] على خط طول ٦٢° شرقاً ، بعد معارك متلاحقة اجتازت ثمانية عشر خط طول نحو الشرق ، فضلاً عن ستة عشر خط عرض نحو الشمال ... هذا هو موضوع ما بين هاتين الدفتين .

ما حقيقة الباعث الذي بعث المسلمين إلى هذه الانطلاقة المباركة من شبه جزيرتهم الفقيرة القاحلة ؟ وهل صحيح ما يردّده المستشرقون بإصرار من أن الفتح كان جرياً وراء المغانم ؟ وما عناصر ذلك النجاح وأسبابه التي كفلته للمسلمين ؟ هل كان فساد الدولة التي غزوها وضعف جيوشها أمامهم ؟ أم هل كانت معجزة من الله أو محاباة منه لعباده المؤمنين ؟ هذا وذاك خصصنا له باباً ختامياً في آخر هذا الكتاب ، نضع به النقط فوق الحروف ، حتى نكون

قد خرجنا من هذه الدراسة ، لا بمجرّد السرد التاريخي والعرض ، ولكن بالعبرة والدرس .

هذا ، وبينا كانت هذه الجيوش تفتح مشارق الأرض ، كانت جيوش أخرى من إخوة لهم يفتحون الشام ومصر ومغارب الأرض ، ومدّوا سلطانهم إلى ما شاء الله ، حتى نظر خليفة المسلمين إلى سحابة في السماء يدفعها الريح وقال لها : « شرّقي أو غرّبي فسوف يأتيني خراجك » ...

أحمد عادل كمال



مع الاحداث

رسالة الاسلام

قبـــائل متناثرة هنا وهناك على رمال تلك الصحراء المترامية الفسيحة من جزيرة العرب ، لا دولة تجمعها ولا شريعة تنظمها ولا قانون يحكمها ولا حضارة تميزها ... سياستهم أن يُغير بعضهم على بعض، فمن استطاع أن يأكل أخاه فقد فاز بما أكل !!

ثم بعث الله رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق فرفضوه .. وكذبوه وقاوموه وصبّوا العذاب على مَن آمنَ به ثلاثة عشر عاماً في مكة ، حتى ألجؤوهم إلى ترك ديارهم والهجرة إلى المدينة ، حيث استطاعوا أن يقيموا مجتمعاً صغيراً ينتـــابه التهديد من كل جانب . وشرع الله الجهاد في سبيله لرسوله والمؤمنين معه، فذادوا عن دينهم وعن أنفسهم وعن مدينتهم ، حتى مَكّنَ الله لهم وانتشر دينهم فعمّ أرجاء الجزيرة في تسع سنوات .

حروب الردة

وما أن انتقل النبي ﷺ إلى رحاب ربه حتى اضطرمت الجزيرة بالردّة ، فقاومها الخليفة أبو بكر رضي الله عنه حتى قضى عليها عام ١١ هـ ، وقد بعث لذلك أحد عشر جيشاً إلى مختلف ربوعها. فما أن وضعت حروب الردة أوزارها

حتى انبعث المسلمون إلى حركة الفتوح . لقد كان لازماً فتح جبهة جديدة تسدل ستائر النسيان على ما عسى أن كانت تحــدثه حروب الردة من آثار في نفوس درجت على طلب الثأر . ولقد اكتسب المسلمون في حروب الردة تدريباً وخبرة بالحروب أفادتهم أيما إفادة في حركة الفتح وظهرت طاقاتهم وقياداتهم وجنديتهم وتبـلورت ثقتهم في نظامهم وقدراته ، وبدأت شمس حضارتهم تشعُّ ضوءَها ودفأها على الدنيا .

فتوح العراق

وبعث أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه خالدَ بن الوليد لفتح العراق ، فغزاه بجيش قوامه ثمانية عشر ألفاً ، مبتدئاً من الأبُلّة على شط العرب حتى الحيرة . ثم اتجه إلى شمال العراق ففتح الأنبار على شاطىء الفرات ثم عين التمر ، كما فتح دومة الجندل وعاد يطهر غرب الفرات من أي قوات معــادية من الفرس أو من العرب الموالين لهم ، فكانت معاركه بالخنافس والمصيخ والثنى والزميل والفراض ، ولكنه قبل أن يُتمّ مهمته أمره أبو بكر بالانتقال من العراق إلى الشام بنصف جيشه . وقد اعتمد خالد في حملته تلك ، التي تضمنت خمس عشرة معركة ، على المفاجأة الاستراتيجية والمفاجأة التكتيكية ، وعلى أخذِه دائماً بتأمين قواته في كل حركة أو سكنة ، مع اعتماده على مخابرات يقظة ومع الإمساك دائماً بالمبادأة والعمل الهجومي ، مع قدرة فائقة على تجميع القوات وحشدها وتحريكها في مرونة وسرعة ، كما كانت قدرته على استغلال كل نجاح يوفق إليه للحصول على مزيد من النجاح ، وفي كل ذلك كان خالد يأخــذ بأحدث ما وصل إليه علم الإدارة وفن القيــادة في عصرنا الحديث الذي تبلورت فيه خبرة البشرية وتجربتها لقرون .

وتوفي أبو بكر رضي الله عنه ، فبعث عمر بن الخطاب حملة أخرى إلى العراق بقيادة أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، لتملأ النقص الذي أحدثه رحيل خالد عن العراق . وخاض أبو عبيد أربع معارك ناجحة ضد الفرس ، ولكنه تورّط في

معركة خاسرة بالجسر استشهد فيها وتبدّد جيشه. وقاد المثنى بن حارثة شراذم المسلمين وأعاد تجميعها ، وبلغته بعض الأمداد فنظمها في كفاءة نادرة واستطاع أن يخوض بهـا معركة كبرى في البويب كال فيها للمجوس هزيمة منكرة ودحر جيشهم الكبير بقوات قليلة، فانفتحت أمامه أبواب العراق يدخل من أيها شاء، ومخرت قواته شتى أرجاء العراق في غارات عنيفـة ومفاجئة أخذت بأسلوب الحرب الخاطفة وفق مفهومها الحديث ، وذلك بهدف الحصول على المغـانم واستنزاف موارد الأعداء وإهـانة السلطة الحاكمة المستبدة المغلوبة أمام شعبها الميت العاجز ، مع كل ما يحدثه ذلك من آثار نفسية . ولكن عبقرية مثل المثنى ما كانت لتفوتها أو يغيب عنها أنّ تقـدُّمه الكبير كان أكبر من أن تستطيع قواتـه القليلة الاحتفاظ به ،فاتخذ من تلقاء نفسه القرار الذي يتردّد القادة والحكام عادةً في أن يتخذوه حتى تفوتهم فرصته... وقرّر المثنى الانسحاب من العراق في انتظار أمداد جديدة .

معركة القادسية [1]

حشد عمر لهذه المعركة كل الطاقات المتاحة ووجّهها إلى القادسية بقيـادة سعد بن أبي وقـاص فبلغ جيشه شيئاً وثلاثين ألفاً ، ووضع خطته على اختيار مكان مناسب على حدود ما بين الصحراء وبين شبكة المجاري والمسطحات المائية تقيهم مخاطر الوقوع في فخاخ المسالك المائيـة وتحفظ خط رجعتهم ، بينما تحرم عدوّهم من تلك المزايا ، وأن تكون المعركة حاسمة بحيث تكسر جيش فارس فينفتح ما وراءه من أرض دولته .

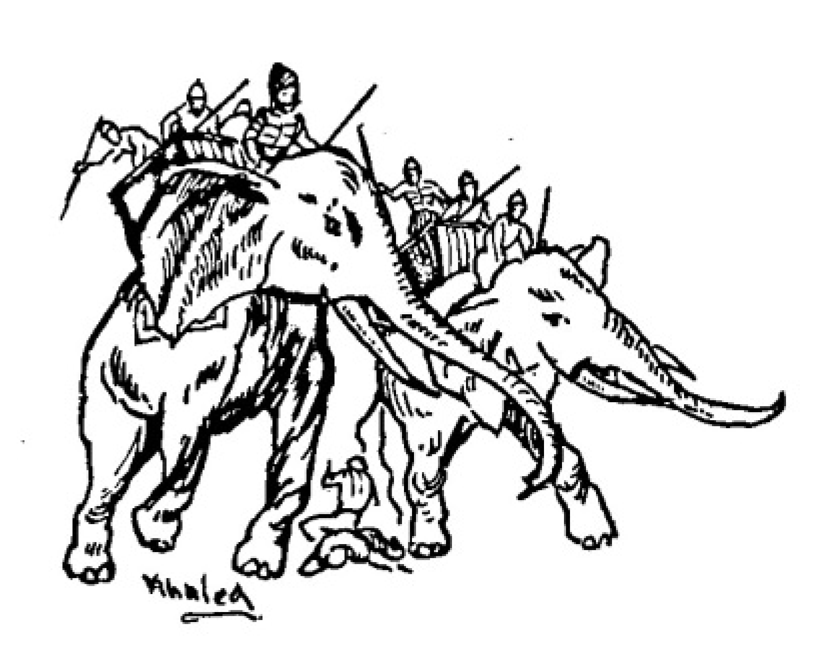
وألقى الفرس في مواجهة المسلمين بكل ما أتيح لهم من طاقة وحشدوا مائة وعشرين ألف مقاتل ومثلهم للخدمات يقودهم رستم . ودارت المعركة بالقادسية

---

(١) معركة القادسية كانت موضوع كتابنا « القادسية » .

بين خندق سابور ونهر العتيق ، اليوم الأول « أرماث » الخميس ١٣ شعبان ١٥ هـ ١٩ سبتمبر (أيلول) ٦٣٦م ، واليوم الثاني « أغواث » ثم الليل « ليلة السواد » واليوم الثالث « عماس » وليلة « الهرير » ، ثم اليوم الرابع « يوم القادسية » الأحد ١٦ شعبان ١٥ هـ ٢٢ سبتمبر (أيلول) ٦٣٦ م . وانتهت بهزيمة ساحقة للفرس ومصرع رستم .

« ومن هنا نلتقط الخيط لنساير مسيرة المسلمين على أرض المجوس » .



نحو المدائن

بُرْس (١)

اوامر من عمر

أقام سعد بالقادسية شهرين بعد المعركة في مكاتبات مع عمر بما ينبغي أن يتصرف به. ثم جاء أمرُ عمر إلى سعد أن يسير من القادسية إلى المدائن . وعهد إليه أن يترك النساء والعيال بالعتيق ، وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً لحمايتهم ، وأن يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين في عيالاتهم .

تقدم بعد انتظار

وقدّم سعد مقدمته عليها زهرة بن الحوية نحو اللسان [وهو لسان من الصحراء امتد في الريف كانت عليه الحيرة والكوفة] (٢) ، وقد كانت قوة فارسية عليها نخيرجان تعسكر به . ولكن معركة القادسية كان لها تأثيرها النفسي ، فما سمع بمسير المسلمين إليه حتى انفضّ ولم يثبت وانسحب ليلحق بأصحابه . وبعث سعد عبدالله بن المعتم على ميمنته في أثر زهرة ، ثم أتبعها

---

(١) الطبري ٣ / ٦١٩ س ش س عن محمد والمهلب وسعيد .
« ٣ / ٦٢٠ « « « عن النضر بن السري عن ابن الرفيل عن أبيه .

(٢) في الأصل « وهو لسان الصحراء الذي أدلعه في الريف » . وفي المنجد : أدلع لسانه : أخرجه من فمه، والدليع والدلوع : الطريق الواسع والسهل . وفي هذا الوصف ما يعطينا فكرة عن طبوغرافية المنطقة .

بشرحبيل بن السمط على الميسرة ، ثم هاشم بن عتبة ، وقد جعله خليفته مكان خالد بن عرفطة وجعل خالداً على المؤخرة . ثم خرج سعد وراءهم ، وكان خروجهم من القادسية إلى الكوفة لأيام بقينَ من شوال ١٥هـ نوفمبر (تشرين الثاني) ٦٣٦ م . جيش سعد هذا صار الآن كله من الفرسان ليس فيهم غير ذلك ، بعد أن غنموا ما كان في معسكر المجوس من سلاح وكراع ومال بالقادسية. وبطبيعة الحال ، لم تكن تلك الخيول التي غنمها المسلمون من المجوس من الخيل العربية الأصيلة ، إنما كانت من المقاريف ، والفارق كبير بين النوعين من حيث الجودة والمقدرة والسرعة [١] .

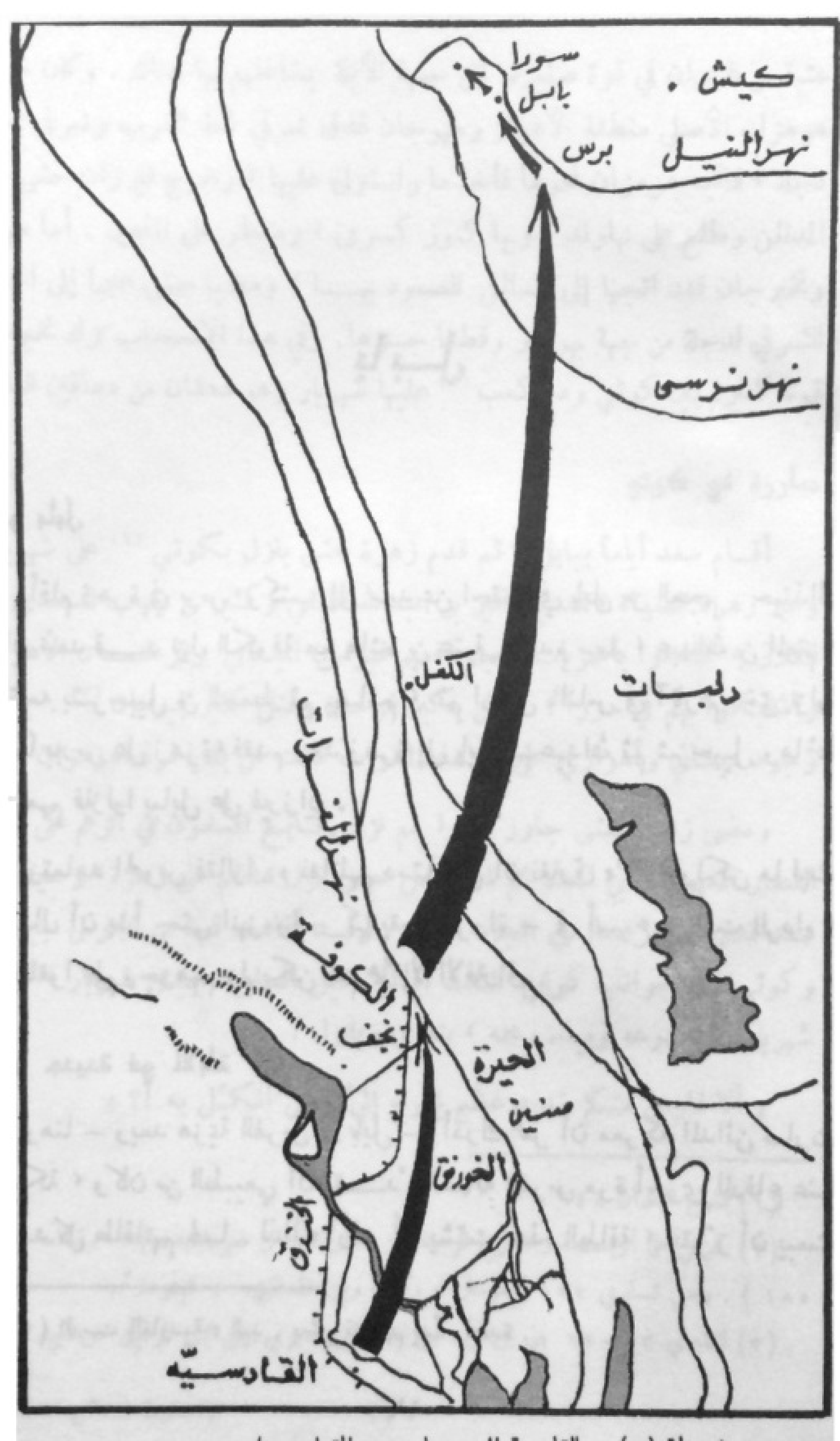
ونزل زهرة الكوفة [والكوفة كل أرض سهلة حمراء يختلط بها الحصى ، وبها سميت مدينة الكوفة حين أقيمت على هذا المكان بعد ذلك] .

ثم نزل عليه عبدالله بن المعتم وشرحبيل بن السمط، فارتحل زهرة في الطريق إلى المدائن ، حتى إذا وصل إلى بُرْس لقيه بها بصبهري في جمع ، فلم تكن إلا مناوشة حتى هزمهم وطعن زهرة بصبهري فوقع في النهر ، ثم هرب ومَن معه إلى بابل حيث كانت بها فلول القادسية وبقايا رؤسائهم، كان بها نخيرجان ومهران ابن بهرام الرازي وهرمزان وأشباههم ، فأقاموا وعزموا على معركة وقد استعملوا عليهم فيرزان منافس رستم القديم على السلطة في فارس . ومات بصبهري وهو في بابل من طعنته التي طُعِنها في برس .

وأقبل بسطام دهقان برس وطلب من زهرة عقد ذمة ، وعقد له الجسور وأتاه بخبر الذين اجتمعوا في بابل. لم يكن غريباً أن يحدث هذا من دهقان برس، فأهل برس هم الذين غصبهم جنود رستم واعتدوا على نسائهم ، في تحركه بجيشه الكبير من المدائن إلى القادسية .

---

(١) يرجع إلى « الطريق إلى المدائن » ، الجزء الأول ، باب الخيل والفروسية ، ص ٦٧ .



خريطة (١) من القادسية إلى سورا المقياس ١ / ٥٠٠,٠٠٠

بابـــل

نحو بابل

أقام زهرة في برس وكتب إلى سعد بن اجتمع في بابل من العجم . حينذاك كان سعد قـــد نزل الكوفة مع هاشم بن عتبة . فقدم سعد ، عبدالله بن المعتم ، وأتبعه بشرحبيل بن السمط ثم بهـاشم ، ثم ارتحل بالناس في آثارهم حتى نزلوا جيماً ببرس على زهرة ، فقدم سعد زهرة إلى بابل ثم عبدالله ثم شرحبيل وهاشماً واتبعهم فنزلوا ببابل على فيرزان .

وتعاهد المجوس فقالوا : « نقاتلهم دستاً قبل أن نفترق »[1] ، ولكن ما لبث القتـال أن بدأ حتى انهزموا – كما يقول الرواة – في أسرع من لفت الرداء ، فانطلقوا على وجوههم ولم يكن لهم همٌ إلا الافتراق .

جبهة جديدة في الابلة

وهنا – وبعد هزيمة الفرس في بابل – أدرك عمر أن معركة المدائن صارت وشيكة ، وكان من الطبيعي أن يقـدّر استماتة الفرس مرة أخرى للدفاع عنها وحشد كل طاقاتهم لهـا . لذلك أراد أن يشتت هذه الطاقة ، فقرّر أن يبعث

---

(١) الدست بالفارسية : اليد . يعني نقاتلهم يداً واحدة .

عتبة بن غزوان في قوة صغيرة إلى جبهة الأبلة يشاغلهم بها هناك . وكان موطن هرمزان الأصلي منطقة الأهواز ومهرجان قذق شرقي شط العرب وشرقي أسفل دجلة ، فاتجه هرمزان نحوها فأخذها واستولى عليها ، وخرج فيرزان حتى جاز المدائن وطلع على نهاوند ، وبها كنوز كسرى ، وسيطر على الماهين . أما مهران ونخيرجان فقد اتجها إلى المدائن للصمود بهـــا ، ومضيا حتى عبرا إلى الجانب الشرقي لدجلة من جهة بهرسير وقطعا جسرها. وفي هذا الانسحاب ترك نخيرجان قوة كبيرة بين كوثي ودير كمب [1] عليها شهريار وهو دهقان من دهاقين الباب.

مبارزة في كوثي

أقـام سعد أياماً ببابل ، ثم قدم زهرة حتى ينزل بكوثي [2] على شهريار . وعبر زهرة الصراة ، فقدم بكير بن عبدالله الليثي وكثير بن شهاب السعدي أخا الغلاق ، فلحقوا بأخريات العجم فيهم فيومان الميساني وفرخـــان الأهوازي واشتبكوا بهم في سورا ، فقتل بكير فرخان وقتل كثير فيومان [3] . يدلنـا وجود ميساني وأهوازي على أن هذه القوات كانت من بقايا فرق هرمزان .

ومضى زهرة حتى جاوز سورا ثم نزل وتتابع المسلمون في أثرم على شكل القطار المعهود ، ابن المعتم ثم شرحبيل حتى نزل هاشم على زهرة، وحين بلغهم سعد قدم زهرة فسار في اتجاه كوثي . وقـد أقامت قوة من المجوس بين الدير وكوثي وفي جوانب كوثي التقت أوائل خيل المسلمين بجيش شهريار ، وخرج شهريار عليه درعه وبيده رمحه ، ينادي ويقول :

« ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إليّ حتى أنكّل به !؟ »

---

(١) فتوح البلدان ٣٤٨ .

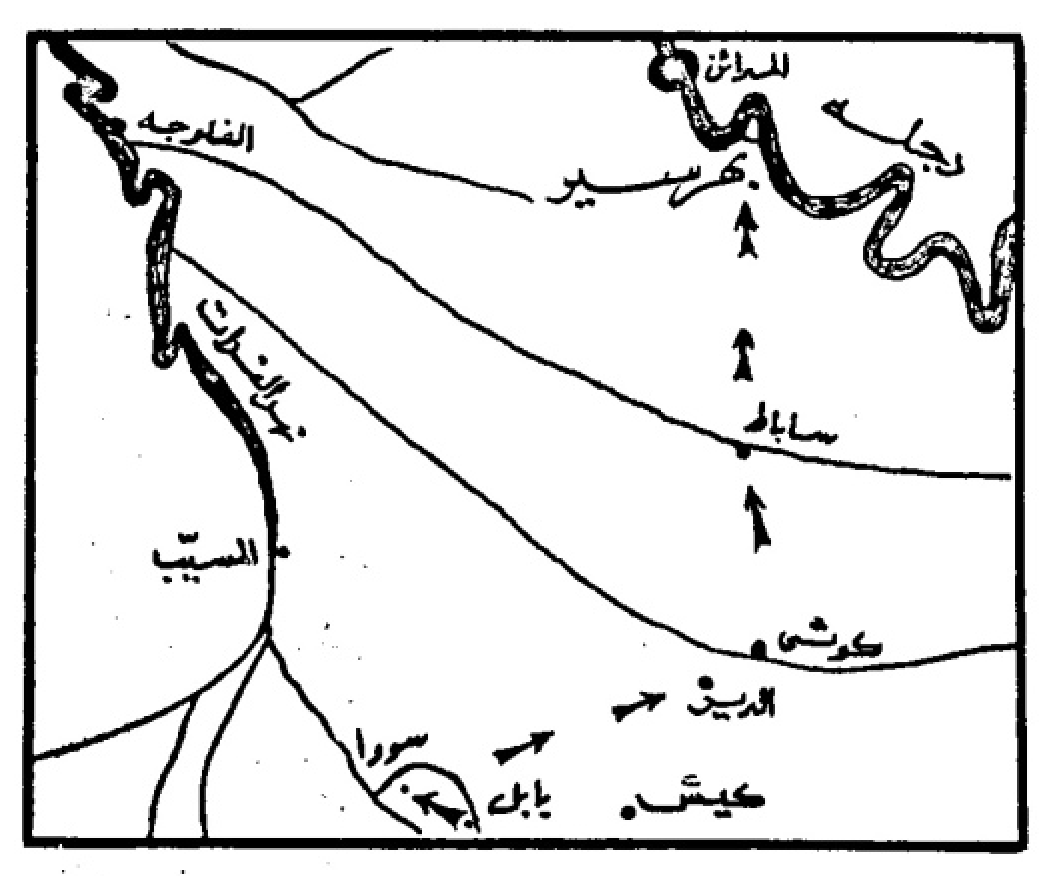
(٢) كوثي على أربعـــة وعشرين فرسخاً من الكوفة (ابن خرداذبه ١٢٥ وقدامة بن جعفر ١٨٥) . وهي تساوي ١٣٣ كيلومتراً ، وبينها وبين المدائن ٤٠ كيلومتراً.

(٣) الطبري ٣ / ٦٢٠ س ش س عن النضر بن السري عن ابن الرفيل عن أبيه .

فأجابه زهرة وقال : « لقد أردت أن أبارزك ، فأما إذ سمعت قولك فإني لا أخرج إليك إلا عبداً ، فإنْ أقمتَ له قتَلك – إنْ شاء الله – ببغيك ، وإنْ فررتَ منه فإنما فررتَ من عبد » .

فغاظه زهرة بذلك ، ثم أمر أبا نباتة بن جعشم الأعرجي ، وكان من شجعان بني تميم ، فخرج إليه عليه درع وبيده رمح أيضاً ، وكان كلاهما جسيماً (وثيق الخلق) ويبدو أن شهريار كان أجسم .

يقول الرفيل : « .. إلا أن شهريار مثل الجمل ! فلما رأى نائلاً ألقى الرمح ليعتنقه ، وألقى نائل رمحه ، وانتضيا سيفيهما فاجتلدا ثم اعتنقا (تصارعا) فخرّا عن فرسيهما ، ووقع (شهريار) على (نائل) كأنه بيت ، فضغطه بفخذه



خريطة (٢) الزحف إلى بهرسير المقياس ١ / ٥٠٠٠،٠٠٠

وأخذ الخنجر وأراغ [1] حلّ أزرار درعه ، فوقعت إبهامه في فيّ نائل (فمه) فحطّم عظمها ، ورأى منه فتوراً فثاوره (ثار به) فجلد به الأرض ، ثم قعد على صدره وأخذ خنجره فكشف عن بطنه فطعن في بطنه وجنبه حتى مات ، فأخذ فرسه وسواريه وسلبه ، وانكشف أصحابه فذهبوا في البلاد .

وأقام زهرة بكوثي حتى قدم عليه سعد فأتى به سعداً ، فقال سعد : عزمت عليك يا نائل بن جعشم لما لبست سواريه وقباءه ودرعه ، ولتركبن برذونه [2] وغنّمه ذلك كله [3] ، فانطلق فتدرّع سلبه ثم أتاه في سلاحه على دابته ، فقال : اخلع سواريك إلا أن ترى حرباً فتلبسهما ، فكان أول رجل من المسلمين سُوّرَ بالعراق » اه .

وأقام سعد بكوثي أياماً . ويقول الرواة أنه « أتى المكان الذي جلس فيه ابراهيم الخليل عليه السلام بكوثي ، فنزل جانب القوم الذين كانوا يبصرون ابراهيم ، وأتى البيت الذي كان فيه ابراهيم عليه السلام محبوساً ، فنظر إليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ابراهيم وعلى أنبياء الله صلوات الله عليهم ، وقرأ : ﴿ ... وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ » .

---

(١) أراغ : أراد – مختار الصحاح .

(٢) البرذون : الدابة .

(٣) في رواية البلاذري بفتوح البلدان ٣٤٨ اختلاف في أصحاب الواقعة . قال : « فلما جازوا دير كعب لقيهم النخيرجان إليها وبدا في جمع عظيم من أهل المدائن فاقتتلوا ، وعانق زهير ابن سليم الأزدي النخيرجان فسقط إلى الأرض، وأخذ زهير خنجراً كان في وسط نخيرجان فشق بطنه فقتله » . ومن المعلوم عن البلاذري أن رواياته أزدية يميل بها نحو الأزد .

بهرسير

ومرة أخرى [1] يتحرك قطار سعد ، فقدم زهرة إلى بهرسير ، وهي آخر مراحل الطريق ، خرج زهرة من كوثي في المقـــدمة ، وفي ساباط على ثلاثين كيلومتراً من المدائن بطريق بهرسير ، استقبله شيرزاد [2] بطلب الصلح وأداء الجزية عن ساباط ، فبعث به زهرة إلى سعد . وأخرج سعد في أثر زهرة ميمنته ثم ميسرته ثم هاشماً ، وخرج في آثارهم ومعه شيرزاد .

معركة في مظلم ساباط

وفي مكان اسمه مظلم بضواحي ساباط ، التقى زهرة بقوة مجوسية ذكرتها المصادر على أنهـا « كتيبة كسرى » أو كتائب كسرى ، وحملت اسم بوران [بنت كسرى أبرويز وهي عمة يزدجرد الثالث] ، وربمـا أوحى إلينا صفتها

(١) الطبري ٣ / ٦٢٢ س ش س عن محمـــد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد والنضر عن ابن الرفيل .

(٢) شيرزاد هو صاحب ساباط الذي قـاد معركة الأنبار ، فطلب من خالد بن الوليد الصلح والأمان على أن يتركه خالد يعود إلى مأمنه، فقبل خالد. وعاد شيرزاد حينذاك إلى المدائن فلامه بهمن جاذويه، واعتذر له شيرزاد بعدم معرفة عرب حصن الأنبار الحرب. كان ذلك عام ١٢ هـ. [الطريق إلى المدائن ٢٨٢] .

واسمها إلى أنها كانت من قوات الحرس الملكي ألقوا بهـا في المعركة كآخر سهم بقي لديهم ، فهزمها زهرة حول المظلم [١] .

وبلغ هاشم إلى مظلم ساباط ، فوقف المسلمون حتى لحق بهم سعد . في مظلم ساباط كانت بعض الحدائق الملكية ، وكان كسرى قد اقتنى فيها بعض الأسود منها أسد اسمه المقرط ، كان كسرى قـــد اختاره من أسود المظلم واستأنسه . واجتمعت كتائب كسرى بوران في المظلم ، وكانوا يحلفون بالله كل يوم « لا يزول ملك فـــارس ما عشنا » . ودارت المعركة وبلغهم سعد وهي دائرة ، فأطلق المجوس أسدهم المقرط على صفوف المسلمين . ونزل هاشم عن فرسه وتقـدّم إلى الأسد بقلب لا يعرف الخوف، كما تقدّم إخوان له من قبل إلى الأفيال بالقادسية. وضرب هاشم الأسد بسيفه حتى قتـــله ، وسمي سيفه المتن . وقبّل سعد رأس هاشم تقديراً له ولِما فعل ، وانحنى هاشم حباً واحتراماً لعمّه وقائده حتى قبّل قدَم سعد .

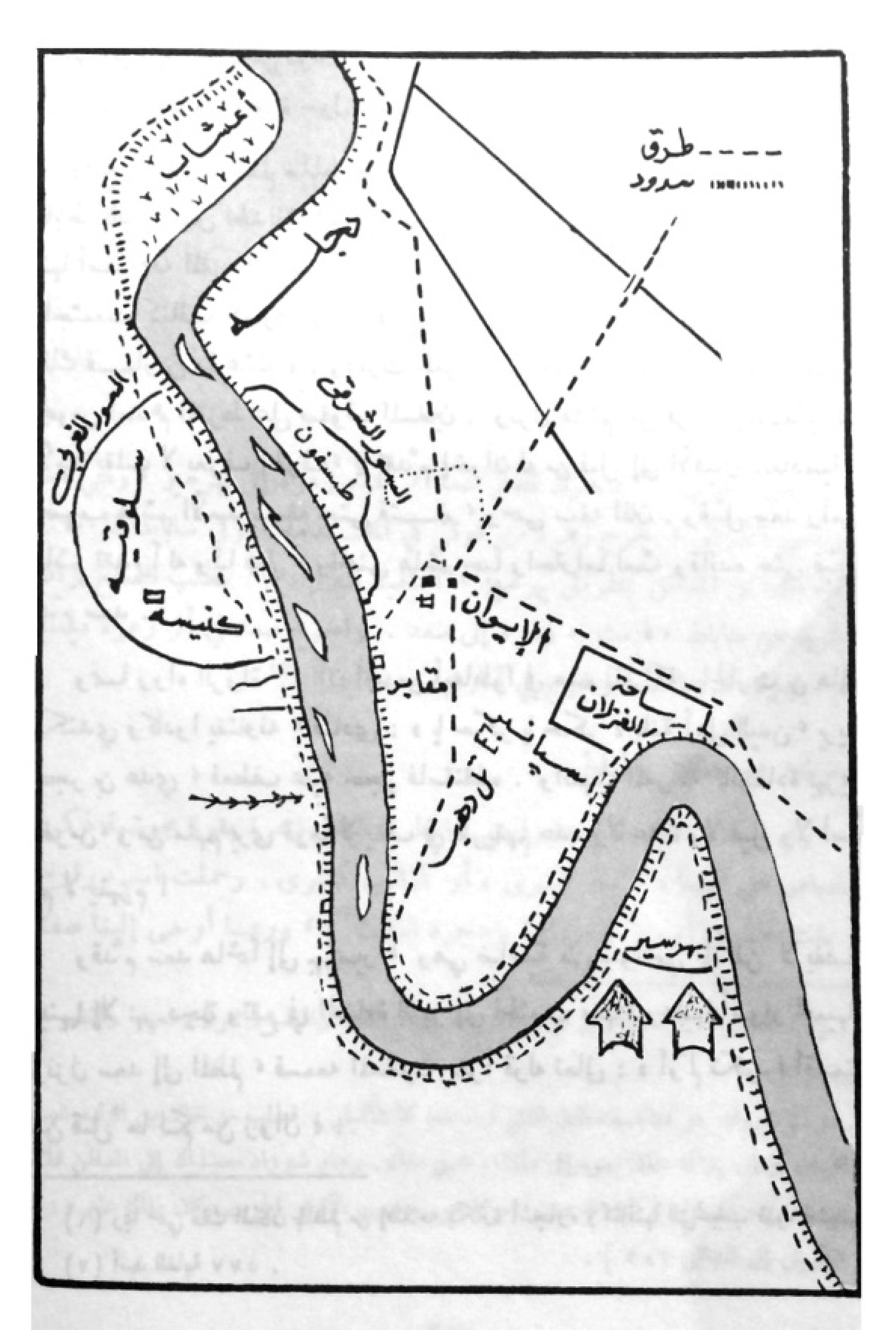
ومـما رواه الرواة [٢] أن المجوس أحاطوا في هذه المعركة بالحارث بن هاني الكندي وكادوا يقتلونه ، فنادى : « يا حكر يا حكر » بلغة أهل اليمن ، يريد حجر بن عدي ، فعطف عليه حجر فاستنقذه . وانتهت المعركة كالعـادة بهزيمة الفرس، ومَن منهم يرى قوماً لا يقف في طريقهم عدد ولا عدّة ولا فيل ولا أسد ثم لا ينهزم !

وقدّم سعد هاشماً إلى بهرسير ، وهي ضاحية من ضواحي المدائن لا يفصل بينها إلا نهر دجلة وتقع في انحناءة النهر إلى الجنوب منها، وعليها أسوار تحميها. ونزل سعد إلى المظلم ، فسمعه المسلمون يقرأ قوله تعالى : « أوَلَم تكونوا أقسمتم من قبلُ ما لكم من زوال » .

---

(١) ربما سمي ذلك المكان بالمظلم من إظلامه بكثرة أشجاره وكثافتها التي تحجب ضوء الشمس.

(٢) أسد الغابة ٥٧٧ .



خريطة (٣) بهرسير المقياس ١ / ١٠٠,٠٠٠

وانتظر بالمظلم، حتى إذا ذهب هدأة من الليل ارتحل فسار بمن معه نحواً من ٢٥ كيلومتراً حتى نزل بخيله على الناس ببهرسير ، فكانوا أفواجاً تترى كلما بلغها فوج وقفوا ثم كبّروا حتى قدم آخرهم .

على اسوار بهرسير

بلغ سعد بهرسير في اندفاع سريع من القادسية ، فلما نزل عليها وأغلقت أبوابها بثّ خيوله فأغارت على من ليس له عهد فيما بين دجلة إلى الفرات، فأصابوا مائة ألف فلاح من الأراضي ليس لهم عهد ولا ذمة . كان شيرزاد دهقان ساباط ما زال ملازماً لسعد ، فقال له :

« إنك لا تصنع بهؤلاء شيئاً ، إنما هؤلاء علوج لأهل فارس لم يجروا إليك ، فدعهم إليّ حتى يفرق لكم الرأي » .

فكتب سعد إلى عمر (١) :

« إنا وردنا بهرسير بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهرسير ، فلم يأتِنا أحد لقتال ، فبثثت الخيول فجمعت الفلاحين من القرى والآجام ، فرَ رأيك » .

فأجابه عمر :

« إن مَن أتاكم من الفلاحين إذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو أمانهم ، ومَن هرب فأدركتموه فشأنكم به » .

فكتب سعد أسماءهم ثم سلمهم إلى شيرزاد فأمرهم أن ينصرفوا إلى قرامم ، وراسل الدهاقين سعداً فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية ولهم الذمة والمنعة (الحماية)، فرجعوا على الجزية والمنعة ، ولم يدخل في ذلك ما كان لآل كسرى ومن دخل معهم . فلم يبقَ من غرب دجلة إلى أرض العرب سوادي إلا واطمأنّ واغتبط

---

(١) الطبري ٣ / ٦٢٢ س‌ش‌س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد والنضر عن الرفيل.
الطبري ٤ / ٦٠٥ س‌ش‌س عن المقدام بن شريح الحارثي عن أبيه .

بظلّ الإسلام ، لا ظلم ولا استبداد ولا سجون ولا تعذيب ولا إكراه في الدين ، وَجَبَوْا الخراج إلى سعد فتسلمه منهم .

معركة بهرسير

وأقـــام سعد على بهرسير وأهلها متحصنون وراء أسوارها وعليها خنادقها وحرسها ، واستعمل سعد لأول مرة في حرب العراق الأسلحة الثقيلة، فاستصنع شيرزاد المجانيق فصنع له عشرين منجنيقاً نصبها حول بهرسير وظلّ يرميهم بهـا وبالعرادات [من آلات حصار الحصون وهي أصغر من المنجنيق] ويدبّ إليهم بالدبابات ويقاتلهم بكل عدة ، فشغلوهم بها والمسلمون مطيفون بهم شهرين [1] . وفي بعض الأحيان كان المجوس يخرجون من حصونهم يمشون على السدود المقامة على شطآن دجلة في عدد وعدّة يقاتلون المسلمين ثم لا يصمدون فيرتدّون إلى وراء حصونهم . وكان آخر ذلك منهم أن خرجوا يوماً في مُشاة ورُماة وخيل وتبايعوا على الصبر والثبات ، فقاتلهم المسلمون فلم يثبتوا وارتدّوا إلى مدينتهم.

في ذلك اليوم كان على زهرة بن الحوية درع مفصومة، فقيل له : « لو أمرت بهذا الفصم فسرد ؟ »

قال : « ولِمَ ؟ »

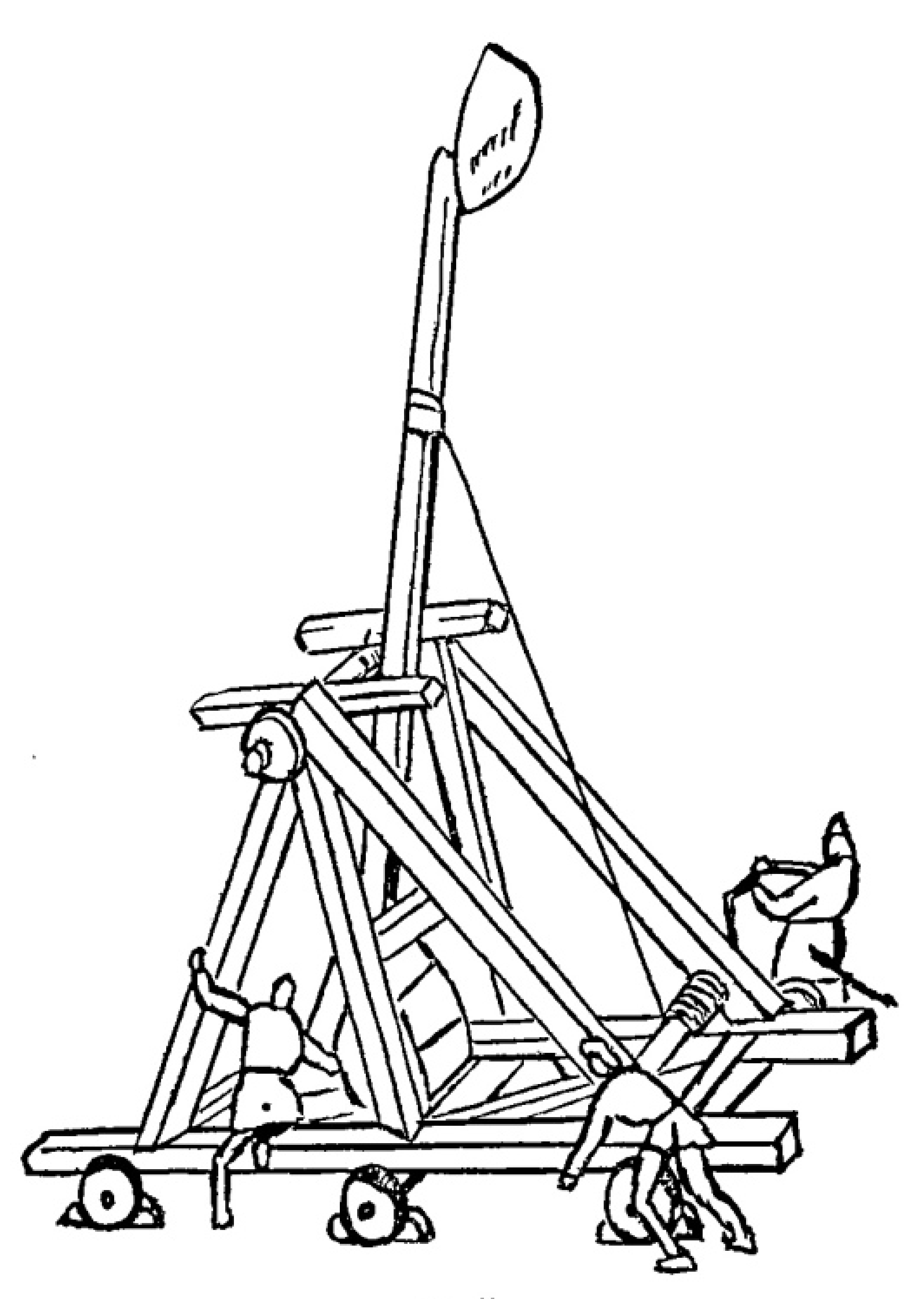
قالوا : « نخاف عليك منه » .

قال : « إني لكريم على الله إن ترك سهم فارس الجند كله ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت فيّ ! » .

اعتمد زهرة على نظرية الاحتمالات ، فإن احتمال إصابته بسهم من ذلك القطع في درعه احتمال ضئيل جداً يكاد ينعـــدم ، ومع ذلك فقد كان زهرة أول مَن أصيب يومئذٍ بنشابة فغرست فيه من ذلك الفصم !

---

(١) في فتوح البلدان تسعة أشهر أو ثمانيـــة عشر شهراً حتى أكلوا الرطب مرتين ، ولم نأخذ بهذا .



المنجنيق

قال بعضهم : « انزعوها عنه » .

قال : « دعوني فإن نفسي معي ما دامت فيّ لعلّي أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة أو خطوة » ، ثم مضى نحو المجوس فضرب بسيفه شهربراز من أهل اصطخر فقتله وانكشف أصحابه [1] .

عسل إفريذين

قال أنس بن الحلَيس الأنصاري[2] وفلان الهجيمي :

« بينما نحن محاصرو بهرسير بعد زحفهم وهزيمتهم أشرف علينا رسول فقال: إن الملك يقول لكم هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ؟ أمّا شبعتم لا أشبع الله بطونكم ! »

فبدر الناس (سبقهم) أبو مفزر الأسود بن قطبة ، وقد أنطقه الله بما لا يدري ما هو ولا نحن، فرجع الرجل. ورأيناهم يقطعون (يعبرون) إلى المدائن. فقلنا : يا أبا مفزر ، ما قلت له ؟ فقال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما أدري ما هو ، إلا أن علي سكينة ، وأنا أرجو أن أكون قد أنطقت بالذي هو خير !

---

(١) الطبري ٤ / ٦ س ش س عن النضر بن السري عن ابن الرفيل عن أبيه ..

وقال اللواء الركن محمود شيت خطاب في كتابه « قادة فتح العراق والجزيرة » : « إنه لم يرد ذكر زهرة في أي معركة بعد بهرسير، مما قد يفهم منه أن إصابته كانت جسيمة حتى ذكر بعضهم إنه استشهد بها » . ولكننا عثرنا على ذكر لزهرة بعد ذلك ، وسيأتي في بحثنا هذا ، فقد خرج في المقدمة بعد فتح المدائن للمطاردة وجمع الغنائم التي فر بها المجوس حتى بلغ جسر النهروان وكل وجه على مقدارها . وعاش زهرة حتى عصر الحجاج بن يوسف الثقفي ، وقد كبر وهرم وضعف بصره وقتل وهو على ذلك بساباط في حروب الخوارج ضد شبيب الخارجي .

(٢) الطبري ٤ / ٧ س ش س عن سماك بن فلان الهجيمي عن أبيه وعن محمد بن عبدالله عن أنس بن الحليس وعن سعيد بن المرزبان عن مسلم .

الاصابة ٤٠٦ - وقد مر بنا ذكر أنس بن الحليس كرسول يحمل رسالة من سعد إلى عمر بعد القادسية .

وانتاب الناس يسألونه حتى سمع بذلك سعد فجاءنا فقال : يا أبا مفزر ما قلت ، فوالله إنهم لهراب ؟

فحدثه بمثل حديثه إيانا ...

فنادى في الناس ثم نهد بهم وإن مجانيقنا لتخطر عليهم ، فما ظهر على المدينة أحد ولا خرج إلينا إلا رجل نادى بالأمان فأمّناه ، فقال : إن بقي فيها أحد فما يمنعكم ؟ [يعني لم يبقَ فيها أحد ، فما الذي يمنعكم ؟]

فتسوّرها الرجال وافتتحناها فما وجدنا فيها شيئاً ولا أحداً إلا أسارى أسرناهم خارجاً منها . فسألناهم وذلك الرجل : لأي شيء هربوا ؟

فقالوا : بعث الملك إليكم يعرض عليكم الصلح فأجبتموه بأنه لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل إفريذين[1] بأترج كوثي . فقال الملك : واويله ! ألا إن الملائكة تتكلم على ألسنتهم ترد علينا وتجيبنا عن العرب ، والله لئن لم يكن كذلك ما هذا إلا شيء ألقي على في هذا الرجل لننتهي ، فأرزوا إلى المدينة القصوى » [انحازوا إلى اسبانبر وطيسفون] .

وقال حبيب بن صهبان : « دفعنا إلى المدائن - يعني بهرسير - وهي المدينة الدنيا ، فحصرنا ملكهم وأصحابه حتى أكلوا الكلاب والسنانير ، قال : ثم لم يدخلوا حتى ناداهم مُنادٍ : والله ما فيها أحد ، فدخلوها وما فيها أحد »[2].

وسقطت بهرسير

دخل سعد والمسلمون بهرسير آخر معاقل الفرس قبل المدائن لا يفصلها عنها غير دجلة . كان ذلك في جوف الليل ، فتقدموا خلالها حتى وقفوا على النهرَ في مقابلة اسبانير إحدى المدائن السبع وهي مقر الأكاسرة ، فلاحَ لهم وسط

---

(١) في رواية ابن حجر « عسل اربدين » - الاصابة ٦ ٤٥ .

(٢) الطبري ٤ / ١٧٠ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبي مالك .

الظلام إيوان كسرى بقبته البيضاء الشامخة وجدرانه البيضاء ، يعلو على أشجار البساتين ، فصاح ضرار بن الخطاب القرشي : « الله أكبر، أبيض كسرى ، هذا ما وعد الله ورسوله » ، وتابعه المسلمون على التكبير . نعم ، هـــذا ما وعد به الله ورسوله . ومرة أخرى نتذكر غزوة الخندق ، ولا بُدّ أن يكون ضرار قد عاد بذاكرته إلى ذلك اليوم من العام الرابع من هجرة النبي ﷺ ، حين جمعت اليهود قريشاً والأحزاب للقضاء على المسلمين قضاءً لا يُبقي ولا يَذَر . يومذاك أشار سلمان الفارسي بحفر الخندق أمام المدينـــة ، فصمدت لهم صخرة بيضاء ضربها رسول الله ﷺ بالمعول وهو يكبّر كلما لمع منها الشرر . سألوه [1] عن ذلك، فقال : « ضربتُ ضربتي الأولى فبرَقَ الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . ثم ضربتُ ضربتي الثانية فبرَقَ الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها . ثم ضربتُ ضربتي الثالثة فبرَقَ منها الذي رأيتم أضاءت لي منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرني جبريل أن أمتي ظاهرة عليها .. » .

يومذاك كان ضرار بن الخطاب ما زال مشركاً وكان من قـــادة قريش في حصارها المدينـــة ، وهو اليوم مسلم مؤمن من أبطال المسلمين في فتوح العراق ، وهذا إيوان كسرى ، أو أبيض كسرى – كما قال ضرار – على مرمى البصر .

الله أكبر

وارتجّ المكان بالصوت الرخيم لستين ألفاً ظلوا يُكَبِّرُون من الليل حتى أصبحوا [2] :

---

(١) الطبري ٢ / ٥٦٩ عن محمد بن بشار عن محمد بن خالد بن عثمة عن كثير بن عمر بن عوف المزني عن أبيه عن جده .

(٢) لم يذكر الرواة هـذا النص للتكبير أمام المدائن . ولكنه هو تكبير الفتح الذي ردده المسلمون لأول مرة يوم فتحوا مكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم،فصار سنة في الفتح. هذا =

الله أكبر الله أكبر الله أكبر .

لا إله إلا الله .

والله أكبر ولله الحمد .

الله أكبر كبيراً .

والحمد لله كثيراً .

وسبحان الله بُكرةً وأصيلا .

لا إله إلا الله وحده .

صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده .

لا إله إلا الله .

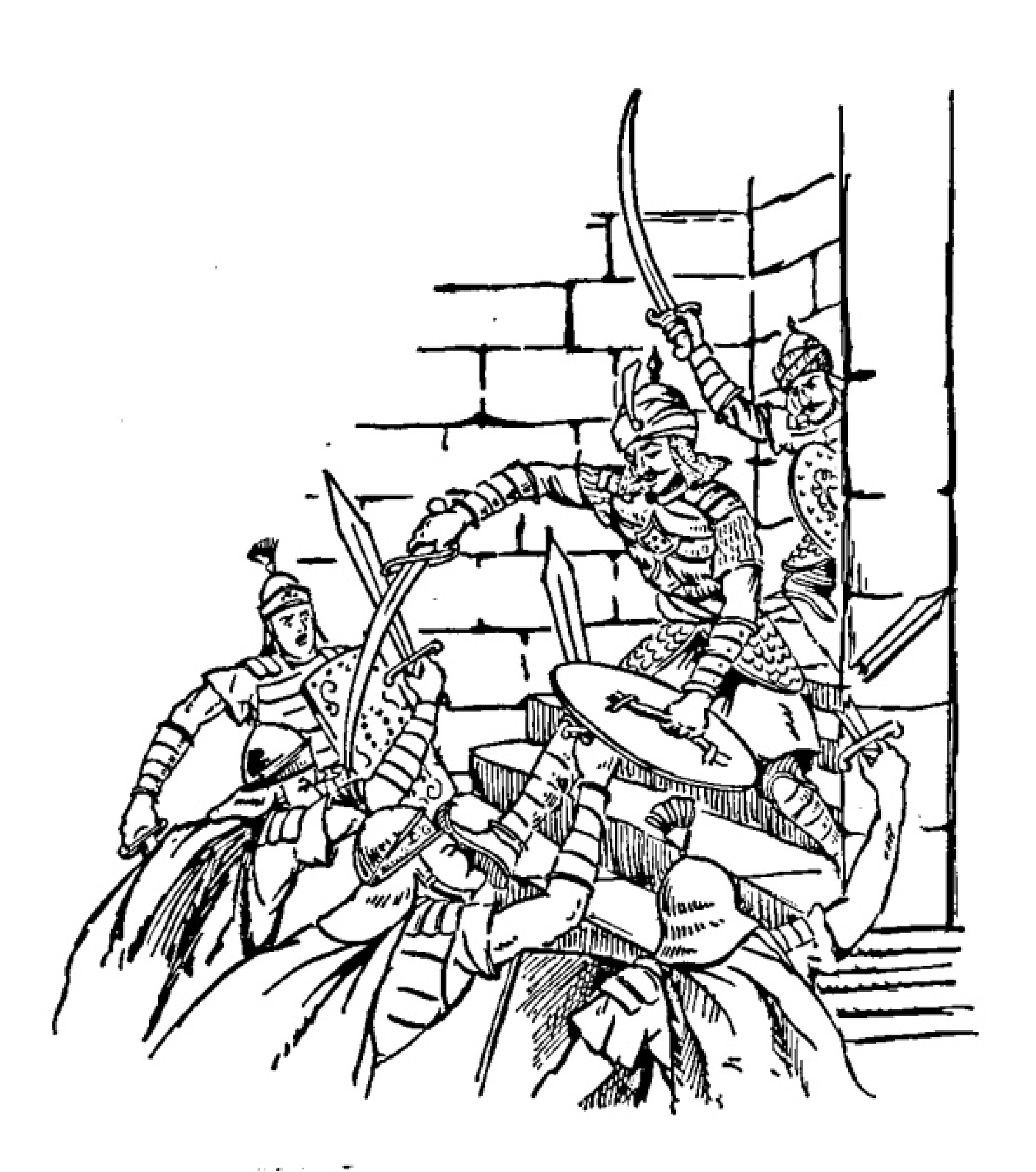
ولا نعبد إلا إياه .

مخلصين له الدين ولو كَرِهَ الكافرون .

تكبير رخيم يصدر عن القلوب قبل أن يخرج من الحناجر ، فتتردد أصداؤه في أجواز السماء ويسمعه يزدجرد ومَن معه في المدائن فيزيدهم رعباً على رعبهم . لهذا التكبير أكبر متعة من أترج كوثي ومن عسل إفريذين .

أنزل سعد جيشه في بهرسير ونقـــل إليها معسكره ، ثم أراد العبور إلى المدائن من جنوبها وجنوبها الشرقي ، فوجد المجوس قد جمعوا السفن على مسافة مائة وثمانين كيلومتراً جنوب المدائن ، ومائة وثلاثين كيلومتراً شمالها ، فيما بين البطائح وتكريت ، وضمّوها إلى البر الشرقي لدجـــلة ، والنهر عريض متسع فكيف العبور ؟

= التكبير – وربما لجماله ورخامته وعذوبة ترنيمه هو الذي اعتاد المسلمون اليوم ترديده في عيدي الفطر والأضحى بدلاً من الصيغة الواردة لتكبير التشريق الذي هو سنة في العيدين .



المدائن مدينة مفتوحة

مدائن كسرو

والآن هذه هي المدائن عاصمة الساسانيين . كانت سبع مدائن في العهد الأخير للدولة الساسانية . والمدائن هي (١) التسمية التي استعملها العرب قبل الإسلام وبعده . كان يدخل فيها طِيسْفون (بالبهلوية تيسبون) ، وسلوقية وهي ويه أردشير أقدم المدائن السبع ، وهذه كانت غربي دجلة تواجه طيسفون في شرقيه وأسبانبر [أو أسفانبر Aspanabre] الذي كان به طاق كسرى ، وقد كان مكاناً غاصاً بحدائق القصر الملكي وأشجاره [وهي الآن خرائب] والرومية [أورومكان] التي أنشأها كسرى أنوشروان بعد أن استولى على انطاكية ونقل سكانها إلى مدينة جديدة أنشأها لهم قرب المدائن ، ونقل لها من الشام وردوس الرخام والمرمر والفسيفساء الزجاجية والحجارة المصقولة ، حتى تكون كمدن الروم ، وسورها من الطين [وهو اليوم خرائب] ، وقد بناها تشابه أنطاكية ، فمضى أهل كل بيت من سكانها إلى ما يشبه منازلهم ، وبنى كسرى بها الحمامات وحلبات السباق ، ومنح سكانها مزايا مثل حرية العقيدة المسيحية .

وسلوقية (٢) ، التي أعاد بناءها أردشير الأول وأسماها ويه أردشير (يعني

---

(١) ايران في عهد الساسانيين ٣٦٧ - ٣٧٣ ، كريستنسن .

(٢) ذكر بعضهم أن سلوقية والرومية شيء واحد . والأرجح عندنا أن سلوقية هي رومية وأن بهرسير هي ويه أردشير .

بيت أردشير) ، كانت محاطة بسور من اللّبْن الذي جُلب من بابل ، ويحيط بمساحة تبلغ حوالي ٢٫٨٦٠٫٠٠٠ متراً مربعاً [وهو السور الغربي في الخريطة] وكان يتاخمها مدينة ماخوزا .

ويه أردشير كانت مدينة كبيرة مرصوفة الطرق، حظائر البهائم فيها تجاور المساكن ، وكان سكانها الأثرياء يملكون المواشي التي ترعى نهاراً في وادٍ مستطيل مجاور لمدينة ماخوزا يسمى عقبة ماخوزا ، وكان للمدينة سوق كبيرة بها تجار النبيذ من اليهود وتجار متجولون لشتى السّلَع . الحمّالون في حركة دائبة والثراء واسع ، حتى أن السلاسل والأساور الذهبية كانت السيدات يَهَبْنَها عن سعة إلى الفقراء ، وكان المتسولون يأخذونها بدل النقود . وكان أهلها مفرطين في الترف وتعاطي المشروبات الكحولية ، منصرفين عن الأمور الروحية . وقد اختصت سلوقية وماخوزا بصناعة أكياس النقود ونوع من الحصير يجفف عليه التمر . كذلك كانت ويه أردشير مركز النصارى في فارس وبها قصر الجاثليق والكاتدرائية وكنائس أخرى . وفي ويه أردشير وطيسفون كانت جالية يهودية كبيرة وكان رئيسها [راس الجالوت] في بلاد بابل مقيماً في ماخوزا — يحملنا هذا على الظن أن ماخوزا كانت جنوبي ويه أردشير تجاه بابل . وعلى نحو خمسة كيلومترات شمالي ويه أردشير كانت مدينة درزنيذان . كما كانت بلاش آباد (وهي ساباط) على الشاطىء الغربي لدجلة .

المدائن السبع ، وفق اتجاه كريستنسن ، كانت إذاً :

١ — طيسفون .

٢ — رومكان (وهي سلوقية) .

٣ — أسبانبر .

٤ — ويه أردشير (وهي بهرسير) .

٥ — درزنيذان .

٦ - بلاش آباد .

٧ - ماخوزا .

ولكننا نشك أن بلاش آباد هي ساباط التي تظهر على خريطة العراق الأثرية من المدائن السبع فهي تبعد عن اسبانبر حوالي ثلاثين كيلومتراً فضلاً عن أنها لا تقع على دجلة .

ولقد وصف الرواة بهرسير بأنها المدينـــة الدنيا [١] ووصفوا ما وراء دجلة (أسبانبر وطيسفون) بأنها المدائن القصوى التي بها بيت كسرى ، على كل حال لقد كانت المدائن السبع متقاربة بل ومتلاصقة على ضفتي نهر دجلة .

بعض هـذه المدائن كانت محاطة بأسوار حصينة عليها أبواب محكمة ، وكان جسر عائم يصل بين شرقي دجلة وغربيه ، ولم يكن كافياً لمواجهة حركة المرور ، فأمر سابور الثاني أن يُقام جسر آخر ، فصار أحدهما للذهاب والآخر للإياب . وكانت طيسفون شرقي النهر محصّنة بسور نصف دائري عليه أبراج [ما زال له بقايا حتى اليوم] قُدّرت المساحة التي يحصرها بينه وبين النهر بنحو ٥٨٠ ألف متر مربع ، وهذه هي المدينـة العتيقة . وكان في ركنها الجنوبي الشرقي بستان كسرى [وما زال جزء من سور ذلك البستان إلى اليوم كان يحيط بساحة كبيرة للغزلان] وكانت أسبانبر محاطة من جنوبيها بمجرى دجلة القديم .

كانت هناك قصور ملكية على شاطىء دجلة . وأيام سابور الثاني كان هنـاك قصر صغير جميل للصيد يظلله الشجر ويطلّ على وادٍ به أشجار الكروم والسرو خارج سلوقية ، وكانت حيطانه مزيّنة بنقوش تمثل الملك وهو في الصيد يقتل الوحوش . وكان قصر الملك في طيسفون قريباً من النهر ، وهو الذي هدمه المعتضد والخليفة المتوكل لاستعمال أنقاضه في بناء قصر في بغداد .

---

(١) الطبري ٤ / ٨ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبي مالك .

لم يكن دخول المدائن في عصر الساسانيين مسموحاً للأجانب إلا بإذن خاص، فكان عليهم أن يتوقفوا في مدينة من خمس. فيتوقف في هيث القادمون من سوريا ، وفي المذيب الوافدون من الحجـــاز ، وفي صريفين القادمون من فارس ، وفي حلوان القادمون من بلاد الترك ، وفي الأبواب (اربند) القادمون من الخزر . وكان إيوان كسرى (قاعة العرش) هو أهم معالم المدائن .

* * *

أعجب عبور في التاريخ

ايام من صفر

تمّ اقتحـام بهرسير في صفر ١٦ هـ ، وطلب المسلمون السفن فلم يقدروا على شيء منها بعد أن حازها جميعاً الفرس إلى شاطئهم ، فاضطرّ سعد إلى الإقـامة ببهرسير أياماً من صفر يريده المسلمون على العبور وهو حريص عليهم حتى جاءه بعض الفرس فدلّوه على مخاضة يخوض منها دجـلة إلى صلب الوادي ، ولكن سعداً أبى وتردّد عن ذلك .

مياه دجلة

مياه النهرين (دجـلة والفرات) تقلّ كثيراً صيفاً وخريفاً حتى يصبح في إمكان الرجل العبور خوضاً في أماكن متعددة ، ولكنها تبدأ في الازدياد شتاءً حتى يفيض أحدهما أو كلاهما لكثرة الأمطار على منابعها بجبـال أرمينيا وكردستان . وفي الربيع تذوب الثلوج على جبال أرمينيا وتكثر السيول ويمتلىء حوض النهرين بمـا يؤدّي إلى فيضانات خطيرة تغرق البلاد ، وتنتشر الأمراض ولا سيما الملاريا [١] .

---

(١) العراق قديماً وحديثاً ٥٩ .

ونهر دجـلة صالح للملاحة بين البصرة وبغداد [بغداد شمالي المدائن] من فبراير إلى أغسطس ، للسفن التي لا يزيد غاطسها عن أربعة أقدام ، إذا استثنينا فترة الفيضان في ابريل ومايو . أما باقي شهور السنة فغير صالح للملاحة ، فيما عدا شط العرب الذي يصلح للملاحة طوال السنة حتى للسفن الكبيرة (١) .

وشهر صفر ١٦ هـ قد وافق شهر مارس ٦٣٧ م ، ولعل ذلك كان في نصفه الثاني ، فكان الزمن يسمح بالفعل بوجود مخاضات في دجلة لا سيما وأنه – شأن نيل مصر – يعترض مجراه بعض الجزر النهرية التي تظهر في التحاريق ويغطيها الفيضان ، ولكنه أيضاً زمن على أبواب الفيضان وموعده المعتاد أن يبدأ في شهر ابريل . غير أن فيضان ذلك العـــام فاجأهم مبكراً فجاء في شهر مارس ، وطمّ الماء وسعد في تردُّده – أو نقول في تريُّثه كعادته – في شأن المخاضة .

رؤيا صدق عجيبة

وأتاه رجل من المجوس فقال له (٢) :

« ما يقيمك ؟ لا يأتي عليك ثالثـــة حتى يذهب يزدجرد بكل شيء في المدائن » . ذلك أن يزدجرد شرع بنقل كنوزه وأمواله إلى عمق فارس . ونام سعد وهو مشغول الفكر بشأن العبور ، فرأى رؤيا أن خيول (٣) المسلمين تقتحم اللجّة وتعبر دجـلة وهو في فيضان عظيم . ومن المعلوم أن الخيل تعوم في الماء ، فعزم سعد على العبور وتحقيق رؤياه ، فجمع الناس وحمـــد الله وأثنى عليه ثم قال :

---

(١) الجغرافيا العسكرية للشرق الأوسط ٢٨٣ .

(٢) الطبري ٣ / ١٠ س ش س عن الوليد بن عبدالله بن أبي طيبة عن أبيه .

(٣) » ٤ / ٩ » » » عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبي مالك .

« إنّ عدوّكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون إليه معه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاؤوا فيناوشونكم في سفنهم ، وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذادتهم .

وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » .

* * *

كتيبة الأهوال

عرف المسلمون سعداً حَـــذِراً حريصاً يؤثر التؤدة دائماً ، فحين سمعوا منه عزمه على عبور دجــلة على ظهور الخيل ، عرفوا أنه اطمأنّ إلى ذلك فاطمأنوا إليه وقالوا جميعاً :

« عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل » .

فشكّـلَ سعد رأس حربة للعبور أساسها التطوّع ، فقال :

« مَن يبدأ ويحمي لنا الفراض [الشاطىء] حتى تتلاحق به الناس لكيلا يمنعوهم من الخروج ؟ » فتطوّع له ذو البأس والقوة عاصم بن عمرو ، وتطوّع بعده ستمائة من أهل النجدة ، فاستعمل سعد عليهم عاصماً .

لقـــد كان لدى سعد كتيبة شديدة المراس اسمها « الخرساء » جمت فحول فرسانه ذوي القوة والبأس الشديد والجسارة ، فيها القعقاع بن عمرو وحمــال بن مالك والربيل بن عمرو ، ولكن سعداً مع ذلك آثر أن يكون هــــذا الاقتحام تطوعاً صرفاً ليس فيه شبهة تكليف ...

وسار عاصم بكتيبته حتى وقفوا على شاطىء دجلة ، فطلب منهم متطوعين ليكونوا مقدمة لهذه المقدمة ، قال :

« مَن ينتدب معي لنمنع الفراض من عدوكم ولنحميكم حتى تعبُروا ؟ »

فتطوّع له ستون ، فجعلهم عاصم نصفين على خيول إناث وذكور ليكون أسلس لِعَوْم الخيل ، ثم اقتحم واقتحموا معه دجلة واقتحم بقيـة الستمائة على أثرهم وسائر الجيش يقف على الشاطىء مستعداً ، فكان من طليعـــة السابقين أصم بني ولاد من بني التيم والكلج الضبي وشرحبيل بن السمط وأبو مفزر الأسود ابن قطبة وحَجْل العجلي ومحفز وأبو عبيدالله ومالك بن كعب الهمداني وغلام من بني الحارث بن كعب .

كتيبة عاصم هذه عُرفت بكتيبة الأهوال . وأيّ هول أكبر من أن يقتحم دجلة في فيضانه بستمائة فارس على ظهور الخيل لينتزعوا مدائن بني ساسان من أنياب الأسد ، وهم لا يعرفون ما أعدّ الفرس لهم دفاعاً عن مدائنهم !..

* * *

معركة العبور

التحام في النهر

ورآم المجوس من الشاطىء الآخر فأعدّوا لهم مثلهم واقتحموا دجلة أيضاً وأعاموا خيلهم ليلتقوا بالمسلمين وسط النهر دفاعاً عن مدائنهم في معركة نهرية . حدث ذلك والمسلمون أقرب إلى شاطىء المدائن . وارتفع صوت عاصم في أصحابه يقول لهم :

« الرماح الرماح ، اشرعوها وتوخوا العيون » .

اختار السلاح واختار التكتيك . فالتقوا بالمجوس وتطاعنوا ، فراح جنود الأهوال ينفذون أمر عاصم وعمدوا إلى الطعن في العيون واستدار المجوس نحو شاطئهم والمسلمون يطعنون خيلهم من خلفهم برماحهم فتندفع بركابها نحو برّ المدائن لا يملك فرسانها منعها .

وكان المجوس على الشاطىء يرمون المسلمين في النهر بنشابهم فلم يصيبوا منهم غير رجل من طيء اسمه سليل بن يزيد بن مالك السنبسي[1] لم يُصَبْ يومئذٍ غيره . ولحق بهم عاصم وكتيبته إلى الشاطىء والتحموا بهم فقتلوا أكثرهم

---

(١) فتوح البلدان ٦٥١ عن عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة بن الحكم. وعن ابن عبيدة معمر بن المثنى عن أبي عمرو بن العلاء .

وهرب بعضهم عوراناً بعد أن أصيب في عينه، ثم تراجعت قواتهم عن الشاطىء ولحق سائر الستمائة بأوائلهم الستين في تلاحق لا تردُّد فيه، واستمرَّ القتال على الشاطىء حتى أتى رجل إلى المجوس فقال لهم [1] :

« علامَ تقتلون أنفسكم، فوالله ما في المدائن أحد ! »

لقد كان حرس الشاطىء بمثابة حرس مؤخرة تقاتل لتعطيل اقتحام المدائن حتى يتسنى للآخرين الهرب [2] . وفي رواية البلاذري أن ذلك العبور كان من المخاضة التي دلَّ عليها سعد عند قرية الصيادين [3] .

وفي رأينا أن العجم أخطأوا في تكتيك الدفاع عن المدائن، فلو أنهم ثبتوا على شاطئهم يقيمون غلالة من النبال يرمون بهـــا المسلمين وخيلهم في النهر لكان أجدى لهم من إقحام خيلهم لجة الماء، ولم تكن خيلهم في مستوى الخيول العربية ولا مقاتلوهم على المستوى القتالي للمسلمين، ولا معنوية هؤلاء التي تلزمهم للثبات كمعنوية هؤلاء التي تدفعهم إلى الهجوم .

ومن المعلوم في الحروب أنه يتعذر استعمال أسلحة الرمي والقذف مع أسلحة الالتحام اليدوي معاً في آن واحد . ولذلك ورغم مهـارة الفرس في استخدام القوس فإنهم لم يتمكنوا من إصابة سوى مسلم واحد، ونعتقد أن سبب ذلك هو وجود المجوس مع المسلمين في النهر في معركة تلاحم بالسلاح الأبيض يداً بيد، فكان قومهم يخشون من إصابتهم بسهامهم. ولكن ما الذي أوقع الفرس في ذلك الخطأ الفتاك ؟ لا شك أنه عامل المفاجأة الذي يشلُّ المأخوذ به عن الاتزان العصبي وعن التفكير المتزن السليم .

---

(١) الطبري ٤ / ١٣ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب .

(٢) » » » » » » » » » » » وعمرو وسعيد .

» » » وشاركهم سماك المجيمي .

(٣) لم نستطع تحديد مكان تلك القرية .

هذا وقد وقف سعد على شاطىء بهرسير والمسلمون معه قد ملأوا الساحل يرقبون كتيبة الأهوال وما تصنع . فلما رأى سعد أن عاصماً قد استولى على ساحل اسبانبر وتمكن منه أحسّ بأن مراكز الفرس على الجانب الآخر قد سقطت بأهون مما كان يتوقع ، فهذه عاصمتهم وعزّ ملكهم ، وكان ظنه أن دفاعهم عنها واستماتتهم دونها ستكون أشد مما رأى فقال :

« والله لو كانت الخرساء ، فقاتلوا قتال هؤلاء القوم هذه الخيل لكانت قد أجزأت وأغنت » [1] .

ثم أذِنَ للناس في اقتحام دجلة وقال لهم :

« قولوا نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم » .

وأقحم جند سعد خيولهم لجة دجلة وقد علا فيضانها وتلاطم موجها وهي ترمي بالزبد وقد اسودّ ماؤها مما يحمل من الطمى . وكان المسلمون في عبورهم دجلة قد اتخذ كلٌ منهم رفيقاً،فهم يمشون مَثنى مَثنى ما يكترثون وقد راحوا يتحدثون كما يتحدثون على الأرض .

في السنوات الأخيرة شغلت حركة الفتح الفرس عن رعاية شؤون دولتهم فأنهكتهم واستنزفتهم ، فعمّت المجاعة وتفشّت الأوبئة وانتشر الطاعون حتى عمّ أهل فارس . وصف الطبري طاعون عهد شيرويه الذي وقع عام ١٢ هـ - ٦٣٣ م أثناء حملة خالد فقال : « هلك فيه الفرس إلا قليلاً منهم » [2] .

وقد تجدّد هذا وعمّ أهل فارس إبان فتح [3] المدائن . قال الراوية حبيب

---

(١) الطبري ٤ / ١١ س ش س عن بدر بن عثمان عن أبي بكر بن حفص بن عمر .

(٢) « ٢ / ٢٢٩ .

(٣) فتوح البلدان ٦٤٨ .

ابن صهبان [1] : « ... حتى أكلوا الكلاب والسنانير » . فكان ذلك مما زاد الفرس بلاء .

وليس المقصود بالطاعون هنا المرض المعروف الذي تنقله البراغيث ، ولكن الطاعون عند العرب أي وباء [2] .

فزع وجلاء

كان يزدجرد يعلم يقيناً أن المسلمين يريدون العبور ، ولكن استحواذه على السفن وحرقه الجسر[3] منحه قدراً من الاطمئنان ، ثم كان يعلم أن الفيضان سوف يجعل هذا العبور المستحيل أكثر استحالة . ولكنه في الوقت نفسه صار ذا تجربة مع المسلمين ويعلم من تجاربه معهم أنهم قضاء وقدر ولا يقف في سبيلهم شيء . فكان بين هذا وذاك ، نجده يتصرّف تصرُّف المحتاط الذي يخشى تمكُّن المسلمين من مدائنه ، فلما سقطت بهرسير شرع بنقل كنوزه وأمواله ونساءه [4] وحريمه وعياله من المدائن . فجعل بيت ماله بالنهروان وأرسل عياله إلى حلوان على مسافة تزيد عن مائتي كيلومتر من المدائن . ثم نجده مطمئناً فيبقى بنفسه في قصره لم يبرحه ، وقد وكل أمر معركة المدائن إلى مهران الرازي [من الري جنوب بحر قزوين] وإلى نخيرجان [من الباب غربي بحر قزوين] ولعلهما كانا يمثلان نوعية جيش الدفاع عن المدائن. ولعل يزدجرد قدّر أن أي إجراء يتخذه سعد ليعبر دجلة لن يكون قبل شهور ، بعبارة أخرى قبل أن يجيء الفيضان ثم ينحسر ، وبعبارة ثالثة ليس قبل نهاية أغسطس ودخول شهر سبتمبر ، أي بعد ستة أشهر .

---

(١) الطبري ٤ / ٨ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبي مالك .

(٢) في مختار الصحاح : الطاعون الموت من الوباء .

(٣) فتوح البلدان ٣٦٥ .

(٤) الطبري ٤ / ١٣ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد .

ولكن هؤلاء الجبابرة من المسلمين قد فعلوها وأحدثوا معجزة جديدة من معجزاتهم في حربهم معه ، فاتخذوا من خيلهم مركبات برمائية وفاجأوه و مَن معه بما لم يكن في حسبانهم ولا خطرَ على بالهم . ونظر جنود يزدجرد إلى هذه الخيل التي ملأت دجلة وجعلوا يردّدون بالفارسية « ديوان آمد »، ويقول بعضهم لبعض : « والله ما تقاتلون الإنس وما تقاتلون إلا الجن »[1] .

هذه المفاجأة السريعة أفزعت يزدجرد حتى أنه – فيما يبدو – خشي الخروج من باب قصره ، إذ كانت واجهته شرقية ومدخله يكاد يواجه تجاه بهرسير حيث عبر المسلمون على بُعد ثلاثة كيلومترات منه ، والطريق مفتوح ... فدلاّه قومه من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض في زبيل . وإذا لم ننسَ فهذا هو الفرار الثاني ليزدجرد مختبئاً في زبيل [الزبيل : القفة أو الوعاء أو الجراب] وقد كان الأول يوم أخفَتْهُ أمه في زبيل وهرّبته حيث اختبأ عند أخواله في أصطخر حين قتل عمه شيرويه سائر أعمامه وأباه شهريار وكل مَن انتسب إلى كسرى .. فسماه النبط « برزبيلا » . ومضى يزدجرد الملك هارباً إلى حلوان ومعه وجوه أساورته ، وقد حمل معه ما استطاع مما بقي بالمدائن من بيت ماله وخزائنه وخفّ متاعه والنساء[2] والذراري . وقد ذكر الثعالبي أن يزدجرد انسحب من المدائن إلى حلوان ومعه ألف طباخ وألف مطرب وألف فهّاد وألف بازيار فضلاً عمن سواهم ، وعنده أنه في خف[3] .

حديث بين قرينين

هذا وسعد يطوي مياه دجلة وقرينه سلمان الفارسي . كان سلمان يحب سعداً جمعهما حُب في الله ورسوله وجهاد في سبيله ، وهما قرينان في هذا العبور والمياه

---

(١) الطبري ٤ / ١٤ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبي مالك – وديوان آمد بالفارسية يعني جاءت الشياطين .

(٢) فتوح البلدان ٣٤٨ .

(٣) كريستنسن ٤٨٥ .

تتلاطم وترغي وتزبد، لعلّ سلمان أن يكون قد ذكر الحديث الذي رواه هو نفسه عن رسول الله ﷺ : « إن المسلم إذا لقي أخاه فأخــذ بيده تحاتت عنهما ذنوبهما كما يتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف ، وغفر لهما ولو كانت ذنوبهما مثل زبد البحر »[1] .

والخيل تعوم بهم وسعد يقول : « ذلك تقدير العزيز العليم ، حسبنا الله ونعم الوكيل . والله لينصرنّ الله وليّه وليظهرنّ الله دينه وليهزمنّ الله عدوّه ، إنْ لم يكن في الجيش بغي أو ذنوب تغلب الحسنات » .

قال له سلمان : « الإسلام جديد . ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر . أمَا والذي نفس سلمان بيده ، ليخرجنّ منه أفواجاً كما دخلوه أفواجاً » .

وغطى المسلمون سطح الماء حتى ما عاد يُرى من الشاطىء ، وعَبَروا وهم يتجاذبون الحديث بل وهم فيه أكثر حديثاً منهم فيما لو كانوا على البر ، وخرجوا منه كما قال سلمان لم يفقدوا شيئاً ولم يغرق منهم أحد[2] .

ولقد كان أحدهم يتعب فيجد تحت أقدامه من الأرض جرثومة يريح عليها. ولذلك أسماه الرواة[3] « يوم الجراثيم » . والذي يبـــدو لنا أن الأرض رغم الفيضان لم تكن بعيدة الغور ، لا سيما والجزائر النهرية من طبيعة المكان، غطاها الفيضان فكانت استراحات لمن أجهده الأمر .

حادثان صغيران

حادث صغير يرويه أبو عثمان النهدي ، وكان شاهد عيان[4] ، قال :

---

(١) الطبراني في الكبير .

(٢) الطبري ٤ / ١١ س ش س عن بدر عن عثمان عن أبي بكر بن حفص بن عمر .

(٣) « ٤ / ١٢ و ١٣ س ش س عن القاسم بن الوليد عن عمير الصائدي وعن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد .

(٤) الطبري ٤ / ١٢ س ش عن أبي عمر دثار عن أبي عثمان النهدي .

« إنهم سلوا من عند آخرهم إلا رجلاً من بارق يدعى غرقدة زال عن ظهر فرس له شقراء كأني أنظر إليها تنفض أعرافها عرياً والغريق طاف ، فثنى القعقاع بن عمرو عنان فرسه إليه فأخذ بيده فجرّه حتى عبر ، فقال البارقي ، وكان من أشدّ الناس : « أعجزتَ الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع ! » وكان للقعقاع فيهم خئولة .

حادث آخر أصغر من هذا : كان مالك بن عامر العنزي حليف قريش قريناً لعامر بن مالك ، وكان لمالك قدح له عَلاّقة رثة باليـــة انقطعت فذهب الماء بالقدح ، فقال عامر لمالك : « أصابه القدر فطاح » . (يعني سقط) .

فقال مالك وكلّه أمل في الله حتى في قدح فقده : « والله إني لعلى جديله ، ما كان الله ليسلبني قدحي من بين أهل العسكر » .

فلما عبروا إذا رجل من كتيبة الأهوال التي تحمي الشاطىء قد سار منحدراً مع النهر حتى طلعت عليه أوائل جيش سعد وقد ضربت الرياح والأمواج القدح حتى قذفت به إلى الشاطىء ، فتناوله برمحه فجـاء به إلى العسكر فعرفه مالك فأخذه [1] وعاد يقول لعامر : « ألم أقل لك ! » .

فيما عدا ذلك تمّ العبور بلا حوادث ..

قال شهود العيان :

وفي وصف ذلك العبور يروي شاهدنا أبو عثمان النهدي فيقول : « طبقنا دجلة خيلاً ورَجْلاً ودواب حتى ما يرى الماء من الشاطىء أحد ، فخرجت بنا خيلنا إليهم تنفض أعرافها لهـا صهيل ، فلما رأى القوم ذلك انطلقوا لا يلوون على شيء ... » [2] .

---

(١) الطبري ٤ / ١٢ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد .
» ٤ / ١٣ » » الأعمش بن حبيب بن صهبان أبي مالك .
(٢) » » ٤ / ١١ » » رجل عن أبي عثمان النهدي .

وقال شاهد آخر هو قيس بن أبي حازم :

« خضنا دجلة وهي تطفح ، فلما كنا في أكثرها ماء لم يزل فارس واقفاً ما يبلغ الماء حزامه »[1] .

وأدرك أوائل المسلمين أواخر المجوس وفيهم رجل منهم يعترض على طريق من طرقها يحمي مؤخرة أصحابه في فرارهم وهو يضرب فرسه للإقدام فيحجم ، ثم يضربه للهرب فيتقاعس ، حتى لحقه رجل من جيش سعد يدعى ثقيفاً من بني عدي بن طريف فضرب عنقه وأخذ ما كان عليه[2] .

أعجلت مفاجـــأة العبور التي لم تستغرق كثيراً الفرس عن أن يحملوا معهم أكثر أموالهم ، فتركوا في خزائنهم من الثياب والمتـــاع والآنية والفضول والألطاف (التحف) والأدهان ما يفوق الحصر ولا يُدرى ما قيمته ، وتركوا وراءهم ما كانوا أعدّوا للحصار من البقر والغنم والأطعمة والأشربة ، وخرجوا هراباً لا يلوون على شيء إلا على أنفسهم .

في طرقات المدائن

واندفعت كتيبة الأهوال على رأسها بطل المسلمين عاصم بن عمرو[3] التميمي في طرقات المدائن تتبعها الكتيبة الخرساء يقودها أخوه القعقاع بن عمرو ، ومن ورائهم جيش سعد بأكمله ، فأخذوا في سككها التي أقفرت من الجند وخلت من الناس لا يلقون فيها أحداً . لم يقع سوى حادثتان[4] فرديان :

الأول : من أحد فرسان المجوس .

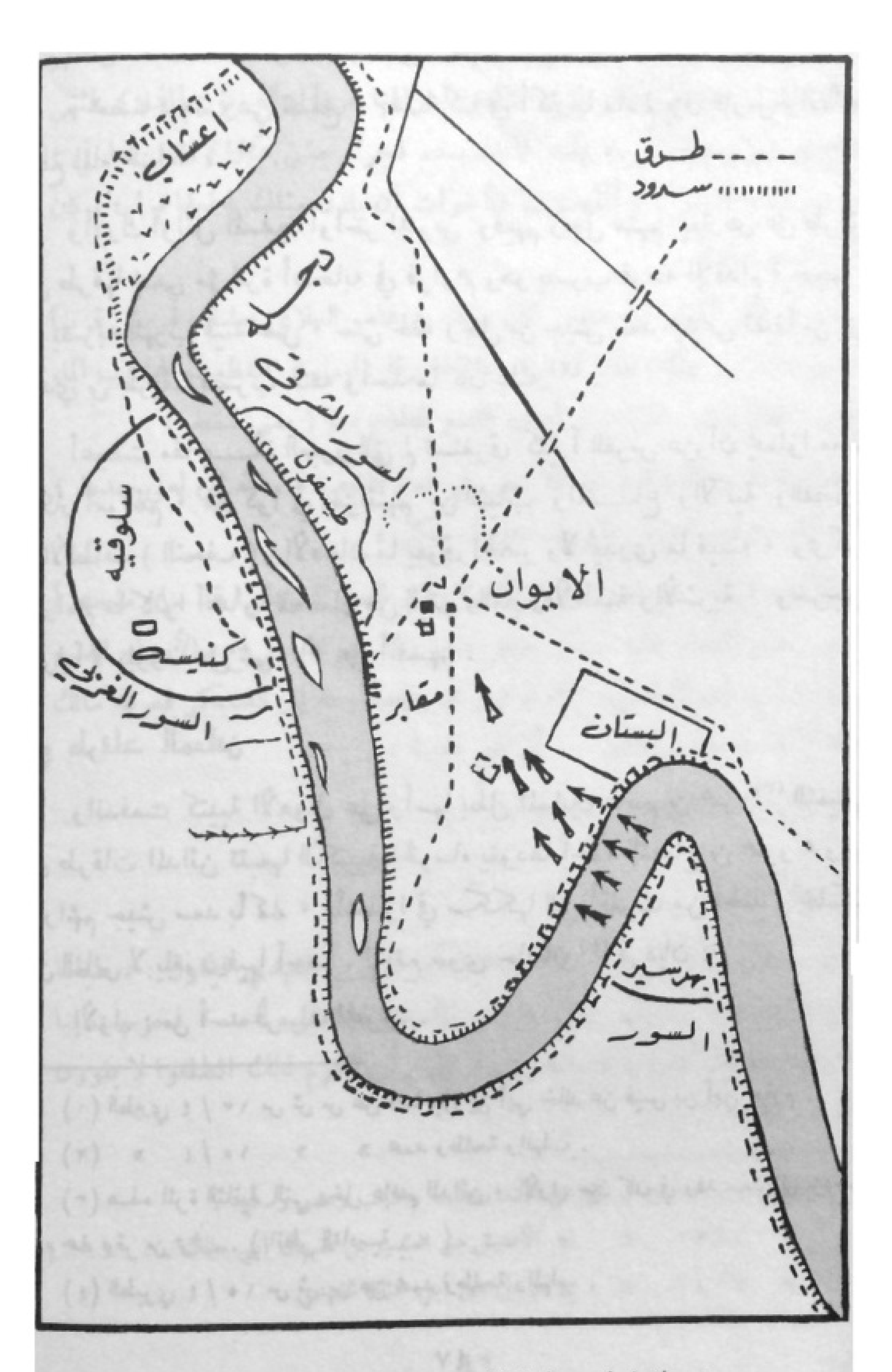
---

(١) الطبري ٤ / ١٣ س ش س عن اسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم .

(٢) « ٤ / ١٥ « « محمد وطلحة والمهلب .

(٣) هذه المرة الثانية التي دخل عاصم المدائن ، الأولى حين كان في وفد سعد إلى يزدجرد يوم حمله بوقر من تراب . (انظر القادسية ٧٦) .

(٤) الطبري ٤ / ١٥ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب .



خريطة (٤) سقوط المدائن المقياس ١ / ١٠٠,٠٠٠

قال له قومه : « دخلت العرب وهرب أهل فارس » .

فلم يلتفت إلى قولهم وكان واثقاً بنفسه فمضى حتى دخل بيت بعضهم وهم ينقلون ثياباً لهم .

قال : « ما لكم ؟ »

قالوا : « أخرجتنا الزنابير وغلبتنا على بيوتنا » .

فأصابته هستيريا وصار يرمي نشابه بقوسه فيرشقها بالحيطان حتى فرغت وأمر أحد خدمه فأسرج له دابته فانقطع حزامه فشدّه على عجل وركب ثم خرج إلى طرقات المدائن فوقف بها والمسلمون يتقدمون ، فمرّ به ابن المخارق بن شهاب فطعنه وهو يقول: «خذها وأنا ابن المخارق » فقتله ثم مضى لا يلتفت إليه.

والحادث الثاني على ألسنة رواته قالوا :

« وأدرك رجل من المسلمين رجلاً منهم معه عصابة يتلاومون ويقولون : من أي شيء فررنا ! ثم قال قائل منهم لرجل منهم: ارفع لي كرة، فرماها لا يخطىء [ويبدو أن ذلك كان اختباراً عندهم لثبات الأعصاب] فلما رأى ذلك عاج وعاجوا معه وهو أمامهم فانتهى إلى ذلك الرجل [من المسلمين] فرماه من أقرب مما كان يرمي منه الكرة ما يصيبه [من اضطراب أعصابه] حتى وقف عليه الرجل [المسلم] ففلق هامته وقال : « أنا ابن مشرط الحجارة » وتفارّ عن الفارسي أصحابه »[1] .

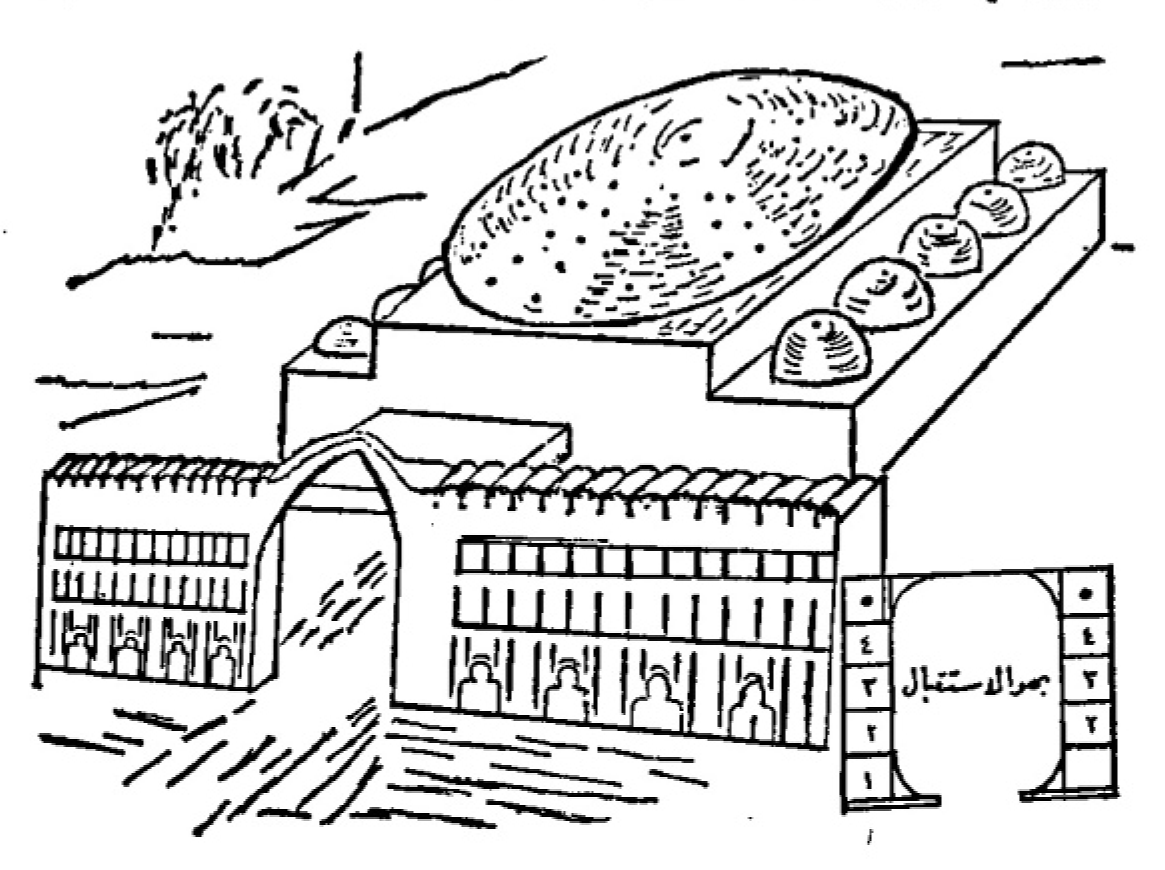
وبلغ المسلمون القصر الأبيض ، قصر كسرى الذي به إيوانه ، وجدنا صفته مما ذكر الرواة المؤرخون الذين عاصروه ومما بقي منه من أطلال وخرائب .

---

(١) الطبري ٤ / ١٠ س ش س عن سعيد بن المرزبان .

إيوان كسرى[1]

أشهر قصور الساسانيين هو القصر الأبيض الذي به إيوان كسرى أو (طاق كسرى) في أسبانير . وينسب تخريبه إلى الخليفة المنصور ١٣٨ هـ – ٧٥٤ م ،



شكل (٢) إيوان كسرى

---

(١) إيران في عهد الساسانيين ٣٧٤ – ٣٨٥ .

بعد الفتح بمائة وعشرين عاماً . والطاق هو الإيوان في ذلك القصر الذي بناه كسرى أنو شروان. وتشغل خرائب القصر الآن ٣٠٠ × ٤٠٠ متر تشمل الطاق بقايا بناء إلى الشرق منه على مسافة مائة متر تقريباً، وتلاً في جنوبه يسمى حريم كسرى ، وفي شماله خرائب أخرى ، والطاق هو الجزء الوحيد من هذه المجموعة الذي بقيت منه خرائب هامة .

الواجهة والقباب

وواجهة هذا البناء شرقية يبلغ ارتفاعها ٢٨ أو ٢٩ متراً عبارة عن حائط مصمت بلا نوافذ تزيّنه الطيقان ، وصور الأعمدة المنقوشة البارزة والعقود المصفوفة على أربع طبقات، وحائط سرّي له نظائر في المدن الشرقية التي تأثرت عمارتها بالفن اليوناني [نظنه حائطاً مزدوجاً بين جانبيه فراغ] وكانت هذه الواجهة مغطاة بالمصيص المنقوش أو بلوحات من الرخام . هذه الواجهة كلها والبهو الأكبر كانا قائمين حتى سقط الجناح الشمالي عام ١٨٨٨ م وصار الجناح الجنوبي آيلاً للسقوط .

وفي وسط الواجهة تشرف القبة البيضاوية الهائلة شاملة سمْك البناء كله وهي القبة التي تغطي بهو الاستقبال وتبلغ أبعادها ٢٥,٦٣ × ٤٣,٧٢ متراً ، وكان خلف كل من جناحي الواجهة خمسة أبهاء أقل ارتفاعاً تعلوها قباب شديدة الاستدارة يسدُّها من الخارج جدار مرتفع، والظاهر أنه كان خلف الحائط الذي يسور القصر بهو مربع في الوسط عند مخرج بهو الاستقبال وحجرتان أصغر حجماً على كلا الجانبين . وكانت الجدران والقباب جميعاً من اللَّبِن وكان سمْكها خارقاً للعادة . وقد كشفت الحفائر الحديثة عن قطع زخرفية ساسانية من المصيص .

البناء

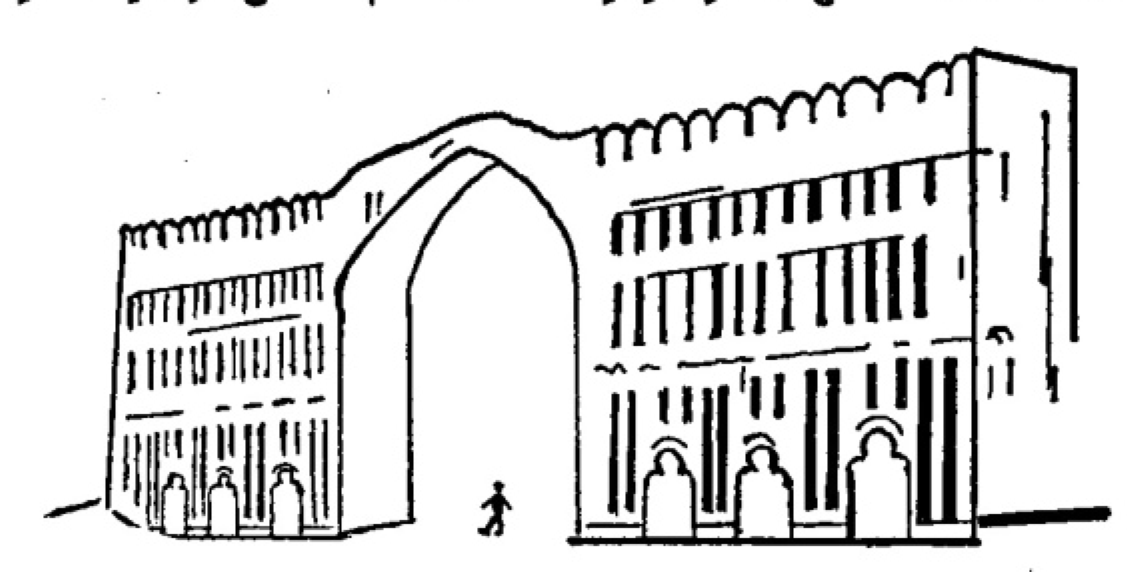
والطاق بالغ في السذاجة من حيث البناء ، ولكنه يفرض على ناظريه الإعجاب بأبعاده وضخامة أجزائه لا بجماله في جملته أو تفصيله . وكان المقام

العادي للملك .

يقول ابن خرداذبه: «ما بناء بالجص والآجر أبهى من إيوان كسرى بالمدائن».

وقال البحتري[1] يصفه :

وكأن الإيوان من عجب الصنعة   جَوبٌ في جنب أرعَنَ جِلْسِ[2]
مشمخر تعلو له شرفات   رفعت في رؤوس رَضوَى وقُدسِ[3]
ليس يُدرَى أصُنعُ إنسٍ لجنٍّ   سكنوه أم صُنعُ جنٍّ لإنسِ



شكل (٣) أطلال الإيوان ١٨٨٨ م

داخل الايوان

وكانت أرض القاعة مفروشة بالسجاجيد العظيمة ، كما كانت تُعلَّق على الجدران سجاجيد . وكانت على الأجزاء العارية من الجدران لوحات ملوّنة من

(١) ابن خرداذبه ١٦٢ .

(٢) جوب الشيء : قطع وسطه ، جوب : قطع أو نحت . أرعن : طويل الأنف . الجلس : الصخرة الشديدة، كل مرتفع من الأرض – المنجد – فهو يشبه الإيوان بأنه من عجب بنائه كأنه منحوت في صخرة شديدة عالية شاهقة في السماء .

(٣) رضوى وقدس : جبلان مرتفعان قرب المدينة .

الفسيفساء أُعِدّت بأمر كسرى أنو شروان ، ولعل صُنّاعها كانوا من الروم الذين أرسلهم الامبراطور جستليان إلى كسرى ، ومن بين هذه اللوحات ما يمثل حصار أنطاكية وما دار حولها من معارك ظهر فيها كسرى في رداء أخضر يمتطي جواداً أصفر ويستعرض صفوفاً من الجنود الفرس والروم .

وينفذ الضوء إلى هذا الإيوان من خلال مائة وخمسين كوّة في القبة يبلغ قطر الواحدة منها ما بين ١٢ و ١٥ سنتيمتراً. وكان هذا المظهر الفخم يذهل مَن يراه لأول مرة فيسجد لهيبته . وعندما يغادر الملك القاعة يلفُّ التاج المعلّق بستار من الديباج حفظاً له من التراب . وقد ظلّت الحلقة التي كانت تثبت بها السلسلة لم تنزع من مكانها حتى عام ١٨١٢ م .

التاج

وكان العرش في أقصى القاعة خلف ستار يبعد عنه عشرة أذرع (حوالي خمسة أمتار) ، وكان يقف على بُعْد من الستار كبار الضباط والنبلاء . وفجأة يرفع الستار فيظهر الشاهنشاه الجالس على وسادة من الحرير المذهّب فوق عرشه في رداء مُوَشّى بالذهب .

وكان التاج الذهبي مطعّماً بالفضة والجواهر ، منها « اليواقيت الرمانية التي يضيء منها الظلام ويستصبح بها في الليالي المرخية سدولها ، وباللؤلؤ التي يبلغ إحداها بيض العصافير والزبرجد [1] والزمرد التي تسيل لها عيون الأفاعي » .

(١) الأصل في الجواهر التبلور ثم النقاء فالشفافية مع استثناء في بعض أصنافها.. ويعد الماس والياقوت والزمرد من الجواهر الثمينة ، وغيرها يعد نصف ثمين . وتنبني قيمة الجوهر على : ١ – الجمال . ٢ – الثبات على تغير الأجواء والأزمان . ٣ – الندرة . ويتميز العقيق بلونه الأحمر ، أما الزمرد والزبرجد فهما من مادة البريل ، وهو صخر مؤلف أساساً من سلكات الألمنيوم والبريليوم ، ولونه في العادة أخضر باهت وقد يكون شديد الخضرة أو أصفر أو أزرق أو بنياً أو وردياً أو لا لون له . فالزمرد هو الأخضر العميق الخضرة من مادة البريل ، أما الزبرجد فهو الأزرق المخضر الباهت منها .

هـذا التاج كان يزن واحداً وتسعين كيلوغراماً ونصف ، ولذلك لم يكن يُلبَس على الرأس وإنمـا كان معلقاً بسلسلة من ذهب طولها سبعون ذراعاً مثبتة في قمة القبـة التي تعلو الطاق . فكان الملك يجلس في مجلسه ذلك ثم يُدخِل رأسه في التاج المعلق قبل رفع الستائر المسدلة .

وصف تيوفيلاكت Théophylacte هرمز الرابع في مجلسه[1] هذا فقال:

« كان التاج من الذهب المحلى بالجواهر ، وكان الياقوت الذي رُصّعَ به يشعُ عظمة وقد أُحيط بصف من اللآلىء كانت تلمع فوق التـاج وقد انعكس نورها المتموج على ألوان الزمرد الزاهيـة ، حتى أن العين إذا وقعت عليه كانت تقع في عُجب محيّر . وكان يلبس سروالاً مزخرفاً بالذهب منسوجاً باليد غالي الثمن ، وكان لباسه في الجملة يدلُ على الأبهة التي يتطلبها من يحب التيه » .

البروتوكول

وإذا أذِنَ الملك بدخول أحد دخل وهو يسحب من كمّه شُشتقة بيضاء نقية يغطي بها فمه لمنع أنفاسه من تلويث الأشياء ولوقاية جلال الملكية . فإذا اقترب ارتمى على الأرض أمام الملك ويبقى مُلقى إلى أن يأمره بالوقوف فيقف ويمـدُ سبابته اليمنى إلى الأمام ، وهو تقليد للاحترام كان عند الفرس ، فإذا دعاه الملك للكلام بدأ ببعض الأدعيـة المناسبة للملك ، وكانت الصيغة الشائعة أن يقول : « أنوشك بويد » يعني خلـّدك الله ، فكان المخاطب له لا يخـاطبه باسمه ولا يذكره أبداً .

وكان لمجلس الملك ثلاث طبقات :

الأولى : الأساورة وأبنـاء الملوك ، ومكانهم على عشرة أذرع من الستار (عشرين ذراعاً من العرش) .

---

(١) إيران في عهد الساسانيين ٤٤٨ .

والثانية : بطانة الملك وندماؤه ومحدثوه من أهل الشرف والعلم ، ومكانهم على عشرة أذرع من الطبقة الأولى .

والثالثة : المضحكون وأهل الهزل والبطالة ، ومكانهم على عشرة أذرع من الطبقة الثانية .

وكان الموكل بحفظ الستار رجلاً من أبناء الأساورة يقال له « خُرّم باش » ومعناها « كن مَرِحاً » ، فإذا جلس الملك في مجلسه أمر خُرّم باش رجلاً فيرتفع إلى أعلى مكان في دار الملك ويغرّد بصوت رفيع يسمعه كل مَن حضر ويقول : « يا لسان احفظ رأسك فإنك تجالس ملك الملوك » فلا يجترىء أحد أن يحرك لسانه حتى تحرك الستارة .

وكان الملوك الساسانيون يحتاطون لأنفسهم خشية الاعتداء عليهم ، فكان كثير منهم يفرش للملك منهم أربعين فراشاً في أربعين موضعاً ليس منها فراش إلا ومَن رآه من بعيد لا يشك أنه نائم فيه ولعله ألا يكون على واحد منها . ولم يكن لأحد أن يدخل غرفة الملك إلا بعد أن يُؤْذَن له حتى أولاده الصغار. وكانت عقوبة الإعدام توقع في ساحة مكشوفة بالقصر ، فيها تُقطع الرقاب والأيدي أو الأرجل أو تُسلخ الوجوه لمن استحق سخط الملك .

كم تركوا من جنات وعيون ..

سار سعد مع جيشه في طرقات خـالية وسكك خاوية بين ديار أسبانبر وبساتينها وأشجارها الباسقة ، حتى انتهى إلى إيوان كسرى درّة الديار الفارسية ورمز عزّتها ومركز قوّتها وسطوتها ، فأقبل يقرأ قوله تبارك وتعالى : « كم تركوا من جناتٍ وعيونٍ ، وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ ، ونعمةٍ كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » . وأحاط وجيشه بالقصور وفيها بقية من الفرس ، فتقدم إليهم داعية الحملة سلمان الفارسي إلى الإسلام ، قال :

« إني منكم في الأصل وأنا أرقّ لكم ، ولكم في ثلاث أدعوكم إليها :

ما يصلحكم أن تسلموا فإخواننا ، لكم ما لنا وعليكم ما علينا .

وإلا فالجزية ،

وإلا نابذناكم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .

وأمهلهم ثلاثاً . فلما كان اليوم الثالث نزلوا على أداء الجزية والدخول في ذمة المسلمين وحمايتهم . فخرجوا من القصر ودخـله سعد فصلّى في الإيوان صلاة الفتح – ولا تُصلّى جماعة – ثماني ركعات متصلات لا يفصل بينهن ، واتخـذ الإيوان مُصلّى ، وإن فيه تماثيل الجص للرجال والخيل والصور واللوحات فما حرّكها ولا أزالهـا من مكانها بل تركوها على حالها ، ولم يمتنع ولا المسلمون عن الصلاة فيه لذلك .

ولعلّ سعداً والمسلمين حين بهرتهم فخامة الإيوان وأبّهته أن عادوا بذاكرتهم وتصوّرهم إلى أعظم بيت عنـــدهم ، إلى أول بيت وُضِـعَ للناس بمكة .. إلى الكعبة بيت الله الحرام الذي يعظمونه ويحجّون إليه وتتجه إليه وجوههم مع كل صلاة خمس فرائض في كل يوم . لا بُدّ وأن يكونوا قد قارنوا بين هذا البيت وبيت كسرى ، فكيف كان بيت الله يومها ؟

فيما يروي ليث (١) :

– لم يكن للمسجد الحرام على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه جدار يحيط به . فلما استخلف عمر بن الخطاب وكثر النـــاس وسّع المسجد واشترى دوراً فهدمها وزادها فيه – وربما كان ذلك بعد فتح المدائن – .

– وهدم على قوم من جيران المسجد أبوا أن يبيعوا ووضع لهم الأثمان حتى أخذوها بعدُ ، واتخذ للمسجد جداراً قصيراً دون القامة [حوالي متراً ونصف متر] فكانت المصابيح توضع عليه . وكانت كسوة الكعبة (٢) في الجاهليـــة الأنطاع ، وهي البُسط من الجلد والأغطيـــة ، فكساها رسول الله ﷺ الثياب اليمانية ، ثم كساها عمر وعثمان رضي الله عنهما القباطي(٣) .

الاقامة بالمدائن

وعزم سعد على الإقـــامة بالمدائن ، فأتمّ الصلاة يوم دخلها – وكانوا قبل

---

(١) فتوح البلدان ٥٣ عن عفان والعبـــاس بن الوليد النرس عن عبد الواحد بن زياد عن ليث .

(٢) فتوح البلدن ٥٤ .

(٣) بعـــد ذلك وسعه عثمان بن عفان توسعة أخرى واتخذ له الأروقة ، ثم وسعه الوليد بن عبد الملك في عهد بني أمية وحمل إليه عمد الحجارة والرخام والفسيفساء وشملته توسيعات أخرى بعد ذلك . وقد كساها يزيد بن معاوية بعد ذلك الديباج الخسرواني .

ذلك يقصرون — ثم كانت أول صلاة جمعة بالعراق جمعت جماعة بالمدائن في صفر ١٦ هـ .

وتقديرنا أنها الجمعة التي صادفت ١٩ صفر ١٦ هـ — ٢١ مارس ٦٣٧ م ، أو التي تليها ٢٦ صفر ١٦ هـ — ٢٨ مارس ٦٣٧ م ، وهي الأرجح عندنا باعتبارها الأقرب إلى موسم الفيضان الطبيعي لدجلة .

وبعث سعد إلى عمر بالفتح مع حليس بن فلان الأسدي .



غنائم المدائن

مطاردة

نزل سعد إيوان كسرى ثلاثة أيام. ومع نزوله أمر زهرة أن يخرج في المقدمة لمطاردة الفلول وجمع الأنفال التي فرّوا بها ، وأمره أن يبلغ النهروان وكل وجه على مقدارها [1].وكان أهل المدائن عند الهزيمة قد تناهبوا ثم فرّوا في كل وجه. وانسحب مهران بمعسكره إلى النهروان فعسكر بها .. ووكل سعد أمر الأقباض إلى عمرو بن عمرو بن مقرن المزني وأمره بجمع ما في القصر والإيوان والدور وما يأتيه به الذين خرجوا في طلب الفرار وملاحقتهم ، وإحصاء ذلك كله ، فما أفلت أحد منهم بشيء ولا بخيط إلا ما كان في معسكر مهران بالنهروان . وقد ألحّ عليهم المطاردون حتى استنقذوا كل ما في أيديهم ورجعوا بما أصابوا من الأقباض فضمّوه إلى ما قد جمعوه ، وكان أول شيء جُمِع يومئذٍ ما في القصر الأبيض ومنازل كسرى وسائر دور المدائن . وبعد اليوم الثالث تحوّل سعد من الإيوان إلى القصر الأبيض . ولنترك وصف ما جمعوا من غنائم الحرب للرواة الذين شهدوها يحكوها لنا بأسلوبهم ، فهم مراسلونا من وراء الزمن .

---

(١) الطبري ٤ / ١٥ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعقبة وعمرو وابن عمر وسعيد . (والمقصود بـ س ش س حيثما ترد هي جملة الطبري : كتب إلى السري عن شعيب عن سيف).

قال الشهود :

قال حبيب[1] بن صهبان : « دخلنا المدائن فأتينـــا على قباب تركية مملوءة سلالاً مختمـة بالرصاص فما حسبناها إلا طعاماً فإذا هي آنية الذهب والفضة ، فقُسمَت بعدُ بين الناس ... وقد رأيت الرجل يطوف ويقول : مَن معه بيضاء بصفراء [يعني فضة بذهب ــ كأنما يبحث عن الفكة ، الفراطة] . وأتينــا على كافور كثير فما حسبناه إلا ملحاً فجعلنا نعجن به حتى وجـدنا مرارته في الخبز » .

وقال الشعبيّ : « جعل المسلمون يأخذون الكافور يومئذٍ فيلقونه في قدورهم ويظنونه ملحاً »[2] .

وقال الرفيل بن ميسور [3] : « خرج زهرة في المقـدمة يتبعهم حتى انتهى إلى جسر النهروان وهم عليه فازدحموا فوقع بغـــلٌ في الماء فعَجِلوا وكَـلِبُوا عليه ، فقال زهرة : إني أقسم بالله إن لهذا البغل لشأناً ، ما كَـلِبَ القومُ عليه ولا صبروا للسيوف بهذا الموقف الضنك إلا لشيء بعـدُ ما أرادوا تركه . وإذا عليه حلية كسرى: ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي كان فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة. وترجّل زهرة يومئذٍ حتى إذا أزاحهم أمر أصحابه بالبغل فاحتملوه فأخرجوه [من الماء] فجاؤوا بمـــا عليه حتى ردّه إلى الأقباض ما يدرون ما عليه ، وارتجز يومئذٍ زهرة :

فدى لقومي اليوم أخوالي وأعمامي
هم كرهوا بالنهر خـــذلاني وإسلامي

---

(١) الطبري ٤ / ١٧ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان .

(٢) فتوح البلدان ، قال : حدثنا عبدالله بن صالح قال : حدثني من أثق به عن المجـــالد ابن سعيد .

(٣) الطبري ٤ / ١٧ س ش س عن النضر بن السري عن ابن الرفيـل عن أبيه الرفيل ابن ميسور .

هم فلجوا بالبغـــل في الخصام
بكل قطاع شؤون الهـــام[1]
وصرّعوا الفرس على الآكام
كأنهم نـغنم من الأنعـــام

وقال الكلج الضبي[2] :

« كنت فيمن خرج في الطلب فإذا أنا ببغّالَين [اثنين يسوقان البغال] ، قد ردّا الخيل عنهما بالنشاب فما بقي معهما غـــير نشابتين ، فألظظت بهما[3] ، فاجتمعا فقال أحدهما لصاحبه : ارمِهِ وأحميك أو أرميه وتحميني ، فحمى كل منهما صاحبه حتى رميـــا بها . ثم إني حملت عليهما فقتلتهما وجئت بالبغلين وما أدري ما عليهما حتى أبلغتهما صاحب الأقباض ، وإذا هو يكتب مـا يأتيه به الرجال وما كان في الخزائن والدور ، فقال : على رسلك حتى ننظر ما معك ، فحططت عنهما فإذا سفطان على أحد البغلين فيهما تاج كسرى مفسخاً ، وكان لا يحمله إلا اسطوانتان وفيهما الجوهر ، وإذا على الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديبـــاج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر ، وغير الديباج منسوجاً ومنظوماً » .

وخرج القعقاع بن عمرو[4] يومئـــذٍ في الطلب فلحق بفارسي يحمي الناس فاقتتلا فقتله وإذا مع المقتول جنيبة عليها عيبتان[5] وغلافان في أحدهما خمسة

---

(١) فلج الشيء : شقه ، وفلج الرجل : فاز على خصمه . الشؤن : موصل أو ملتقى قبائل الرأس ، والشؤون : العرق الذي تجري منه الدموع – المنجد .

(٢) الطبري ٤ / ١٧ س ش س عن هبيرة بن الأشعث عن جده الكلج .

(٣) لاظه لظاظاً في الحرب : ألح عليه . لظه لظاً ولظيظاً : ألزمه وثابر عليه . تلاظ القوم في الحرب : تطاردوا – المنجد .

(٤) الطبري ٤ / ١٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب .

(٥) الجنيبة : الدابة تقودها إلى جنبك . والعيبة : الزنبيل من جلد – المنجد .

أسياف وفي الآخر ستة أسياف . وإذا في العيبتين أدراع ، فإذا في الأدراع درع كسرى ومغفره وساقاه وساعداه ، ودرع هرقل ودرع خاقان ودرع داهر ودرع بهرام جوبين ودرع سياوخش [الذي قتل فرخزاذ أبا رستم بتواطؤ مع آزرميدخت] ودرع النعمان [بن المنذر] وكانوا استلبوا ما لم يرثوا ، استلبوها أيام غزاتهم خاقان وهرقل وداهر ، وأما النعمان وبهرام فحين هربا وخالفا كسرى. وأما أحد الغلافين ففيه سيف كسرى [أنو شروان] وهرمز [الرابع ابن كسرى] وقباذ [الثاني ، وهو شيرويه بن كسرى أبرويز ، توفي أثناء حملة خالد بن الوليد مع فتح الحيرة] وفيروز . وإذا السيوف الأُخَر سيف هرقل وخاقان وداهر وسياوخش والنعمان ... فجاء به إلى سعد فقال : « اخترْ أحد هذه الأسياف ، فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام ، وأما سائرها فنفلها في الكتيبة الخرساء – التي كان سعد يعجب بها أيما إعجاب – إلا سيف كسرى والنعمان ليبعثوا بها إلى عمر لمعرفتهم بها ، وحبسوهما في الأخماس، وحلي كسرى وتاجه وثيابه ، ثم بعثوا بذلك إلى عمر ليراه المسلمون ولتسمع بذلك العرب . وعلى هذا الوجه سلب خالد بن سعيد عمرو بن معدي كرب سيفه الصمصامة في الردة [يعني استولى عليه وغنمه] والقوم يستحيون من ذلك .

وقال عصمة بن الحارث الضبي [1] : « خرجت فيمن خرج يطلب ، فأخذت طريقاً مسلوكاً وإذا عليه حَمّار [يسوق حِمَاراً] فلما رآني حثّه فلحق بآخر قُدّامه ، فمالا وحثّا حماريهما فانتهيا إلى جدول قد كسر جسره فثبتا حتى أتيتهما ثم تفرّقا ، ورماني أحدهما فألظظت به فقتلته وأفلت الآخر . ورجعت إلى الحمارين فأتيت بهما صاحب الأقباض فنظر فيما على أحدهما فإذا سفطان في

(١) الطبري ٤ / ١٨ س ش س عن عبيدة بن معتب عن رجل من بني الحارث بن طريف عن عصمة بن الحارث الضبي .

أحدهما فرس من ذهب مسرج بسرج من فضة على ثفره [١] ولببه اليـــاقوت والزمرد منظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلـّل بالجوهر، وإذا في الآخر ناقة من فضة عليها شُلـَيـْل [٢] من ذهب وبطان من ذهب ولها شناق [٣] أو زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت ، وإذا عليه رجـــل من ذهب مكلـّل بالجوهر كان كسرى يضعها إلى اسطوانتي التاج » .



---

(١) الثفر : السير الذي به مؤخر السرج . استثفر الكلب بذنبه : جعـــله بين فخذيه . استثفر المصارع بثوبه : ثنى طرفه فأخرجه من بين فخذيه وحرزه في حجزته – المنجد .

(٢) الشليل : مسح من صوف أو شعر يجعل على عجز الدابة من وراء الرجل ، وهي الدرع الصغيرة تحت الكبيرة أو الغلالة تلبس تحت الدرع – المنجد .

(٣) الشناق : حبل يجذب به رأس البعير وكل خيط علقت به شيئاً – المنجد .

سمو وأمانة

وقال أبو عبيدة العنبري [1] : لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض أقبل رجلٌ بحِقٍّ معه فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال والذين معه : ما رأينا مثل هذا قط ، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه . فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟

فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به .

فعرفوا أن للرجل شأناً ، فقالوا : مَن أنت ؟

فقال : لا والله لا أخبركم لتحمدوني ولا غيركم ليقرظوني ، ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه .

فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه فسأل عنه فإذا هو عامر بن عبد قيس.

وأصاب المسلمون بالمدائن فيلاً [2] ، وقد كانوا قتلوا ما لقيهم قبل ذلك من الفيَلة ، فكتبوا فيه إلى عمر، فكتب إليهم أن يبيعوه « إن وجدتم له مباعاً » ، فاشتراه رجل من أهل الحيرة ، فكان عنده يُريه الناس ويجلله ويطوف به في القرى . استولى المسلمون على ذلك كله وعلى أكثر منه مما بقي في بيوت كسرى

---

(١) الطبري ٤ / ١٩ س ش س عن هبيرة بن الأشعث عن أبي عبيدة العنبري .

(٢) فتوح البلدان ١٢٨ عن أبي مسعود الكوفي عن يحيى بن سلمة بن كهيل الحضرمي عن مشايخ من أهل الكوفة .

وقصوره من الثلاثة آلاف مليون درهم التي كان كسرى برويز جمعها وممـا جمع شيرويه ومَن بعده .

وفي ذلك يقول أبو بجيد نافع بن الأسود :

وأسلنا على المدائن خيـــلا بحرها مثـــل برهن أريضا
فانتثلنا خزائن المرء كسرى يوم ولوا وحاص منا جريضا[2]

وقال الشعبي : « أخـــذ المسلمون يوم المدائن جواري من جواري كسرى جيء بهنّ من الآفاق فكنّ يصنعنَ له ، فكانت أمي إحداهن » [3] .

وقال جابر بن عبدالله [4] صحابي النبي ﷺ :

« والله الذي لا إله إلا هو ما اطلعنـــا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة . ولقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كالذي هجمنا عليه من أمانتهم وزهدهم : طليحة بن خويلد وعمرو بن معدي كرب وقيس بن المكشوح » .

وقال سعد بن أبي وقاص[5] :

« والله إن الجيش لذو أمــانة ، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت وايم الله على فضل أهل بدر. لقد تتبعت من أقوام منهم هنات وهنات فيما أحرزوا ما أحسبها ولا أسمعها من هؤلاء القوم » .

---

(١) الطبري ٤ / ١٤ س ش س عن الأعمش عن حبيب بن صهبان أبي مالك .
(٢) حاص: هرب. جرض بريقه: ابتلعه بالجهد على هم وحزن. جرضه جرضاً: خنقه. الجرض والجريض : الريق يغص به ، ومنه المثل : حال الجريض دون القريض . أفلت فلان جريضاً : أي مشرفاً على الهلاك — المنجد .
(٣) فتوح البلدان ٢٦٥ عن عبدالله بن صالح قال: حدثني من أثق به عن الجالد بن سعيد.
(٤) الطبري ٤ / ١٩ س ش س عن مبشر بن الفضيل عن جابر بن عبدالله .
(٥) » » » » عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد .

تقسيم الأنفال

وكان الذي وَلِيَ قسمة ذلك بين المجاهدين سلمان بن ربيعة الباهلي . وجمع سعد الخمس وأدخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر ، من ثياب كسرى وحليه وسيفه ونحو ذلك ، وما كان يعجب العرب أن يقع إليهم . ونفل من الأخماس ، وفضل بعد القسم بين الناس وإخراج الخمس القطف [1] ، وهو بساط كسرى لم يعتدل قسمته ، فجمع سعد المسلمين وقال لهم : إن الله قد ملأ أيديكم . وقد عسر قسم هذا البساط ولا يقوى على شرائه أحد، فأرى أن تطيبوا به نفساً لأمير المؤمنين يضعه حيث شاء . هل لكم في أن تطيب أنفسنا عن أربعة أخماسه فنبعث به إلى عمر فيضعه حيث يرى ، فإنا لا نراه يتفق قسمته ، وهو بيننا قليل وهو يقع من أهل المدينة موقعاً .

فقالوا : « نعم هاء الله إذا » .

فبعث به على ذلك الوجه . وكان الذي ذهب بأخماس المدائن إلى المدينة بشير بن الخصاصية . فلما قدِمَ على عمر نفل من الخمس أناساً وقال :

« إن الأخماس ينفل منها مَن شهد ومَن غاب من أهل البلاء فيما بين الخُمُسَين ولا أرى القوم جهدوا الخمس بالنفل » .

---

(١) أوردنا وصفاً له في « الطريق إلى المدائن » ١٢٨ .

ثم قسم الخمس في مواضعه حتى جاء إلى القطف ، فقال :

« أشيروا عليّ في هذا القطف » .

فأجمع مَلَؤُهم على أن قالوا : « قد جعلوا ذلك لك فرَ رأيك » .

إلا ما كان من علي بن أبي طالب فإنه قام حتى انتهى إلى عمر وقال له :

لمَ تجعل علمك جهلاً ويقينك شكاً ؟ يا أمير المؤمنين ، الأمر كما قالوا ولم يبقَ إلا التروية ، إنه ليس لك من الدنيا إلا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت ، إنك إنْ تقبله على هـذا اليوم لم تعدم في غد من يستحق به ما ليس له .

قال : « صدقتني ونصحتني » .

فقطعه بينهم ، فأصاب علياً قطعة منه وما هي بأجود تلك القطع ، فباعها بعشرين ألفاً [١] !

وأكثرَ مسلمو المدينة في فضل أهل القادسية ، فقال عمر :

« أولئك أعيـان العرب وغررها ، اجتمع لهم مع الأخطار الدين ، هم أهل الأيام وأهل القوادس » .

ولما أتي بحلي كسرى وزيّه في المباهاة وزيّه في غير ذلك ، وكانت له عدة أزياء لكل حالة زيّ ، قال عمر : « عليّ بمُحَلّم » ، وكان أجسم عربي يومئذ بأرض المدينة ، فألبس تاج كسرى على عمودين من خشب ، وصبّ عليه أوشحته وقلائده وثيابه ، وأجلس للناس ، فنظر إليه عمر ونظر إليه الناس فرأوا أمراً عظيماً من أمر الدنيا وفتنتها ، ثم قام عن ذلك فألبِسَ زيّه الذي يليه فنظروا إلى مثل ذلك في كل نوع حتى أتوا عليها كلها ، ثم ألبسه سلاحه وقلّده سيفه فنظروا إليه في ذلك ثم وضعه ..

قال عمر : « والله إن أقواماً أدّوا هذا لذوو أمانة » .

---

(١) الطبري ٤ / ٢١ س ش س عن محمد وطلحة وزياد والمهلب وشاركهم عمرو وسعيد .
« ٤ / ٢٢ « عن عبد الملك بن عمير .

ونفل سيف كسرى محلماً وقال : « أحمق بامرىء من المسلمين غرّته الدنيا . هل يبلغن مغرور منها إلا دون هذا أو مثله ؟ وما خير امرىء سبقه كسرى فيما يضرُّه ولا ينفعه ! إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتي عن آخرته ، فجمع لزوج امرأته أو زوج ابنته أو امرأة ابنه ولم يقـــدم لنفسه ، ووضع الفضول مواضعها تحصل له وإلا حصلت للثلاثة بعـده . وأحمق بمن جمع لهم أو لعدوّ جارف »[1] .

ورأى عمر سيف النعمان بن المنذر ، فسأل جبيراً :

« إلى مَن كنتم تنسبون النعمان ؟ »

فقال جبير : « كانت العرب تنسبه إلى الأشلاء أشلاء قنص ، وكان أحد بني عجم بن قنص » [فجهل الناس عجم وقالوا لخم وعُرف قومه باللخميين] .

فقال : « خذ سيفه » . ونفله إياه[2] .

وولى عمر سعد بن أبي وقاص إمامة الصلاة وشؤون الحرب لكل مـا غلب عليه . وولى خراج ما سقى الفرات سويد بن مقرن المزني ، وخراج ما سقى دجلة النعمان بن مقرن المزني ..

وفي « نهـاية الأرب في أخبار الفرس والعرب » ، وهو مؤلّف عربي كتبه مجهول في حوالي النصف الثـاني من القرن الحادي عشر الميلادي ، أن عمر علق التاج على الكعبة ، ثم يقول المؤلف : « حيث يوجد اليوم »[3] . ولم نعثر على أية روايات أخرى عن مصير ذلك التاج ، ولكن أحداً آخر خلاف ذلك المؤلف المجهول لم يذكر تعليق التـاج على الكعبة ، ولو كانت صحيحة لـذَكرها أمثال الطبري وابن الأثير وابن كثير والبلاذري .

---

(١) الطبري ٤ / ٢٢ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد .

(٢) « ٤ / ٢٣ « عن محمد بن كريب عن نافع بن جبير .

(٣) إيران في عهد الساسانيين .

معركة جلولاء

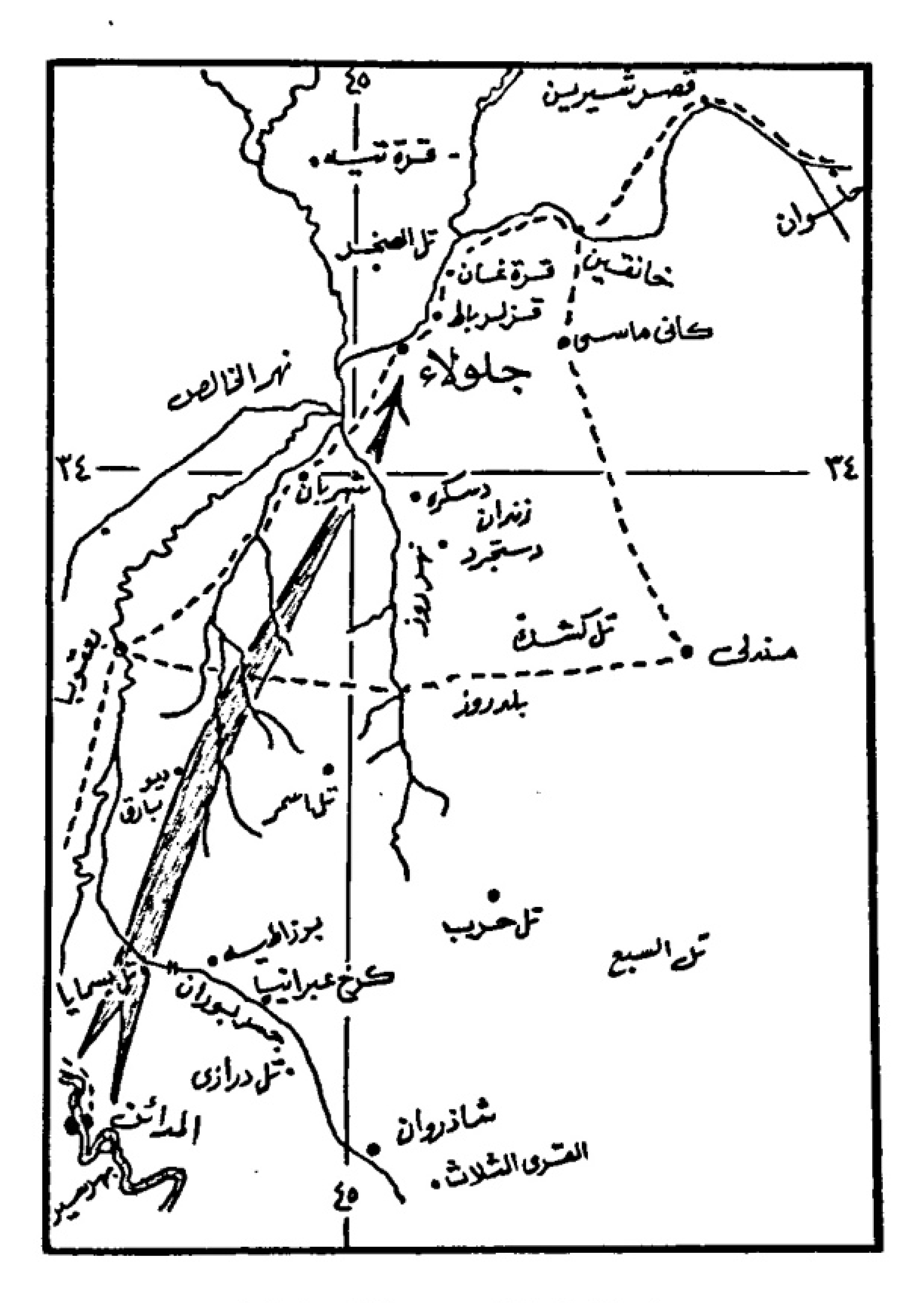
الأحد أول ذي القعدة ١٦ هـ - ٢٤ نوفمبر (تشرين الثاني) ٦٣٧ م

استعداد فارسي جديد

حلوان عاصمة مؤقتة

ما أن استقرّ سعد بالمدائن وأوطنها المسلمين حتى أتاه الخبر بأن مهران الرازي قد عسكر بجلولاء على مسافة ١٥٠ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي ، وهي على النهر العظيم الذي تسير فيه السفن بين بعقوبا إلى باجسرا ، وأنه قد تحصّن بها وحفر الخنادق ، وجعل عيالهم وأهليهم وأثقالهم بخانقين على حوالي ثلاثين كيلومتراً خلفهم ، وتعاهدوا ألاّ يفرّوا [1] ، وأن أهل الموصل [على حوالي ٤٥٠ كيلومتراً إلى الشمال] قد قدّموا قواتهم بقيادة الأنطاق ، فعسكرت بتكريت [2] على نهر دجلة إلى الشمال بمسافة ٢٢٠ كيلومتراً من المدائن . ذلك

(١) فتوح البلدان ٣٠٥ .
(٢) الطبري ٤ / ٢٤ س ش س عن اسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم .
» » » » الوليد عبدالله بن أبي طيبة البجلي عن أبيه .
» » » » محمد وطلحة والمهلب وزياد وعمرو وسعيد .
» ٤ / ٢٥ » » عقبة بن مكرم عن بطان بن بشر .



خريطة (٥) جلولاء — ١ المقياس ١ / مليون

أنه بعد فرار الفرس من المدائن اختار يزدجرد حلوان مقرّاً جديداً له ، وهي تبعد عن المدائن أكثر من ٢٢٠ كيلومتراً إلى شمالها الشرقي .

دفاعات في جلولاء

وقد كان هناك طريق حربي واسع يذهب من المدائن إلى همدان ، تقع عليه دستجرد (أو دسكرة) على مسافة ١٠٧ كيلومترات من المدائن[1] ، وكان بها قصر كسرى برويز الذي سقط في يد هرقل وخرّبه عام ٦٢٨ م قبل الفتح الاسلامي ، وما زالت هناك خرائب إلى اليوم تسمى زندان [يعني السجن] ، وكان لهذه المدينة سور محيط مُشيَّد من الآجر الأحمر وكان كله قائماً أيام الجغرافي المسلم ابن رسته حوالي عام ٩٠٣ م ، ولم يبقَ اليوم من هذا السور غير جزء طوله نحو خمسمائة متر مع اثني عشر برجاً في حالة حسنة وأربعة مهدّمة . أما داخل السور فكان خلواً من الخرائب منذ أيام ابن رسته ، وهـذا ما يفسره تخريب المدينة والقصر على يد هرقل . ونذهب إلى أن هـذا هو السبب في أن يزدجرد لم يتوقف في دستجرد وإنما آثر أن ينزل حلوان وأن يترك جيشه في جلولاء .

وبعد هذا نجد على نفس ذلك الطريق الحربي بين خانقين وحلوان « قصر شيرين » [حبيبة كسرى برويز وجدة يزدجرد لأبيه] ، وهو الآن خرائب . وما زالت هناك قلعة مربعة تسمى قلعة خسروان أحاط بها خندق وعليها أبراج مستديرة وجسر من العقود ، والساحة التي تشرف عليها القلعـة تشمل متنزهاً عظيماً تمرُّ المياه فوق حيطانه ، كما يشمل قصراً صيفياً منيفاً اسمه حاجي قلعة سي [أو قلعـة الحاج] وعمارة عظيمة تسمى جهار قابو [الأبواب الأربعة] يظهر أنهـا كانت تشبه إلى حدٍّ ما قصر المدائن . وجميع العمارات الساسانية كانت ذات قباب ، وكان هناك عمارات أكثر خفة ، وخاصة في العراق ، كانت ذات عمد من الخشب .

---

(١) إيران في عهد الساسانيين ٤٣٨ .

ترك يزدجرد ذلك كله وراءه ، بينه وبين المسلمين .

وبطبيعة الحال ، لم يكن الفرس ليتركوا الطريق من المدائن إلى حلوان مفتوحاً ، فاختاروا جلولاء مكاناً لوقفة أخرى ، وأمدّهم يزدجرد بالرجال والأموال . وصلت القوات الفارسية المنسحبة وكذلك الإمدادات إلى جلولاء ، وكانت وحدات من شتى جهات المملكة ، منها ما كان من آذربيجان ، ومنها ما كان من الباب [غربي بحر قزوين] ، ومنها ما كان من الجبال [بين سهول العراق وهضبة إيران حيث تقع حلوان نفسها] ، ومنها ما كان من عمق فارس شرقي الأهواز . هذه القوات جميعاً في انسحابها نحو مستقبل مظلم مجهول بعد ما لاقت من هزائم متكررة، كان كل منها يميل إلى الانسحاب نحو موطنه الأصلي، وقد ظهر لنا ذلك من قبل إثر معركة بابل ، إذ آثر هرمزان أن ينسحب نحو موطنه بالأهواز ومهرجان قذق كما انسحب فيرزان إلى طريق نهاوند والماهين ، ولم يشاركا في معركة المدائن التي كانت ولا شك أم من الأهواز . والآن وبعد أن بلغت جنود يزدجرد هذا المبلغ في تقهقرها يوشك ذلك أن يتكرر فيحدث تفتت جديد . قال بعضهم لبعض : « إن افترقتم لم تجتمعوا أبداً ، وهذا مكان يفرق بيننا ، فهلمّوا فلنجتمع للعرب به ولنقاتلهم ، فإن كانت لنا فهو الذي نريد ، وإن كانت الأخرى كنا قد قضينا وأبلينا عذراً » .

كان ذلك بجلولاء . أما أولئك الذين عسكروا بتكريت فهم جند الموصل وفدوا من الشمال . وغير هؤلاء وهؤلاء كانت للعجم مسالح في الأبلة وأسفل دجلة وراءهم على البعد هرمزان بالأهواز .

خطة عمر

كتب سعد بذلك إلى عمر وجاءه جوابه :

« سرِّحْ هاشم بن عتبة إلى جلولاء في اثني عشر ألفاً واجعلْ على مقدمته القعقاع بن عمرو وعلى ميمنته سعر بن مالك وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن

عتبة ، واجعل على ساقته عمرو بن مُرّة الجهني (١) .

وإنْ هزم الله الجندين : جنـد مهران وجند الانطاق [الذين بتكريت] ، فقدّم القعقاع في آثارالقوم حتى ينزل بحلوان ويكون بين السواد والجبل فيكون ردءاً للمسلمين ويحرز الله لكم سوادكم » .

هاشم امام جلولاء

ويبدو لنا أن مسؤولية القائد مهران كانت أوسع من منطقة جلولاء، ولعلها شملت جميع قوات الفرس التي كانت بين يزدجرد والمدائن . وكان قـائد فرسان المجوس في جلولاء خرزاذ أخو رستم . وخرج هـــاشم من المدائن في اثني عشر ألفاً (٢) . وكان في المسلمين وجوه المهاجرين والأنصار وأعلام العرب ممّن ارتدّ وممّن لم يرتدّ . وسار بهم هاشم من المدائن أربعة أيام حتى بلغوا جلولاء فأحاط

---

(١) ذكر البلاذري تعبئة أخرى ، فقال : حجر بن عدي الكندي على الميمنة ، وعمرو بن معدي كرب على الخيل ، وطليحة بن خويلد على الرجال – فتوح البلدان ٣٠٣ .

وقد أخذنا برواية الطبري ورجحناها ، إذ المعلوم أن جيش المسلمين صار منذ القادسية فرساناً كله لا رجالة فيه، ولما رواه الطبري في قوله : « كان أبو بكر لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردة حتى مات . وكان عمر قد استعان بهم فكان لا يؤمر منهم أحد إلا على النفر وما دون ذلك ، وكان لا يعـــدل أن يؤمر الصحابة إذا وجد من يجزي عنه في حربه ، فإن لم يجد ففي التابعين بإحسان ، ولا يطمع من انبعث في الردّة على الرئاسة ، وكان رؤساء أهـل الردة في تلك الحروب حشوة إلى أن ضرب الاسلام بجرانه (الطبري ٤ / ٢٥ عن عمرو وعن الشعبي) » .

وقد كان عمرو بن معدي كرب وطليحة بن خويلد من أصحاب الردة ، ولكن الثـابت أنهما كانا مع قوات المسلمين بجلولاء .

(٢) يقول الرواة عمرو ومحمد والمهلب وطلحة وسعيد (الطبري ٤ / ٢٥) أن خروج هاشم من المدائن كان في صفر ١٦ هـ . ومن حيث كان فتح بهرسير ثم فتح المدائن في ١٦ هـ ، وتقول الرواية أن سعداً كتب بعدها إلى عمر وجاءه منه رد ، وهـذا يستغرق لا أقل من شهر ، فإننا نقدر خروج هاشم من المدائن إلى جلولاء لا بد وأن يكون قد تجاوز شهر صفر إلى ربيع الأول أو الثاني ١٦ هـ – ابريل أو مايو ٦٣٧ م .

بها وحاصر المجوس فيهـا وطاولوه فكانوا لا يخرجون من استحكاماتهم إلا إذا أرادوا . كان المجوس يزاحفون المسلمين بأعداد كبيرة وبجلبة وأهاويل ، وقد وقع أثناء هذا الحصار ثمانون زحفاً كان الظفر فيها جميعاً للمسلمين ، ويعود المجم إلى ما وراء خنادقهم . واستمر الحصار على هذه الحال سبعة أشهر أو يزيد .

كان يزدجرد يحشد من أهل الجبال من حول حلوان ويمـد قواته في جلولاء بأمداد جديدة في كل يوم . فطلب هاشم مدداً من سعد فأمدّه بثلاث دفعات من الفرسان كل منها مائتين فيهم فحول فرسان المسلمين ، هـــذا وزحوف المجوس مستمرة تصطدم بالمسلمين ثم ترتدّ إلى استحكامات جلولاء . هذه الاستحكامات قامت على خندق كبير متسع وعميق حفره المجوس حول مواقعهم يحوطه حزام من حسك الخشب ، وهي خوازيق من الخشب قد نصبوها كموانع لاندفاع الخيل ، بين الخندق ونطاق الحسك مجال خالٍ . وقد جعلوا خلال الخندق وحزام الحسك طرقاً لهم يخرجون منها ويدخلون .

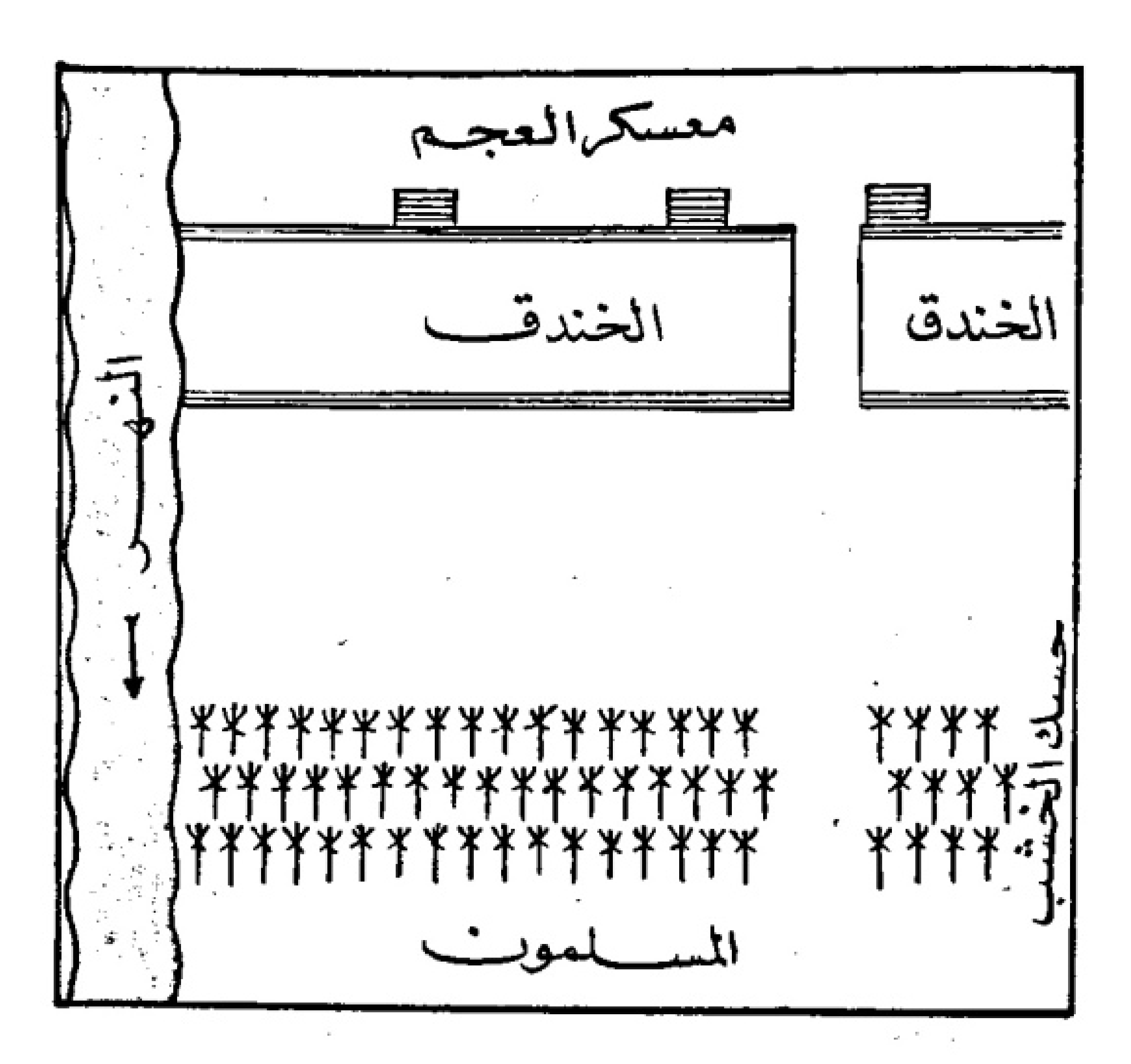
الاشتباك الأخير

وخرج المجوس في زحف كبير من العدد والعدّة ، وكان هو الأخير ، فقام هاشم في جنده وخطبهم فقال :

« إن هذا المنزل منزل له ما بعده ، أبلوا الله بلاءً حسناً يتمّ لكم عليه الأجر والمغنم ، واعملوا لله » .

وكان الالتحام شديداً لم يقتتلوا مثـله ، رمياً بالنبل [1] وطعناً بالرماح حتى تقصفت ، فاستلّوا السيوف وتجالدوا بها حتى انثنت . ثم انهزم المجوس وتراجعوا فتبعهم المسلمون يشدّدون من ضغطهم عليهم حتى غلبوهم على خوازيق الخشب ، ودار القتال خلال ممرّاتها حتى اكتسحوها وهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً . ثم جاءت

(١) فتوح البلدان ٢٦٣ .



خريطة (٦) معركة جلولاء — ٢

ريح مظلمة أظلمت[١] عليهم كالليل فتحاجز الفريقان، وقد تمّ للمسلمين الاستيلاء على حزام الدفاعات الخشبية ، وتهـــافت المجوس في خندقهم فلم يُتَحْ لهم أن ينسحبوا إلى مواقعهم من خلال المسالك التي أعدّوها لذلك خلال الخندق. وكان الخندق من عمق القاع بحيث تعذّر على الخيل أن تخرج منه ، فلم يجـــد المجوس بُدّاً أن يحملوا في خندقهم قطوعات ومدارج يطلعون عليها إلى جانبهم من وراء

(١) في رواية أخرى أن الليل قد دخل فعلاً .

الخندق ، فأفسدوا بذلك فاعليته كخط دفاع لا يمكن اجتيازه . وبلغ علم ذلك إلى المسلمين فعادوا ينظرون ويماينون . ووجدها القعقاع فرصة، بينما قال بعض المسلمين لبعض : « ننهض إليهم ثانية فندخله عليهم أو نموت دونه » .

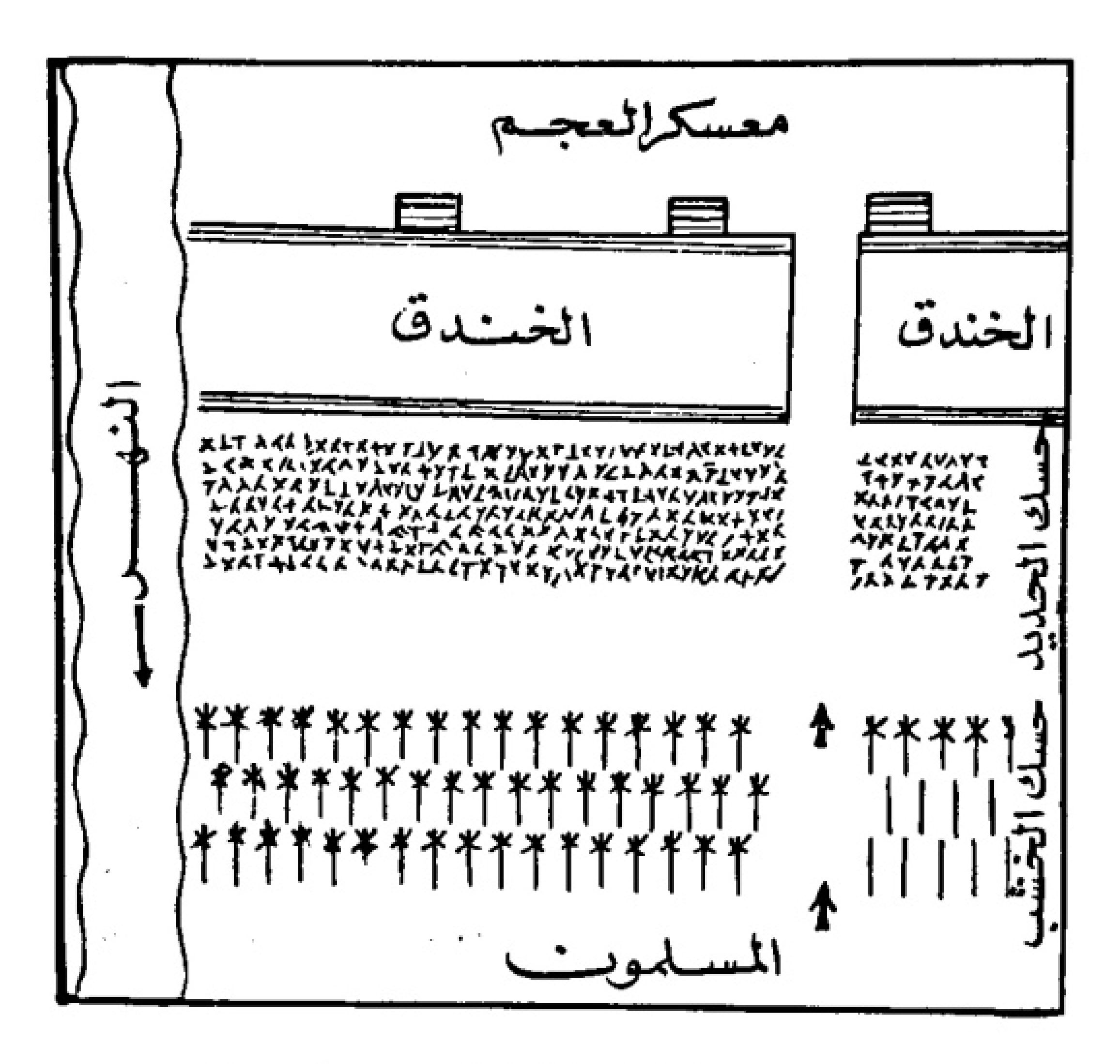
قتال في الليل

حينئذٍ وصلت دفعة من الفرسان الذين أرسلهم سعد كمدد ، فيهم طليحة بن خويلد الأسدي وقيس بن مكشوح وعمرو بن معـــدي كرب وحجر بن عدي الكندي . وعاد القعقاع يزحف بمن معه نحوهم ، فلما رآه المجوس يُعيـد صف صفوفه لمعاودة الزحف خرجوا يرمون حسك الحديد وينثرونه حول الخندق من جهة المسلمين في المجال الخالي الذي كان بين الخندق وحسك الخشب الذي استولى عليه المسلمون . والذي نستطيع أن ندركه أن حسك الخشب كان خوازيق كبيرة الحجم كالمتاريس لصَدّ الخيل وراكبيها، أما حسك الحديد فكان خوازيق صغيرة الحجم تُلقى على الأرض لتغرز في أقدام الخيل . نثروا ذلك الحسك من حول الخندق إلا من جهة جعلوها ممرّاً لهم خرجوا منه لملاقاة المسلمين .

والتحم الفريقان مرة أخرى فاقتتلوا قتالاً شديداً والظلام يسحب رداءه على الميدان ، قتالاً لم يقتتلوا مثله إلا ما كان ليلة الهرير ، إلا أن قتال جلولاء كان أقصر زمناً وأعجل . وبلغ القعقاع وجنده مدخل الخندق فأخذ به وقد انعزلوا عن سائر المسلمين ، فأمر مناديه فنادى :

« يا معشر المسلمين ، هــذا أميركم قد دخل خندق القوم وأخذ به ، فأقبِلوا إليه ولا يمنعنكم مَن بينكم وبينه مِن دخوله » .

كانت لقطة بارعة سريعة البديهة من القعقاع صاحب الابتكارات . لم يَعُد المسلمون يشكـُّون في أن هاشماً في الخنـــدق ، فكيف يتركونه بين المجوس ا لم يحدث في حروب العراق من قبل قَط أن ترك المسلمون أميرهم لعدوّهم ليقتلوه أو يأسروه ، فحملوا حملة صادقة عنيفة لم يصمد لها العجم حتى أدركوا القعقاع



خريطة (٧) معركة جلولاء – ٣

وهو آخذ بمدخل الخندق يمنع المجوس من الانسحاب إليه .

وبدأت هزيمتهم فشرعوا يذهبون يمنة ويسرة عن المجال الذي يخرجهم إلى مأمنهم خلف خندقهم ، فتورّطوا بخيلهم في حسك الحديد الذي أعدّوه للمسلمين فكانوا أشبه شيء بجيش مدرّع نزل إلى حقل ألغام ، وأصاب الحسك خيولهم فنزلوا عنها وقاتلوا مُشاة ولكن أي مُشاة ! مُشاة مشلتة في غير صفوف متراصة كما هو العهد بقتال المشاة . وتعقّبهم المسلمون فلم يفلت منهم إلا مَن لا

يُعَدّ . يقول الرواة : إن قتلى المجوس بلغوا مائة ألف فجللت المجال وما أمامه وما خلفه ، ولذلك سُمّيت جلولاء بما جللها من قتلاهم .

رواية شاهد

قال محفّز [1] : إني لفي أوائل الجمهور مدخلهم ساباط ومظلمها ، وإني لفي أوائل الجمهور حين عبروا دجلة ودخلوا المدائن. ولقد أصبت بها تمثالاً لو قسم في بكر بن وائل لسَدّ منهم مَسَدّاً عليه جوهر فأدّيته .

فما لبثنا بالمدائن إلا قليلاً حتى بلغنا أن الأعاجم قد جمعت لنا بجلولاء جمعاً عظيماً وقدموا عيالاتهم إلى الجبال وحبسوا الأموال ، فبعث إليهم سعدٌ عمرَو ابن مالك بن عتبة بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة. وكان جند جلولاء اثني عشر ألفاً من المسلمين على مقدمتهم القعقاع بن عمرو ، وكان قـــد خرج فيهم وجوه الناس وفرسانهم ،فلما مرّوا ببابل مهروذ صالحه دهقانها على أن يفرش له جريب أرض دراهم ، ففعل وصالحه ، ثم مضى حتى قدم عليهم بجلولاء فوجدهم قـــد خندقوا وتحصّنوا في خندقهم ومعهم بيت مالهم وتواثقوا وتعاهدوا بالنيران أن لا يفرّوا .

ونزل المسلمون قريباً منهم ، وجعلت الأمداد تقدم على المشركين كل يوم من حلوان ، وجعل يمدّهم بكل مَن أمدّه من أهل الجبـــال . واستمدّ المسلمون سعداً فأمدّهم بمائتي فارس ثم مائتين ثم مائتين . ولما رأى أهل فـارس أمداد المسلمين بادروا بقتـــال المسلمين وعلى خيل المسلمين يومئذٍ طليحة بن فلان أحد بني عبد الدار ، وعلى خيل الأعاجم خرزاذ بن خُرّهُرْمز ، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقاتلوا المسلمين مثـله في موطن من المواطن حتى أنفذوا النبل وحتى أنفذوا النشاب وقصفوا الرماح حتى صاروا إلى السيوف والطبرزينات ، فكانوا بذلك صدر نهارهم إلى الظهر ، ولما حضرت الصلاة صلى الناس إيماءً حتى إذا كان بين

---

(١) الطبري ٤ / ٢٦ س ش س عن عبيدالله بن محفز عن أبيه .

الصلاتين خنست كتيبة وجاءت أخرى فوقفت مكانها .

فأقبل القعقاع بن عمرو على الناس فقال : « أهالتكم هذه ؟ » قالوا : « نعم نحن مكلّـون وهم مريحون والكالّ يخاف العجز إلا أن يعقب » ، فقال : « إنا حاملون عليهم ومجادوهم وغير كافين ولا مقلعين حتى يحكم الله بيننـا ، فاحملوا عليهم حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ولا يكذبن أحد منكم » فحمل فانفرجوا فما نهنه أحد عن باب الخندق .

وألبسهم الليل رواقه فأخذوا يمنة ويسرة ، وجاء في الأمداد طليحة وقيس ابن المكشوح وعمرو بن معدي كرب وحجر بن عدي ، فوافوهم قد تحاجزوا مع الليل . ونادى منادي القعقاع بن عمرو : « أين تحاجزون وأميركم في الخندق ؟ » فتفارّ المشركون وحمل المسلمون. فأدخِلُ الخندق فآتى فسطاطاً فيه مرافق[1] وثياب – وإذا فُرُش على إنسان، فأنبشه فإذا امرأة كالغزال في حسن الشمس فأخذتها وثيابها فأديت الثياب وطلبت في الجـارية حتى صارت إليّ فاتخذتها أم ولد » اهـ .

مطاردة

تمّ فتح جلولاء في أول ذي القعدة ١٦ هـ – ٢٤ نوفمبر ٦٣٧ م ، بعـد فتح المدائن بتسعة أشهر[2] . وكان في الرسالة التي كتب عمر إلى سعد وأوردناها سابقاً أن يبعث القعقاع إلى حلوان بعد فتح جلولاء . فلما تمّت هزيمة المجوس في جلولاء أمدّه سعد بأكثر من ثلاثـة آلاف من المسلمين وأمره بالنهوض إلى حلوان[3] على مسافة ١٨ فرسخاً من جلولاء[4] [حوالي ٩٩ كيلومتراً] فأقام

---

(١) مرافق الدار : مصاب الماء ونحوها – مختار الصحاح .

(٢) الطبري ٣٢/٤ س ش س عن عبدالعزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت وقالوا جميعاً.

(٣) فتوح البلدان ٣٠٨ .

(٤) ابن خرداذبه ١٩ – من جلولاء إلى خانقين سبعة فراسخ ثم ستة فراسخ إلى قصر شيرين ثم خمسة فراسخ إلى حلوان .

هاشم بن عتبة بجلولاء، وأمر القعقاع بن عمرو فانطلق في آثار المجوس إلى خانقين في جند من المسلمين من العرب ومن العجم الذين أسلموا ، فأدرك سبياً كثيراً من سبيهم عُرف في التاريخ بـ « سبي جلولاء » وقتل مَن أدرك مِن مقاتليهم ، وكان مهران نفسه من قتلى خانقين . وكان فيرزان في خانقين مع مهران ، فلما أدركه القعقاع نزل عن فرسه وتركها وهرب خلال المرتفعات (١) الوعرة ، ثم واصل فراره نحو الشرق .

مسلمون من غير العرب

من الطريف ومن إعجاز الإسلام أن نجد العجم الذين سبق أن أسلموا وانضمّوا إلى جيش سعد كانوا طليعة مع القعقاع وتحت قيادته في هذه المعركة . ولا شك أنهم بإسلامهم هذا وانضوائهم مع المسلمين كانوا من جميع الوجوه أحسن حالاً من بني جلدتهم الذين ظلوا على مجوسيتهم يُقتلون على الكفر والوثنية ويدافعون بيأس عن نظام متهالك ومُلك يتهاوى . كان الإسلام يساوي مادياً ومعنوياً واجتماعياً بين هؤلاء الفرس وبين إخوانهم المسلمين من العرب من الجنود والقادة، من أعراب البادية ومن صحابة رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار على السواء. هذه المساواة كانوا يفتقدونها عند الفرس في دولة قامت على الطبقات ومجوسية طبقية بكل معنى الكلمة . ولعلنا نذكر عن زرادشت منشىء الديانة المجوسية قوله لأتباعه :

« ولو أن حسناتكم تتجاوز عدد أوراق الشجر وقطرات المطر ونجوم السماء ورمال الشاطىء فلن تكون نافعة مقبولة إلا إذا قَبِلَها الموبذان » .

والموبذان هو الكاهن المجوسي . أين هذا من الدين الجديد الذي يقول نبيّه ﷺ : « لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى » !

---

(١) الطبري ٤ / ٢٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد والوليد بن عبدالله والمجالد وعقبة بن مكرم .

ويقول عن نفسه : « إنمـا أنا بشر مثلكم » . فينفي الطبقية والوساطة حتى عن رسول الله ﷺ ومن باب أولى سائر الناس .

« إن الذين تدعون من دون الله عبـادٌ أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين »[1] .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألاَّ نعبـد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإنْ تولوا فقولوا اشهدوا بأنـّا مسلمون »[2] .

« قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السماوات والأرض وهو يُطعِم ولا يُطعَم ، قل إني أمِرْتُ أن أكون أول مَن أسلم ولا تكونن من المشركين »[3] .

فالكل أمام الله سواء وهو الذي يجزي عبـاده جميعاً دون أدنى وساطة أو معاونة من أحد منهم « مَن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينـّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[4] .

إنـّا لنجد في جميع العصور مواطنين من دولة ينضمُّون إلى أعـداء دولتهم مقابل مال أو أجر أو بدافع من الغواية جرياً وراء امرأة مشتهاة تُلقى في طريقهم لتجنيدهم ضد وطنهم أو بغير ذلك من الدوافع ... وليست هذه كتلك فهؤلاء المجوس الذين أسلموا إنما اتبعوا الرسالة العامة للبشر كافة وصدقوا بأنها تخاطبهم كما تخاطب العرب فآمنوا بهـا ودخلوا فيها ووجدوا فيها سعادة الدنيا وأمان الآخرة ، وهذا هو الفارق الكبير بين الإيمان الحق وبين العمالة الدنيئة .

إن في تاريخ نشر الدعوة وانتشار الإسلام في الديار المفتوحة مجـال واسع البحث ،غير أنه يعفينا من الاستطراد وراء هذا الجانب أن ما يعني به هذا البحث هو التاريخ الحربي فحسب وليس من هدفه التعرُّض لِما سوى ذلك من الجوانب.

---

(١) الأعراف : ١٩٤ .
(٢) آل عمران : ٦٤ .
(٣) الأنعام : ١٤ .
(٤) النحل : ٩٧ .

سقوط حلوان

بلغت هذه الأخبار الجديدة ، هزيمة جلولاء وسقوط خانقين ومقتل مهران إلى يزدجرد وهو بحلوان ، وأدرك أن المسلمين على الطريق إليه ، فخرج من حلوان كما خرج من المدائن سائراً في الجبال نحو الري شمالاً ، وترك بحلوان حامية عليها خسروشنوم لتعوق الزحف المظفر حتى يبتعد هو .

كان القعقاع يتقدم حتى جاوز قصر شيرين ، وخرج خسروشنوم في قواته من حلوان للقاء القعقاع ، وجعل زينبدي دهقان حلوان على مقدمته ، فالتقوا على رأس فرسخ من حلوان [الفرسخ ٥٥٤٤ متراً] ، والتحم بهم القعقاع ولقي زينبدي مصرعه ، قتله عميرة بن طارق وعبدالله [لا ندري ابن مَن] ، فكان سلبه بينهما . وهرب خسروشنوم [1] ودخل القعقاع حلوان على رأس قواته .. حلوان المقرّ الثاني بعد المدائن ليزدجرد . وأنزل القعقاع مَن معه مِن العجم

---

(١) الطبري ٤ / ٣٤ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد .

ويذهب البلاذري إلى أن الذي دخل حلوان كان جرير بن عبدالله، وأنه فتحها صلحاً على أن كف عنهم وأمنهم على دمائهم وجعل لمن أحب منهم الهرب أن لا يعرض لهم . ثم خلف هاشم جريراً بحلوان ومعه عزرة بن قيس بن غزية البجلي ، ومضى جرير نحو الدينور فلم يفتحها وفتح قرماسين على مثل صلح حلوان « فتوح البلدان ٨ ٥ ٧ » . وفي رواية للطبري عن المهلب ومحمد وطلحة وأصحابه أن خسروشنوم الهمذاني قتل بالقادسية (الطبري ٣ / ٥٧٠) .

المسلمين وولى عليهم واحداً منهم اسمه قباذ .. كان أصله من أهل خراسان . وتقدم القعقاع فأقـام على ثغرها فكان على الثغر وشؤون الجزية ، ودعا الأهالي إلى الجزية فرجعوا إلى ديارهم وأقرّوا بها ، وظلوا على ذلك إلى أن تحوّل سعد من المدائن إلىالكوفة فلحق به القعقاع ، وكان قد اطمأنّ تماماً إلى إسلام العجم الذين معه ، فاستخلف قبـــاذ على ثغر حلوان ، ولعله كان أول عجمي يتولى قيادة ما مع المسلمين .



تطهير شامل

وجعل هاشم جرير بن عبدالله بجلولاء في خيل كثيفة كقاعدة متقـــدمة للعمليات ويكون بين المسلمين وبين عدوّهم. وراح المسلمون يُغيرون في عمليات تطهير على السواد الشرقي لدجلة ، فأتوا مهروذ فصالح دهقانها هاشماً على جريب من دراهم (الجريب = ٦ كيلة مصري = ٢٦٤ ليتراً) على ألا يقتل أحداً منهم. ولكن دهقـان دسكرة اتهم بغش المسلمين وقتله هاشم على ذلك . وأتى هاشم بندنيجين فطلب أهلها الأمان على أداء الجزية والخراج ، فقَبِلَ منهم وأمنهم . وتقدم جرير بن عبدالله بقواته في جولاته التطهيرية فعثر على بقيـــة من قوات الأعاجم فقتلهم . ولم يبقَ من سواد دجـــلة ناحية إلا غلب عليها المسلمون [1] وصارت في أيديهم .

وكان لهذه الانتصارات أثرها ، فأقبل مزيد من العجم على الإسلام ، فأسلم جميل بن بصبهري دهقـــان الفلاليج والنهرين ، وبسطام بن نرسي دهقـان بابل وخُطرْنيَة ، وفيروز [2] دهقان نهر الملك وكوثي ، وغيرهم من الدهاقين ، فلم يعرض لهم عمر وترك أراضيهم في أيديهم وأزال الجزية عن رقابهم .

---

(١) فتوح البلدان ٣٥٦ .

(٢) فتوح البلدان . وذكر الرفيل دهقان العال فيهم ، ولكن الرفيل كان قد أسلم قبل ذلك بالقادسية .

ووجّه سعد بن أبي وقــاص هاشم بن عتبة ومعه الأشعث بن قيس الكندي نحو الشمال ، فمرّ بالراذانات وأتى دقوقا وخانيجار فغلب عليها ، وفتح جميع كوربا جرمى ثم نفذ إلى سن بارما وبوازيج الملك وحتى حدود شهرزور [١] .

هـــذه الطوابير التي جاست ما بين المدائن إلى مهروذ ودسكرة وجلولاء ودقوقا إلى سن بارما والبوازيج وإلى شهرزور ، لم تكن من أعمال المطاردة للفلول المنهزمة في جلولاء ، كما كان عهدنا بغارات المثنى بن حارثة ، فإن جلولاء لم تترك فلولاً تذكر ، ولكن الأمر يختلف الآن ، فإن دولة بني ساسان تترنح لتسقط ، والمطلوب الآن تحرير النــاس من حكمهم وأن ينقشع عن مفاهيمهم أن يزدجرد ما زال ملكاً يحكم في الأقاليم التي أجلي عنها وفرّ منها .

كانت هذه الطوابير لإخضاع هذا القطاع تماماً لسلطة الفاتحين وتأكيداً لخلع سلطان يزدجرد عنهم وتحريراً لعقائدهم من جبروت الطاغوت الساقط ولتطهير المنطقة تماماً من أي جيوب فارسية تكون معزولة هنــا أو هناك . كانت عملية استلام لهذا الميراث ، فما دام سلطان قد سقط وآخر قد قام مكانه فلا بد للناس أن ترى وجه السلطة الجديد وأن يتعاملوا معه . هذا هو هدف الفتح الإسلامي ، أن يرفع عن أعنــاق بني آدم أي قسر أو ضغط ، وأن يعرض الإسلام عليهم ثم يترك لهم حرية الاختيار والعقيدة دون ضغط أو إكراه .

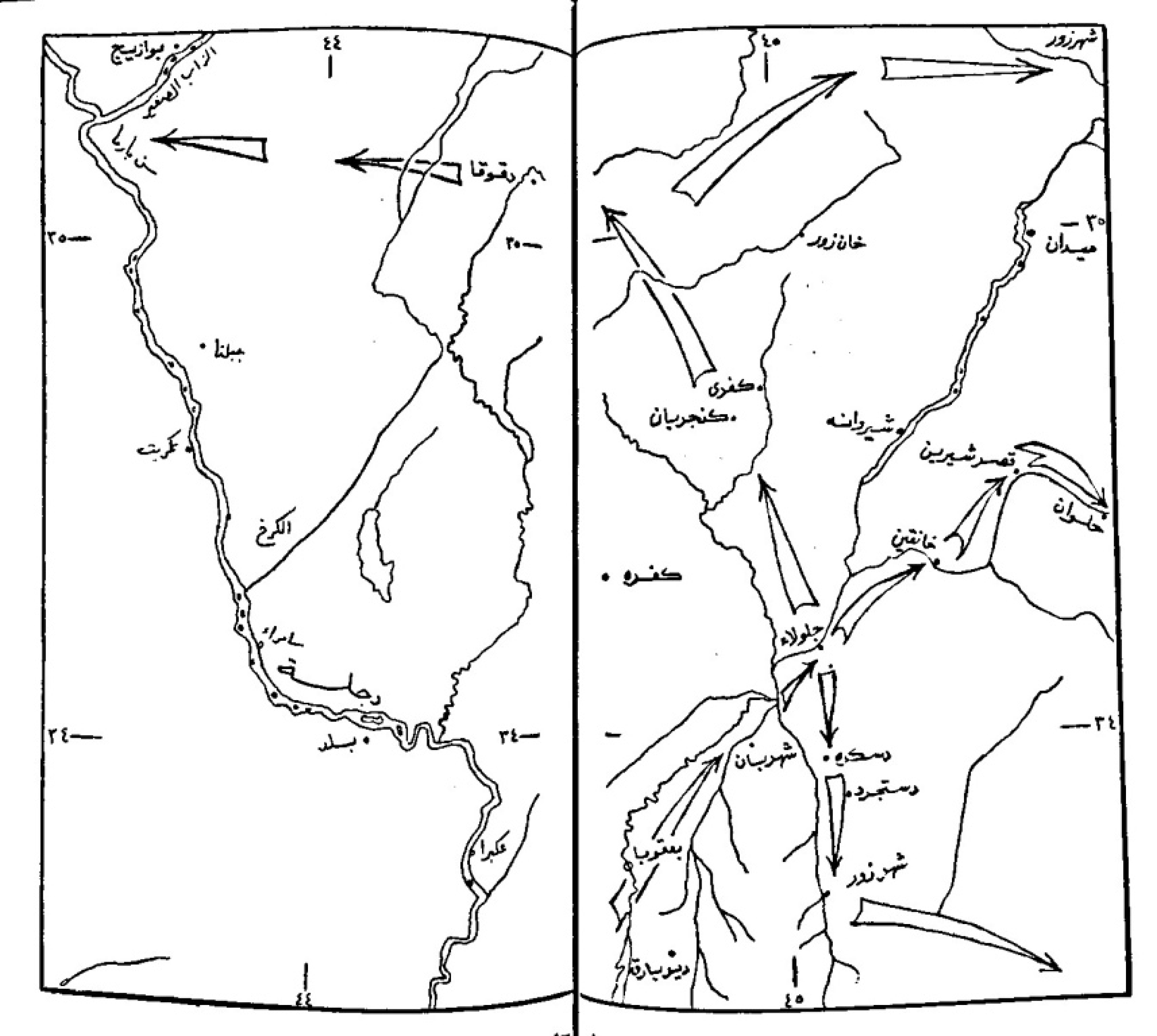
« لا إكراه في الدين ، قـــد تبيّنَ الرشد من الغيّ ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله وليُّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » [٢] .

---

(١) فتوح البلدان ٦٥٦ عن أبي مسعود الكوفي عن عوانة .

وذكر ابن خرداذبة دقوقا من كور الموصل (المسالك والممالك ٩٤) . وسن بارما على أربعة عشر فرسخاً من سامراء = ١٠٥ كيلومترات ، وخانيجار والجرمي وشهرزور على عشرين فرسخاً من قصر شيرين (ابن خرداذبة ١٩) = ١١١ كيلومتراً .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٦-٢٥٧ .



بوازيج
الزاب الصغير
رقوقا
جبلتا
تكريت
الكرخ
سامراء
دجلة
بلد
عكبرا
شهرزور
خانزور
ميدان
كفرى
كنجربان
شيروانه
قصر شيرين
حلوان
خانقين
كفره
جلولاء
دسكرة
دستجرد
شهربان
بعقوبا
شهرزور
ديربارقة
٤٤
٣٥
٣٤
٤٥

فالأرض يفتحها السيف ، أما القلوب فلا يفتحها إلا الاعتقاد الحر الصحيح .

وكدأبهم في كل موطن راحوا يترنّمُون بالشعر ، فقال هاشم بن عتبة :

يوم جلولاء ويوم رستم ويوم زحف الكوفة المُقَدَّمْ
ويوم عرض النهر المحرم من بين أيامٍ خَلوْنَ صُرمْ
شَيَّبْنَ أصداغي فهُنّ هُرمْ مثل ثغَامِ البلدِ المحَرَّمْ

وقال أبو بُجَيْد :

ويوم جلولاء الوقيعة أصبحت كتائبنا تَرْدِى بأسْدٍ عَوَابسِ
فضَضْتُ جموع الفرس ثم أنمتهم فتبّاً لأجساد المجوس النجائس
وأفلَتَهُنّ الفيرزانُ بجرعةٍ ومهران أرْدَتْ يوم حَزّ القوانس
أقاموا بدارِ للمنيّةِ موعدٍ وللتُّرْبِ تحثوها خجوج الروامس

* * *

مغانم جلولاء

قال الشعبي [1] : « أفاء الله على المسلمين ما كان في عسكرهم بجلولاء ، وما كان عليهم وكل دابـــة كانت معهم إلا اليسير ، لم يفلتوا بشيء من الأموال . وولي قسم ذلك بين المسلمين سلمان بن ربيعـة [2] ، فكانت إليه يومئذٍ الأقباض والأقسام ، وكانت العرب لذلك تسمّيه سلمان الخيل ، وذلك أنه كان يقسم لها

(١) الطبري ٤ / ٢٩ س ش س عن عمرو عن الشعبي .

(٢) سلمان بن ربيعة بن يزيد بن عمرو بن سهم بن ثعلبة الباهلي ، مختلف في صحبته . روى عنه من كبار التابعين أبو وائل وأبو ميسرة وأبو عثمان النهدي وسويد بن غفلة . شهد فتوح الشام وشهد القادسية ، وكان مع سعد في شراف فجعله على المجردة (وهي الخيل) . وكان هو الأمير في غزو بلنجر قد بعثه عمر إليها . وولي غزو أرمينيا في زمن عثمان فاستشهد حوالي عام ٣٠ هـ ببلنجر من بلاد أرمينيا . ويقال إنه أول من فرق بين العتاق والمجين في الخيل في قسمة الفيء ، فقيل له سلمان الخيل لذلك . وكان يلي الخيول أيام عمر ، وهو أول من استقضي على الكوفة ، وكان رجلاً صالحاً يحج كل سنة . قال أبو وائل : « اختلفت إلى سلمان بن ربيعة أربعين صباحاً فلم أجد عنده فيها خصماً » . وكان عمر قد بعثه قاضياً بالكوفة قبل شريح ، فلما ولي سعد الكوفة الولاية الثانية استقضاه أيضاً. روي عنه أنه قال : « قتلت بسيفي هذا مائة مستلئم كلهم يعبد غير الله ما قتلت رجلاً منهم صبراً » . وفي القادسية قالوا عن سلمان أنه أبصر بالمفاصل من الجازر . وقد اتخذ عمر في كل مصر خيولاً على قدره من فضول أموال المسلمين عدة للحوادث ، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس ، وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة الباهلي ونفر من أهل الكوفة .

ويقصر بمــا دونها ، وكانت العتاق[1] عنده ثلاث طبقات ، وبلغ سهم الفارس بجلولاء مثل سهمه بالمدائن » .

وقد قوّمت غنائم جلولاء بثلاثين مليون[2] درهم كان خمسها ستة ملايين هي نصيب المدينة . ولم تكن كل غنائم جلولاء نقـداً ، بل كان فيها من التحف ما نعجب لاحتفاظ المجوس به في ميدان قتال . أصاب خارجة بن الصلت يومئذ ناقة من ذهب أو فضة موشحة بالدرّ والياقوت مثل الجفرة[3] إذا وضعت على الأرض وإذا عليها رجل من ذهب موشح كذلك ، فجاء[4] بها وبه حتى أداهما. ويبــدو أن الفرس لم يستطيعوا أن يتخلوا عن ترفهم ومتعتهم حتى في الميدان ، ولقد رأينا فيما مرّ بنــا فسطاطاً به المرافق اقتحمه محفز في المعركة ، فإذا به امرأة « كالغزال في حسن الشمس » في فراش !

وفي رواية أخرى ، في جلولاء اقتسم على كل فارس تسعة آلاف درهم وتسعة من الدواب[5] — فإذا حسبنا القيمة الإجماليــة لذلك وجدناها تخالف الرواية السابقة — وقــد رجع هاشم بالأخماس إلى سعد فنفل منها مَن كان ذا بلاء في الحرب ممن شهد جلولاء وممن كان نائياً بالمدائن ، وخلاف الدراهم والتحف والخيول كان السبي من أظهر مواد الفيء وكانت فيهن أم الشعبي [الراوية] وقعت لرجل من بني عبس فولدت فمات عنها فخلف عليها شرحبيل فولدت له عامر الشعبي ونشأ في بني عبس[6] .

---

(١) العتق : الكرم ، وهو أيضاً الجمال وهو أيضاً الحرية . وفرس عتيق : أي جواد رائع ، والجمع عتاق — مختار الصحاح .

(٢) الطبري ٤ / ٢٩ س ش س عن المجالد وعمرو عن الشعبي .

(٣) الجفر من أولاد الماعز ما بلغ أربعة أشهر ، والأنثى جفرة — مختار الصحاح — والمقصود ناقة في حجم الجفرة .

(٤) الطبري ٤ / ٢٧ س ش س عن حماد بن فلان البرجمي عن أبيه .

(٥) « ٤ / ٢٨ « « محمد وطلحة والمهلب .

(٦) « « « « محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد والوليد بن عبدالله والمجالد وعقبة بن مكرم .

بعث سعد بالأخماس من الذهب والفضة والآنية والثياب مع قضاعي بن عمر الدئلي، وبعث بالسبي مع أبي مفزر الأسود بن قطبة، فمضيا بها. وبعث بالحساب مع زياد بن أبي سفيان [1]، وكان هو كاتب الحملة الذي يدوّن لها. وكتب سعد إلى عمر بفتح جلولاء وبنزول القعقاع حلوان، واستأذنه في اتباع العجم إلى حيث هربوا من أعماق بلادهم. فلما قدموا على عمر كلّمه زياد ووصف له وأفاض في طلاقة أعجبت عمر، فقال له:

«هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل الذي كلمتني به؟»

قال: «والله ما على الأرض شخص أهيَب في صدري منك، فكيف لا أقوى على هذا من غيرك!»

وقام زياد في الناس فحكى لهم عما أصابوا وما صنعوا وبما يستأذنون فيه من الانسياح في البلاد.

قال عمر: «هذا الخطيب المصقع».

قال زياد: «إن جندنا أطلقوا بالفعال لساننا».

---

(١) الطبري ٤ / ٢٩ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد وزهرة ومحمد ابن عمرو.

وبكى عمر

ونظر عمر إلى الفيء فوجد شيئاً كثيراً ، قال :

« والله لا يجنّه سقف بيت حتى أقسمه » .

وبات عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن أرقم يحرسانه في صحن المسجد . فلما أصبح جاء عمر وجاء الناس معه فكشف الأنطاع [الأغطية من الجلد] عن الفيء فلمعت تحت ضوء الشمس ياقوته وزبرجده وبانت أبهته وفخفخته ، فبكى العبد الصالح عمر ، قال عبد الرحمن بن عوف : « ما يبكيك يا أمير المؤمنين ! فوالله إن هذا لموطن شكر » . قال عمر : « والله ما ذاك يبكيني ، وتالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا ، ولا تحاسدوا إلا ألقى بأسهم بينهم » .

ثم رفض الانسياح وراء الفرس وقال :

« لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدّاً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد . إني آثرت سلامة المسلمين على الأنفال » .

والذي نحسبه أن عمر لم يكن يعني سلامة المسلمين من القتل في القتال ، فقد كانت جيوشه أبداً مظفرة ، ولكنه كان يعني سلامتهم من أن تفسد قلوبهم بإقبال الدنيا عليهم فينقلب بأسهم بينهم ، فأوقف استمرار الفتح حتى ينظر تفاعلهم مع ما فتح عليهم ومع الدنيا الجديدة التي دانت لهم . ولقد ظلّ هذا فكر عمر وشغله الشاغل بعدها .

عن سعيد بن جبير قال : بعث عمر بن الخطاب إلى حذيفة بن اليمان بعد ما ولاه المدائن وكثر المسلمات [من العجم] :

« إنه بلغني أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب، فطلّقها ».

فكتب إليه حذيفة :

« لا أفعل حتى تخبرني أحلال أم حرام وما أردت بذلك » .

فكتب إليه عمر :

« لا بل حلال .. ولكن في نساء الأعاجم خلابة، فإنْ أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم » .

وأدرك حذيفة مقصود عمر فقال : « الآن »[1] ، وطلّقها .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٨٨ س ش س عن عبد الملك بن أبي سليمان عن سعيد بن جبير .

وروي عن حجاج الصواف عن مسلم مولى حذيفة قال : تزوج المهاجرون والأنصار في أهل السواد ، يعني في أهل الكتابين منهم ، ولو كانوا عبيداً لم يستحلوا ذلك ولم يحل لهم أن ينكحوا إماء أهل الكتاب ، لأن الله تعالى يقول : « ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات . والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض، فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف ... » (النساء : ٢٥) . ولم يقل فتياتهم من أهل الكتابين .

معاملة المجوس كأهل الكتاب

وقد أجرى عمر خمس جلولاء مجرى خمس القادسية ونفل منه بعض[1] أهل المدينة ، وعامل الفلاحين فيما وراء المدائن معاملة فلاحي السواد من حيث فئاتهم التي ذكرناها في موضعها ومن حيث الأمان والجزية[2] والخراج ، وقد أفاضت الروايات في تفاصيل ذلك. وقد تضمّن صلحهم أنهم إنْ غشّوا المسلمين لعدوّهم برئت منهم الذمة ، وإنْ سبّوا مسلماً أن ينهكوا عقوبة ، وإنْ قاتلوا مسلماً أن يُقتَلوا وأنّ على عمر منعتهم ، وبريء عمر إلى كل ذي عهد من معرّة الجيوش[3] .

وكان للمهاجرين مجلس في المسجد ، فكان عمر يجلس معهم فيه ويحدثهم عما ينتهي إليه من أمر الآفاق ، فقال يوماً :

« ما أدري كيف أصنع بالمجوس ؟ » .

فوثب عبد الرحمن بن عوف فقال :

« أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال : سنّوا بهم سُنّة أهل الكتاب »[4].

---

(١) الطبري ٤ / ٣٠ س ش س عن زهرة ومحمد عن أبي سلمة .

(٢) « « « « محمد وطلحة والمهلب وسعيد وعمرو .

(٣) « ٤ / ٣٢ « « عبد العزيز بن سياه عن حبيب بن أبي ثابت . وعن محمد بن عبدالله والمستنير .

(٤) فتوح البلدان ٦٦٠ عن عمرو الناقد عن ابن وهب المصري عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه .

إلغاء امتيازات بجيلة

ولما جُمعت غنائم جلولاء طلب جرير بن عبدالله له ولبجيلة ربع ما غلبوا عليه وفق سابق عهده مع عمر حين[1] سيرهم إلى العراق. فكتب سعد بذلك إلى عمر. ووجد عمر أن اتفاقه مع جرير كان تشجيعاً لبجيلة على أن تتجه إلى العراق في وقت أعرض الناس عن العراق، أما الآن فالوضع يختلف ولم يعد لذلك ما يبرّره، فكتب إلى سعد:

«إن شاء جرير أن يكون إنما قاتل وقومه على جُعل كجُعل المؤلفة قلوبهم فأعطوهم جُعلهم، وإن كانوا إنما قاتلوا لله واحتسبوا ما عنده فهم من المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم».

قال جرير: «صدقَ أمير المؤمنين وبَرّ، لا حاجة لنا بالربع».

لم يُكرِههم عمر على ذلك بل تمّ تنازلهم برضاهم التام. حتى أن امرأة من بجيلة اسمها أم كُرْز قالت:

«إن أبي هلك وسهمه ثابت في السواد وإني لن أسلم».

فقال لها عمر: «يا أم كرز إن قومك قد أجابوا».

قالت: «ما أنا بمسلمة أو تحملني على ناقة ذلول عليها قطيفة حمراء وتملأ يدي ذهباً!».

ففعل عمر[2]. امرأة واحدة من قبيلة بأسرها تمسكت «بحقها» فلم يخرجها عنه عمر إلا باسترضائها.

---

(١) الطريق إلى المدائن ٤١٩.

(٢) فتوح البلدان ٦٧٠ عن الوليد بن صالح عن الواقدي عن عبد الحميد بن جعفر عن جرير بن يزيد بن جرير بن عبدالله عن أبيه.

لم يغزوا للسلب

قصة بحيلة هـذه ، وبكاء عمر أمام غنائم جلولاء ، وتوقفه وهو المنتصر عن استطراد الفتح ، وطلاق حذيفـــة لامرأته الفارسية ذات الخلابة ... وغيرها وغيرها ، حكايات عارضة في تاريخ الفتح الإسلامي ، أردنا بذكرها إثبات زهد هؤلاء الذين انفتحت لهم الدنيـا ، ورداً على افتراءات المستشرقين الذين زعموا أن الفتح الإسلامي لم يكن لبواعث شرعية وإنما كان يستهدف السلب والنهب . لو أرادوا سلباً ونهباً لاستطاعوا بعد أن فتح عليهم ، ولكنهم عفّوا وزهدوا . وصدَقَ علي بن أبي طالب حين قال لعمر :

« إنك عَفَفْتَ فعَفّت الرعيّة ، ولو رَتَعْتَ لرَتَعَتْ » .

الباب الرابع

عام ١٦ هـ

جبهات أخرى

هذا ما كان من أمر جلولاء تابعناها متصلة الحلقات حتى لا نقطعها بما كان يجري أثناءها في جبهات أخرى كانت مفتوحة في ذات الوقت فيما بين أن خرج هاشم من المدائن يريد جلولاء إلى أن تمّ له فتحها .

ولعلنا لم ننسَ قطاع الأبلة وأهميته واهتمام أبي بكر وعمر به باعتباره باباً من أبواب فارس . ولقد كان ذلك واضحاً من الناحية الاستراتيجية منذ بدأ خالد ابن الوليد غزو العراق فبـــدأ بقطاع الأبلة . ولعلنا نذكر أن قطبة بن قتادة السدوسي ظلّ يُغير بتلك الناحية مُشكّلاً إزعاجاً مستمراً للحاميات الفارسية هناك . ثم مرّ بنا أن عمر أمر سعداً أن يبعث رجلاً يكون بحيال الأبلة ، فبعث المغيرة بن شعبة ثم سحبه لينضم إلى جيش القادسية . وبعث عمر شريح بن عامر إلى البصرة ، فمضى إلى الأهواز حيث انتصر عليه الفرس واستشهد . وأخيراً بعث عمر أحد الصحابة وهو عتبة بن غزوان إلى ذلك القطاع ليشغل مَن به من العجم عن نجدة أصحابهم في قطاع المدائن وليفتحه .

قطاع آخر أشرنا إليه مع خروج هاشم إلى جلولاء، حيث تقدم أهل الموصل بقيادة الانطاق فعسكر بتكريت . وإذاً فقد كانت قطاعات العمليات في الجبهة الشرقية بعد القادسية كالآتي :

١ - الجبهـــة الأساسية : المدائن - جلولاء - حلوان ، في أثر يزدجرد .

٢ - هجوم تثبيت بالأبـلة تمكّن من فتحها وفتح أسفل دجـــلة والفرات .

٣ - جبهة ثالثة بتكريت لمقابلة التجمع الفارسي الرومي هناك .



عناصر تلك الجيوش

ولقد لاحظنا أن عمر كان يحدد لسعد تعبئته ، فيعيّن له مَن يكون على المقدمة ومَن يكون على الميمنة أو الميسرة ، وهكذا . فما الذي كان يريد عمر بذلك ؟

لقد ذكرنا في « الطريق إلى المدائن » تحت عنوان [1] « منهجنا » أن قبائل المسلمين العرب كانت وحدات حربية في الميدان . ولعلنا الآن بعد متابعتنا لكل ما مرّ بنا من حملات وتحركات ومعارك ، قد تأكد لنا هذا الاكتشاف الذي أفدنا منه كثيراً . وسنحاول الآن أن نستفيد منه مرة أخرى للإجابة على ذلك التساؤل . ماذا أراد عمر بذلك ؟

جيش جلولاء

إذا تأملنا العناصر التي تحملت مهمة جلولاء وما وراءها لتبيّن لنا أنها كانت كالآتي :

١ - عناصر من تميم : ومن حيث أننا لا نجد ذكراً لبعض أعلام تميم ونجومها الذين لو شهدوها لما أغفل الرواة مواقفهم ، مثل عاصم بن

---

(١) الباب الأول من الجزء الأول ٢٣ - ٢٧ .

عمرو وزهرة بن حوية ، فإننـــا نذهب إلى أن تميماً لم تكن كلها في جلولاء ، ولعل نصفها فقط هو الذي حضرها .

٢ ــ مَن انضمّ إلى تميم من العجم الذين أسلموا واختاروا تميماً ليكونوا معها.

٣ ــ أسد وكنانة .

٤ ــ قبائل القحطانية من بجيــلة وكندة وسعد العشيرة الذين كانوا ميسرة في القادسية عن شمال بني أسد ، وهي بجيــلة والنخع وصداء وكندة وسعد العشيرة . هؤلاء جميعاً كانت أعدادهم حين بدأت القــادسية كالآتي [١] :

٢٥٠٠	نصف تميم والرباب
٣٣٠٠	كنانة وأسد
٢٠٠٠	بجيلة
٢٥٠٠	النخع
٢٦٠٠	صداء وكندة
١٠٠٠	سعد العشيرة
١٣٩٠٠	

ومن حيث بلغ شهداء القادسية ربع جيشها فعلى هـــذا المعدل تكون هذه الوحدات التي كانت ١٣٩٠٠ قــد بلغت نحواً من ١٠٥٠٠ ، فإذا أضفنا إليهم ٤٠٠٠ من العجم الذين أسلموا يكون تعدادهم ١٤٥٠٠ ، وقد ذكرت الروايات أن جنــد جلولاء كانوا ١٢٠٠٠ أمدّهم سعد بأمداد بلغت ٣٠٠٠ فيكون مجموعهم ١٥٠٠٠ ، وهو يؤيد الرقم الحسابي ويكاد يطابقه. وإذاً فقد كان جيش جلولاء مكوّناً من الأعشار الخمسة التي أعطيناها الأرقام من ٦ إلى ١٠ [٢] .

(١) القادسية ٣٧ .

(٢) انظر الخريطة في كتاب « القادسية » ص ١٢٠ - ١٢١ .

جيش تكريت

أما جيش فتح تكريت فنستطيع أيضاً أن نتعرّف على وحداته من النظر في عناصره. لقد كان يقوده عبدالله بن مالك بن المعتم الذي كان يقود ميمنة سعد بالقادسية، فليس من قبيل المصادفة أن نجد جيش ابن المعتم كان من تلك الميمنة من قبائل ربيعة، فقائد مقدمته ربعي بن الأفكل العنزي [1] من عنز بن وائل إخوة بكر بن وائل.

وقائد الميمنة الحارث بن حسان الذهلي من ذهل من بكر بن وائل.

وقائد الميسرة فرات بن حيان العجلي من بني عجل من بكر بن وائل أيضاً.

فجميعهم من بكر بن وائل وعنز بن وائل من قبائل ربيعة. ولقد كانت منازلهم تمتد من البحرين جنوباً إلى غربي الفرات حتى مدينة هيث شمالاً، وكثيراً ما كانوا يعبرون الفرات إلى أرض الجزيرة فهم بها عارفون ولها آلفون. وكان ذلك من عوامل نجاح المثنّى في غاراته على شمال العراق عام ١٣ هـ — ٦٣٤م، فقد اختار قومه من بكر بن وائل بصفة خاصة لتلك الغارات. ونحسب أن هذا السبب نفسه هو الذي جعل عمر بن الخطاب يختار هؤلاء بالتحديد لتوجيههم إلى تكريت. فهو إذاً قد اختار أقواماً لهم سابق معرفة بالأرض التي يريد أن يوجههم إليها. وهم قد سبق لهم العمل في أكبر المعارك بالقادسية متجاورين متساندين تحت هذه القيادات عليهم عبدالله بن المعتم. ولا شك أن عمر قد اطمأنّ تماماً إلى هذه الوحدات، من حيث كفايتها وتناسقها وتعارفها وتعاونها.

---

(١) نسبه الطبري عن رواته محمد وطلحة والمهلب وسعيد والوليد بن عبدالله بن أبي طيبة (٤ / ٣٥) فقال ربعي بن الأفكل العنزي. ونسبه ابن حجر العسقلاني فقال ربعي بن الأفكل العنبري (الإصابة ٢٥٦٩). لو كان عنبرياً لكان من تميم من مضر، وقد كانت تميم بجلولاء مع القعقاع بن عمرو ولم نجد واحداً منهم في جيش تكريت، ولكننا نستدل من وجوده في جيش عبدالله بن المعتم بتكريت إلى أنه كان عنزياً من ربيعة حيث كان قومه.

أما عمليات جلولاء فهي على أرض فارسية صرفة لم تطأها قدم مسلم عربي من قبل ، ولو كان في جيشه مَن سبق له معرفتها لكلفهم بها ، غير أنه لا يجد مَن ينطبق عليه ذلك إلا الأربعة آلاف عجمي الذين أسلموا ، ولذلك وجدناهم في جيش جلولاء . ومن حيث كان الأمر كذلك فإنه يحتاج إلى قيادة جد قوية، ولذلك أسندها إلى هاشم بن عتبة وجعل معه القعقاع بن عمرو ، وقد عرفنا جيداً مَن هو القعقاع بن عمرو ، وجعل ضمن مسؤوليته المباشرة قيادة أولئك المسلمين العجم . الدخول إلى أعماق فارس وراء يزدجرد يحتاج إلى قوم أشداء أقوياء مثل بني تميم وبني أسد ومثل جرير بن عبدالله وطليحة بن خويلد وعمرو ابن معدي كرب وقيس بن مكشوح وحجر بن عدي ... الخ ..

لم يكن اختيار عمر عشوائياً ، ولكنه – في رأينا – كان مبنياً على تلك الأسس ، وهو بذلك يكون قد وجّه الأعشار من واحد إلى خمسة نحو تكريت والموصل شمالاً ، والأعشار من ٦ إلى ١٠ نحو جلولاء وما بعدها شرقاً .

* * *

فتح تكريت

جمادى الاولى ١٦ هـ - يونية ٦٣٧ م

التعبئة

كما كتب سعد إلى عمر بشأن مهران وعسكره الذين احتشدوا في جلولاء ، كذلك كتب إليه بشأن تقدم الأنطاق بجيش الموصل حتى نزل تكريت على نهر دجلة شمالي المدائن بحوالي ٢٢٠ كيلومتراً . وقد أجابه عمر في أمر جلولاء بما ذكرناه ، أما بشأن تكريت فقد كتب [١] إليه أن :

« سرّح إلى الأنطاق عبدالله بن المعتم .

واستعمل على مقدمته ربعي بن الأفكل العنزي .

وعلى ميمنته الحارث بن حسان الذهلي .

وعلى ميسرته فرات بن حيان العجلي .

وعلى ساقته هانيء بن قيس .

وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة .

فإن هزموا عدوهم فأمُرْ عبدالله بن المعتم بتسريح ابن الأفكل العنزي إلى الحصنين » .

---

(١) الطبري ٤/٣٥ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وسعيد وشاركهم الوليد بن عبدالله ابن أبي طيبة . انظر خريطة ١٠ .

حصار تكريت

وتحرّك عبدالله بن المعتم بهذه التعبئة من المدائن في خمسة آلاف، فسار أربعة أيام حتى نزل على الأنطاق بتكريت ، فوجد معه في جيشه جنوداً من العجم وجنوداً من الروم وقوات من عرب الجزيرة من قبائل أياد وتغلب والنمر ومن الشهارجة ، وقد حفروا خندقاً حولهم يحتمون وراءه . فضرب عليهم عبدالله حصاراً استمر أربعين يوماً . وكان تكتيك الأنطاق في تكريت شبيهاً بتكتيك مهران في جلولاء ... الاحتماء وراء خندق ثم المزاحفة مرة بعد أخرى عسى أن يظفر في زحف منها . فتزاحفوا في فترة الحصار التي استمرت أربعين يوماً أربعة وعشرين زحفاً ، غير أنهم كانوا أهون شوكة وأسرع هزيمة من جند مهران بجلولاء ، ولعل ذلك كان راجعاً إلى تنوّع أجناسهم ، فمنهم عجم ومنهم روم – كما فعلوا في الفراض ضد خالد بن الوليد – ومنهم قبائل عربية ممن استوطن الجزيرة وكانوا ما زالوا يقاومون الفتح ويحاربون المسلمين .

السياسة في المعركة

لاحظ عبدالله بن المعتم ذلك وأراد الاستفادة منه فلجأ إلى السياسة في الحرب ، فبعث إلى العرب الموالين للفرس يحاول استمالتهم ويدعوهم إلى نصرته على الروم ، فذهبوا يقلبون الأمر فيما بينهم . ورأى الروم أنهم لا يخرجون خرجة إلا كانت عليهم وعادوا منهزمين إلى خندقهم في كافة زحوفهم ، ولم يكونوا في صميم ديارهم حتى يدفعون عنها، فبدأ تخاذلهم وبدأت جبهة «الحلفاء» تتضعضع . ورأى العربُ الرومَ يتركون أمراءهم وينقلون متاعهم إلى السفن في نهر دجلة ، استعداداً للانفضاض عن هذه المعركة التي لا مصلحة ولا أمل لهم فيها . حينئذٍ مال بعض بني تغلب وأياد والنمر إلى انتهاز الفرصة التي أتاحها لهم عبدالله بن المعتم، فبعثوا إليه بخبر ما يصنع الروم وسألوه لقومهم السلم وأخبروه أنهم قد استجابوا لما عرض عليهم .

فأرسل إليهم يقول : « إن كنتم صادقين بذلك فاشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأقرّوا بما جاء به من عند الله ، ثم اعلمونا رأيكم » .

سقوط تكريت

ورجعت الرسل إليه بإسلامهم ، فردّهم برسالة أخرى فيها خطته .. الأمر حتى الآن كلام وهو غير واثق تماماً إن كانوا صادقين ، فوكل إليهم دوراً يفيده إن صدقوا ولا يضرّه إن كذبوا ، وهو اختبار لهم .

قال : « إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنّا قد نهدنا إلى الأبواب التي تلينا لندخل عليهم منها ، فخذوا بالأبواب التي تلي دجلة وكبّروا واقتلوا مَن قدرتم عليه » .

فانطلق الرسل حتى يواطئوهم على ذلك .

صفّ ابن المعتم صفوفه وزحف نحو الأبواب التي من جهته ، ثم كبّر وكبّر المسلمون . وتناهى تكبيرهم إلى مسامع تغلب وأياد والنمر وقد أخذوا بالأبواب التي من جهتهم فكبّروا . وفوجئت الحاميـــة بالتكبير من خلفهم فظنوا أن المسلمين قد اقتحموا عليهم من خلفهم من جهة دجلة ، وبادروا نحو الأبواب التي تجاه ابن المعتم والمسلمين، فأخذتهم سيوف المسلمين من بين أيديهم وسيوف القبائل التي أسلمت ليلتئذٍ من خلفهم ، فلم يفلت منهم أحد غير أولئك الذين أسلموا . وسقطت تكريت في جمادى الأولى ١٦ هـ - يونية ٦٣٧ م .

ثم الموصل ونينوى

وعملا بأوامر عمر السابقة ، بعث عبدُ الله بن المعتم ربعي بن الأفكل العنزي إلى الحصنين . والحصنان هما نينوى والموصل . كان الحصن الشرقي بنينوى ، وكانت مدينة آشورية قديمة فيها قبر النبي ذي النون (يونس عليه السلام) وكانت قائمة شرقي دجلة مقابل الموصل على ضفته الغربية [1] . لم تكن الموصل قد مُصّرت وإنما كانت حصناً وبعض كنائس النصارى ومن حولها منازل قليلة لهم ومحلة لليهود ، ثم كان الذي مَصّر الموصل بعد ذلك عرفجة بن هرثمة عام ٢٠ هـ ، وبنى بها مسجداً [2] جامعاً .

كانت قوة عبدالله بن المعتم خمسة آلاف تحت خمس قيادات فرعية ، هي مقدمة ربعي وميمنة الحارث وميسرة فرات وخيل عرفجة ومؤخرة هانىء . اشترك منهم في هذا الهجوم على الحصنين الوحدات الأربع الأولى بقادتها وعليهم جميعاً ربعي بن الأفكل ، ونقدّر عددهم بأنهم كانوا أربعة آلاف من جملة الآلاف الخمسة ، وذلك بالإضافة إلى مَن انضمّ إليهم من القبائل الذين أسلموا حديثاً . وبقي ابن المعتم في ألف بتكريت هم جند المؤخرة . كانوا في أشدّ الصيف حرارة، فكانت أوامر عبدالله إلى ربعي بن الأفكل أن يسير الليل حتى قبل الظهر وأن يسرع السير حتى يسبق الأخبار .

---

(١) معجم البلدان ٨ / ٣٦٨ .

(٢) فتوح البلدان ٨٢٠ و ٨٢٣ .

« اسبق الخبر وسِرْ ما دون القيل وأحْيِ الليل » .

وسرّح معه تغلب وأياد والنمر الذين أسلموا واشتركوا معه في فتح تكريت وكان قد اطمأنّ إليهم وإلى إسلامهم وكانوا من أهل منطقة الحصنين .

سار ربعي بن الأفكل على الطريق ، فقد كان أسلوبه الذي اتبعه للمفاجأة هو السرعة والسبق لا التخفي، ولا شك أن الطريق المباشر – أو الخط المستقيم – هو أقصر المسافات وأيسرها . وقدّم قبائل أياد وتغلب والنمر وعليهم عتبة بن الوعل أحد بني سعد بن جشم ، وذو القرط ، وأبو وداعة بن أبي كرب ، وابن ذي السنينة ، وابن الحجير الأيادي ، وبشر بن أبي حوط ، وكانوا متساندين في الامارة ، فسبقوا الأخبار إلى الحصنين وبلغوهما ولم يعلم أهلها شيئاً بعدُ من أمر تكريت .

فلما اقتربوا تقدّمهم عتبة بن الوعل إلى من كان مقيماً بالمنطقة فادعى لهم الظفر على المسلمين والنفل والرجوع بسلام . ثم تبعه ذو القرط ثم ابن ذي السنينة ثم ابن الحجير ثم بشر، فوقفوا بأبواب الحصون وقد أخذوا بها حتى أقبلت سرعان الخيل يقودها ربعي بن الأفكل وقد قسمها إلى قسمين فاقتحمت الحصنين معاً ، ونادى أهلها بالاستجابة إلى الصلح، فمنهم مَن أجاب وأقام، ومنهم مَن لم يستجب فهرب ، وأتاهم ابن المعتم فنزل عليهم ودعا مَن هرب وذهب إلى العودة ووفى لمن أجاب ، فتراجع الهرّاب واغتبط المقيم بالأمن والسلام وانتهاء حربهم مع المسلمين التي بدأت منذ حملة خالد بن الوليد – بل منذ ادّعت سجاح النبوّة – واستمرت في حملة المثنى بن حارثة . وصارت لهم جميعاً ذمة المسلمين ومنعتهم .

وفي تكريت اقتسموا الأنفال ، فكان للفارس ثلاثة آلاف درهم وللراجل ألف ، وبعثوا بالفتح مع الحارث بن حسان الذهلي ، وبالأخماس مع فرات بن حيان العجلي، وصارت الموصل ثغراً من ثغور المسلمين ووَلِيَ شؤون حربها ربعي ابن الأفكل العنزي ووَلِيَ خراجها عرفجة بن هرثمة البارقي .

هيث[1] وقرقيسياء

الى هيث[2]

واجتمعت جوع أهـــل الجزيرة وانضموا إلى جيش هرقل صاحب حمص ، وبعثوا جنداً إلى أهل هيث على نهر الفرات . وكتب سعد بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر :

« ابعث إليهم عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف في جند .

---

(١) مسافات الطريق إلى هيث وإلى قرقيسياء ذكرها ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر ، قالا : « من بغداد إلى السيلحين أربعة فراسخ ، ثم إلى الأنبار ثمانية فراسخ، ثم إلى الرب سبعة فراسخ، ثم إلى هيث اثنا عشر فرسخاً ، ثم إلى الناووسة سبعة فراسخ ، ثم إلى آلوسة سبعة فراسخ ، ثم إلى الفحيمة ستة فراسخ ، ثم إلى الفرضة ستة فراسخ ، ثم إلى وادي السباع ستة فراسخ (وقـال قدامة خمسة)، ثم إلى خليج بني جميع خمسة فراسخ ، ثم إلى الفاش سبعة فراسخ (وقال قدامة ستة ، ثم قال وإلى قرقيسياء ثمانيـة فراسخ) (المسالك والممالك ٧٢ - الخراج وصنعة الكتابة ٢١٧).فجملة المسافة إلى هيث ٣١ فرسخاً = ١٧٢ كيلومتراً ، وإلى قرقيسياء ١٠١ فرسخاً = ٥٦٠ كيلومتراً . وقال الاصطخرى في القرن الرابع الهجري : قرقيسياء على الخابور ولها بساتين وأشجار كثيرة وزروع نزهة ، وهيث مدينة وسطة على غربي الفرات وعليها حصن وهي عامرة آهلة ، وهي بحذاء تكريت (المسالك والممالك ٥٤) .

(٢) انظر خريطة ١٠ .

وابعثْ على مقدمته الحارث بن يزيد العامري .
وعلى مجنبتيه ربعي بن عامر ، ومالك بن حبيب » .
فخرج عمر بن مالك من المدائن سائراً نحو هيث . وقدم الحارث بن يزيد حتى نزل على الذين اجتمعوا بهيث وقد خندقوا حولهم .

قرقيسياء أولاً

وطال حصار عمر لهم ، فلما رأى امتناعهم بخندقهم واعتصامهم به ترك الأخبية على حالها وخلّف عليهم الحارث بن يزيد ليستمر على حصارهم وخرج هو في نصف الجند نحو قرقيسياء يتجنب الطريق . وقرقيسياء بلدة عند ملتقى نهر الخابور بنهر الفرات [1] ، ففاجأ أهلها واستولى عليها عنوة على غرّة منهم ، فاستجابوا لأداء الجزية .

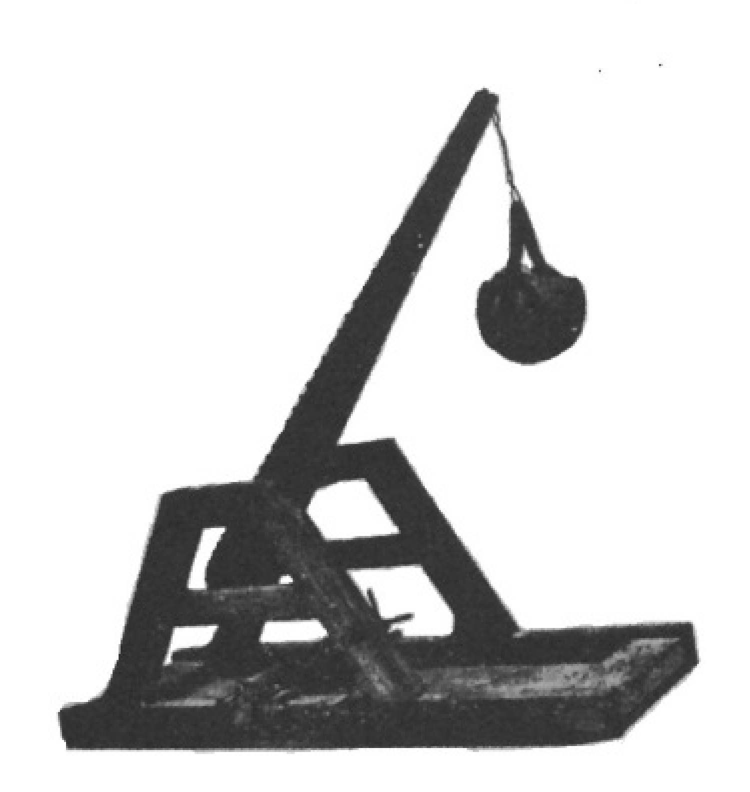
ثم هيث

وكتب عمر [2] بن مالك إلى الحارث بن يزيد :
« إنهم إن استجابوا فخَلّ عنهم فليخرجوا ، وإلا فخندِقْ على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك حتى أرى من رأيي » .
واستجاب المحاصَرون في هيث لهذا العَرض ، فانضمّ جند المسلمين إلى عمر ابن مالك وجلا الأعاجم فانضموا إلى أهل بلادهم .
وقال عمر بن مالك [3] يصف فتح هيث وقرقيسياء :

---

(١) معجم البلدان ٧ / ٥٩ .
(٢) الطبري ٤ / ٣٧ س ش س عن طلحة ومحمد والمهلب وعمرو وسعيد .
وقال : إن وقعة قرقيسياء كانت في رجب - وقالوا إنها كانت بعد رجوع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن . ومن حيث كانت جلولاء في ذي القعدة ، فإننا نرى تناقضاً في الرواية بين أن تكون قرقيسياء وهيث في رجب وأن تكون بعد رجوع هاشم من جلولاء .
(٣) الفتح العربي للعراق وفارس ٢١٨ .

ونحن جمعنا جمعهم في حفيرهم ... بهيث ولم تحفل لأهل الحفائر
وسرنا على عمد نريد مدينة ... بقرقيسيا سير الكماة المساعر
فجئناهم في دارهم بغتة ضحى ... فطاروا وخلوا أهل تلك المحاجر
فنادوا إلينا من بعيد بأننا ... ندين بدين الجزية المتواتر
قبلناها ولم نردد عليهم جزاءهم ... وحطناهم بعد الجزا بالبواتر



ماسبذان[1]

« ولما رجع هـــاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن بلغ سعداً أن آذين بن هرمزان قـد جمع جمعاً فخرج بهم إلى السهل ، فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب عمر إليه :

« ابعثْ إليهم ضرار بن الخطاب في جنـد واجعلْ على مقدمته ابن الهذيل الأسدي وعلى مجنبتيه عبدالله بن وهب الراسبي حليف بجيـلة ، والمضارب بن فلان العجلي » .

فخرج ضرار بن الخطاب [وهو أحد بني محارب بن فهر – وفهر هو قريش] في الجند ، وقدم ابن الهذيل حتى انتهى إلى سهل ماسبذان فالتقوا بمكان يدعى بهندف ، فاقتتلوا بهـا . فأسرع المسلمون في المجوس وأخذ ضرار آذين سَلَماً فأسره فانهزم عنه جيشه ، فقدمه فضرب عنقه ثم خرج في الطلب حتى انتهى إلى السيروان[2] ، فأخـــذ ماسبذان عنوة وتطاير أهلها في الجبال فدعاهم

---

(١) كور الجبل ماسبذان ومهرجانقذق والدينور ونهاوند وهمذان وقم . قال الملك قباذ : أجود مملكتي فاكهة المدائن وسابور وأرجان والري ونهاوند وحلوان وماسبذان (ابن خرداذبة في المسالك والممالك ٢٠ و ١٧٢) . (انظر خريطة ١٠) .

(٢) من حلوان إلى مدينة ماسبذان سبع سكك (حوالي ٨٠ كيلومتراً) ومن السيروان إلى الصيمرة مدينة مهرجانقذق أربع سكك (حوالي ٥٠ كم) - (ابن خرداذبة في المسالك والممالك ٣٠ - وقدامة بن جعفر ٢٢٦) .

فاستجابوا له ، وأقام بها حتى تحوّل سعد من المدائن فأرسل إليه فنزل الكوفة واستخلف ابن الهذيل على ماسبذان [1] .

وفي معركة ماسبذان قال ضرار [2] يذكر أسر آذين :

ويوم حبسنا قوم آذين جنـــده ... وقطراته عند اختلاف العواملِ
وزرد وآذيناً وفهـــداً وجمعهم ... غداة الوغى بالمرهفات الصواقلِ
فجاؤوا إلينا بعد غبٍّ لقـــائنا ... بماسبذان بعـــد تلك الزلازلِ

---

(١) الطبري ٤ .

(٢) قادة فتح بلاد فارس ٩٣ - عن معجم البلدان ٧ / ٣٦٤ .

الأبلة والبصرة

الجبهة الثانية

تبدأ أحداث هذا القطاع ووقائعه قبل أحداث جلولاء وتكريت والموصل وهيت وقرقيسياء بل وقبل فتح المدائن، غير أنها أحداث تمتد في زمنها وتاريخها إلى ما بعد الفراغ من كل ما ذكرنا . فقد كان قطاع الأبلة والبصرة والأهواز جبهة ثانية تسير جنباً إلى جنب في نفس الوقت الذي كانت تدور فيه معارك المدائن وما تفرّع بعدها .

ذلك أنه بعد أن فرغ سعد من بابل في ذي القعدة ١٥ هـ – ديسمبر ٦٣٦ م وكتب بذلك إلى عمر بن الخطاب ، قدّر عمر أنه لم يبقَ على المدائن شيء وأن المعركة التالية ستكون معركة المدائن ذاتها. وقدّر أيضاً أن يزدجرد لن يدخر وسعاً في حشد كل ما يمكنه من قوة للدفاع عنها . ولذلك أراد عمر أن يفتح على يزدجرد جبهة ثانية يشتت بها جهده ويمنع بها أن تتفرغ كل موارده لمعركة المدائن .. فقرّر أن يبعث عتبة بن غزوان المازني إلى البصرة . كان قطبة بن قتادة ما زال يُغير على تلك النواحي ، فقرر عمر تصعيد العمليات بها ، وحدد لعتبة إذ بعثه هدفين : هدفاً أساسياً وهدفاً ثانياً .

الهدف الأول : أن يقوم بتثبيت القوات الفارسية بتلك المنطقة ليمنعهم من التحرك لنجدة إخوانهم جند المدائن.. أن يشكل تهديداً ضد الأبلة يمنع القوات التي بها وحولها أن تتحرك شمالاً إلى المدائن .

والهدف الثاني ، فتحها إذا تسنّى ذلك . وما من شك في أن سقوطها من شأنه أن يزيد أمر الفرس سوءاً .

ففي رواية المدائني [1] أن عمر وجّه عتبـــة بن غزوان إلى البصرة وأمره

---

(1) فتوح البلدان ٨٤٢ .

وفي روايات جاءت في الطبري وفي فتوح البلدان أن عمر قال لعتبة إن الحيرة قد فتحت وقتل عظيم من العجم . ثم قـال الراوي (يعني مهران) ؛ ولعـله تمشياً مع أنهم وضعوا فتح البصرة من أحداث عام ١٤ هـ ، ونراه التباساً على الرواة الذين ذهبوا إلى أن المظيم المقصود هو مهران ، والذي نراه انه كان رستم ، وبذلك تكون البصرة بعد القادسية من أحداث عام ١٦ هـ .. يؤيد هذا قول عمر لعتبة وهو يكلفه : « ووطئت خيل المسلمين أرض بابل » ، وقـــد كان ذلك بين القادسية والمدائن . أمـا عن مقتل مهران بالبويب ، فقد قام المثنى بعدها بغارات على كافة أنحاء العراق، بابل وغير بابل. ثم عادوا بعد تولية يزدجرد وانسحبوا منها جميعاً إلى الصحراء من شمال العراق إلى جنوبه ، فكانوا في قطاع البصرة في غضى من جبال الصحراء . وعلى مـــا ذهبنا إليه يكون بعث عتبة إلى البصرة بعـد أن تحرك سعد من القادسية في أواخر شوال ١٥ هـ واجتاز برس وبابل . كان ذلك في النصف الثاني من ذي القعدة ١٥ هـ ، ويكون تكليف عتبة بنـاء على ذلك في أواخر ذي القعدة ١٥ هـ – أواخر ديسمبر ٦٣٦ م، ويكون كما ذكر الرواة نزل أرض البصرة في شهر ربيع الأول أو الآخر ، ولكننا نذهب إلى أن ذلك كان عام ١٦ وليس من عام ١٤ كما ذكروا . ولعل خطبة عتبة بالبصرة توحي بهذا ، إذ يقول : « .. ولقـــد رأيتني سابع سبعة مع النبي .. والتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك ، فما منـا من أولئك السبعة من أحد إلا وهو أمير مصر من الأمصار » . ولم يكن سعد أمير مصر من الأمصار في عام ١٤ هـ ، ولكن بعد فتح المدائن ١٦ هـ . بل إن سيف بن عمر ذهب إلى أن خروج عتبة إلى البصرة إنما كان من المدائن ولم يكن من المدينة،وأن ذلك كان بعد فراغ سعد منجلولاء وتكريت والحصنين (الطبري ٣ / ٥٩٠ عن محمد وطلحة والمهلب وعمر) .

وروى البلاذري أن عمر أمر سعداً أن يبعث عتبة إلى البصرة ففعل (فتوح البلدان ٥٠٧). والأرجح عندنا أن عتبة خرج إلى البصرة من قطاع المدائن قبل فتح المدائن ، يؤيد هـذا وجود المغيرة بن شعبة مع عتبة ، وقد كان في جيش سعد بالقادسية . هذا ولدينا رواية صريحة في أن إمارة عتبة على البصرة كانت ستة أشهر في عام ١٥ هـ (الطبري ٣ / ٥٩٧) .

بنزولها ومَن معه وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها. وفي رواية الشعبي أنه قال :

« قد فتح الله عزّ وجلّ على إخوانكم الحيرة وما حولها ، وقُتل عظيم من العجم ووطئت خيل المسلمين أرض بابل، ولست آمن أن يمدّهم إخوانهم من أهل فارس ، فإني أريد أن أوجّهك إلى أرض الهند (الأبلة) لتمنع أهل تلك الجيزة من أهل الأهواز وفارس وميسان عن إمداد إخوانهم على إخوانكم وتقاتلهم لعلّ الله يفتح عليكم . فسِرْ على بركة الله واتّقِ الله ما استطعت واحكم بالعدل ، وصَلّ الصلاة لوقتها وأكثِرْ ذكر الله »[1] .

وصية عمر لعتبة

عتبة بن غزوان بن جابر بن وهب بن نسيب أحد بني مازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة حليف بني نوفل بن عبد مناف[2] من قريش، خرج إلى البصرة في بضعة عشر رجلاً ، وقال له عمر :

(١) الطبري ٣ / ٥٩٠ س ش س عن عمر بن شبة عن علي بن محمد بن أبي مخنف عن مجالد عن الشعبي .

(٢) فتوح البلدان ٨٤٢ .

وعتبة بن غزوان أحد السابقين إلى الاسلام وهو ابن سبع وعشرين (يعني انه في عام ١٦ هـ كان في السادسة والخمسين) . هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وهو في سن الأربعين . وكان المقداد بن عمرو رفيقه في الهجرة، ونزل في المدينة على عباد بن بشر الأنصاري في داره (وقيل على عبدالله بن سلمة العجلاني) ، وآخى الرسول بينه وبين أبي دجانة .

شهد بدراً والمشاهد كلها مع النبي (ص) ، ويقال إنه شهد القادسية . قال عنه عمر : « إن له من الاسلام مكاناً، فقد شهد بدراً وقد رجوت جزاءه عن المسلمين ». وفي السنة الثانية من الهجرة بعث النبي سرية من ثمانية إلى نخلة كان عتبة أحدهم وكان عليها عبد الله بن جحش . وكان عتبة طويلاً جميلاً من الرماة المعدودين من الصحابة. ونذهب دائماً إلى أن إجادة الرمي دليل على ثبات الأعصاب وقوة البدن . (الطبقات الكبرى ٧/١ و٢ و٣ – أسد الغابة)



خريطة (٩) الأبلة المقياس ١ / مليون

« يا عتبة إني استعملتك على أرض الهند وهي حومة من حومة العدو وأرجو أن يكفيك الله ما حولها وأن يعينك عليها .

وقد كتبت إلى العلاء بن الحضرمي أن يمدّك بعرفجة بن هرثمة (وكان وقتها بالبحرين فجاء إلى البصرة ثم صار بعدُ إلى الموصل على ما ذكرنا في فتح تكريت والموصل) وهو ذو مجاهدة للعدو ومكايدته . فإذا قدم عليك فاستشره وقرّبه.

وادعُ إلى الله ، فمَن أجابك فاقبل منه ، ومَن أبى فالجزية عن صغار وذلة ، وإلا فالسيف في غير هوادة .

واتّقِ الله فيما وليت. وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر يفسد عليك اخوتك وقد صحبت رسول الله ﷺ فعززتَ به بعد الذلة وقويتَ به بعد الضعف حتى صرتَ أميراً مسلطاً وملكاً مطاعاً تقول فيُسمَع منك وتأمر فيُطاع أمرك. فيا لها من نعمة إنْ لم ترفعك فوق قدرك وتبطرك على مَن دونك. احتفظ من النعمة احتفاظك من المعصية، ولهي أخوفها عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم!

أعيذك بالله ونفسي من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى الله حين رفعت لهم الدنيا فأرادوها، فأرِدِ الله ولا تُرِدِ الدنيا واتّقِ مصارع [1] الظالمين.

انطلقْ أنت ومَن معك، حتى إذا كنتم في أقصى أرض العرب وأدنى أرض العجم فأقيموا».

نزلوا مكان البصرة

فانطلقوا وانضمّ إليهم من الأعراب وأهل البوادي، فبلغ البصرة في خمسمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً. وفي رواية انهم بلغوا ثمانمائة [2]، وربما كان ذلك بعد انضمام قطبة بن قتادة السدوسي ومَن كان معه بتلك الجهات إليهم. وكانوا يقولون عن تلك البقعة أرض الهند، باعتبار أن الأبلة كانت ميناء التجارة مع الهند والشرق. وكانت أرضها حجارة جص رخوة بيضاء خشنة كانت العرب تسميها البصرة، وبذلك سُمّيت البصرة بعد تمصيرها. فنزلها عتبة في ربيع

---

(١) الطبري ٣ / ٥٩٣ عن عمر عن علي عن عيسى بن يزيد عن عبد الملك بن حذيفة ومحمد ابن الحجاج عن عبد الملك بن عمير.

(٢) فتوح البلدان ٤٩ عن عبدالله بن صالح المقري عن عبده بن سليمان عن محمد بن اسحاق ابن يسار.

وقال الشعبي: شهد فتح الأبلة مائتان وسبعون فيهم أبو بكرة ونافع بن الحارث وشبل بن معبد والمغيرة بن شعبة ومجاشع بن مسعود وأبو مريم البلوي وربيعة بن كلدة بن أبي الصلت الثقفي والحجاج. اه. وترى هذا العدد أقل من أن يفتح حاضرة فارسية كبيرة مثل الأبلة.

الأول أو الآخر ١٦ هـ - ابريل - مايو ٦٣٧ م ، حتى إذا كان حيال جسر البصرة الصغير إذا فيه حلفاء ، ورأى منابت القصب (البوص) نابتة وسمع نقيق الضفادع فهي في موسم تزاوجها ، فقد كان الفصل ربيعاً وكل تلك من مظاهر الربيع بشط العرب . فقال عتبة :

« ها هنا أمرتم. إن أمير المؤمنين أمرني أن أنزل أقصى البر من أرض العرب وأدنى أرض الريف من أرض العجم ، فهذا حيثُ واجبٌ علينا فيه طاعة إمامنا » .

ونزل بالناس في خيام . فلما كثروا بنى رهط منهم سبع دساكر في سبعة منازل : منزل بالزابوقة [١] ، ومنزلين بالخريبة ، ومنزلين من منازل بني تميم ، ومنزلين من منازل الأزد . ولعله أراد بذلك الوقوف على مسالك المنطقة . ثم كتب بذلك إلى عمر ووصف له منزله .

اول معاركهم

لم يكن يخفى على عمر قلة عددهم ، فكتب إليه :

« اجمع الناس موضعاً واحداً قريباً من الماء والمرعى ولا تفرقهم » .

فجمعهم عتبة في موضع البصرة وأقام شهراً [٢] لا يغزو ولا يقاتل ولا يخرج إليه أحد ، حتى ذهب مَن أبلغ قائد الحامية الفارسية بجنوب الفرات :

« إن ها هنا قوماً معهم راية وهم يريدونك » .

فخرج إليهم في أربعة آلاف ، فلما رآهم استخفَّ بهم وقال :

« ما هم إلا ما أرى ؟!.. اجعلوا في أعناقهم الحبال وائتوني بهم ! » .

---

(١) على الطريق من البصرة إلى البحرين ، وبها كانت وقعة الجمل .

(٢) وقيل أشهراً . ومن حيث كانت مهمة عتبة مشاغلة عجم تلك الناحية عن نجدة المدائن، فإنه يتعين أن تكون تكتيكاته الظهور لا التخفي ، ولذلك نستبعد أن يكون قد أقام شهراً لا يغزو .

فلما مالت الشمس عن كبد السماء قال عتبة لمن معه : « احملوا » ، فحملوا حملة صادقة فقتلوهم جميعاً وأخذوا قائدهم أسيراً . وكان يوماً من أيام الصيف شديد الحرارة وصفه الرواة فقالوا : « وكان يوم عكاك وومد » [١] ، والعكاك ومثله الومد هو شديد الحر مع احتباس الريح وسكونه [٢] .

ثم وقف عتبة يخطب خطبته الشهيرة وقد رفعوا له منبراً فقال :

« إن الدنيا تَصَرَّمَتْ وَوَلَّتْ حَذَّاء ولم يبقَ منها إلا صبابة كصبابة الإناء . ألا وإنكم منتقلون منها إلى دار قرار ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم .

وقد ذُكِرَ لي لو أن صخرة أُلقِيَتْ من شفير جهنم هَوَتْ سبعين خريفاً ، وَلَتَمْتَلِأَنَّه ! أوَعجبتم ؟

ولقد ذكر لي أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً وليأتينَّ عليه يوم وهو كظيظ .

ولقد رأيتني وأنا سابع سبعة مع النبي ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السمر حتى تقرّحت أشداقنا، والتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد (ابن أبي وقاص) فما منا من أولئك السبعة من أحد إلا وهو أمير مصر من الأمصار ، وسيجربون الناس بعدنا » .

سقوط الأبلة

وكان بالأُبُلّة حامية من خمسمائة مقاتل ، فخرجوا للمسلمين وعتبة دون الأجّانة [٣] ، فجعل عتبة عشرة من فرسانه عليهم قطبة بن قتادة السدوسي وقسامة بن زهير المازني لحماية ظهرهم ، وقال لهم :

---

(١) الطبري ٣ / ٥٩٣ . (٢) المنجد .

(٣) كان لشط العرب خور وهو طريق طبيعي لمياه الأمطار التي تنحدر إليه يمتلىء بالماء عند المد وينضب عند الجزر ، وكان طوله قدر فرسخ ، وكان لمده من جهة البصرة غور وسعة كانت تسمى في الجاهلية الأجانة وسمته العرب في الاسلام الجزارة. وهو على مقدار ثلاثة فراسخ من البصرة.

« كونوا في ظهرنا فتردّان المنهزم وتمنعان مَن أرادنا من ورائنا » .

ثم حمل عليهم فما اقتتلوا – وفق تعبير الرواة بلغة عصرهم – إلا مقدار جزر جزور وقسمها حتى منحهم الله أكتافهم يقتلون منهم. قتل نافع بن الحارث منهم تسعة، وقتل أبو بكرة الثقفي ستة، فولوا منهزمين حتى عادوا إلى مدينتهم ورجع عتبة إلى عسكره فأقاموا أياماً . ولكن الرعب أصاب حامية الأبلة فانسحبت منها شمالاً نحو الفرات حتى عبرته دون قتال . ودخل عتبة الأبلة فأصاب المسلمون منها متاعاً وسلاحاً وسبياً وذهباً ، فأصاب كل منهم درهمين . وولى عتبة أقباض الأبلة نافع بن الحارث فقسمه وأخرج الخمس ، وكتب عتبة بذلك إلى عمر مع نافع بن الحارث . كان ذلك في رجب أو شعبان (قيل من عام ١٤ وتراه من عام ١٦ ﻫ) .

كانت الأبلة فتحاً كبيراً لقوة صغيرة، وقد كان للمسلمين بها مثلما كان من أمر إخوانهم بالمدائن ، إذ وجدوا بها من النعمة ما لم يكن لهم به عهد ، فكان من ذلك مشاهد فكاهية طريفة . قال حميري بن كراثة الربعي :

« لما دخلوا الأبلة وجدوا خبيز الحواري ، فقالوا : هـذا الذي كان يقال إنه يُسَمِّن ، فلما أكلوا منه جعلوا ينظرون إلى سواعدهم ويقولون : والله ما نرى سمناً ! » .

وقال : « وأصبتُ قميصاً مُجَيَّباً (له جيب) من قبل صدره ، أخضر ، فكنت أحضر فيه [1] (صلاة الجمعة) » .

قال سلمة بن المحبق : « شهدت فتح الأبلة فوقع لي في سهمي قِدر نحاس ، فلما نظرت إذا هي ذهب فيها ثمانون ألف مثقال ، فكتب في ذلك إلى عمر ،

---

(١) فتوح البلدان ٦، ٨ عن عبد الواحد بن غياث عن حماد بن سلمة عن أبيه عن حميري ابن كراثة الربعي .

فكتب أن يصير يمين سلمة بالله لقد أخذها يوم أخذها وهي عنده نحاس ، فإن حلف سلمت إليه وإلا قسمت بين المسلمين ، قال فحلفت فسلمت لي » .

قال المثنى بن موسى بن سلمة بن المحبق : « فأصول أموالنا اليوم منها »[1] .

البصرة

وتضايق المسلمون من طبيعة الأرض ، فقال عتبة لمن معه :

« أبغوا لنا منزلاً هو أنزه من هذا » .

فأمره عمر أن ينزل الحجر بعد ثلاثة أوطان إذ كرهوا الإقامة على الطين ، فنزلوا في الرابعة البصرة . وأمر لهم [فيما بعد] بنهر يجري من دجلة فساقوا إليها نهر اللشفة ، وكان ذلك مع تكويف الكوفة بعد فتح المدائن .

اشتباكات أخرى

وجمع مرزبان دست ميسان جمعاً جديداً من أهلها ، ولم ينتظرهم عتبة ، وإنما سار إليهم وعلى مقدمته مجاشع بن مسعود السلمي ، فقاتلوه فانهزم عنه أصحابه فأسره المسلمون ، وأرسل عتبة قباءه ومنطقته مع أنس بن حجية اليشكري إلى عمر .

وسأله عمر : « كيف المسلمون ؟ » .

قال أنس : « انثالت عليهم الدنيا فهم يهيلون الذهب والفضة » .

فرغب الناس في البصرة فأتوها .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٩٧ عن المثنى بن سلمة بن المحبق عن أبيه عن جده ، ونرى في الرواية مبالغة ظاهرة، فمن حيث أن المثقال يعادل ٤٫٢٥ جرام فإن تلك القدر تزن ٣٤٠ كيلوجراماً ذهباً ، وهو رقم غير معقول على الاطلاق .

وآثر عتبة أن يتقدم إلى الحاميات القليلة للعجم بأسفل دجلة والفرات بدلاً من انتظارهم ، فإن إقدامه عليهم أوهن لشوكتهم ، وهو بهذا يكون أكثر أداء لمهمته ، فقد كانت معركة جلولاء دائرة ، المسلمون محاصروها والمجوس يزاحفونهم . فتقدم عتبة نحو ميسان [منطقة العمارة] والتحم ببعض العجم في نواحي المذار وأبرقباذ . وكانت أردة [1] بنت الحارث بن كلدة امرأة شبل بن معبد البجلي ممن شهدها ، فكانت تحرّض المسلمين على القتال أشد تحريض وتقول: « إن يهزموكم تولجوا فينا الغلف ! » . وهزمهم عتبة وعاد إلى البصرة .

كماشات تطهير

هذا يجري في قطاع ميسان ودست ميسان في تناسق مع عمليات سعد بن أبي وقاص في قطاع المدائن ، ففي حين كان يحاصر بهرسير قامت قواته بغارات على السواد فيما بين دجلة والفرات ، حتى دخل في ذمة المسلمين . وكان عتبة يتم هذا في جنوب العراق ، فبعد سقوط الأبلة راحت قواته – كما رأينا – تطهر أسفل دجلة والفرات ، فكأنما كان سواد العراق بين السندان والمطرقة ، تجوسه قوات سعد من شماله نحو وسطه ، وتجوبه قوات عتبة من جنوبه إلى وسطه .

تنظيم مالي

ووضع عمر بن الخطاب الجزية في العراق ، على كل رجل اثني عشر درهماً أو أربعاً وعشرين أو ثمان وأربعين في السنة كلٌ حسب طاقته ، فكان عدد مَن وجبت عليه الجزية في جميع أنحاء السواد ٥٥٠ ألفاً على اختلاف الطبقات [2] .

---

(١) كانت أختها صفية بنت الحارث بن كلدة زوج عتبة بن غزوان ، فلما ولي عتبة البصرة ذهب معه أصهاره أبو بكرة وأخوه نافع بن الحارث بن كلدة الثقفي وشبل بن معبد البجلي (الطبري ٣ / ٥٩٧ عن المدائني) .

(٢) الخراج في الدولة الاسلامية ١٤٣ .

وتضافرت الروايات على أن خراج العراق زمن عمر كان ١٠٠ مليون درهم [١] بوزن المثقال . ويذكر أنه بلغ في عهد كسرى أنو شروان ٢٨٧ مليون درهم بوزن سبعة = ٢٠٠ مليون بوزن [٢] المثقال . ومعنى ذلك أن الضرائب التي وضعت على الناس في الديار المفتوحة قـد هبطت إلى النصف على ما كانت عليه في عهـد كسرى أنو شروان ، الذي كان يُعتبر قمة ما وصلت إليه الدولة الساسانية من المجد والعدالة والرخاء بين الناس .

* * *

(١) الخراج في الدولة الاسلامية ١٤٣ .
(٢) وقيل ١٢٠ مليوناً وقيل ١٨٠ مليوناً .

فتح الأهواز[1]

نشاط هرمزان

وكان هرمزان – كما ذكرنا في حينه من معركة بابل – قد انسحب بقواته نحو الأهواز ومهرجان قذق ، حين بعث عمر عتبة بن غزوان نحو الأبلة . قوات

---

(١) الأهواز هي إقليم خوزستان وهي من إيران اليوم ، وقد كانت سبع كور، سوق الأهواز من حد البصرة ونهر تيري مما يقابل المذار وتستر وجند يسابور والسوس ورام هرمز وسوق المتيق . وذكر بعضهم أيذج وعسكر مكرم ومرق ومناذر الكبرى ومناذر الصغرى. ومصادر البلدانيين غنية بذكر تفاصيل المسافات بين مدنها وبينها وبين ما جاورها من أقاليم . والأهواز في مستوى وأرض سهلة ومياه جارية ، ومن أكبر أنهارها نهر تستر وهو الذي بنى عليه الملك سابور شاذروان (سداً) بباب تستر حتى ارتفع ماؤه إلى أرض المدينة لأن تستر على مكان مرتفع من الأرض، وليس بجميع خوزستان جبال ولا رمال إلا شيء يسير يتاخم نواحي تستر وجنديسابور وبناحية أيذج وأصبهان والباقي من خوزستان كأنه أرض العراق ، والغالب على خلقة أهلها صفرة اللون والنحافة وخفة اللحى والضخامة . وقد جمعت قصبة الأهواز الأفاعي في جبلها الطاعن في منازلها المطل عليها وفي بيوتها العقارب القتالة .

(ابن خرداذبة ٤٢ و٥٧ و١٧٠ و١٩٧ وقدامة بن جعفر ٢٤٢ والاصطخري ٦٢-٦٦)

وقد ذكر الاصطخري سوق الاربعاء وحددها على خريطته مقابلة لموقع جي الذي يبعد عن البصرة مرحلة أو مرحلتين خفيفتين ، ولا نعتقد أن سوق الاربعاء هذا هو سوق الأهواز الوارد ذكره في هذه الفتوح ، وإنما نذهب إلى أن سوق الأهواز كان في موقع الأهواز الذي ذكره =

هرمزان تلك نحسبها كانت من بقـايا ميمنة رستم بالقادسية التي كان هرمزان يقودها هناك، ولا بُدّ أن يكون قد أضاف حشوداً أخرى من الأهواز . وصل هرمزان إلى الأهواز شرقي شط العرب وأسفل دجلة، فهو الآن قبالة قوات عتبة غير بعيد منها ، فراح يُغير على المنطقة من وجهين :

١ – من نهر تيري إلى ميسان [جهة العمارة] .

٢ – ومن مناذر إلى دست ميسان [جهة البصرة [١] شرقي شط العرب] .

حشود المسلمين

وطلب عتبة المدد من سعد فأمدّه بنعيم بن مقرن المزني أحد الاخوة أبنـاء مقرن ، ونعيم بن مسعود [٢] ، وأمرهما أن يأتيـا أعلى ميسان ودست ميسان

= الأصطخري بأنه على ٣ مراحل من رامهرمز وعلى أربعة مراحل من دورق وعلى يوم من نهر تيري . وقـد ذكر قدامة بن جعفر أنه بين نهر تيري (تيرين) إلى سوق الأهواز ثلاث سكك (محطات أو منازل على الطريق) وعلى ما سبق حددنا موقعها على الخريطة .

(١) دست ميسان : كورة كبيرة بين واسط والبصرة والأهواز وهي إلى الأهواز أقرب . ويذهب ابن خرداذبة إلى أن الأبلة هي دست ميسان، ولكن دائرة المعارف الاسلامية تذهب إلى أن هذه الولاية يجب أن يلتمس موضعها على الضفة المقابلة (الشرقية) لدجلة .

(٢) نعيم بن مسعود يتردد ذكره مرات في مواقف مشهودة في تاريخ الاسلام . وهو نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبـة بن قنفذ بن خلاوة بن سبيع بن بكر بن أشجع بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر .

كان قبل إسلامه كثير التردد على يهود المدينة من بني النضير وبني قريظة ، فكانوا يصلونه ويطعمونه . وأول ما يطالعنا من أخبار نعيم أنه قدم – وهو ما زال مشركاً – على كنانة بن أبي الحقيق في بني النضير ، فشرب معه الخمر حتى سكر ، وكان في المجلس سليط بن النعمان وذلك قبل تحريم الخمر، فذكر نعيم والخمر تدور برأسه أن عير قريش خرجت من مكة عليها صفوان ابن أمية تحمل تجارتهم وأموالهم إلى الشام ، وأنه تنكب عن جـادة الطريق فسلك على جهة العراق خوفاً من أن يعترضهم المسلمون. فقام سليط من ساعته وأخبر النبي (ص) بما سمع،فبعث =

حتى يكونا بين عتبـــة وبين نهر تيري . حينذاك صارت قوات المسلمين بقطاع

= زيد بن حارثة على سرية إلى القردة من أرض نجد ، فسار لهلال جمادى الآخرة ٣ هـ في مائة راكب ، فأصابوا العير وأسروا دليلهم فرات بن حيان وأفلت أعيان القوم ، فقدم زيد بالعير فبلغ خمسها عشرين ألف درهم .

ثم لما انصرف أبو سفيان يوم أحد فنادى يوم ببوم بدر وموعدنا العام القادم. فلما كان الموعد على رأس الحول في ذي القعدة ٤ هـ ، وكان نعيم بن مسعود قد اعتمر فقدم على قريش فقالوا : يا نعيم من أين كان وجهك ؟ قال : من يثرب، قالوا : وهل رأيت لمحمد حركة ؟ قال : تركته على تعبئة لغزوكم — ولم يكن نعيم قد أسلم — قال أبو سفيان : يا نعيم إن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام ترعى فيه الإبل الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد جاء أوان موعد محمد فالحق بالمدينــة فثبطهم وأعلمهم أنا في جمع كثير ولا طاقة لهم بنا ، فيأتي الخلف منهم أحب إلي من أن يأتي من قبلنـا ولك عشر فرائض أضعها لك في يد سهيل بن عمرو ويضمنها . فضمنها له سهيل وانطلق نعيم حتى قدم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون فتدسس لهم وقال : ليس هذا برأي، ألم يجرح محمد في نفسه ؟ ألم يقتل في أصحابه ؟ فثبط الناس حتى بلغ رسول الله (ص) فتكلم فقال: والذي نفسي بيده لو لم يخرج معي أحد لخرجت وحدي . ثم أنهج الله للمسلمين بصائرهم فخرجوا بتجارات فأصابوا للدرهم درهمين ولم يلقوا عدواً ، وهي غزوة بدر الموعـــد ، وكانت موضع سوق لهم في الجاهلية يجتمعون إليها في كل عام ثمانية أيام . (الطبري ٢ / ٥٦٠)

ثم كان أشهر مواقف نعيم يوم الأحزاب نسمعها منه ، قال : « كنت أقدم على كعب بن أسد ببني قريظة فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم وآكل من طعامهم ثم يحملوني تمراً على ركابي ما كانت فأرجع به إلى أهلي . فلما سارت الأحزاب إلى رسول الله (ص) سرت مع قومي وأنا على ديني ذلك . وكان رسول الله (ص) بي عارفاً ، فقذف الله في قلبي الاسلام فكتمت ذلك قومي وأخرج حتى آتي رسول الله (ص) بين المغرب والعشاء فأجده يصلي ، فلما رآني جلس ثم قال : « ما جاء بك يا نعيم ؟ » قلت : جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق فمرني بمـــا شئت يا رسول الله . قال : « ما استطعت أن تخذل عنا الناس فاخذل » . قلت : ولكن يا رسول الله إني أقول ؟ قال : « قل مـا بدا لك فأنت في حل » . فذهبت إلى بني قريظة فقلت : اكتموا عني اكتموا عني.قالوا: نفعل.قلت: إن قريشاً وغطفان على الانصراف عن محمد (عليه السلام) إن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا استمروا إلى بلادهم، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً. قالوا : أشرت بالرأي علينا والنصح لنـا . ثم خرجت إلى أبي سفيان بن حرب فقلت : قد =

البصرة خمسة آلاف [1].

ووجّه عتبة بن غزوان اثنين من المهاجرين نعرفهما جيداً منذ أول دخول لخالد بن الوليد إلى العراق في محرم ١٢ هـ ، هما سلمى بن القين وحرملة بن مريطة ،

= جئتك بنصيحة فاكتم عني. قال : افعل . قلت : تعلم أن قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد وأرادوا إصلاحه ومراجعته ، أرسلوا إليه وأنا عندهم إنا سنأخذ من قريش وغطفان سبعين رجلاً من أشرافهم ونسلمهم إليك تضرب أعناقهم ونكون معك على قريش وغطفان حتى نردهم عنك وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم - يعني بني النضير - فإن بعثوا إليكم يسألونكم رهناً فلا تدفعوا إليهم أحداً واحذروهم.. ثم أتى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش وكان رجلاً منهم فصدقوه . وأرسلت قريظة إلى قريش : إنا والله ما نخرج فنقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً منكم يكونون عندنا، فإنا نتخوف أن تنكشفوا وتدعونا ومحمداً. فقال أبو سفيان : هذا ما قال نعيم . وأرسلوا إلى غطفان بمثل ما أرسلوا إلى قريش فقالوا لهم مثل ذلك وقالوا جميعاً : إنا والله ما نعطيكم رهناً ولكن اخرجوا فقاتلوا معنا . فقالت يهود : نحلف بالتوراة إن الخبر الذي قال نعيم لحق.وجعلت قريش وغطفان يقولون: الخبر ما قال نعيم، ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء وهؤلاء من نصر هؤلاء، واختلف أمرهم فتفرقوا فكان نعيم يقول : خذلت بين الأحزاب حتى تفرقوا في كل وجه وأنا أمين رسول الله (ص) على سره .

وكان صحيح الاسلام بعد ذلك وهاجر فسكن المدينة وكان يغزو مع رسول الله إذا غزا ، وقد بعثه رسول الله لما أراد الخروج إلى تبوك إلى قومه ليستنفرهم إلى غزو عدوهم .كذلك بعثه النبي وبعث معقل بن سنان إلى أشجع يأمرانهم بحضور المدينة ، وذلك في فتح مكة .

وفي العام الحادي عشر من الهجرة بعث رسول الله (ص) بعض الرسل في محاربة المرتدين ، فبعث نعيم بن مسعود الأشجعي إلى ابن ذي اللحية وابن مشيمصة الجبيري . وسكن نعيم وأولاده المدينة وتوفي في خلافة عثمان . وله رواية عن رسول الله (ص)، وهو الذي روي عنه أنه قال لرسولي مسيلمة الكذاب حين شهدا أن مسيلمة رسول الله:« أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » . أخرجه أبو داود والحاكم في المستدرك والبيهقي في السنن .

(الطبقات الكبرى ٤ / ٢١ - الطبري ٢ / ٥٦٠ ، ٥٧٨ - ٣ / ١٤٦ ، ١٨٧ - الكنز الثمين ٦٢٨) .

(١) الطبري ٤ / ٢١٠ س ش س عن عبدالله بن المغيرة العبدي عن صحار رجل من عبد قيس . - انظر الخريطة (١٠) .

وهما من حنظلة من تميم ، فتقدما حتى نزلا على حدود ميسان ودست ميسان بين نعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود وبين مناذر ، ثم اتصلا ببني العم [العم هو مُرّة ابن مالك بن حنظلة بن زيد مناة بن تميم ، فهم من قومهم من بني حنظلة] في محاولة لزيادة قواتهما ، فاستجاب لهما غالب الوائلي وكليب بن وائل الكليبي وجاءا بقومهما ، فكلفاهما بمهمة القيام بهجوم خادع يصرف أنظار هرمزان عن مناذر ونهر تيري ويحبسانه عن إدراكهما وقالا لهما : « أنتما من العشيرة ، وليس لكما مترك ، فإذا كان يوم كذا وكذا فانهدا لهرمزان ، فإن أحدنا يثور بمناذر والآخر بنهر تيري فنقتل المقاتلة ثم يكون وجهنا إليكم ، فليس دون هرمزان شيء إن شاء الله » .

المعركة

في تلك الليلة الموعودة كان هرمزان بين نهر تيري ودلث . فخرج سلمى وحرملة في الصباح على تعبئة ، وكان سلمى على جيش البصرة ومعه حرملة في قواته ، وأرسلا إلى نعيم بن مقرن وهو على جيش الكوفة ومعه نعيم بن مسعود في قواته ، فأنهضاهما فالتقوا بهرمزان بين دلث وتيري فاقتتلوا . ويبدو أن غالباً وكليباً قد تأخرا عن موعدهما فجاءا بقومهما ورحى القتال يدور ، في حين كان جانب من القوات يستولي على مناذر وعلى مواقع هرمزان على نهر تيري . وأتى الخبر إلى هرمزان أن مناذر وتيري قد سقطتا في أيدي المسلمين ، فانهزم وقُتل من جنده كثير وانسحب حتى شاطىء دجيل [نهر كارون اليوم] ، واستولى المسلمون على ما دون ذلك فعسكروا تجاه سوق الأهواز ، وقد عبر هرمزان جسرها وأقام على رأس الجسر من جهته ودجيل حاجز بينهم ، هرمزان في جهته وسلمى وحرملة ونعيم وغالب وكليب في جهتهم [1] .

أما عن الاستيلاء على مناذر ، فقد روى ابن الأثير في ترجمته لربيع بن زياد

---

(١) الطبري ٤ / ٧٢ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو .

أن عمر بن الخطاب قـال : دلّوني على رجل إذا كان في القوم أمير فكأنه ليس بأمير ، وإذا كان في القوم وليس بأمير فكأنه أمير بعينه . فقالوا : مـا نعرف إلا الربيع بن زياد الحارثي . قال : صدقتم . وكان خَيّراً متواضعاً . وقـد استخلفه أبو موسى على قتـال مناذر فافتتحها عنوة وقتل وسبى[1] ، واستشهد بها أخوه المهاجر بن زياد .

هرمزان يصالح ثم ينقض

حينذاك ، وقد اجتمعت هـذه القوات على الضفة المقابلة لهرمزان واستطاع أن ينظر إليها ، رأى ما لا طاقة له به فطلب الصلح ، فكتبوا بذلك إلى عتبة وكاتبه هرمزان أيضاً . وَقَبِلَ عتبة الصلح على الأهواز كلها ومهرجان قذق ، ما عدا نهر تيري ومناذر وما غلب المسلمون عليه من سوق الأهواز .

وجعل سلمى بن القين على مسلحة مناذر وأمرها إلى غالب الوائلي ، وجعل حرملة بن مريطة على مسلحة نهر تيري وأمرها إلى كليب بن وائل الكليبي . وهاجرت طوائف بني العم من بني حنظلة (من تميم) فنزلوا منـازلهم من البصرة وتتابعوا على ذلك . ثم بعث عتبـة وفداً إلى عمر فيهم سلمى وحرملة والأحنف ابن قيس التميمي وغالب وكليب . ثم ردّهم عمر ، فكان سلمى وحرمـلة على

(١) أسد الغابة ١٦٢٥ وجعل ذلك سنة سبعة عشر . وقال في ترجمته : استعمله معاوية على سجستان فأظهره الله على الترك وبقي أميراً عليها إلى أن مات المغيرة بن شعبة ، فولى معاوية زياد ابن أبيه الكوفة مع البصرة فعزل زياد الربيع الحارثي عن سجستان واستعمله على خراسان فغزا بلخ . وكان الربيع لا يكتب إلى زياد إلا في اختيار منفعة أو دفع مضرة ، ولا كان في موكب قط فتقدمت دابته على دابة من إلى جـانبه ولا مس ركبته ركبته . وكان حسن البصري كاتبه ، ولما أتى الربيع خبر قتل حجر بن عدي بأمر معاوية بن أبي سفيان قال : اللهم إن كان للربيع عندك خير فاقبضه ، فلم يبرح مجلسه حتى مـات . وهو الربيع بن زياد بن أنس بن الديان (اسمه يزيد) بن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعـة بن كعب بن الحارث بن كعب ابن عمرو بن علة بن جلد بن مالك وهو مذحج .

مسلحي مناذر وتيري ، وكانت قوات غالب وكليب هي نقـــاط الحراسة الأمامية .

ووقع بينها وبين هرمزان خـلاف وادّعاء على الحدود التي بينهم ، وحضر سلمى وحرملة لينظرا فيا بينهم فوجــــدا الحق مع غالب وكليب والباطل مع هرمزان، وحكما بذلك، فنقض هرمزان صلحه واستعان بالأكراد فزاد جنده ، وكتب عتبـــة إلى عمر فأمدّه بحرقوص بن زهير السعدي من صحابة رسول الله ﷺ وأمّره على القتال وعلى ما غلب عليه ، وعهـد إليه إن غلبوا هرمزان في المعركة أن يبعث وراءه جَزْء بن معاوية لمطاردته .

معركة أخرى

تعبّأ هؤلاء وهؤلاء ووقفوا تجـــاه بعض لا يفصل بينهما سوى جسر سوق الأهواز . فأرسلوا إلى هرمزان يقولون له :

« إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم » .

قال : « اعبروا إلينا » .

فعبروا إليه الجسر ثم اقتتلوا من ورائه من جهــــة سوق الأهواز . وانهزم هرمزان وتراجع حتى عَبَر قنطرة اربك بقرية اسمها الشغر وطلع منها إلى رامهرمز، فافتتح حرقوص سوق الأهواز وأقام بها ، ونزل حدود الجبل ودانت له بلاد سوق [1] الأهواز من ساحل الخليج إلى تستر .

وقال حرقوص :

غلبنا الهرمزان على بــــلادٍ   لها في كل ناحيةٍ ذخائر [2]

---

(١) الطبري ٤ / ٧٦ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وسعيد وعمرو .

وقد اختلف الرواة حول توقيت فتح الأهواز وفتح تستر،فقال سيف عام ١٧ ، وقال آخرون عام ١٦ ، وقال غيرهم عام ١٩ . وقد وضعها الطبري من أحداث عام ١٦ هـ .

(٢) ذخر الشيء : خبأه لوقت الحاجة ، فالذخائر هي المخبآت .

سواء برّهم والبحر فيهـا إذا صارت نواحيها بواكر [1]
لهـا بحر يعجُّ بجانبيه جعافر لا يزال لهـا زواخر [2]

وقال الأسود بن سريع [3]، وهو من الصحابة وكان تميمياً سعدياً من عشيرة حرقوص :

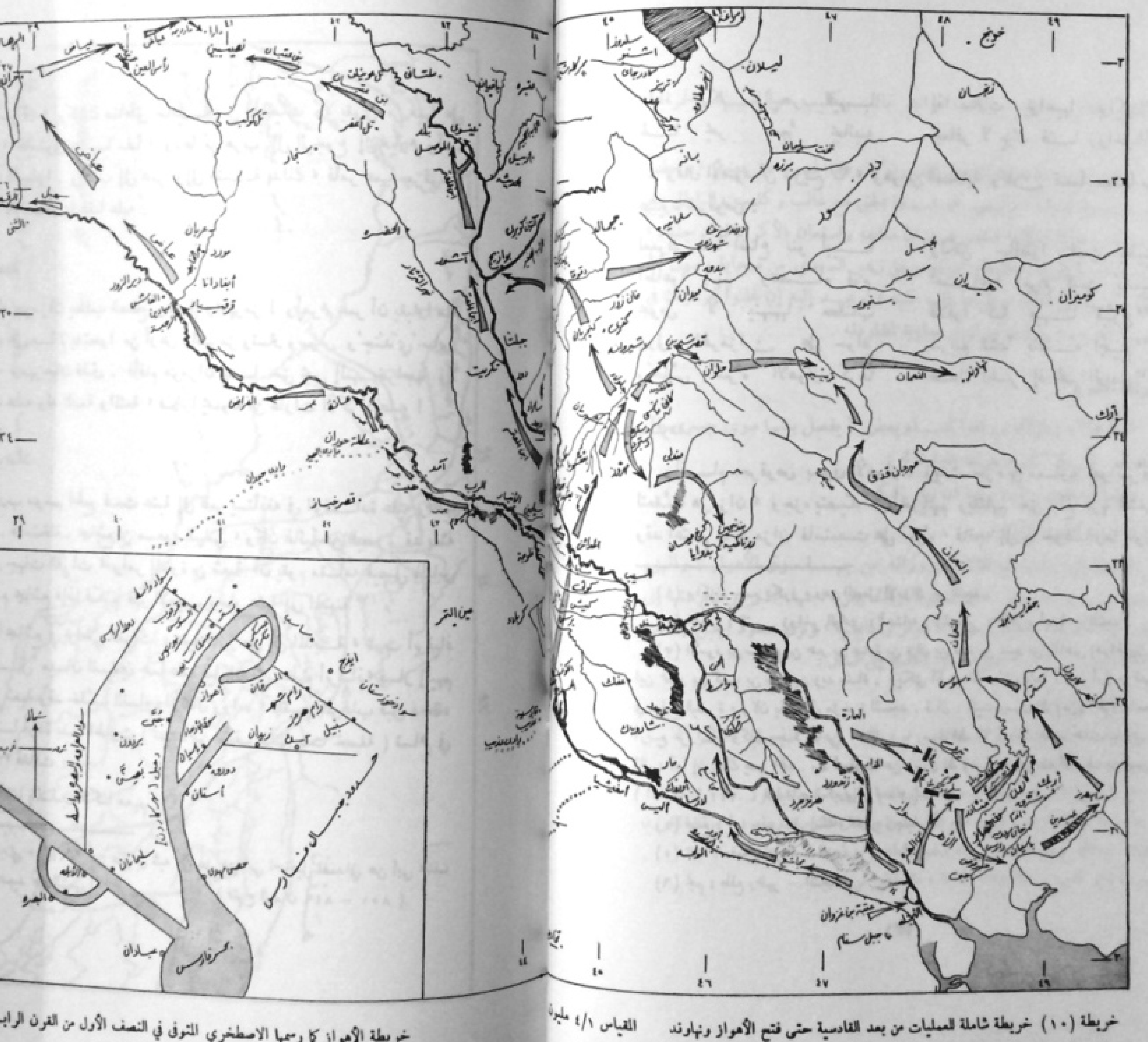
لعمرك مـا أضاع بنو أبينـا ولكن حافظوا فيمن يطيع
أطاعوا ربهم وعصـاه قومٌ أضـاعوا أمرهم فيمن يُضيع
مجوس لا ينهنهها كتاب فلاقوا كبة فيهـا قُبُوع [4]
وولى الهرمزان على جوادٍ سريع الشدّ يثفنـه الجميع [5]
وخلّى سُرّةَ الأهواز كرهاً غـداة الجسر إذ نجم الربيـع [6]

مطاردة

وأقـام حرقوص بسوق الأهواز . وبعث جَزْء بن معـاوية نحو سُرّق لتعقّب هرمزان، وجزء يتصيّد من أخرياتهم ويقتلهم حتى بلغ قرية الشغر وقد اعتصم بها هرمزان فاستعصت على جَزْء، فاتجه إلى ما حولهـا وما حول

---

(١) بواكر : جمع بكور، وهو المعجل الإدراك – المنجد .
(٢) الجعفر : النهر . زواخر الوادي : أعشابه . والزاخر : الكريم أيضاً – المنجد .
(٣) الأسود بن سريع بن حمير بن عبادة بن نزال بن مرة بن عبيد بن مقاعس (هوالحارث) ابن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد منـاة . ويكنى أبا عبدالله . كان قاصاً، وهو أول من قص في جامع البصرة، وكان يذكر في مؤخرة المسجد . قـال : أتيت رسول الله (ص) وغزوت معه أربع غزوات . وكان رجلاً شاعراً، فقال : يا رسول الله ألا أسمعك محامد حمدت بها ربي ؟ قال : أما إن ربك يحب الحمد . وله أحاديث عن رسول الله (ص) وروى عنه الأحنف بن قيس. (أسد الغابة ١٤٤ الطبقات الكبرى ٧ / ٢٨) .
(٤) قبع : أي جلس على إسته وافترش رجليه .
(٥) ثفنه : دفعه وضربه – المنجد .
(٦) نجم : طلع وظهر – المنجد .



خريطة (١٠) خريطة شاملة للعمليات من بعد القادسية حتى فتح الأهواز ونهاوند المقياس ١/٤ مليون

خريطة الأهواز كما رسمها الاصطخري المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع

مدينة سُرّق ، وكانت مناطق خاليـــة من الحاميات ولا يقوى مَن فيها على حمايتها ، فاستولى عليهـا سلماً ، ودعا مَن هرب إلى الرجوع إلى ديارهم وأداء الجزية ، فأجابوا . وكتب إلى عمر وإلى عتبـــة بذلك ، فأمر عمرُ حرقوصَ وجَزْءَ بالإمساك بما غلبا عليه .

صلح جديد

وعاد هرمزان يطلب الصلح وهو في رامهرمز ! وأمرهم عمر أن يقبلوا منه فصالحوه على مـا لم يفتحوا من أرض رامهرمز وتستر وسوس وجُنْدَيْ سابور والبنيان ومهرجان قذق . فأقام هرمزان بهـــا حتى يجبي إليهم خراجها ولا يدخلون عليه وله الذمة والمنعة ، فكانوا يحمونه من غارات الأكراد عليه !

ثورة أبرقباذ

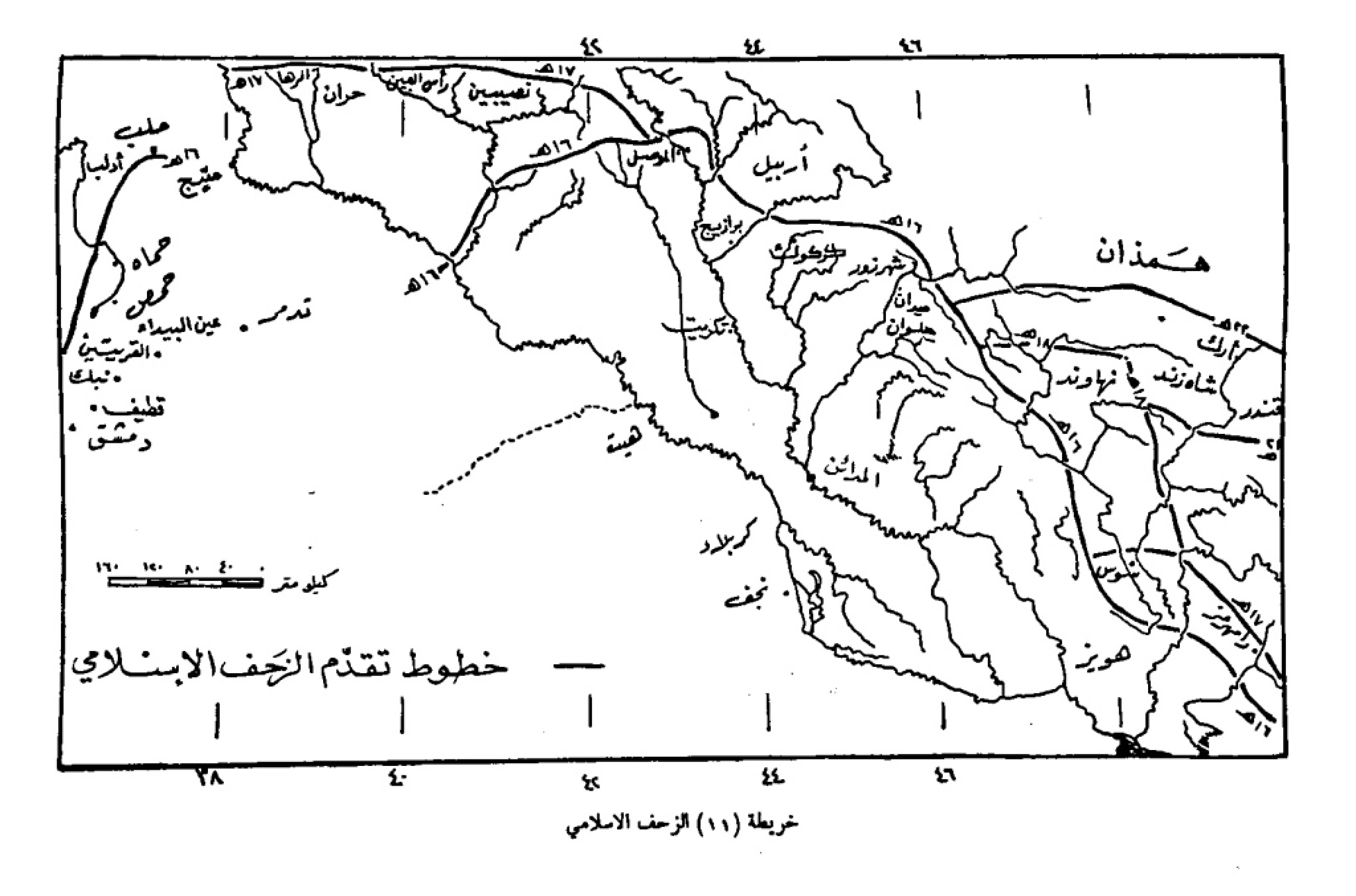
واقترب موسم الحج فبعث عتبة إلى عمر يستأذنه في الوفـــادة عليه والحج فأذن له . فاستخلف مجاشع بن مسعود السلمي ، وكان غائباً عن البصرة قد بعثه إلى بعض جهات الفرات ، وأمر المغيرة بن شعبة أن يقوم مقـامه فيصلي بالناس حتى قدوم مجاشع فإذا قَدِمَ فهو الأمير . وسار عتبة إلى المدينة [1] .

وبينا مجاشع في نواحي الفرات وعتبة قد رحل إلى المدينـة ، ثارت أبرقباذ وجمع أهـــلُ ميسان للمسلمين جمعاً عليه فيلكان من عظماء أبرقباذ، فسار إليهم المغيرة بن شعبة وقد خلّف النساء والأثقال وراءه ، فلقيهم بالمرغاب قبل دجلة. ولقد رأينـا أردة بنت الحارث (سيدة من صنف سلمى بنت خصفة) تساهم في الأحداث ، فقالت :

« لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم » .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٩٤ عن عمر بن شبه عن علي عن أبي اسماعيل الهمداني عن أبي مخنف عن مجالد بن سعيد عن الشعبي . (فتوح البلدان ٨٤٩ – ٨٥١)



خريطة (١١) الزحف الاسلامي

وترعّمت النساء وعقدت لواء من خمارها [شالها] ، واتخذت النساء من خُمُرهنّ رايات وخرجنَ في أثر الرجال فانتهينَ إليهم وهم ملتحمون بعدوّهم . ورأى المجوس على بُعْدٍ جمعاً مقبلاً قد رفع رايات كثيرة فحسبوه مدداً جاء إلى المسلمين ، فعمدوا إلى الفرار وتبعهم المسلمون يقتلون منهم .

ورجع المغيرة إلى البصرة وكتب إلى عمر بالفتح قبل أن يرجع مجاشع من الفرات ، فقال عمر لعتبة :

« مَن استعملتَ على البصرة ؟ »

قال : « مجاشع بن مسعود » .

قال عمر : « تستعمل رجلاً من أهل الوبر على رجل من أهل المدر ! لعمري لأهل المدر كانوا أولى بأن تستعمله من أهل الوبر . تدري ما حدث ؟ »

قال : « لا » .

فأخبره بما كان من أمر المغيرة [1] مع فيلكان . ثم كتب عمر إلى المغيرة يوليه إمارة البصرة [2] .

وردّ عمرُ بن الخطاب عتبةَ بن غزوان إلى البصرة والياً . وأراد عتبة أن يستعفي، ولكن عمر أصرّ على توليته . ومات [3] عتبة بالطريق، وقد اختلفت الروايات حول العام الذي توفي فيه عتبة، ونظن وفاته كانت بعد أن أدّى الحج عام ١٨ هـ ، يعني توفي عام ١٩ هـ .

---

(١) الطبري ٣ / ٥٩٤ عن عمر بن شبه عن علي عن أبي اسماعيل الهمداني وأبي مخنف عن مجالد بن سعيد عن الشعبي .

(٢) فتوح البلدان ٥٠١ عن عباس بن هشام عن أبيه عن عوانة .

(٣) فتوح البلدان ٥٠٧ .

عام ١٧ هـ

تقييم عام ١٦

بعد أن بدا في القادسية أن الحرب قد جمدت بين الطرفين لمدة طويلة ، تفجّرت المعركة عن ثمرة ذلك الإعداد الطويل الذي تمثّل في :

١ – إعداد ما في الاستطاعة من القوة والرجال كماً وكيفاً .

٢ – اختيار المكان المناسب للمعركة .

٣ – خطة مبسطة تقوم على معركة واحدة حاسمة يعقبها نفاذ عميق .

هذا النفاذ الذي اتخذ اتجاهه نحو المدائن مع هجوم ثانٍ بقوة صغيرة إلى قطاع البصرة ، اضطرت القوات الفارسية هناك إلى الثبات في القطاع وعدم الاشتراك في المعركة الأساسية بالمدائن وما بعدها ، بل وأرغمت هرمزان على أن يترك ذلك الميدان الأساسي بقواته ويتجه بها نحو الأهواز . فلما تمّ فتح المدائن اتجهت قوات سعد إلى عدة اتجاهات تتعقب التجمعات المجوسية وتسحقها . وكان الاتجاه الأساسي نحو حلوان حيث نزل يزدجرد ، فكانت جلولاء على الطريق إلى حلوان . هذا بينما راحت قوات أخرى تفتح تكريت والموصل ، وثالثة تفتح هيت وقرقيسياء ، ورابعة تفتح ماسبذان ، في حين ذهبت قوات جلولاء تسيطر على ما حولها وتثبّت أقدامها في دائرة يبلغ نصف قطرها نحواً من مائتي كيلومتر . وأمدّ سعد قوات البصرة حتى بلغت خمسة آلاف فشرعت تغزو الأهواز .

هذه العمليات استغرقت العـام السادس عشر من الهجرة ، وانتهت جميعها قبل نهايته على خلاف في بعضها ربما وصل به إلى عام ١٩ هـ . وهي تمثل انهياراً سريعاً مفاجئاً للنفوذ الساساني في تلك الدائرة، جمعناها جميعاً في خريطة واحدة تيسيراً لتركيزها في ذهن القارىء . ومع نهاية عام ١٦ هـ كانت القوة الأساسية مع سعد بالمدائن ، وكانت هناك ثغور أمامية بها حاميات وهي :

١ — حلوان عليها القعقاع بن عمرو التميمي .

٢ — ماسبذان عليها ضرار بن الخطاب الفهري .

٣ — الموصل عليها عبدالله بن المعتم العبسي .

٤ — البصرة عليها عتبة بن غزوان ، وفي روايات أنه كان غير تابع لسعد في قيادته ، وإنما تبع عمر مباشرة .

٥ — قرقيسياء عليها عمر بن مالك .

* * *

الكوفــة

وخومة البلاد

من المدائن كتب حذيفة [1] بن اليمان إلى عمر :

« إن العرب قد أترفت بطونها وخفّت أعضادها وتغيّرت ألوانها » .

---

(١) حذيفة بن حسل (أو حسيل) بن جابر بن عمرو بن ربيعة بن جروة بن الحارث بن مازن ابن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان ، العبسي . وأمه الرباب بنت كعب بن عدي من بني عبد الأشهل من الأوس . واليمان لقب حسل أو لقب جروة ، قيل له ذلك لأنه أصاب دماً في قومه فهرب إلى المدينة وحالف بني عبدالأشهل من الأنصار، فسماه قومه اليمان لأنه حالف الأنصار وهم من اليمن. خيره النبي بين الهجرة والنصرة فاختار النصرة . وقد ولد حذيفة بالمدينة. لم يشهد حذيفة بدراً لما رواه عنه مسلم في صحيحه قال : « ما منعني أن أشهد بدراً إلا اني خرجت أنا وأبي حسيل فأخذنا كفار قريش فقالوا : إنكم تريدون محمداً ، فقلنا : ما نريده ، فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لننصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه ، فأتينا رسول الله (ص) فأخبرناه فقال : انصرفا » .

وفي البخاري أن حذيفة نظر برجل من المسلمين يوم أحد يقتل الحسيل وهو يظنه من المشركين فصاح حذيفة : اي عباد الله ، أبي أبي .. فما احتجزوا عنه حتى قتلوه ، فقال حذيفة : غفر الله لكم . وأرسله النبي ليلة الأحزاب ليأتيه بخبر الكفار ، فرجع بخبر رحيلهم .

وحذيفة صاحب سر رسول الله في المنافقين ، أعلمه بهم ولم يعلم بهم أحداً غيره ، وقد سأله عمر : « أفي عمالي أحد من المنافقين ؟ » قال نعم ، واحد . قال من هو ؟ قال لا أذكره . قال =

ونظر عمر في الرسل الذين كانوا يفدون إليه من العراق ، فلاحظ تغيُّرهم فسألهم عن ذلك :

« والله ما هيئتكم بالهيئة التي بدأتم بها ، ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وإنهم لكما بدأوا ، وقد انتكيتم فما غيّركم ؟ »

قالوا : « وخومة البلاد » .

= حذيفة: فعزله كأنما دل عليه. وكان عمر إذا مات ميت يُسأل عن حذيفة، فإن حضر الصلاة عليه صلى عمر ، وإن لم يحضر حذيفة الصلاة عليه لم يحضر عمر . وكان حذيفة يسأل النبي عن الشر ليتجنبه . وسئل حذيفة : أي الفتن أشد ؟ قال : أن يعرض عليك الخير والشر لا تدري أيها تركب .

وكان عمر إذا استعمل عاملاً كتب في عهده : « ... وقد بعثت فلاناً وأمرته بكذا ». فلما استعمل حذيفة على المدائن كتب في عهده أن اسمعوا له وأطيعوا واعطوه ما سألكم . فلما قدم المدائن استقبله الدهاقون ، فلما قرأ عهده قالوا : سلنا ما شئت ، قال : أسألكم طعاماً آكله وعلف حماري ما دمت فيكم . فأقام فيهم . ثم كتب إليه عمر ليقدم عليه ، فلما بلغ عمر قدومه كمن له على الطريق ، فلما رآه عمر على الحال التي خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخي وأنا أخوك .

شهد نهاوند وتولى القيادة بعد مقتل النعمان بن مقرن ، وكان فتح همذان والري والدينور على يده ٢٢ هـ ، وشهد فتح الجزيرة ونزل نصيبين وتزوج فيها .

قال عمر بن الخطاب لأصحابه : « تمنوا » ، فتمنوا ملء البيت الذي كانوا فيه مالاً وجواهر ينفقونها في سبيل الله . فقال عمر : لكني أتمنى رجالاً مثل أبي عبيدة ومعاذ بن جبل وحذيفة ابن اليمان فأستعملهم في طاعة الله عز وجل . ولما نزل بحذيفة الموت جزع جزعاً شديداً وبكى بكاء كثيراً ، فقيل : ما يبكيك ؟ قال : ما أبكي أسفاً على الدنيا بل الموت أحب إلي ، ولكني لا أدري علام أقدم ، على رضى أم على سخط . ثم قال : هذه آخر ساعة من الدنيا ، اللهم إنك تعلم أني أحبك فبارك لي في لقائك . ثم مات وكانت وفاته بالمدائن سنة ست وثلاثين بعد مقتل عثمان بأربعين ليلة ، وقتل ولداه صفوان وسعيد بصفين ، وكانا قد بايعا علياً بوصية أبيهما .

(أسد الغابة ١١١٣ – الإصابة ١٦٤٧ – ١٧١٦ – ١٧٢٠ – الاستيعاب ٢٧٧ – الطبقات الكبرى ٥ / ٣٨٥ و ٦ / ٨ – فتوح البلدان ٧٧٠) .

وكتب عمر إلى سعد يسأله .

فأجاب : « وخومة البلاد » .

فقد كانت المدائن على أرض طين بشطآن دجلة كثيرة الذباب والبعوض ذات ديار مبنية على النظام الفارسي ، بها مرافق الميـــاه ، كثيرة الزرع والشجر والبساتين ، رطبة الجو ، وكل ذلك يخالف ما درج عليه ساكن الصحراء ويغـــايره ، فلم تَرُقْ لهم حضارة الفرس ومدنيتهم وتغيّرت لذلك هيئتهم .
فكتب عمر إلى سعد :

« إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان ! » .

فابعث سلمان رائداً وحذيفة ، فليرتادا منزلاً برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر .

تكوين الكوفة

وتمّ اختيار موقع الكوفة فعسكروا بها.ثم بنوا ديارهم من القصب [البوص] فشبّت حريق التهمت البيوت وعاد المسلمون إلى مضاربهم ، ثم استأذنوا عمر في أن يبنوها من اللّبن فأذن لهم وقال :

« افعلوا ولا يزيدنّ أحدكم على ثلاثة أبيات [حجرات] ، ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة » .

فبنوا . ونقل الناس أبواب دورهم التي كانت بالمدائن إلى الكوفة فعلقوها على ما بنوا ، وابتنى سعد داراً وجعل لها باباً من الخشب .

وانطلق بعضهم إلى المدينة يشكون سعداً :

« لقد ابتنى داراً يقال له قصر سعد ، واحتجب فيها وجعل لها باباً وقال سكّن عني الصويت » .

فأرسل عمر محمد بن مسلمة وقال له :

« اعمد إلى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودتك على بدئك » .

وأرسل معه إلى سعد :

« بلغني أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً . فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال [1] ، أنزل منه منزلاً مما يلي بيوت الأموال وأغلقه ، ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت » .

امراء من العجم

وقبل نزول سعد الكوفة ضمّ إليه قواد ثغوره بأكثر مَن معهم من القوات ، فنزلوا الكوفة معه وقد استخلفوا على مَن تركوا وراءهم بالثغور .

١ – فاستخلف القعقاع ، قباذ بن عبدالله الفارسي على حلوان .

٢ – واستخلف ضرار ، رافع بن عبدالله الفارسي على ماسبذان .

٣ – واستخلف ابن المعتم ، مسلم بن عبدالله الفارسي على الموصل .

٤ – واستخلف عمر بن مالك ، عَشَنَّق بن عبدالله الفارسي على قرقيسياء.

كلهم قد أطلقوا عليه « ابن عبدالله » . ما أعجب الاسلام حين يدخل القلوب ! لقد صار أمراء الثغور من قِبَل عمر الآن من العجم الذين كانوا مجوساً يحاربون المسلمين بالقادسية منذ عام وبعض عام . بل لقد كتب إليهم عمر أن يستعينوا بمن احتاجوا إليه من الأساورة ويرفعوا عنهم [2] الجزية . فإذا كان عمر قد دأب على استعمال الصحابة ، وإذا كان أنكر على عتبة بن غزوان أن يؤمّر رجلاً من أهل البادية على أهل الحضر ، فلنا أن نستنتج من إمارة هؤلاء العجم المسلمين على ما تمّ فتحه من أرض فارس ، أن قواتهم التي كانت حاميات

(١) الخبال : الفساد مختار الصحاح .

(٢) الطبري ٤ / ٤٩ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد .

لهم تحمي تلك الثغور للمسلمين ضد المجوس ، إنما كانت من العجم . ولا نحسبهم قد أمّروا فارسياً حديث الاسلام على ذوي السابقة من المسلمين العرب ، ومع ذلك فهو بكل تأكيد تدعيم وإثبات لمبدأ مساواة الاسلام بين المسلمين كافة ، ولا فضل لعربي على عجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، كلهم لآدم وآدم من تراب .

الى الشام مرة اخرى

وخيّر سعد المسلمين ، فمن أراد المقام بالمدائن تركه فيها كالمسلحة ، فبقي بها أقوام من الأفناء أكثرهم من بني عبس . وما أن نزل المسلمون الكوفة حتى تكاتب أهل الجزيرة والروم واتفقوا على عمل مشترك مضاد للمسلمين ، وجعلوا هدفهم حمص بالشام .كان أبو عبيدة بن الجراح هو أمير المسلمين بالشام وقد اتخذ حمص قاعدة له فضمّ إليه كافة مسالحه بشمال الشام وكتب إلى عمر . وكان عمر قد اتخذ في كل مصر من الأمصار على قدره خيولاً من المال الفائض يكون احتياطاً لأي طارىء مفاجىء . فكان من ذلك أربعة آلاف فارس بالكوفة . فكتب عمر إلى سعد أن يرسل هؤلاء فوراً وعليهم القعقاع بن عمرو لنجدة أبي عبيدة ، فخرجوا من الكوفة في ذات اليوم الذي بلغتهم فيه رسالة عمر ، وفي هذا دلالته على كفاية الجندي المسلم وعلى نجاح تخطيط عمر بتكوين ذلك الاحتياطي الضارب السريع ، وأثبتت الكوفة وجودها بصفتها القاعدة الحربية الأولى للمسلمين .

وضرب الجزيرة

وفي نفس الوقت أراد عمر أن يشغل أهل الجزيرة الذين أثاروا هذا التحرك ، فكتب إلى سعد أن يحرّك سهيل بن عدي إلى الرقة بالجزيرة ، وأن يحرّك عبدالله ابن عتبان إلى نصيبين ثم يفتحا حران والرها ، وأن يبعث الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، وأن يجعل أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم .

وخرج عياض فاتجه كل طابور منهم إلى وجهته من طرق الجزيرة على الفراض وغير الفراض . وعلم أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم بهذه التحركات ، فعادوا أدراجهم وتركوا الروم وحدهم ، وانتهزها أبو عبيدة فخرج من حمص وهاجم الروم وانتصر عليهم ، وبلغ القعقاع بعد ثلاثة أيام من ذلك ، فأمر عمر أن يشرك ومَن معه في الغنيمة [1] وقال :

« جزى الله أهل الكوفة خيراً ، يكفون حوزتهم ويمدّون أهل الأمصار ».

* * *

(١) الطبري ٤ / ٥٠ س ش س عن مجالد عن عامر .

فتح الجزيرة[1]

ذو الحجة ١٧ هـ - ديسمبر ٦٣٧ م

اتجاه الى الجزيرة

اختلف الرواة حول تاريخ فتح الجزيرة وحول أمراء الجيش الذي فتحها تحت قيادة عياض بن غنم ، وأيضاً حول القاعدة التي خرج منها هذا الجيش . وسنعرض لفتح الجزيرة وفق المختار عندنا من بين تلك الروايات، مع الإشارة إلى غيرها .

ففي عام ١٧ هـ[2] كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص أن يبعث من عنده جنداً إلى الجزيرة وأن يؤمّر عليهم خالد بن عرفطة أو هاشم بن عتبة أو عياض بن غنم، فبعث سعد[3] عياض بن غنم وبعث معه جيشاً ، وفي رواية أن هذا

---

(١) انظر الخريطة رقم (١٠) .

(٢) هذا حسب رواية سيف . أما ابن اسحق فقد روى أنها فتحت عام ١٩ هـ - الطبري ٤ / ٥٣ .

(٣) رواية البلاذري أن عياضاً سار إلى الجزيرة من الشام حيث كان مع أبي عبيدة بن الجراح وأنه استخلفه على الشام حين حضرته الوفاة ، فكانت فتوح الجزيرة بعد وفاة أبي عبيدة ولاه إياها عمر بن الخطاب. (فتوح البلدان ٥٣ ٤ عن داود بن عبد الحميد قاضي الرقة عن أبيه عن =

الجيش بلغ خمسة آلاف[1]. وأرض الجزيرة تقع في شمال العراق يحدّها نهر دجلة من شرقيها ويحصرها نهر الفرات من جنوبها وغربيها ، ويخترقها بعض الروافد مثل نهر الثرثار ونهر الخابور . وقـــد انتشرت على تلك الأنهار بعض الحصون والحواضر الكبيرة أو الصغيرة ، بينما امتدّت البادية بين ذلك فسكنتها القبائل العربية من أياد وتغلب والنمر .

وكان خروج عياض من الكوفة على أثر خروج القعقاع منها لنجـــدة أهل حمص ، وقد خرج جيش عياض على شكل طوابير أو فيالق اتجه كلٌ منها نحو هدف محدد ، فسلكوا جميعاً طرق الجزيرة على الفراض وغير الفراض . فلما بلغ أهل الجزيرة تحرُّك تلك الجيوش من الكوفة انفضّوا عن حمص إلى ديارهم[2] وتركوا هرقل وحده . فكانت تلك الفيالق كالآتي :

فتح الرقة

١ – سهيل بن عدي سلك طريق الفراض حتى انتهى إلى الرقة فحاصرها[3]. وتداول أهلهـــا الرأي فيما بينهم ، وانتهوا إلى أنهم بين جيوش المسلمين بالعراق وجيوشهم بالشام ، وأنهم لا طاقة لهم على حرب هؤلاء وهؤلاء ، فبعثوا إلى عياض بطلب الصلح – وكان عياض في منزل وسط من الجزيرة – فرأى أن يقبل منهم ،

= جده عن ميمون بن مهران) . ومن الرواة من ذهب إلى أن أبا عبيـدة هو الذي بعث عياضاً من الشام لفتح الجزيرة (فتوح البلدان ٤٥٤ عن الحسيني بن الأسود عن يحيى بن آدم عن عدة من الجزريين عن سليمان بن عطاء القرشي) . ومعنى هذا أن عياضاً لم يرجع إلى العراق من الشام مع جيش خالد .

أما رواية الطبري فتذهب إلى أنه كان مع جيش خالد الذي عاد إلى العراق وعمل مع سعد.

(١) فتوح البلدان ٤٥٦ عن محمد بن سعد عن الواقدي ، ويذهب إلى أن خروج هذا الجيش كان من الشام .

(٢) الطبري ٤ / ٥٣ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد .

(٣) « ٤ /٥١ « « « « عن مجالد عن عامر .

فبايعوه وَقبِلَ منهم . وكان الذي عقد لهم الصلح سهيل بن عدي عن أمر من عياض، فلما تمّ الاستيلاء عليه من أرضهم قبل الصلح عومل معاملة ما أخذ عنوة، وما سوى ذلك أجروه مجرى أهل الذمة ، ففتحوا أبواب مدينتهم وأقاموا للمسلمين سوقاً على أحد أبوابها وهو باب الرُّها .

وكان كتاب عياض لهم (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا ما أعطى عياض بن غنم أهل الرقة يوم دخلها .

أعطاها أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم . لا تُخرب ولا تُسكن إذا أعطوا الجزية ولم يحدثوا مغيلة. وعلى أن لا يُحْدِثوا كنيسة ولا بيعة ولا يُظهروا ناقوساً ولا باعوثاً ولا صليباً .

شهد الله وكفى بالله شهيداً » .

وختمه عياض بخاتمه .

وقال سهيل في فتح الرقة :

وصادمنا الفرات غداة سرنا ... إلى أهل الجزيرة بالعوالي

أخذنا الرقة البيضاء لما ... رأينا الشهر لوّح بالهلال (٢)

وأزعجت الجزيرة بعد خفضٍ ... وقد كانت تخوّف بالزوال

---

(١) فتوح البلدان ٤٥٧ عن محمد بن سعد عن الواقدي .

(٢) نأخذ من هذا أن فتح الرقة كان في أوائل شهر قمري .

وسهيل بن عدي بن مالك بن حرام بن خديج بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار الخزرجي . شهد بدراً وأحداً والمشاهد بعدهما مع رسول الله (ص) . وكان في جيش أسامة إلى الشام ، فلما عاد إلى المدينة جاهد المرتدين . استشهد أخوه الحارث بن عدي يوم الجسر مع أبي عبيد . له ذكر في فتح نهاوند وكان لواء كرمان إليه .

ونصيبين

٢ – عبدالله [١] بن عبدالله بن عتبان إلى نصيبين [٢] ، فسلك طريق دجلة حتى انتهى إلى الموصل ، وكل ذلك كان قد سبق فتحه عام ١٦ هـ على يد عبدالله ابن المعتم . ثم عبر ابن عتبان إلى بلد حتى أتى نصيبين ، فقابله أهلهـا بطلب الصلح وفعلوا كما فعل أهل الرقة خضوعاً لنفس العوامل . فكتبوا إلى عياض فرأى أن يقبل منهم ، وعقد لهم عبدالله صلحاً كصلح الرقة .

---

(١) من الأنصار ، أحيـاناً تذكره المصادر اختصاراً فتقول عبدالله بن عتبان . استشهد أبوه عبدالله باليمامة. وشهد عبدالله بن عبدالله حروب الردة . وقد كتب عمر إلى سعد أن يسرح سهيل ابن عدي إلى الرقة وعبدالله إلى نصيبين . له ذكر في فتح كرمان . وكان قارئاً كاتباً .

(٢) الطبري ٤ / ٥١ س ش س عن مجالد عن عامر .

وقد وصف الأصطخري المتوفى في النصف الأول من القرن الرابع الهجري (حوالي ٣٠٠ هـ) نصيبين فقال : « إن أنزه بلد بالجزيرة وأكثرها خضرة بلد نصيبين ، وهي مدينـة كبيرة في مستوى من الأرض ، ومخرج مائهـا من شعب جبل يعرف ببالوسا ، وهو أنزه مكان بها حتى ينبسط في بساتينها ومزارعها، ولهم مع ذلك فيما بعد عن المدينة مباخس كثيرة ، وبها دير عظيمة وحواليها ديارات وصوامع للنصارى كثيرة ، وبها عقارب كبيرة قـاتلة موصوفة . وبالقرب من نصيبين جبل ماردين من الأرض إلى ذروته نحو من فرسخين (واضح هنا العجز عن التقدير السليم للارتفاع ، إلا إن كان يقصد مسافة ما بين مبتدئه إلى قمته) ، وبه قلعـة منيعة لا يستطاع فتحها عنوة ، وبه حيات موصوفة تفوق الحيات بسرعة القتل ، وهو جبل به جواهر الزجاج » (المسالك والممالك ٥٢) .

وعن مسافاتها إلى ما حولهـا من المدن قال ابن خرداذبة وقدامة بن جعفر : « من الموصل إلى بلد سبعة فراسخ ثم إلى باعينانا ستة فراسخ (أو سبعة على ما ذكر قدامة) ثم إلى برقعيد ستة فراسخ ثم إلى أذرمة ستة فراسخ ثم إلى تل فراشة خمسة فراسخ (قال قدامة ثلاثة) ثم إلى نصيبين أربعة فراسخ وهي مدينة ديار ربيعـة ... ومن نصيبين إلى دارا خمسة فراسخ ثم إلى كفرتوثا سبعة فراسخ ثم إلى رأس عين سبعة فراسخ ... الخ . ومن كفرتوثا إلى قصر بني نازع ستة فراسخ (قال قدامة سبعة) ثم إلى آمد وهي على دجلة سبعة فراسخ ثم إلى ميافارقين خمسة فراسخ ثم إلى ارزن سبعة فراسخ... الخ. (٩٥ ابن خرداذبة و٢١٤ قدامة بن جعفر).

وقال عبدالله بن عتبان في فتح نصيبين :

ألا من مبلغ عني بحـيراً	فما بيني وبينك من تعـادي
فان تقبل تلاقي العدل فينـا	فأنسى مـا لقيت من الجهاد
وان تدبر فما لك من نصيب	نصيبين فتلحق بالعبـاد
وقـد ألقت نصيبين إلينا	سواد البطن بالخرج الشداد
لقـد لقيت نصيبين الدواهي	بدهم الخيل والجرد الوراد

ورواية أخرى تذهب إلى أن أبا موسى الأشعري [١] هو الذي اتجـه إلى نصيبين ومعه عمر بن سعد بن أبي وقاص ، وهو غلام حدث السن ليس إليه من الأمر شيء .

فتح الرّها وحرّان

٣ – عياض بن غنم على قوته الأساسية . وكان على مقـدمته ميسرة [٢] بن مسروق العبسي ، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حِذْيَم الجُمَحي ، وعلى ميسرته صفوان بن المُعَطَّل السلمي . ونزل عياض مكاناً وسطاً من أرض الجزيرة . فلما استسلمت الرقة [على الفرات] ونصيبين [على دجـلة] ضمّ عياض سهيل بن عدي وعبدالله بن عبدالله إليه ، ثم سار بمن معه نحو حرّان [٣] يستولي على ما في

---

(١) الطبري ٤ / ٥٣ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

(٢) فتوح البلدان ٤٥٦ عن محمد بن سعد عن الواقدي .

(٣) الطبري ٤ / ٥٤ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد .

ذكر ابن خرداذبة حران والرها على الطريق الهام الذي كان يخترق الجزيرة من دجـلة إلى الفرات فقـال : « الطريق من آمد إلى الرقة ذات اليسار : من آمد إلى شمشاط سبعة فراسخ ثم إلى تل جفر خمسة فراسخ ثم إلى جرنان ستة فراسخ ثم إلى بامقدا خمسة فراسخ ثم إلى جلاب سبعة فراسخ ثم إلى الرها أربعة فراسخ ثم إلى حران أربعة فراسخ ثم إلى تل محرا أربعة فراسخ ثم إلى باجروان سبعة فراسخ ثم إلى الرقـة ثلاثة فراسخ (المسالك والممالك ٩٦) والفرسخ ٥٥٤٤ م .

طريقه إليها ، وكانت مدينة عظيمة عُرفت عند الروم باسم هالينوبلس . فلما بلغها اتّقوه بطلب الصلح على أداء الجزية فقَبِلَ منهم. ومن حرّان بعث سهيلا وعبدالله إلى الرها [1] فبادر أهلها بالإجابة إلى أداء الجزية .

وفي رواية أكثر تفصيلا وتختلف بعض الشيء أن أهل حران أغلقوا أبوابها دون جيش عياض، وكان بها طائفتان هما: الحرنانية والنصارى، فبعث الحرنانية إليه أن في أيديهم جانباً من المدينة ، وسألوه أن يسير إلى الرها فما صالحته عليه صالحوه على مثله وخلّوا بينه وبين النصارى ، ولما بلغ النصارى ذلك أرسلوا إلى عياض بالرضى على مثل ما عرض عليه الحرنانية .

وسار عياض إلى الرها وقد جمع له أهلها ورموا المسلمين بالنبال ساعة ، ثم خرج جيشهم لقتال عياض فانهزموا وارتدّوا إلى مدينتهم ، ولم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان ، فأجابهم عياض إلى مطلبهم وكتب إليهم [2] :

« بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من عياض بن غنم لأسقف الرها .

إنكم إنْ فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدّوا إليّ عن كل رجل ديناراً ومُدْيَيْ قمح فأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومَن تبعكم .

وعليكم إرشاد الضالّ وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين .

شهد الله وكفى بالله شهيداً » .

---

(١) الرها مدينة بالجزيرة شمال حران ، تقع اليوم في شمال شرقي سوريا غربي الفرات جنوب تركيا وتعرف باسم اقليم أورفا . قال الاصطخري : « الرها مدينة وسطة والغالب على أهلها النصارى ، وفيها زيادة على ثلاثمائة دير وصوامع كثيرة ورهابين ، ولهم بها كنيسة ليس في بلاد الاسلام كنيسة أعظم منها ، ولها مياه وبساتين كثيرة وزروع ، وهي أصغر من كفرتوثا (المسالك والممالك ٥٤) .

وقال قدامة بن جعفر : « هي مدينة رومية في صفح جبل » الخراج وصنعة الكتابة ٢١٥ .

(٢) فتوح البلدان ٤٠٨ عن محمد بن سعد عن الواقدي .

ثم كان كتابه إليهم بالصلح [1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

هذا كتاب من عياض بن غنم ومَن معه من المسلمين لأهل الرها .

إني أمنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم ، إذا أدّوا الحق الذي عليهم .

ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالّنا .

شهد الله وملائكته والمسلمون » .

سائر مدن الجزيرة

ثم أتى عياض حرّان ، ووجّه صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة الفهري إلى سميساط . فصالح عياض أهل حران على مثل صلح الرها وفتحوا له أبواب مدينتهم ، ثم سار إلى سميساط [على الشاطىء الأيمن للفرات في تركيا اليوم] فوجد صفوان وحبيب مقيمين عليها وقد غلبا على بعض قراها وحصونها ، فصالحه أهلها على مثل صلح الرها . وجعل عياض الرها مركزاً له فكان يغزو منها ويرجع إليها ، ففتح سنجار [2] وميافارقين (بديار بكر وهي من تركيا اليوم) وسروج (بالقرب من حران) وراسكيفا (قريباً من حران) والأرض البيضاء . وانتقضت سميساط فرجع إليها وحاصرها حتى فتحها ، ثم فتح جسر

---

(١) فتوح البلدان ٥٩ ، ٤ عن داود بن عبد الحميد عن أبيه عن جده .

(٢) » » .

قال الأصطخري : « بها نخيل ، وليس بالجزيرة بلد به نخل سوى سنجار ، إلا أن يكون على الفرات » (المسالك والممالك ٥٣) . وعن مسافاتها فمن بلد إلى تل أعفر خمسة فراسخ ثم إلى سنجار صبعة فراسخ (قال قدامة خمسة) ثم إلى عين الجبال خمسة فراسخ ثم إلى سكير العباسي على الخابور تسعة فراسخ ثم إلى الفدين على الخابور خمسة فراسخ ثم إلى ماكسين على الخابور ستة فراسخ ثم إلى قرقيسياء على الفرات والخابور ستة فراسخ (ابن خرداذبة ٩٦ وقدامة ٢١٦) . وقد أفاضا في ذكر المسافات بين شتى مدن الجزيرة .

منبج [1] من قرى الفرات وما حولهـا . وفتح حصن كفرتوثا ، كانت حصناً قديماً فاتخذها ولد أبي رمثـة منزلاً فمدّنوها وحصّنوها فكانت قرية كبيرة من أعمال الجزيرة الفراتيـة . كما فتح طور عبدين – من أعمال نصيبين – وحصن ماردين وكان قلعة حصينة .

وصمدت رأس العين ، فجعل عليها خيلاً لحماية ظهره وترك معها عمر بن سعد ابن أبي وقاص ، وسار هو إلى دارا [بين نصيبين وماردين من جبل ماردين ، وهي اليوم بتركيا] فافتتحها على مثل صلح الرها . وفتح قَرْدَى وبازَبْدَى وهمـا قريتان بجبل الجودي بالجزيرة الفراتية . وصالحه بَطـْريق الزوزان على أتاوة . ثم سار إلى أرزن [قريباً من خلاط] ففتحها على مثل صلح نصيبين . ودخل الدرب فبلغ بدليس وجازها إلى خلاط ، وهي عاصمة أرمينيا الوسطى ، فصالح بَطـْريقها وانتهى إلى العين الحامضة من أرمينيا فلم يتجاوزها وعاد منها إلى الرقة ثم مضى إلى حمص وكان عمر قد ولاّه إياها .

أرمينيا

٤ – عثمان بن أبي العاص بن بشر الثقفي ، قـاد الطابور الرابع إلى أرمينيا فكان فيها شيء من قتال أصيب فيه صفوان بن المعطل السلمي شهيداً، ثم صالح أهلها عثمان على الجزية على كل أهل بيت دينار [2] .

عرب الجزيرة

٥ – الوليد بن عقبـة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ . والذي نلحظه من تتبّع أخباره وأعماله أن مهمته كانت خاصة بالبدو من عرب الجزيرة وليس بحواضرها التي تكفلت بهـا الفيالق الأخرى . فخرج حتى قـَدِمَ على بني تغلب

(١) منبج بلد قديم كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة في فضاء من الأرض كان عليها سور محكم مبني بالحجارة ، بينها وبين الفرات ١٧ كيلومتراً ، وبينها وبين حلب ٥٥ كلم.

(٢) الطبري ٤ / ٥٣ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

وعرب الجزيرة ، فانحاز إليه المسلمون منهم وسالمه الكافرون ، إلا قبيلة أياد بن نزار فقد ارتحل مَن لم يسلم منهم حتى دخلوا إلى مناطق نفوذ الروم . فكتب الوليد بذلك إلى عمر بن الخطاب .

اسهل البلدان فتحاً

وكانت الجزيرة أسهل البلدان أمراً وأيسرها (١) فتحاً . وقال عياض بن غنم في فتحها :

مَن مبلغ الأقوام أن جموعنا ... حَوَت الجزيرة يوم ذات زحامِ
جمعوا الجزيرة والغياث فنَفّسوا ... عمن بحمصَ غيابة القُدّامِ
إن الأعزّة والأكارم معشر ... فضّوا الجزيرة عن فراخ الهامِ
غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهوا ... عن غزو مَن يأوي بلاد الشامِ

ونرى أن تلك السهولة كانت راجعة إلى :

١ - أن أرض الجزيرة على اتساعها قد صارت جيباً محصوراً ، وذلك بعد أن سقطت أرض العراق في جنوبها وأرض فارس من شرقها وأرض الشام من غربها في أيدي المسلمين ، فلم تكن لينجدها فرس ولا روم .

٢ - وذلك فضلاً عن العامل النفسي الناجم عن السرعة المذهلة التي تمّ بها اكتساح تلك الأراضي بعد معركة القادسية في الميدان الشرقي وما كان من اكتساح أرض الشام في الميدان الغربي - هذا ضد الفرس وذاك ضد الروم في آن واحد .

٣ - يضاف إلى ذلك ما رآه أهل الجزيرة من أمر أولئك الذين وقفوا يقاومون الفتح وما كان من مصيرهم ، وأمر أولئك الذين سالموا وأسلموا أو دخلوا في ذمة المسلمين .

---

(٢) الطبري ٤ / ٥٤ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد .

ويبدو أنه لم تكن هناك مقاومة عنيفة في كل فتوح الجزيرة سوى ما كان في رأس العين (وتُعرَف أيضاً بعين الوردة) ، وقد كانت مدينة كبيرة من مدن الجزيرة وهي اليوم من محافظة الحسكة بسوريا ، أغلق أهلها أبوابها ونصبوا العرادات عليها ، فقتلوا من المسلمين بالحجارة والسهام بشراً . واطلع عليهم بَطْريق من بطارقتها فشتمهم وقال لهم : « لسنا كمن لقيتم »[1] . حتى أن بعض الرواة يذهب إلى أن عياضاً لم يستطع فتحها وأن الذي فتحها بعد ذلك هو عمير بن سعد بن عبيد[2] الأنصاري بعد قتال شديد[3] . ولكننا نميل إلى الأخذ بالرواية التي تقول[4] : « لم يبقَ بالجزيرة موضع قدم إلا فُتِح على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، على يد عياض بن غنم » .

عرب الجزيرة مرة أخرى

بلغ كتاب الوليد إلى عمر بارتحال بني أياد بن نزار إلى أرض الروم . فكتب عمر إلى ملك الروم :

« إنه بلغني أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك . فوالله لتخرجنّه أو لننبذنّ إلى النصارى ثم لنخرجنّهم إليك » .

فأخرجهم ملك الروم ، فرجع منهم أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد ، وتفرّق بقيتهم فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الروم ، فكل أيادي بعد ذلك في أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف .

---

(١) فتوح البلدان ٦٤ ، عن الواقدي عمن سمع اسحق بن أبي فروة عن أبي وهب الجيشاني ديلم بن الموسع .

(٢) قتل أبوه في القادسية .

(٣) فتوح البلدان ٦٣ ، عن أبي أيوب الرقي المؤدب عن الحجاج بن أبي منيع الرصافي عن أبيه .

(٤) فتوح البلدان ٦٠ ، عن محمد بن سعد عن الواقدي عن معمر عن الزهري .

ويبدو أن استعمال عمر للوليد على عرب الجزيرة إنما كان المقصود منه إعادة تمصيرها بالعناصر العربيـــة التي هجرتها أمام الفتح حتى لا تقفر منهم ، ورفض الوليد أن يقبل من بني تغلب إلا الاسلام .. والأصل في ذلك أنه كان لا يقبل من العرب غير الاسلام ، فلا يقبل منهم كفر وذمة ، وذلك تأميناً لجزيرة العرب حتى تكون للاسلام قاعدة راسخة كما كان للنصرانية والمجوسية . ولكن بني تغلب اعترضوا على ذلك وقالوا للوليد :

« أما من نُقّب على قومه في صلح سعد ومَن كان قبله فأنتم وذاك .. »

(يقصدون إسلام عرب تكريت والموصل مع عبدالله بن المعتم ووفد منهم كان قَدِمَ على النبي ﷺ) ، وأما مَن لم ينقب عليه أحد ولم يجر ذلك لمن نقب فما سبيلك عليه ؟ » .

فكتب الوليد فيهم إلى عمر ، فأجابه :

« إنمـا ذلك لجزيرة العرب لا يقبل منهم فيها إلا الاسلام . فدَعْهُمْ على أن لا يُنَصّروا وليداً واقبَلْ منهم إذا أسلموا » .

فقَبِلَ بعضُهم ذلك فأخذوا به ، ورفض بعضهم وكانوا من قبائل العبـاد وتنوخ . ولهذه القضية جذور من عهـد النبي ﷺ ، فقد عاهده وفدهم على أن لا يُنَصّروا وليداً ، فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى مَن أرفده ولم يكن على غيرهم . فلما تمّ فتح الجزيرة على عهد عمر قال مسلموهم :

« لا تُنَفّروهم بالخراج فيذهبوا ، ولكن ضَعّفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاءه ، فإنهم يغضبون من ذكر الجزاء على أن لا يُنَصّروا مولوداً إذا أسلم آباؤهم » .

فبعث الوليـــد رؤساء النصارى وقسّيسيهم بذلك إلى عمر . فقال لهم : « أدُّوا الجزية » .

فغضبوا وأرادوا الرجوع وقالوا :

« أبلغنا مأمننا . والله لئنْ وضعتَ علينـا الجزاء لندخلنّ أرض الروم ، والله ليفضحنا من بين العرب ! » .

قال عمر : « أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمّتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية . وتالله لتؤدُنّه وأنتم صَغَرة قمـاة ، ولئن هربتم إلى الروم لأكتبنّ فيكم ثم لأسبينّكم » .

قالوا : « فخُذْ منا شيئاً ولا تُسمّه جزاء » .

قال : « أما نحن فنسمّيه جزاء ، وسمّوه أنتم ما شئتم » .

وقال له علي بن أبي طالب :

« يا أمير المؤمنين ، ألم يضعف عليهم سعد بن مالك الصدقة ؟ »

قال : « بلى » .

وأصغى عمر إلى عليّ فرضي به منهم جزاء ورجعوا على ذلك .

وكان في بني تغلب عِزّ وامتناع ، ولم يزالوا ينازعون الوليـد ، فقال في ذلك :

إذا مـا عَصَبْتُ الرأسَ مني بمشْوَذٍ
فغيّك مني تغلب ابنـةُ وائلِ

وبلغت عمر فخاف أن يحرجوه وأن يفرغ صبره فيبطش بهم ، فعزله وأمّر عليهم فرات بن حيان العجلي وهند بن عمرو الجملي[1] .

حركة تنقلات

كان عمر بن الخطاب قد خرج من المدينة نحو حمص غازياً حين دهمها الروم. فلما كان بالجابية بلغه انتصار أبي عبيدة . كان فتح الجزيرة قد بدأ ولم يكن قد تمّ . فأمدّ عياضاً بحبيب بن مسلمة ، وعزل خالد بن الوليد العزل الثاني عن أي

---

(١) الطبري ٤ / ٥٦ س ش س عن عطية عن أبي سيف التغلبي .

عمليات حربية - وفي رواية مرجوحة انه أعاده إلى المدينـة - وانصرف من الجابية راجعاً إلى المدينة . فكتب إليه أبو عبيدة يسأله أن يضمّ إليه عياض بن غنم ، فأجابه عمر إلى ذلك ونقل عياضاً من الجزيرة إلى الشام . وعاد سهيل بن عدي وعبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى الكوفة ليستعملها في غزو المشرق . واستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها ، والوليد بن عقبـــة على عرب الجزيرة ، فأقاما بها كلٌ على عمله [1] ، وحتى عاد وعزل الوليد واستعمل فرات بن حيان وهند بن عمرو .

* * *

(١) الطبري ٤ / ٥٥ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد .

طاعون عمواس

وانتشر وباء بأرض الشام ومصر والعراق وبلغ البصرة. ثم ارتفع عن الناس واستقرّ بالشام ، وهو المعروف بطاعون عمواس ، هلك فيه كثير من المسلمين وفيهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وعتبة بن سهيل ، وكثير من أبناء خالد بن الوليد ، وكثير من الصحابة وأشراف الناس . وكان ذلك عام ١٧ أو ١٨ هـ . وطمع أعداء المسلمين فيهم وتخوّفت قلوب المسلمين .

عملية طاوس[1]

ورطة

كان موقف عمر بالنسبة لقطاع البصرة كموقفه في الكوفة . قال : « حسبنا لأهل البصرة سوادهم والأهواز . وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه ولا نصل إليهم » .

وكان العلاء بن الحضرمي عامل عمر على البحرين ، وكان عمر يدرك أن المسلمين لم يستوفوا أدوات العمل بالبحر ولا التدريب عليه ولا أنشأوا عمارة بحرية ، كما كان يدرك ذلك من قبل رسول الله ﷺ وأبو بكر ، فتأسى بهما عمر في عدم الحرب في البحر ونهى العلاء عن ركوبه والقتال فيه . ولكن العلاء حين رأى انتصار المسلمين في كل مكان وهو مقيم بالبحرين لا يغزو ، دفعته همّته وطموحه إلى خطأ جسيم ، فطلب من أهل البحرين أن يتطوّعوا لغزو فارس ، وقد كانت البحرين في الجاهلية إلى عهد قريب من مناطق النفوذ الفارسي ، فتسارعوا إلى ذلك . وقسّمهم العلاء إلى ثلاث فرق عليها الجارود بن المعلى ، والسوار بن همام ، وخليد بن منذر بن ساوى وهو أميرهم جميعاً ، ثم حملهم في البحر بغير إذن من عمر .. وعبر هذا الجيش الخليج حتى هبط على الشاطىء

---

(١) الطبري ٤ / ٧٩ س ش س عن محمد والمهلب وعمرو .

الفارسي تجاه اصطخر . وقابلهم الفرس بجيش يقوده هربذ ، ونجح هربذ أن يحول بين المسلمين وبين سفنهم ، فقام خليد يخطب في جيشه وقال :

« أما بعد ، فإن الله إذا قضى أمراً جرت به المقادير حتى تصيبه ، وإن هؤلاء القوم لم يزيدوا بما صنعوا على أن دعوكم إلى حربهم ، وإنما جئتم لمحاربتهم والسفن والأرض لمن غلب . فاستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » .

فأجابوه إلى ذلك وصلّوا الظهر ، ثم دارت المعركة بمكان اسمه طاوس . وكان السوار يرتجز ويذكر قومه ويقول :

يا آل عبد القيس للقراع قد حفل الامداد بالجراعِ
وكلهم في سَنَنِ المِصَاعِ يحسن ضرب القوم بالقطّاعِ

وكان الجارود يرتجز ويقول :

لو كان شيئاً أمماً أكلتُهُ أو كان ماء ساد ما هجرتُه
لكن بحراً جاءنا أنكرته

وارتجز خليد بقوله :

يال تميم أجمِعوا النزول وكاد جيشُ عمر يزول
وكلكم يعلم ما أقول

واستشهد في المعركة الجارود بن المعلى والسوار وابنه عبدالله [1] ، وقد أنزلوا بالفرس خسائر جسيمة في الأرواح ، ولكنهم فقدوا سفنهم وقيل غرقت ولم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلا . وأرادوا أن يشقوا طريقهم إلى البصرة برّاً للانضمام إلى المسلمين هناك ، ولكن جيشاً فارسياً من أهل اصطخر يقوده شهرك أخذ عليهم السُبُل فحصرهم فأقاموا حيث كانوا يدافعون عن أنفسهم

(١) في رواية أخرى أن معاوية بن أبي سفيان استعمل عبدالله بن سوار على بعض الهند ، فاستشهد بها (الإصابة ٥٩٠) .

فحسب ، في حين استصرخ أهل اصطخر العجم في سائر أنحاء مملكتهم . كان المسلمون هناك في موقف لا يُحسَدون عليه .

نجدة

وبلغ عمر ما صنع العلاء ، فعزله وسَيَّرَه إلى سعد ليعمل تحت إمرته عقاباً له ، ولم يكن العلاء يحب سعداً فكان ذلك أثقل الأشياء عليه وأبغض الوجوه إليه . وقال عمر : « إلحقْ بسعد بن أبي وقاص فيمن قبلك » . وكتب إلى عتبة ابن غزوان يأمره بنجـــدة الجيش المحصور قبل أن يجتاحه الفرس الذين كانت أمدادهم تتدفق على الطريق إلى إصطخر :

« إن العلاء بن الحضرمي حمل جنـــداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصاني ، وأظنه لم يرد الله بذلك ، فخشيت عليهم أن لا ينصروا وأن يغلبوا وينشبوا . فاندبْ إليهم الناس واضممهم إليك من قبل أن يُجتاحوا » .

وعرض الأمر في معسكر عتبة ، فتطوّع فرسان المسلمين وأبطالهم وقادتهم : عاصم بن عمرو – وكان انتقل من الكوفة إلى البصرة – وعرفجة بن هرثمـــة وحذيفة بن محصن ومجزأة بن ثور ونهار بن الحارث والترجمان بن فلان والحصين ابن أبي الحر والأحنف بن قيس وسعد بن أبي العرجـــاء وعبدالرحمن بن سهل وصعصعة بن معاوية ، تطوّعوا لهذه المهمة الشاقة الصعبة ، فخرجوا في اثني عشر ألفاً على البغال يجنبون الخيل . لن يكون السير إلى هذه المهمـــة على أرض صحراوية بل على طرق جبليـــة من بلاد فارس ، ولذلك تركوا الجمال واتخذوا البغال ، فضلاً عن أن البغال أسرع من الإبل والمهمة تحتاج إلى سرعة . ولا شك أن المسلمين ، بعد أن فتحوا ما فتحوا وغنموا ما غنموا ، صاروا يمتلكون ما يلزم من البغال لمثل هذا التحرك ، فتخلوا عن ما ألِفوا من استخدام الإبل التي ثبتت فعاليتها في عمليات سابقة إلى ما هو أصلح وأكثر فاعليـــة لأداء العمل المطلوب ، وهي مرونة في التفكير والتصرُّف تستحق التسجيل . ولعلّ هذه وخروج القعقاع من الكوفة إلى الشام كانتا أول استخدام من المسلمين للبغال

في شؤون الحملة بدلاً من الإبل . خرج ذلك الطابور من البصرة يقوده أبو سبرة ابن أبي رُهْم أحد بني مالك بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي . هذا في حين كانت الحاميات والثغور والذمم بالأهواز على حالها ، حمايةً واحتياطاً وراء ظهر هؤلاء .

اتخذت هـــذه القوة طريق الساحل ، فلم تلقَ أحداً حتى التقت بخليد والمحصورين معه . حينذاك وصلت أمداد المجوس إلى شهرك ثم التحم المسلمون بالفرس وهزموهم ورجعوا جميعاً إلى البصرة. ثم كان ما ذكرنا في الباب السابق استأذن عتبة عمر في الحج ، فلما تمّ له ذلك وأدّى الحج استعفاه من عمله، فأبى عمر وأعاده إليه ، ولكنه توفي بالطريق في بطن نخلة . وفي رواية أنه كان قد استخلف على قطاع البصرة أبا سبرة بن أبي رُهْم فأقرّه عمر بقية السنة ، ثم استعمل عليها المغيرة بن شعبة ثم أبا موسى الأشعري .

* * *

هرمزان عند عمر

انتقاض آخر

لم يزل يزدجرد يثير العجم وقد اتخذ مركزاً له في مرو بأقصى حدود مملكته . قال لهم : « رضيتم يا أهل فارس ان قد غلبتكم العرب على السواد وما والاه والأهواز ، ثم لم يرضوا بذلك حتى توردوكم في بلادكم وعقر دوركم » .

فتحركوا لإثارته واتجهت جموعهم نحو تستر . وجاءت هذه الأخبار إلى حرقوص بن زهير وإلى جزء وسلمى وحرملة عن طريق غالب وكليب . فكتب سلمى وحرملة إلى عمر وإلى المسلمين بالبصرة .

وكتب عمر إلى سعد أن يبعث من جيش الكوفة إلى الأهواز بصورة عاجلة جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرن المزني ، وأن يبعث بقوات أخرى مع سويد بن مقرن المزني وعبدالله بن ذي السهمين وجرير بن عبدالله الحميري وجرير بن عبدالله البجلي لينزلوا تجاه هرمزان حتى يتبينوا وجهته .

وكتب إلى أبي موسى أيضاً أن يبعث إلى الأهواز جنداً آخر من البصرة وأن يؤمّر عليهم سهل بن عدي أخا سهيل ، وفيهم البراء بن مالك وعاصم بن عمرو ومجزأة بن ثور وكعب[1] بن سور وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن وعبدالرحمن

(١) كعب بن سور بن بكر بن عبيد بن ثعلبة بن سليم بن ذهل بن لقيط بن الحارث بن =

ابن سهل والحصين بن معبد . وعليهم جميعاً : جيش الكوفة وجيش البصرة ، أبو سبرة بن أبي رُهْم .

وسلك النعمان وسط السواد حتى عبر دجلة عند ميسان وطلع على الأهواز ، واجتاز نهر تيري ومناذر وسوق الأهواز ، على البغال يجنبون الخيل ، وقد خلف حرقوصاً وسلمى وحرملة .

وخرج [1] هرمزان من رامهرمز مستجيباً لنداء يزدجرد . وبادر المسلمين

= مالك بن فهم بن غنم بن دوس بن عدسان بن عبدالله بن هوازن بن كعب بن الحارث بن كعب ابن عبدالله بن مالك بن نصر بن الازد .

معدود في كبار التابعين . وله خبر مشهور مع عمر بن الخطاب ، فقد كان كعب جالساً عند عمر فجاءت امرأة فقالت : « ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجي ، إنه ليبيت ليله قائماً ويظل نهاره صائماً في اليوم الحار ما يفطر». فاستغفر لها عمر وأثنى عليها وقال : « مثلك أثني بالخير»، فاستحيت المرأة وقامت راجعة . فقال كعب : « يا أمير المؤمنين ، هلا أعديت المرأة على زوجها إذ جاءتك تستعديك ؟ » فقال : « أكذلك أرادت ؟ » قال : « نعم » . قال : « ردوا علي المرأة » فردت ، فقال لها عمر : « لا بأس بالحق أن تقوليه ، إن هذا يزعم أنك جئت تشتكين أنه يجتنب فراشك ». قالت : « أجل ، إني امرأة شابة وإني أبتغي ما تبتغي النساء » . فأرسل إلى زوجها فجاء ، فقال عمر لكعب : « اقض بينهما » ، فقال : « أمير المؤمنين أحق بأن يقضي بينهما » . فقال : « عزمت عليك لتقضين بينهما فإنك فهمت من أمرهما ما لم أفهم » . قال كعب: « فإني أرى أن لها يوماً من أربعة أيام إن كان زوجها له أربع نسوة ، فإذا لم يكن له غيرها فإني أقضي له بثلاثة أيام ولياليهن يتعبد فيهن ولها يوم وليلة » ، فقال عمر : « والله ما رأيك الأول بأعجب من الآخر ، اذهب فأنت قاض على أهل البصرة » . فكان كعب بن سور أول قاض بالبصرة ، واستقضاه عثمان بن عفان أيضاً على البصرة ، ولما ولي ابن عامر استقضى كعباً ، فلم يزل قاضياً على البصرة حتى كان يوم الجمل . فلما اجتمع الناس بالخريبة واصطفوا للقتال ، وكان كعب مع عائشة خرج وبيده المصحف فنشره وشهره وجال بين الصفين يناشد في دمائهم فقتل على تلك الحال ، أتاه سهم غرب لا يدرى راميه فقتله (الإصابة ٧٤٩٥ – الاستيعاب ٣ / ٢٨٥) .

(١) انظر خريطة رقم (١٠) .

بالهجوم عليهم وقد اطمأن إلى أن أمداد المجوس بدأت تصل إلى تستر [1] ، وفي أربك هزم النعمان هرمزان فانسحب إلى تستر وأخلى رامهرمز وجلت قواته عنها .

إتمام فتح الأهواز

واستولى النعمان على رامهرمز وصعد منها إلى أيذج فصالحه عليها تيرويه ، ثم

---

(١) وصف ابن بطوطة مدينة تستر كما رآها عام ٧٢٧ هـ في رحلته فقال :

« مدينة كبيرة رائقة نضرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والأسواق الجامعة وهي قديمة البناء .. ويحيط بها النهر المعروف بالأزرق ، وهو عجيب في نهاية من الصفاء شديد البرودة في أيام الحر ، ولم أر كزرقته إلا نهر بلخشان. ولها باب واحد للمسافرين. ولها أبواب غيره شارعة إلى النهر . وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب (السواقي) . والنهر عميق، وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحلة . والفواكه بتستر كثيرة والخيرات متيسرة غزيرة ولا مثل لأسواقها في الحسن ... ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثاً في جبال شامخة ... ووصلنا إلى مدينة أيذج ... وتسمى هذه البلاد بلاد اللور (١٤٥ – ١٤٧) » .

ومدينة تستر تسمى أيضاً شستر أو شوشتر Shushtar وهي مدينة في ولاية عربستان الفارسية وهي خوزستان القديمة، وتقع على خط طول ٤٩ شرقاً وخط عرض ٣٢ شمالاً، وهي على جرف يجري إلى غربه نهر دجيل (كارون) الذي يبدأ مجراه الأوسط في شمال المدينة على بعد أميال قليلة منها . وقد أضفى هذا الموقع عليها أهمية تجارية وحربية كبيرة ، ويسر إنشاء المشروعات المائية المختلفة التي تشتهر بها من زمن بعيد وأشهرها قناة آب كركر (نهر مسروقان) ، وتأخذ من الجانب الأيسر للنهر على مسافة ٦٠٠ ياردة شمالي المدينة ، وتنحدر جنوباً بمحاذاة الجانب الشرقي من جرف تستر ثم تتصل بالنهر مرة أخرى عند بندقير في مكان عسكر مكرم القديم . وقناطر بند قيصر المعروفة باسم شادروان وطولها ٤٤٠ ياردة على أكبر روافد هذا النهر المعروف باسم الشطيط أو نهر تستر شرقي المدينة ، وكان عليها جسر يصل المدينة بضفة النهر الغربية . وقناة ميناو (أو ميان آب وكانت تعرف أيضاً بنهر داريان) التي تبدأ من أعلى القناطر على شكل سرداب منحوت في الصخر في جانب المدينة الغربي وتقوم القلعة فوق هذا الجانب. وكانت هذه القنوات موجودة منذ الجاهلية ، والمدينة قديمة جداً .

(دائرة المعارف الاسلامية ٩ / ٣٠٤)

رجع النعمان إلى رامهرمز . تمّ هـذا بجيش الكوفة الذي يقوده النعمان قبل أن يصل الجنـــد الذين طلعوا من البصرة بقيادة سهل بن عدي ، فلما كانوا بسوق الأهواز علموا بسقوط رامهرمز في يد النعمان فاتجهوا نحو تستر ، ولحق بهم النعمان وكذلك سلمى وحرملة وحرقوص وجَزْء . ثم سار أبو موسى مدداً إليهم فكان على جيش البصرة وكان النعمان على جيش الكوفة وكان عليهما جميعاً أبو سبرة .

وحاصرت هـــذه القوات تستر ، وفيها هرمزان ، حصاراً دام أشهراً وقع خلالها ثمانون زحفاً كانت دولاً بين المسلمين والمجوس . وفي آخر تلك الزحوف انكشف المسلمون ، وكان فيهم البراء [1] بن مالك الذي قـال رسول الله ﷺ فيه : « رُبَّ أشعث أغـبر لا يُؤبَه له لو أقسم على الله عز وجل لأبرَّه ، منهم البراء بن مالك » .

وذكر المسلمون قول نبيّهم ، فقالوا له : « يا براء أقسم على ربك » .

فقال : « أقسم عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيك » [2] .

---

(١) شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله (ص). وكان شجاعاً مقداماً ولشجاعته كان عمر يكتب لقادة جيوشه : « لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم » . يوم اليمامة اشتد قتال بني حنيفة على الحديقة التي بها مسيلمة ، فقـال البراء : « يا معشر المسلمين ألقوني عليهم ». فاحتملوه حتى إذا أشرف على الجدار اقتحم فقاتلهم على باب الحديقة حتى فتحه للمسلمين ، وجرح يومها بضعاً وثمانين جراحة مـا بين رمية وضربة ، فأقـام عليه خالد شهراً حتى برأ من جراحه . وكان البراء حسن الصوت يحدو بالنبي في أسفاره ، فكان هو حادي الرجال وأنجشة حادي النساء . وهو أخو أنس بن مالك خادم رسول الله . قال أنس : دخلت على البراء بن مالك وهو يتغنى ويرنم قوسه (يدندن به)، فقلت : إلى متى هذا ؟ فقال: يا أنس ، أتراني أموت على فراشي موتاً ؟ والله لقد قتلت بضعة وتسعين سوى من شاركت فيه ، يعني من المشركين . وهو البراء بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جنـدب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج بن حارثة .

(٢) أسد الغابة ٣٩١ .

ولما طالت حربهم خرج رجل من المجوس فأرشد النعمان إلى مدخل للمدينة من جهة مخرج النهر مقابل أن يؤمنوه[1] ، ورمى رجل آخر بنشابة إلى جهة جيش أبي موسى فيها رسالة جاء فيها :

« قد وثقت بكم وأمنتكم واستأمنتكم على أن دللتكم على ما تأتون منه المدينة ويكون منه فتحها » .

فقبلوا منه ورموا نشابة فيها رسالة بالأمان إلى الجهة التي جاءت منها تلك الرسالة ، فرمى إليهم الرجل بنشابة تحمل رسالة :

« إنهدوا من قبل مخرج الماء فإنكم ستفتحونها » .

وتطوّع عدد كبير من معسكر جيش البصرة ، فيهم عامر بن عبد قيس وكعب بن سور ومجزأة بن ثور وحسكة الحنظلي . كما تطوّع عدد كبير من جيش الكوفة ، فيهم سويد بن المثعبة وورقاء بن الحارث وبشر بن ربيعة الخثعمي (وهو بسر بن أبي رهم) ونافع بن زيد الحميري وعبدالله بن بشر الهلالي.

والتقى جند البصرة وجند الكوفة ليلاً عند ذلك المدخل، فتسلل سويد بن المثعبة وعبدالله بن بشر يتبعهما سائر المتطوعين، حتى إذا صاروا داخل الأسوار كبّروا وكبّر المسلمون في الخارج ، وفتح مَن دخل الأبواب فتدفق المسلمون من خلالها والتحموا مع المجوس في معركة ليلية عنيفة . واجتمع المسلمون وانزووا ، فركب البراء بن مالك فرسه وحمل المسلمون معه وحصروا هرمزان في قلعة لم يجد منها مخرجاً ، وقد قتل بنفسه البراء بن مالك ومجزأة بن ثور بعد أن قتل البراء من أول الحصار مائة رجل مبارزة سوى مَن اشترك في قتله مع غيره ، وكذلك مجزأة بن ثور قتل مائة ، وكعب بن سور وأبو تميمة من جيش البصرة ، وحبيب بن قرة وربعي بن عامر وعامر بن عبد الأسود من جيش الكوفة .

---

(١) الطبري ٤ / ٨٣ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو .

وقال هرمزان للمسلمين الذين حصروه : « ما شئتم . قد ترون ضيق ما أنا فيه وأنتم ، ومعي في جعبتي مائة نشابة ، والله ما تصلون إليّ ما دام معي منها نشابة وما يقع لي سهم ، وما خير أساري إذا أصبت منكم مائة ما بين قتيل وجريح » ؟

قالوا : فتريد ماذا » ؟

قال : « أن أضع يدي في أيديكم على حكم عمر يصنع بي ما شاء » .

قالوا : « فلك ذلك » .

فرمى بقوسه فشدّوا وثاقه .

شهد السائب بن الأقرع الثقفي فتح مهرجان ودخل دار هرمزان [لم نستدل على دار هرمزان في أي مدن مهرجان كانت] فرأى فيها تمثال ظبي مادّاً يده ، فقال السائب : « أقسم بالله إنه ليشير إلى شيء » ، فنظر فإذا فيه مخبأ لهرمزان فيه سقط (كيس) من جوهر . (الإصابة ٣٠٥٦) .

سقطت تستر ، واستطاعت بعض الشراذم من الفلول أن تفرّ في اتجاه السوس ، وخرج أبو سبرة وخرج معه النعمان وأبو موسى وقد أخذوا معهم أثمن أسير أسروه : هرمزان ، حتى أحاطوا بالسوس ، وكان يقود حاميتها شهريار أخو هرمزان . وكتب المسلمون إلى عمر بأخبارهم ، فردّ أبا موسى الأشعري إلى البصرة ، وردّ عمر بن سراقة من البصرة إلى المدينة (١) ، وجعل على جيش البصرة الذي في سوس المقترب (الأسود) بن ربيعة (٢) ، وأمرهم عمر أن يسير

---

(١) الطبري ٤ / ٨٦ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو .

(٢) الأسود بن ربيعة أحد بني ربيعة بن مالك بن حنظلة من الصحابة المهاجرين ، وفد على النبي (ص) وقال : جئت لأقترب إلى الله عز وجل بصحبتك ، فسماه المقترب وترك الأسود . شهد صفين مع علي .

زر بن عبدالله [١] بن كليب الفقيمي إلى جُنْدَيْ سابور ، قريباً من السوس .
وأرسل أبو سبرة وفداً إلى المدينة فيهم أنس بن مالك والأحنف بن قيس والمغيرة ابن شعبة ، وأرسل معهم هرمزان مقبوضاً عليه ، فقدِموا البصرة مع أبي موسى الأشعري ثم خرجوا منها . فلما اقتربوا من المدينة هيّأوا هرمزان في هيئته ، فألبسوه كسوته من الديباج المطهم بالذهب ووضعوا على رأسه الآذين ، وهو تاج له كان يلبسه مكللاً باليواقيت ، وعليه حليته حتى يراه المسلمون في صورته التي كان عليها ، ثم دخلوا به المدينة .

هرمزان امام عمر

اتجهوا إلى بيت عمر فلم يجدوه ، فسألوا عنه فقيل لهم : « جلس في المسجد لوفدٍ قدِموا عليه من الكوفة » . فانطلقوا إلى المسجد فلم يروه به ، فانصرفوا فمرّوا بغلمان من أهل المدينة يلعبون ، فقال الصبيان :

« ما تلدّدكم ؟ تريدون أمير المؤمنين ؟ فإنه نائم في ميمنة المسجد متوسداً بُرْنُسَه » .

كان عمر قد جلس لوفد أهل الكوفة في برنس ، فلما فرغ من كلامهم وقاموا من مجلسه نزع برنسه ثم توسّده فنام . وانطلق الوفد ومعهم هرمزان راجعين إلى المسجد وحولهم الناس والصبيان ، حتى إذا رأوا عمر جلسوا دونه وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره ، والدرّة في يده معلقة .

---

(١) زر بن كليب الفقيمي من بني تميم له صحبة ووفادة على النبي (ص) في نفر من بني تميم فأسلم وقال : « فني بطني وكثر إخوتنا فادع الله لنا » ، فدعا له النبي ولذريته وقال : « اللهم أوف لزر عميرته » ، فتحول العدد إليهم . وهو من المهاجرين ، كان في حملة خالد بن الوليد وأرسله إلى أبي بكر بخبر ذات السلاسل والأخماس وبعث معه فيلاً غنموه . وسيأتي له ذكر آخر في فتح نهاوند ، إذ كان عليه أن يشغل المجوس من بين فارس والأهواز عن المسلمين بنهاوند .

(أسد الغابة ١٧٣٦ — الإصابة ٢٨٠٢)

وتعجّب هرمزان فسأل : « أين عمر ؟ »

قالوا : « هو ذا » .

وجعـــل الوفد يشيرون إلى الناس أن يسكتوا . ومال هرمزان إلى الوفد يسأله : « أين حُرّاسه وحُجّابه عنه ؟ »

قالوا : « ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان » .

قال : « فينبغي أن يكون نبياً » .

قالوا : « بل يعمل عمل الأنبياء » .

وكثر الناس ، فاستيقظ عمر من لغطهم وضوضائهم .

فنظر وقال : « هرمزان ! »

قالوا : « نعم » .

فتأمّله وتأمّل ما عليه وقال :

« أعوذ بالله من النار وأستعين بالله . الحمد لله الذي أذلّ بالإسلام هـــذا وأشياعه . يا معشر المسلمين ، تمسّكوا بهـذا الدين واهتدوا بهدى نبيّكم ولا تبطرنّـكم الدنيا فإنها غرّارة » .

فقال الوفد : « هذا ملك الأهواز فكلّمه » .

قال : « لا ، حتى لا يبقى عليه من حليته شيء » .

فخلعوا عنه كل شيء إلا شيئاً يستره وألبسوه ثوباً صفيقاً .

محاكمة هرمزان

فقال عمر : « هيه يا هرمزان . كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟ »

فقال : « يا عمر ، إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا » .

قال عمر : « إنما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرّقنا ... ما عذرك وما حجّتك في انتقاضك مرة بعد مرة ؟ »

قال : « أخاف أن تقتلني قبل أن أخبرك » .

قال : « لا تخف » .

فطلب هرمزان ماءً ليشرب فأتِيَ به في قدح غليظ .

قال : « لو متُّ عطشاً لم أستطعْ أن أشرب في مثل هذا » .

فأتِيَ به في إناء يرضاه ، فجعلت يده ترجف وقال :

« إني أخاف أن أقتَل وأنا أشرب الماء » .

قال عمر : « لا بأس عليك حتى تشربه » .

فأكفأه هرمزان على الأرض .

قال عمر : « أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش » .

فقال : « لا حاجة لي في الماء ، إنما أردت أن أستأمن به » .

وعجب عمر ، فأيُّ أمان في الماء ، قال : « إني قاتلك » [1] .

قال هرمزان : « قد أمنتني » .

قال : « كذبت » .

فقال أنس بن مالك : « صدق يا أمير المؤمنين قد أمنته » .

ولا يغيب عنا هنـا أن أنس بن مالك أخ البراء بن مالك الذي قتله هرمزان بيده في آخر معاركه التي أسر فيها بتستر ، فلم تمنعه فجيعته في أخيه أن يشهد شهادة حق لقاتله تنجيه من القتل وتمنحه الحياة .

قال عمر : « ويحك يا أنس ! أنا أؤمن قـــاتل مجزأة والبراء ؟ والله لتأتيني بمخرج أو لأعاقبك » .

قال : « قلتَ له لا بأس عليك حتى تخبرني ، وقلتَ لا بأس عليك حتى تشربه » .

---

(١) الطبري ٤ / ٨٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو .

وقال له مَن حوله مثل ذلك ، فأقبل عمر على هرمزان وقال : « خدعتني.. والله لا أنخدع إلا لمسلم » .

فأسلم هرمزان .

وكان المترجم بين عمر وبين هرمزان المغيرة بن شعبة ، وكان يفقه شيئاً من الفارسية ، وذلك إلى أن جاء زيد المترجم [1] .

وفي رواية أن عمر قال للمغيرة : « قل له من أي أرض أنت ؟ »

فقال المغيرة : « از كدام أرضى ؟ » [2] .

قال هرمزان : « مهرجانى » .

فقال : « تكلم بحجتك » .

قال : « كلام حيّ أو ميت ؟ »

قال : « بل كلام حيّ » .

قال : « قد أمنتني » .

قال : « خدعتني ! إن للمخـــدوع في الحرب حكمه ، لا والله لا أؤمنك حتى تسلم » .

فأسلم ، وفرض له عمر ألفين من العطاء وأنزله المدينة ، وقال للمغيرة :

« ما أراك بها (باللغة الفارسية) حاذقاً ، ما أحسنها منكم أحد إلا خبّ وما خبّ إلا دقّ ، إياكم وإياها فإنها تنقض الإعراب » .

---

(١) الطبري ٤ / ٨٨ س ش س عن أبي سفيان طلحة بن عبدالرحمن عن أبي عيسى .

(٢) بالفارسية معناها « من أي أرض أنت ؟ »

فتح السوس[1]

أحاط المسلمون بالسوس وعليها شهريار أخو هرمزان ، وحدثت بين الطرفين عدة مناوشات ومصادمات أصاب فيها المجوس من المسلمين . وأشرف الرهبان والقسيسون يوماً من على أسوار المدينة وقالوا :

« يا معشر العرب ، إن مما عَهِدَ إلينا علماؤنا وأوائلنا أنه لا يفتح السوس إلا الدجال أو قوم فيهم الدجال . فإن كان الدجال فيكم فستفتحونها ، وإنْ لم يكن فيكم فلا تعنوا بحصارنا » .

كان ذلك قبل إعادة أبي موسى الأشعري إلى البصرة . ثم بدأ تجمّع كبير آخر للمجوس في نهاوند . وعاد الرهبان والقسيسون وأشرفوا على المسلمين مرة أخرى فقالوا :

« يا معشر العرب لا تعنوا بحصارنا ، فإنه لا يفتحها إلا الدجال أو قوم معهم الدجال » .

وصاحوا بالمسلمين وغاظوهم . ورأى المسلمون أن يهاجموا السوس قبل أن يضطرُّوا إلى تفريق قواتهم بينها وبين الجمع الذي يحتشد في نهاوند ، فشنّوا هجوماً على المدينة واستطاعوا أن يخترقوا تحصيناتها ، فبادر أهلها يستسلمون ويطلبون الصلح. وكان يقود جند البصرة المقترب مكان أبي موسى، ويقود جند الكوفة النعمان بن مقرن مع أبي سبرة وعلى خيل النعمان صاف بن عياد[2] .

---

(١) الطبري ٤ / ٩١ عن سيف .

(٢) الطبري ٤ / ٩٢ .

أمان ووفاء في جُندَيْ سابور

ثم خرج النعمان بجيش الكوفة من السوس فنزل على ماء على الطريق إلى نهاوند، بينما بعث أبو سبرة المقترب الأسود بن ربيعة إلى جُندَيْ سابور فانضم[1] بها إلى زر بن عبدالله بن كليب .

ولحق بهم أبو سبرة فأقاموا على المدينة يتراوحون القتال[2]. وفي يوم فوجىء المسلمون بأبواب جندي سابور تفتح ثم خرج الناس والمواشي ونصبوا أسواقهم .

فأرسل المسلمون إليهم يسألونهم : « ما لكم ؟! »

قالوا : « رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزية على أن تمنعونا » .

فأنكر المسلمون وقالوا : « ما فعلنا » .

وقال الآخرون : « ما كذبنا » .

فسأل المسلمون فيما بينهم فوجدوا عبداً بينهم يدعى مكنفاً كان أصله من جندي سابور ، هو الذي كتب لهم الأمان ورماه إليهم من عسكر المسلمين .

فقال المسلمون : « إنما هو عبد » .

قال أهل المدينة : « لا نعرف حُرّكم من عبدكم ، قد جاء أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدل ، فإن شئتم فاغدروا » .

---

(١) الطبري ٤ / ٩١ س ش س عن محمد وطلحة وأبي عمرو ودثار أبي عمر عن أبي عثمان وللمدائني رواية مخالفة اكتفينا بهذه عنها .

(٢) الطبري ٤ / ٩٣ س ش س عن محمد وطلحة وأبي عمرو وأبي سفيان والمهلب .

فكفّ المسلمون عنهم حتى رجعوا إلى عمر فكتب إليهم :

« إن الله عظّمَ الوفاء ، فلا تكونون أوفياء حتى تَفُوا . ما دمتم في شك أجيزوهم وَفُوا لهم » .

فانصرف المسلمون عنهم وفاءً لأمان عبدٍ بينهم .

وفي ذلك قال عاصم بن عمرو [1] :

لعَمري لقد كانت قرابة مكنفٍ   قرابة صدقٍ ليس فيها تقاطع
أجارهمُ من بعد ذلٍّ وقلّةٍ   وخوفٍ شديدٍ والبلادُ بلاقع
فجاز جوار العبد بعد اختلافنا   وردّ أموراً كان فيها تنازع
إلى الركن والوالي المصيب حكومة   فقال بحَقٍّ ليس فيه تخالع

* * *

(١) معجم البلدان ...

حشود بنهاوند

وتحدَّث عمر إلى وفد البصرة وسأل عن سبب انتقاض أهل الذمة .

قال : « لعلَّ المسلمين يفضون إلى أهل الذمة بأذى وبأمور لهـا ما ينتقضون بكم ؟ »

قالوا : « ما نعلم إلا وفاءً وحسن ملكة » .

قال : « فكيف هذا ؟ »

فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويزيده بصيرة إلا ما كان من الأحنف بن قيس ، فإنه قال :

« يا أمير المؤمنين أخبرك ، إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على ما في أيدينا . وإن ملك فارس حيٌّ بين أظهرهم ، وإنهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم . ولم يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه . وقد رأيت أنّا لم نأخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم . وإن ملكهم هو الذي يبعثهم ، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا ، فلنَسِحْ في بلادنا حتى نُزيله عن فارس ونُخرجه من مملكته وعِزّ أمته ، فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس ويُضربوا جأشاً » .

قال عمر : « صدقتني والله وشرحت لي الأمر عن حقه »[1] .

---

(١) الطبري ٤ / ٩٤ س ش س عن محمد وطلحة وعمرو عن الشعبي وسفيان عن الحسن .

وقد لفتت هـــذه الإجابة نظر عمر إلى الأحنف بن قيس وما له من نظر استراتيجي ، فأعاد عمر الوفد إلى البصرة .

ثم قدِمَ على عمر كتاب بانتهاء أهـل مهرجانقذق والأهواز إلى مشيئة هرمزان ، وكأنما كان هرمزان قلعة من قلاع الفرس سقطت ، وباجتماع الفرس في نهاوند ، وكان المسلمون ما زالوا محاصرين السوس لم يفتحوها ، وكان قباذ بن عبدالله الفارسي المسلم الذي استخلفه القعقاع بن عمرو على حلوان ، هو الذي أرسل إلى سعد باجتماع المجوس بنهاوند ، فكتب سعد إلى عمر .

* * *

عزل سعد

شكوى وتحقيق

وذهب نفر من أهل الكوفة إلى عمر يشكون سعداً : « إنه لا يقسم بالسويّة ولا يعدل في القضية ولا يغزو في السريّة ولا يحسن الصلاة ! »

قال عمر : « إن الدليل على ما عندكم من الشرّ نهوضكم في هــذا الأمر وقد استعدّ لكم مَن استعدّ (يقصد المجوس بنهاوند) . وأيم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا بكم » .

وبعث عمر محمد بن مسلمة إلى الكوفة للتحقيق في الأمر ، وكان ابن مسلمة هو النيابة الإدارية المختصّة بالتحقيق مع الولاة الذين تصل إلى عمر شكايات في حقهم. بعثه والمسلمون بالعراق يستعدّون للخروج إلى المجوس الذين اجتمعوا بنهاوند ، فهم في حركة واجتماع تموج بهم الكوفة .

وأخذ محمــدٌ سعداً ليطوف به على أهل الكوفة في مساجدها ، لا يسأل عنه سرّاً فلم يكن السؤال في السرّ من شأنهم إذ ذاك . فكان لا يقف به في مسجد من مساجد الكوفة فيسألهم عنه إلا قالوا خيراً :

« لا نعلم إلا خيراً ولا نشتهي به بدلاً ولا نقول فيه ولا نعين عليه » .

إلا مَن مالأ الجراح بن سنان الأسدي وأصحابه الذين شكوا سعداً ، فإنهم

كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً ولا يسوغ لهم ، ويتعمّدون ترك الثناء ، حتى انتهوا إلى مسجد بني عبس ، فقال محمد بن مسلمة :

« أنشد بالله رجلاً يعلم حقاً إلا قال » .

فقال رجل يدعى أسامة بن قتادة : « اللهم إن نشدتنا فإنه لا يقسم بالسويّة ولا يعدل في الرعيّة ولا يغزو في السريّة » .

دعوة سعد المستجابة

قال سعد : « اللهم إنْ كان قالها كاذباً ورياءً وسمعة ، فأعْمِ بصره وأكثِرْ عياله وعَرّضْهُ لمضلاّت الفتن » .

وكان سعد مُستجاب الدعاء ، فعاش ذلك الرجل حتى عَمِيَ واجتمع عنده عشر بنات ، وكان يسمع بخبر المرأة فيأتيها حتى يجسّها ويتعرّض للجواري في السكك ، فإذا عُثر عليه أو خوطب في ذلك قال :

« مفتون أصابته دعوة سعد بن أبي وقاص الرجل المبارك ! »

وأقبل سعد يدعو على أولئك النفر :

« اللهم إنْ كانوا خرجوا أشراً وبطراً وكذباً فأجهِدْ بلاءهم » .

فجهد بلاؤهم حتى قُطّعَ الجراح بن سنان بالسيوف يوم ثار على الحسن بن علي ليغتاله بساباط ، وشُدِخَ قبيصة بالحجارة ، وقُتِلَ أربد بالوَجْىءِ وبنعال السيوف .

واستمرّ سعد الصحابي البطل المُفتَرى عليه يتكلم ، فقال :

« إني لأوّل رجل أهرق دماً من المشركين . ولقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه وما جمعها لأحد قبلي ، ولقد رأيتني خمس الاسلام وبنو أسد تزعم أني لا أحسن أصلي وأن الصيد يلهيني ؟! »

سعد يعود الى المدينة

وخرج محمد من الكوفة بسعد ومعها أولئك النفر حتى َقدِمَ بهم على عمر فأخبره الخبر .

قال عمر : « يا سعد ويحك ! كيف تصلي ؟ »

قال : « أطيل الأولين وأحذف الأخريين » .

فقال : « هكذا الظنُّ بك » .

ومن المؤكد أن سعداً كان يقول الحقيقة ، فلم يكن ليداهن أو يقابل عمر بوجه وأهل الكوفة بوجه آخر ،فسعد هو الذي روى عن رسول الله ﷺ قوله[1] : « ذو الوجهين في الدنيا يأتي يوم القيامة وله وجهان من نار » .

فما كان ليروي الحديث مع ما فيه من ترهيبْ ثم يخالفه .

ثم قال عمر : « لولا الاحتياط لكان سبيلهم بَيِّناً . مَن خليفتك يا سعد على الكوفة ؟ »

قال : « عبدالله بن عبدالله بن عتبان »[2] .

فأقرّه عمر واستعمله . فكانت كل مقدمات نهاوند ومشورتها وترتيبها وبعوثها في إمارة سعد ، أما الموقعة ذاتها فكانت في إمارة عبدالله .

---

(١) الطبراني في الأوسط .

(٢) الطبري ٤ / ١٢٢ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد .

الباب السادس

نهاوند وما بعدها

نهاوند

مقدمات

حين استطاع جيش البصرة أن ينقذ جيش العلاء بن الحضرمي ووطئوا أرض فارس وأعجزوا هرمزان ، كاتبَ الفرسُ يزدجرد وهو يومئذٍ بمرو فأثاروه لتحرُّك جديد ، فكتب إلى كافة أقاليم مملكته فتكاتبوا وقال بعضهم لبعض :

« إن محمداً الذي جاء العربَ بالدين لم يغرض غرضنا . ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يغرض غرض أهل فارس إلا في غارة تعرَّض لهم فيها وإلا فيما يلي بلادهم من السواد . ثم ملك عمر من بعده فطال مُلكه وعَرِض حتى تناولكم وانتقصكم أهل السواد والأهواز وأوطأها . ثم لم يرضَ حتى أتى أهل فارس والمملكة في عقر دارهم وهو آتيكم إنْ لم تأتوه ، فقد أخرب بيت مملكتكم واقتحم بلاد ملككم وليس بمُنتَهٍ حتى تُخرِجوا مَن في بلدكم من جنوده وتقلعوا هذين المصرين (الكوفة والبصرة) ثم تشغلوه في بلاده وقراره » .

وتعاهدوا وتعاقدوا وكتبوا بينهم على ذلك كتاباً [1] . وأجابوا يزدجرد وركب بعضهم إلى بعض واختاروا نهاوند ليجتمعوا بها ويبرموا فيها أمورهم .

---

(١) الطبري ٤ / ١٢٣ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد .
وشاركهم موسى عن حمزة بن المغيرة بن شعبة بن أبي طعمة الثقفي وكان قد شهدها .

ونهاوند مدينة حصينة تقوم على ربوة شاهقة ترتفع ٦٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وترتفع كثيراً فوق ما أمامها من أرض . وجـــاؤوا إليها من بين خراسان إلى حلوان ومن بين الباب إلى حلوان ومن سجستان إلى حلوان وأهل الجبال .

وكان قباذ بن عبدالله على ثغر حلوان منذ استخلفه القعقاع بن عمرو عليها ، فكتب بذلك إلى سعد وكتب سعد إلى عمر . ثم عُزل سعد عن الكوفة وَقَدِمَ المدينة فحدّث عمر في شأن حشود العجم بنهاوند وقال له :

« إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح في أن يبادروهم الشدة » .

وكان عمر مـا زال يمنع المسلمين من الانسياح في الجبال . ومن الكوفة كتب ابن عتبان وغيره إلى عمر مع رسول اسمه قريب بن ظفر العبدي :

« إنه قد تجمّع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل، فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشدة ازدادوا جرأة وقوة . وإنْ نحن عاجلناهم كان لنا ذلكَ عليهم » .

وقرأ عمر الرسالة ثم قال للرسول : « ما اسمك ؟ »

قال : « قريب » .

قال : « ابن مَن ؟ »

قال : « ابن ظفر » .

فتفاءل عمر وقال : « ظفر قريب إن شاء الله ولا قوة إلا بالله » .

هرمزان يشير وعمر يستشير

وفي الروايات أن عمر حين أمّن هرمزان قال له : « لا بأس ، انصح لي » .

قال : « نعم ، إن فارس اليوم رأس وجناحان » .

قال : « وأين الرأس ؟ »

قال : « بنهاوند مع بندار ، فإن معه أساورة كسرى وأهل أصبهان » .

قال : « وأين الجناحان ؟ »

قال : « آذربيجان [1] . فاقطع الجناحين يهن الرأس » .

قال عمر : « كذبت يا عدوّ الله ، بل اعمد إلى الرأس فاقطعه ، فإذا قطعه الله لم يَعْصَ عليه الجناحان » .

ثم نوديَ في الناس [2] : « الصلاة جامعة » ، فاجتمع الناس ووافاه سعد وقام عمر على المنبر فأخبر الناس بخبر حشود نهاوند واستشارهم فقال :

« هذا يوم له ما بعده من الأيام . ألا وإني قد هممت بأمر وإني عارضه عليكم فاسمعوه ثم أخبروني وأوجزوا ولا تنازَعوا فتفشلوا وتذهبَ ريحُكم . ولا تكثروا ولا تطيلوا فتفشغ بكم الأمور ويلتوي عليكم الرأي .

أفمن الرأي أن أسير فيمن قبلي ومَن قدرتُ عليه حتى أنزل منزلاً وسطاً بين هذين المصرين فأستنفرهم ثم أكون لهم ردءاً حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب فإن فتح الله عليهم أضربهم عليهم في بلادهم وليتنازعوا مُلكهم ؟ » .

فقام طلحة بن عبيد الله [3] ، وكان من خطباء الصحابة ، فتشهّد ثم قال :

« أما بعد، يا أمير المؤمنين قد أحكتك الأمور وعجمتك البلايا واحتنكتك التجارب وأنت وشأنك وأنت ورأيك . لا ننبو في يديك ولا نكل عليك . إليك هذا الأمر فمُرْنا نُطِعْ وادعُنا نُجِب واحمِلْنا نركبْ ووَفّدْنا نفِدْ وقُدْنا نَنقَدْ . فإنك وليُّ هذا الأمر وقد بلوت وجرّبت فلم ينكشف شيء من عواقب قضاء الله لك إلا عن خيار » .

---

(1) الطبري ٤ / ١١٧ عن الربيع بن سليان عن أسد بن موسى عن المبارك بن فضالة عن زياد ابن جبير عن أبيه .. وقال الراوي : « فذكر مكاناً نسيته » ، وقد أكملناها من رواية البلاذري أن هرمزان قال : « أصبهان الرأس وآذربيجان الجناحان ، فإن قطعت الرأس سقط الجناحان والرأس » . فتوح البلدان ٧٦٠ عن شيبان عن حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن علقمة ابن عبدالله عن معقل بن يسار .

(2) الطبري ٤ / ١٢٣ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد .

(3) « ٤ / ١٢٤ « عن أبي بكر الهذلي .

ثم جلس وقد ردّ الرأي إلى عمر أو كأنه وافقه على ما عرض، وعمر يطلب الرأي ، فعاد عمر يقول :

« إن هذا يوم له ما بعده من الأيام ، فتكلموا » .

فقام عثمان بن عفان فتشهّد وقال :

« أرى يا أمير المؤمنين أن تكتب إلى أهـــل الشام فيسيروا من شامهم ، وتكتب إلى أهل اليمن فيسيروا من يمنهم ، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين إلى المصرَيْن (الكوفة والبصرة) ، فتلقى جمع المشركين بجمع المسلمين . فإنك إذا سِرْتَ بمن معك وعندك َقلّ في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم، وكنت أعَزّ عِزاً وأكثر .

يا أمير المؤمنين ، إنك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية ، ولا تمتنع من الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز . إن هذا اليوم له ما بعـــده من الأيام فاشهده برأيك وأعوانك ولا تغبْ عنه » .

ثم جلس . هـــذا رأي عثمان ، فكما بعث عمر جيش الكوفة إلى الشام ليردّ هجوم الروم وأهل الجزيرة عن حمص ، فينبغي أن يتحرّك جيش الشام للقـــاء اجتماع العجم بنهاوند ، ومن حيث أن عددهم كبير فليضم عمر إلى جيشه كافة قواته من اليمن والحرمين وجيش البصرة وجيش الكوفة ثم يكون معهم بشخصه . إنها وجهـــة نظر . ويريد عمر أن يرى إن كانت هناك آراء أخرى ، فعاد يقول :

« إن هذا يوم له ما بعده من الأيام فتكلموا » .

فقام[1] الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ فتكلموا ، وكان العباس بن عبد المطلب هو الذي ينقد له الرأي ، قالوا :

---

(١) الطبري ٤ / ١٢٣ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة وعمرو وسعيد .

« لا نرى ذلك (يعني أن يسير عمر بنفسه) ، ولكن لا يغيبنّ عنهم رأيك وأثرك . بإزائهم وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ومَن قد فضّ جموعهم وقتل ملوكهم وباشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه ، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك ، فأذَنْ لهم واندبْ إليهم وادعُ لهم » .

وقالوا : « نذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تسير بنفسك إلى حلبة العجم ، فإنْ أصبت لم يكن للمسلمين نظام ولكن ابعث الجنود » .

ثم قام علي بن أبي طالب فقال : « أصاب القوم يا أمير المؤمنين الرأي ، وفهموا ما كتب به إليك ، ومكانك منهم مكان النظام من الخرز يجمعه ويمسكه فإذا انحلّ تفرّق ما فيه وذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً .

والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهي عزيز بالاسلام .

فإنك إنْ أشخصت أهل الشام من شامهم سارت الروم إلى ذراريهم ، وإنْ أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت الحبشة إلى ذراريهم ، وإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك الأرض من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم إليك مما بين يديك من العورات والعيالات .

فأقِمْ وأقررْ هؤلاء في أمصارهم ، واكتبْ إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم، ومَن لم يحفل بمن هو أجمع وأحدّ وأجدّ من هؤلاء، فليأتهم الثلثان وليقم الثلث . واكتب إلى أهل البصرة فليتفرّقوا فيها ثلاث فِرَق ، فلتقم فرقة لهم في حرمهم وذراريهم ، ولتقم فرقة في أهل عهدهم (بالأهواز) لئلا ينتقضوا ، ولتَسِرْ فرقة إلى إخوانهم بالكوفة مدداً لهم .

إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا هذا أمير العرب وأصل العرب ، فكان ذلك أشد لكَلَبهم وألبتهم على نفسك . وأما ما ذكرت من مسير القوم فإن الله هو أكرَه لمسيرهم منك وهو أقدَر على تغيير ما يكره . وأما ما ذكرت من عددهم فإنا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكنّا كنا نقاتل بالنصر ، وإن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه لكثرة ولا قلة . هو دينه الذي أظهَر ،

وجنده الذي أعزّ وأيّده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعود من الله ، والله منجز وعده وناصر جنده » .

وقال سعد [1] بن أبي وقاص : « يا أمير المؤمنين خفض عليك ، فإنهم إنما جمعوا لنقمة » .



رسم تصوري لموقع نهاوند

فسُرّ عمر بحسن رأيهم وأعجبه ذلك منهم ، فقال :

« أجل . لئن شخصتُ من البلدة لتنتقضنّ عليّ الأرضُ من أطرافها وأكنافها. ولئن نظرتُ إلى الأعاجم لا يفارقنّ العرصة [الميدان] وليمدّنّهم مَن لم يمدّهم وليقولنّ هذا أصل العرب فإذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب . فأشيروا عليّ برجل أُوَلّيه ذلك الثغر غداً » .

قال قائلٌ منهم : « أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة »

قال عمر : أشيروا عليّ واجعلوه عراقياً (من جيش فتح العراق) » .

قالوا : « يا أمير المؤمنين أنت أعلم بأهل العراق ، وجندك قد وفدوا عليك ورأيتهم وكلمتهم » .

---

(١) الطبري ٤ / ١٢٤ س ش س عن حمزة بن المغيرة بن شعبة عن أبي طعمة الثقفي .

فقال : « أما والله لأُولِيَنَّ أمرَهم رجلاً ليكونَنَّ لأول الأسنّة إذا لقيَها غداً » .

قالوا : « مَن يا أمير المؤمنين ؟ »

قال : « النعمان بن مقرن المزني » .

قالوا : « هو لها » .

النعمان امير الجيش

كان النعمان يومئذٍ قد فرغ من عمليات الأهواز في أربك ورامهرمز وتستر والسوس وجُندَيْ سابور ، فاستعمله سعد بن أبي وقاص قبل عزله على خراج كسكر ، كما استعمل أخاه سويد بن مقرن على خراج ما سقى الفرات . فكتب النعمان إلى عمر يشكو إليه استعماله على الخراج وأنه لا يحب مناصب الإدارة ولكنه يرغب في الجهاد [1] . وكان مما كتب إلى عمر :

« مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب إلى جنبه مومسة تلون له وتعطر ، فأنشدك الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني إلى جيش من جيوش المسلمين » [2] .

---

(١) الطبري ٤ / ١١٤ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

(٢) الطبري ٤ / ١٢٦ عن محمد بن عبيدالله بن صفوان الثقفي عن أمية بن خالد عن أبي عوانة عن حصين بن عبدالرحمن عن أبي وائل .

وهناك روايات أخرى بأن النعمان كان بالبصرة بعد الفراغ من فتح الأهواز . وذهب آخرون إلى أنه كان قد عاد إلى المدينة فبعثه عمر مشافهة . (فتوح البلدان ٧٠٩ عن محمد بن سعد عن الواقدي عن محمد بن نجاد) . وإن عمر دخل المسجد فأبصر بالنعمان فقعد إلى جنبه فلما قضى صلاته قال : « أما إني ساستعملك » . قال النعمان : « أما جابياً فلا ، ولكن غازياً » . قال : « فأنت غاز » . (فتوح البلدان ٧٦٠ عن شيبان عن حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن علقمة بن عبدالله عن معقل بن يسار) . ولكننا وقفنا على تسعة وجوه تذهب إلى أن النعمان كان عاملاً على كسكر حين بعثه عمر إلى نهاوند. (فتوح البلدان ٧٠٩ عن الواقدي عن محمد بن =

وكتب سويد بن مقرن إلى عمر بمثل ذلك .

وكتب عمر إلى النعمان مع زر بن كليب والمقترب الأسود بن ربيعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن .

سلام عليك . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند . فإذا أتاك كتابي هذا فسِرْ بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ، ولا تدخلنهم غيضة ، فإن رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مائة ألف دينار [1] .

فسِرْ من وجهك ذلك حتى تأتي ماه ، فإني قد كتبت إلى أهل الكوفة أن يوافوك بها . فإذا اجتمع لك جنودك فسِرْ إلى فيرزان ومَن تجمّع إليه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم ، واستنصروا الله وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله [2] . والسلام عليك » .

كذلك كتب إلى عبدالله بن عبدالله بن عتبان بالكوفة مع ربعي بن عامر : « أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا (الثلثان الذين أشار بهم علي ابن أبي طالب) ، فإني قد كتبت إليه بالتوجُّه من الأهواز إلى ماه . فليوافوه بها وليَسِر بهم إلى نهاوند ، وقد أمَّرتُ عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن . وقد كتبت إلى النعمان إن حدث بك حدث فعلى الناس

= نجاد - الطبري ٤ / ٢٣ س ش س عن محمد بن كريب عن نافع بن جبير - الطبري ٤/ ١١٤ عن ابن اسحق - الطبري ٤ / ١٢٦ عن أبي وائل - الطبري ٤ / ١٣٩ عن سيف عن كل من محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد) .

(١) الطبري ٤ / ١١٤ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

(٢) الطبري ٤ / ١٢٤ س ش س عن أبي بكر الهذلي .

حذيفة بن اليمان ، فإنْ حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نعيم بن مقرن »[1] .

وكان الذي على جند البصرة أبو موسى الأشعري[2] .

توغل في بلاد العجم

وردَ عمر قريب بن ظفر العبدي إلى الكوفة ، وردَ معه السائب بن[3] الأقرع الثقفي أميناً للأقباض وقسم الفيء ، وكان رجلاً كاتباً حاسباً ، ولن تكون هناك أقباضٌ وفيء إلا مع النصر ، فقال له :

« الحقْ بهذا الجيش فكُنْ فيهم ، فإنْ فتح الله عليكم فاقسمْ ما أفاء الله عليهم بينهم ، وخُذْ خمس الله وخمس رسوله . ولا تخدعني ولا ترفع إليّ باطلاً ، وإنْ نُكِبَ القوم فلا تراني ولا أراك فاذهب في سواد الأرض ، فبطنُ الأرض خيرٌ من ظهرها »[4] .

فقَدِما الكوفة بكتاب من عمر يستحثهم على الخروج فتسارعوا إلى ذلك ، وخرج بهم حذيفة بن اليمان ومعه نعيم بن مقرن حتى قَدِموا على النعمان في مكان اسمه الطرز (بينها وبين نهاوند بضعة وعشرون فرسخاً — حوالي ١٣٠ كلم) .

---

(١) في رواية ابن اسحق أن خليفة النعمان كان حذيفة ثم جرير بن عبدالله ثم قيس بن مكشوح — الطبري ٤ / ١١٥ . وفي رواية ابن سعد عن الواقدي عن محمد بن نجاد أنهم كانوا النعمان ثم حذيفة ثم جرير البجلي ثم المغيرة بن شعبة ثم الأشعث بن قيس .

(٢) فتوح البلدان ٧٧١ .

(٣) السائب بن الأقرع بن عوف بن جابر بن سفيان بن عبد ياليل بن سالم بن مالك بن حطيط بن جشم بن ثقيف الثقفي وأمه مليكة . دخل مع أمه على النبي (ص) فمسح النبي برأسه ودعا له. استعمله عمر على المدائن ثم ولي أصبهان ومات بها وله فيها ذرية. (أسد الغابة ١٩٠٢).

(٤) الطبري ٤ / ١١٦ بدون إسناد .

فتوح البلدان ٧٦٣ عن القاسم بن سلام عن محمد بن عبدالله الأنصاري عن النهاس بن قهم ابن القاسم بن عوف عن أبيه عن السائب بن الأقرع .

فجعلوا بمرج [1] القلعة قوة من الخيالة عليها النسير بن ديسم العجلي يدلنا مكان الطرز ومكان مرج القلعة على الخريطة على أن حذيفة ونعيم وجيشهما الذي خرج معهما من الكوفة قد سلكا طريق حلوان، وأنهم جعلوا من الطرز مكان تجمّع ونقطة التقاء حتى يسيروا جميعاً جيشاً واحداً على تعبئة إلى نهاوند . كذلك كتب عمر إلى سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وزر بن كليب والمقترب الأسود بن ربيعـــة والقواد الذين كانوا بين فارس والأهواز - وهم الذين كانوا يمثلون الثلث الثالث من جند البصرة الذي تحدّث عنه علي بن أبي‌طالب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما — أن يشغلوا الفرس عن قطاع نهاوند ، وقال لهم :

« اشغلوا فارس عن إخوانكم وحوطوا بذلك أمتكم وأرضكم . وأقيموا على حدودها بين الأهواز وفارس حتى يأتيكم أمري » .

وبعث مجاشع بن مسعود السلمي إلى الأهواز وقال له: « انصل منها على ماه » يعني يسلك الأهواز إلى ماه . فخرج حتى إذا كان في غضى شجر أمره النعمان أن يقيم مكانه شأن القادة الآخرين الذين عليهم مهمة تأمين ظهر القوة الأساسية وتأمين مواصلاتها. فأقام بين غضى شجر ومرج القلعة [وكان النسير بمرج القلعة] وخرج سلمى وحرملة وزر والمقترب فكانوا بتخوم أصبهان وفـارس . وبذلك قطعوا عن قوات نهاوند من المجوس طريق أي أمداد جديدة من تجاه فـارس والجنوب ، فكانت هذه الحاميات الكثيرة المنتشرة على طول الحدود (أو خط اقتسام النفوذ) بين ما غزا المسلمون وبين ما يملك يزدجرد ، وتقيم خط دفـاع قوياً يتيح للنعمان أن يتقدم إلى نهاوند في الطرق الجبليـــة الوعرة بجيشه في ثقة وأمان .

---

(١) من حلوان إلى مدراوستان أربعة فراسخ ثم إلى مرج القلعة ستة فراسخ ثم إلى قصر يزيد أربعة فراسخ ثم إلى الزبيدية ستة فراسخ ثم إلى حشكاريش ثلاثة فراسخ ثم إلى قصر عمرو أربعة فراسخ ثم إلى قرميسين (كرمانشاه) ثلاثة فراسخ ، فذلك من قرميسين إلى حلوان ثلاثون فرسخاً (قدامة بن جعفر ١٩٨) . والفرسخ = ٥٥٤٤ متر (يرجع إلى الجزء الأول من الطريق إلى المدائن) .

السير في الجبل

كثيراً ما نرى من بعض الجيوش الكبرى حتى عصرنا هـذا أنها تعنى قدر جهدها بالجبهــة بمعناها الضيق المحدود، وتنسى ما وراء ذلك فتفقد حرصها وحذرها وأخذها بعنصر الأمان، فتأتيها النكبة من حيث لم تحتسب وتكون كارثتها مضمونة محققة دون ما قتال جدّي. ولكن عباقرة الحرب من الصحابة المحاربين (عمر وأصحابه) لم يغفلوا عن هذا المبدأ من مبادىء الحرب. نلحظ ذلك في هـذا التحرّك وهم يحمون ظهورهم وأجنابهم ببعض قواتهم، ويسدّون المسالك على أية قوات فارسية عسى أن تفكر في دخول الميدان من أجنابه أو من ظهره. ولعلنا لم ننسَ ما ذكرنا في هذا الشأن في تعليقنا على حمـلة خالد بن الوليد بالجزء الثاني من الكتاب الأول «الطريق إلى المدائن».

لقد رأينا المسلمين فيما مضى من فتوح قـد خاضوا معارك الصحراء ومعارك الأنهار، وكانت بعض معارك الأهواز معارك جبـــال، كذلك كانت معركة نهاوند معركة جبــال وهي أحق بهذا الوصف من أية معركة سبقت. ويتسم هـــذا النوع من العمليات بصعوبة لا حدّ لها للسير في الجبال بأرتال كبرى. ونستعير هنـــا تصوير كلاوزفيتز لهذا النوع من المسيرات في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، وكان يعتمد أيضاً على الخيل والبغال، يقول [1]:

«عندما يتلوّى قول من القولات بصعوبة بالغـة على طول المضائق الضيقة ليتسلق جبلاً من الجبـــال ويتقدم فيه بخطوة تشبه خطوة السلحفاة.. وعندما يشتم المدفعيون وسائقو العربات أحصنتهم ورواحلهم ويسوقونها بضربات سياطهم عبر وديان قاحلة، وعندما ينبغي أن نبعد كل عربة محطمة وأن نبذل في سبيل ذلك جهوداً مضنية لا توصف، على حين يتعثر كل شيء خلفنا ونحن نطلق

---

(١) في الحرب ٢٠٠ للجنرال كارل فون كلاوزفيتز – تعريب أكرم ديري والمقـــدم الهيثم الأيوبي.

الشتائم والسباب ... عنـدما يحدث كل ذلك يقول كل واحد لنفسه : « يكفي أن يظهر العدو بمئات من الرجال ليطير كل شيء هباءً منثوراً » .

وحتى لا يحدث ذلك للجندي المسلم في مسيرته ، مع ما قد يحدثه من ردود فعل ربما أثرت في معنويته ، فقد أمّن المسلمون ظهورهم وأجنابهم وبقي احتمال الخطر من أمامهم أثنـاء تلك المسيرة الخطرة ، ولذلك عمد النعمان إلى الاستكشاف ، ولقد كان النعمان ومَن معه ذوي تجربة لها قيمتها في الحرب . يقول كلاوزفيتز بعد ما تقدّم :

« ... ومع ذلك فإن كل مَن لديه بعض التجربة في الحرب يعرف، أو عليه أن يعرف ، أن مسيرة من هذا النوع عبر الجبل لا علاقة لها مع الهجوم الجبلي ، وأن من الخطأ أن نستنتج من صعوبة المسير هذه صعوبة هجوم في الجبل ، لأن هذه الصعوبة في الواقع أهم وأكبر » .

استكشاف

لما قَدِمَ جنـدُ الكوفة على النعمان بالطزر حمل إليه قريب بن ظفر كتاب عمر :

« إن معك حدّ العرب ورجالهم في الجاهلية ، فأدخلهم دون ما هو دونهم في العلم بالحرب ، واستعِنْ بهم وأشربْ برأيهم ، وَسَلْ طليحـة وعمرا ولا تولهم شيئاً » .

فبعث النعمان من الطزر طليحـة بن خويلد وعمرو بن أبي سلمى العنزي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي طليعة ليأتوه بالخبر ، وطلب منهم ألا يوغلوا فلما ساروا يوماً إلى الليل رجع عمرو بن أبي سلمى إلى المسلمين .

فقالوا : « ما رجعك ؟ »

قال : « كنتُ في أرض العجم وَقَتَلَتْ أرضٌ جاهِلَها وقتلَ أرضاً عالِمُها » .

ومضى طليحة وعمرو بن معدي كرب حتى إذا كان آخر الليل رجع عمرو ، قالوا : « ما رجعك ؟ »

قال : « سرنا يوماً وليلة ولم نرَ شيئاً وخِفتُ أن يؤخذ علينا الطريق » .

أما طليحة فلم يحفل بهما ومضى وحده حتى انقطعت أخباره وظنّ المسلمون به الظنون فقالوا : ارتدّ مرة أخرى ولحق بالمجوس . سار طليحة حتى انتهى إلى نهاوند – وبين الطرز ونهاوند حوالي ١٣٠ كيلومتراً – فعلم علم القوم وأطلع على ما أراد ثم رجع ، فلما انتهى إلى جيوش المسلمين ورأوه عاد كبّروا .

فقال : « ما شأن الناس ؟ »

فأخبروه بالذي خافوا عليه ، فأنكر عليهم ظنونهم ثم دخل على النعمان فأخبره الخبر وأعلمه أن ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد من المجوس على ذلك الطريق .

تعبية وتقدم

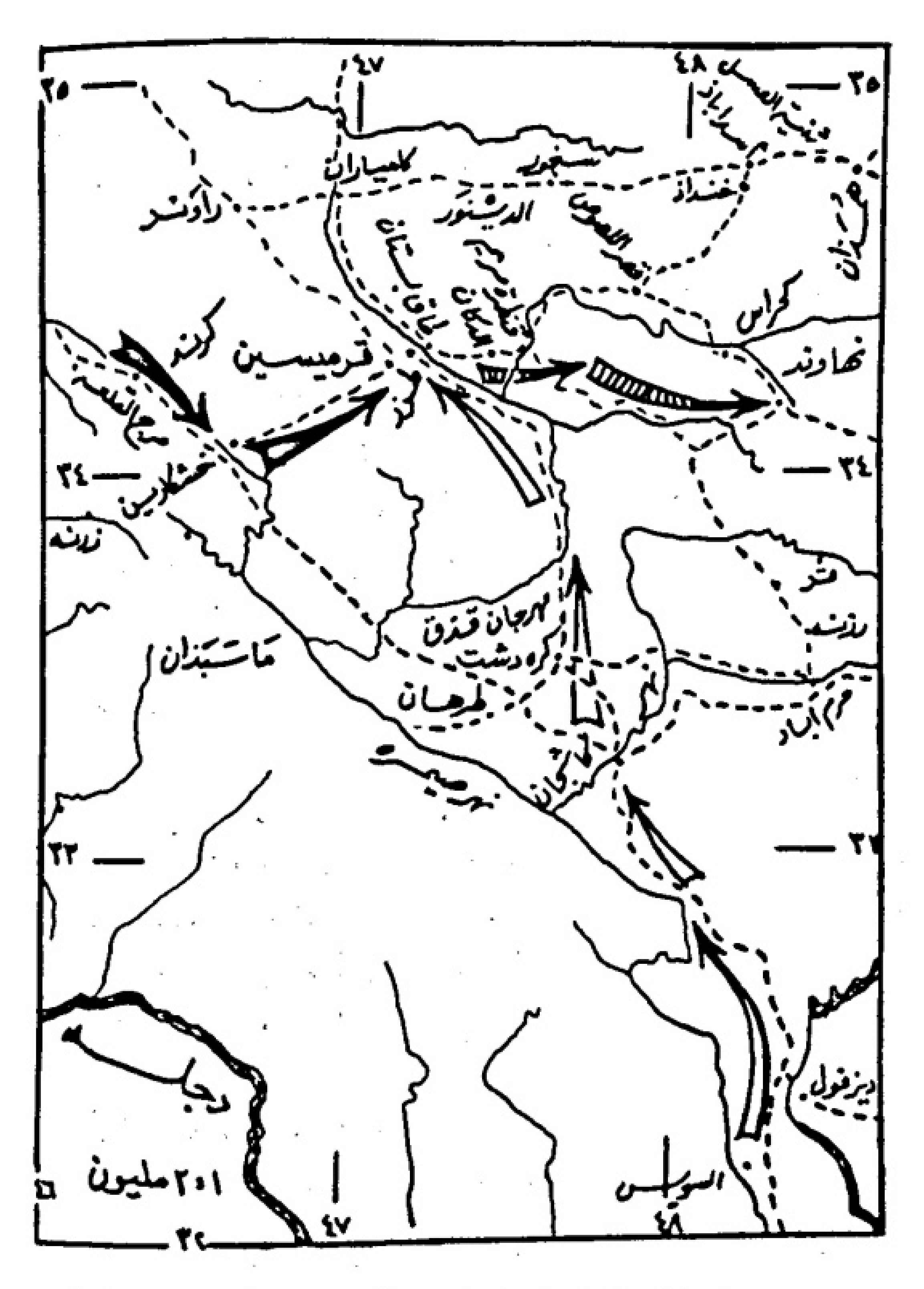
عند ذلك نادى النعمان بالرحيل وأمر جنده بالتعبية . وبعث إلى مجاشع بن مسعود أن يتحرك من خلفهم مؤخرة لهم . وبالرغم من خلوّ الطريق وفق ما أعلمه به طليحة ، فقد سار النعمان على تعبيته ، فقد استكشف الطريق ولم يستكشف أجنابه ، فكان على المقدمة أخوه نعيم بن مقرن ، وعلى الميمنة حذيفة ابن اليمان ، وعلى الميسرة أخوه سويد بن مُقَرِّن ، وعلى المجردة (الفرسان) القعقاع بن عمرو ، وعلى المؤخرة مجاشع بن مسعود . هذا السير يشرحه لنا قول كلاوزفيتز [١] :

« تحتاج كل قطعة عسكرية غير مستعدة للقتال بشكل تام ، لمقدمة تفتش عن العدو وتكتشف تقدمه قبل أن يدخل في حقل أنظار القطعة » .

كان في هذا الجيش وجوه جند الكوفة والبصرة وأمداد من أهل المدينة فيهم

---

(١) في الحرب ١ ، ٤ .



خريطة (١٢) الزحف إلى نهاوند المقياس ١/٢ مليون

عبدالله بن عمر بن الخطاب وجرير بن عبدالله البجلي وجرير بن عبدالله الحميري وسويد بن مقرن ومعقل بن مقرن ونعيم بن مقرن إخوة النعمان، والقعقاع بن عمرو ومجاشع بن مسعود وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب بن الربيع وابن الهوبر وربعي بن عامر والمغيرة بن شعبة وعمرو بن معـــدي كرب وطليحة بن خويلد وقيس بن مكشوح المرادي[1]، فساروا حتى انتهوا إلى أسبيذهان والعجم وقوف على تعبيتهم قبل وَايْ خُرْد .

تعبية العجم

وكان قائد العجم فيرزان وعلى ميمنته زردق وعلى ميسرته شخصية غامضة قال الرواة عنها إنه « بهمن جاذويه الذي جُعِلَ مكان ذي الحاجب »، ولكننا نعلم أن بهمن جاذويه هو نفسه ذو الحاجب الذي قتـله القعقاع بن عمرو مبارزة يوم أغواث بالقادسية . وبعض الرواة قال : « ذو الحاجبين »[2] . وكان على فرسانهم أنوشق . وقـــد اجتمع لهم في ذلك الحشد كل مَن غاب عن القادسية والملاحم التي بعدها، من قوات الثغور وأمرائهم وأعلامهم، وقـــد استشعروا بالخطر الذي كان يدقُّ أبواب دولتهم وينتقص من أطرافهـا وينتزع عاصمتهم المدائن التي كانت في الواقع خارج أرض فارس نفسها . هـذا الخطر الداهم شرع يتوغل إلى قلب المملكة ويُعيـد مع الفرس سيرة الاسكندر الأكبر . فاجتمع لهم جمع من القوات المقـاتلة لم يجتمع لهم من قبل في معركة ضد المسلمين . كان جيشهم في القادسية مائة وعشرين ألف مقاتل، وجيشهم الآن بنهاوند مائة وخمسون ألفاً .

تكبير

فلما رآهم النعمان كَبَّرَ وكَبَّرَ المسلمون معه فتزلزل لتكبيرهم العجم . إن مَن

---

(١) الطبري ٤ / ١١٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

(٢) وفي رواية عن معقل بن يسار قال: « وملكهم ذو الجناحين » (المطالب العالية بزوائد المسانيد الثانية ٤ / ٢٧٨) . ولعله يقصد هذا .

شهدَ منهم القادسية لم ينسوا تكبيرات سعد وتكبيرات المسلمين معه، ومَن كان في المدائن لم ينسوا تكبيرات ضرار بن الخطاب والمسلمين معه، ومَن كان في تستر لم ينسوا تكبيرات مَن تسلـّل ليلاً إلى داخلها، ومَن لم يشهد شيئاً من ذلك لا بد أن يكون قد سمع عنه ممن شهده، ففي كل موقعة لقي العجمُ فيها المسلمين فانهزموا أمامهم كان للمسلمين تكبير اقترن في لفظه ومعناه وأدائه هتافاً أو ترنيماً بنصر المسلمين وهزيمة المجوس.

وأمر النعمان بحَطّ الأثقال وضرْبِ الفسطاط، فابتدره أشراف أهل الكوفة وسابقوا في بنائه أكفاءهم في تحرّك ينمُّ عن حُبّهم لقائدهم النعمان، فسبقوهم وأقاموه والنعمان واقف، وكانوا أربعة عشر هم: حذيفة بن اليمان وعقبة ابن عمرو والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب وابن الهوبر وربعي بن عامر وعامر بن مطر وجرير الحميري والأقرع بن عبدالله الحميري وجرير البجلي والأشعث بن قيس الكندي وسعيد بن قيس الهمذاني ووائل بن حجر، فلم يكن بُناة فسطاط بالعراق كهؤلاء. فما أن حطّت الأثقال حتى أنشب النعمان القتال فاقتتلوا، وكان ذلك يوم الاربعاء ويوم الخميس التالي له والحرب بينهما سجال. ثم لم يخرج العجم من خنادقهم يوم الجمعة والمسلمون مقيمون عليهم.

سفارة المغيرة

وفي رواية أنهم لما اجتمعوا بنهاوند أرسل إليهم بندار يقول:

« أرسلوا إلينا رجلاً نكلمه ».

فأرسلوا إليه المغيرة بن شعبة. يقول جبير « الراوي »: كأني أنظر إليه رجلاً طويل الشعر أعور. واستشار بندار أصحابه فقال:

« بأي شيء نأذن لهذا العربي، بشارتنا وبهجتنا وملكنا، أو نتقشف له فيما قبلنا حتى يزهد؟ »

قالوا : « لا بل بأفضل ما يكون من الشارة والعدة » .

فتهيّؤوا بها . فلما أتاهم المغيرة كادت الحراب والنيازك تخطف البصر من لمعانها . وكان بندار على سرير من ذهب وقد وضع تاجاً على رأسه ومن حوله أصحابه ، ومشى إليه المغيرة ودخل عليه ثم جلس فدفعوه ونهنهوه .

فقال لهم : « الرسل لا يُفعَل بهم هذا » .

قالوا : « إنما أنت كلب » .

قال : « معاذ الله ، لأنا أشرف في قومي من هذا في قومه » .

فانتهروه وقالوا له : « اجلس » فجلس وأقيم الترجمان فقال :

« إنكم معشر العرب أبعد الناس من كل خير وأطول الناس جوعاً وأشقى الناس شقاءً وأقذر الناس قذارة وأبعدهم داراً . وما منعني أن آمر هؤلاء الأساورة حولي أن ينتظموكم بالنشاب إلا تنجّساً لجيَفِكم فإنكم أرجاس . فإنْ تذهبوا نُخَلّ عنكم وإنْ تأبوا نُرِكم مَصارعَكم » .

وأجاب المغيرة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« والله ما أخطأتَ من صفتِنا شيئاً ولا من نَعتِنا . إنْ كنا لأبعد الناس داراً وأشد الناس جوعاً وأشقى الناس شقاءً وأبعد الناس من كل خير حتى بعث الله عز وجل إلينا رسوله ﷺ ، فوعدنا النصر في الدنيا والجنة في الآخرة . فوالله ما زلنا نتعرّف من ربنا منذ جاءنا رسوله الفتح والنصر حتى أتيناكم . وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما في أيديكم أو نُقتَل بأرضكم » .

قال بندار لمن حوله : « أما والله إن الأعور لقد صدقكم الذي في نفسه » .

ثم انصرف المغيرة . يقول : « فقمت وقد والله أرعبت العلج جهدي » .

ثم أرسل بندار إلى المسلمين : « إما أن تعبروا إلينا بنهاوند ، وإما أن نعبر إليكم » .

فقال النعمان : « اعبروا » .

يقول جبير [1] صاحب هذه الرواية : « فلم أرَ والله مثل ذلك اليوم . إنهم ليجيئون كأنهم جبال حديد قد تواثقوا أن لا يفرّوا من العرب ، وقد قرن بعضهم بعضاً [كل] سبعة في قران ، وألقوا حسك الحديد خلفهم وقالوا : مَن فرّ منا عقره حسك الحديد » .

هذه الرواية قد لا تتفق مع سابقتها التي ذهبت إلى أن النعمان ما لبث، حين حُطّت الأثقال ، أن أنشب القتال . وفي تقديرنا أن الرواية الأولى أقرب إلى القبول عقلاً ، فما نحسب المجوس ، بعد أن لقوا على أيدي المسلمين من الهزيمة والهوان ما لقوا ، أن يخاطبوا المغيرة بهذه العنجهية وبأنه كلب وأنه لا يمنعهم من قتل المسلمين إلا أن جيفهم نجسة . غير أن وصف جبير لتحرك صفوف الفرس وصفٌ صحيح ، مرّ بنا مثله على لسان آمين مارسلين الضابط المؤرخ الروماني، وذلك في الحروب التي شبّت بين الفرس والروم قبل الفتح الاسلامي، وقد أثبتناه في الجزء الأول من « الطريق إلى المدائن » [ص ١١١] .

حصار نهاوند

يتحدث الرواة عن حصار نهاوند ، ولكننا لا نعتقد أنه كان حصاراً بالمعنى المرادف لمفهوم التطويق. لقد كانت نهاوند[2] موقعاً مرتفعاً مشرفاً سبيله متصل من خلفه بهمذان إلى الشمال منه ، ولا نرى أنه كان يمكن حصاره بجيش يأتيه من جانب واحد فقط . ولعلّ مَن تحدّث عن حصار نهاوند إنما قصد المرابطة أمامها .

قالوا : « بينا نحن محاصروا أهل نهاوند خرجوا علينا ذات يوم فقاتلونا فلم

---

(١) الطبري ٤ / ١١٩ عن الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن المبارك بن فضالة عن زياد بن جبير عن أبيه .

(٢) قال الاصطخري : نهاوند على جبل ، وهي مدينة بناؤها من طين ولها أنهار وبساتين وفواكه كثيرة تحمل إلى العراق لجودتها وكثرتها... وتصدر الزعفران. (المسالك والممالك ١١٨)

نلبثهم أن هزمهم الله . فتبع سماك بن عبيد العبسي رجلاً منهم معه نفر ثمانية على أفراس لهم ، فبارزهم فلم يبرز له أحد إلا قتله حتى أتى عليهم . ثم عمل على الذي كانوا معه فأسره وأخذ سلاحه ودعا له رجلاً اسمه عَبْد فوكله به . فقال : اذهبوا بي إلى أميركم حتى أصالحه على هذه الأرض وأؤدي إليه الجزية ، وسلني أنت عن إسارك ما شئت ، وقد مننت عليّ إذ لم تقتلني وإنما أنا عبدك الآن ، وإنْ أدخلتني على الملك وأصلحت ما بيني وبينه وجدت لي شكراً وكنت لي أخاً .

فخلّى سبيله وأمّنه وقال له : مَن أنت ؟ قال : أنا دينار – وكان ملك ذلك الإقليم في بيت دينار هذا من أسرة قارن [1] – فأتى به حذيفة . فحدّثه دينار عن نجدة سماك وما قتل وعن نظره للمسلمين، فصالحه على الخراج، فنسبت إليه ماه وقيل له ماه دينار . وكان دينار بعد ذلك يصل سماكاً ويهدي إليه[2] .

وكتب النعمان وحذيفة كتاباً لأهل الماهين :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

١ – هذا ما أعطى النعمان بن مقرن أهل ماه بهراذان .

أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم .

---

(١) يرجع إلى فصل طبقات المجتمع الفارسي من الباب الرابع من الجزء الأول من « الطريق إلى المدائن » .

(٢) الطبري ٤ / ١٣٥ س ش س عن أبي معبد العبسي وعروة بن الوليد عمن حدثهم من قومهم . فتوح البلدان ٧٦٨ عن الرفاعي عن العنقزي عن أبي معشر عن محمد بن كعب .

وقالوا : إنه كان يوافي الكوفة كلما كان عمله إلى عامل الكوفة . فقدم الكوفة في إمارة معاوية ، فقام في الناس فقال : « يا معشر أهل الكوفة ، أنتم أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان . ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخب وغدر وضيق ، ولم يكن فيكم واحدة منهن . فرمقتكم فإذا ذلك في مولديكم فعلمت من أين أتيتم ، فإذا الخب من قبل النبط، والبخل من قبل فارس، والغدر من قبل خراسان، والضيق من قبل الأهواز» .

٢ – لا يُغيَّرون عن ملة ولا يُحال بينهم وبين شرائعهم .

٣ – ولهم المنعة ما أدَّوا الجزية في كل سنة إلى مَن وَلِيَهم ، على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته .

٤ – ومـــا أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وَقَرُوا جنود المسلمين [أكرموهم] ممن مرَّ بهم فآوى إليهم يوماً وليلة .

٥ – ووفوا ونصحوا ، فإنْ غشّوا وبدّلوا فذمّتنا منهم بريئة .

شهد عبدالله بن ذي السهمين والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبدالله .

كُتِبَ في المحرم سنة تسعة عشر »[1] .

وكتب حذيفة بن اليمان كتاباً آخر بنفس هذه البنود في المحرم أيضاً . شهد عليه القعقاع بن عمرو ونعيم بن مقرن وسويد بن مقرن .

مؤتمر حربي

ومرّت الأيام والجبهـــة على ذلك ، وقد طرح العجم حسك الحديد حول مواقعهم . وبعث النعمان طليعة [دورية استكشافية] وهم لا يعلمون بالحسك فغرزت حسكة في حافر فرس فوقف ولم يبرح مكانه ، فنزل فارسه ونظر في يده فوجدها فرجع بها وأخبر النعمان الخبر[2] . في تلك الفترة كان للعجم الخيار إذا أرادوا الخروج للقتال خرجوا ، وإنْ لم يشاؤا لم يجـــد المسلمون سبيلاً إلى إخراجهم ، فاشتدّ ذلك على المسلمين وخـــافوا أن يطول الأمر عليهم وهم على ذلك، ولقد كان الفصل شتاء ، فإن شهر محرم ١٩ هـ قد وافق شهر يناير ٦٤٠م. ومن المؤكد أن اختيار نهاوند كان انتقـــاء حاذقاً للموقع الدفاعي الجبلي ، وهو اختيار يتيح قوة غريبـــة لخفر صغير فضلاً عن تحصينات واستعدادات كبيرة ، وتستطيع قوة صغيرة أن تسمح لنفسها في الجبل بمجـــابهة جيش بكامله

---

(١) الطبري ٤ / ١٣٦ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة .

(٢) الطبري ٤ / ١١٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

بصورة (١) فعّالة تكتيكياً حتى يكون ذلك الجيش المهاجم مطالباً بالقيام بكافة إجراءات الحرب من هجوم وتطويق منظمين الخ ... على حين تفرّ مثل هذه القوة الصغيرة في السهل أمـام قلة من الفرسان ، وتعتبر نفسها سعيدة بتخلّصها من التشتت والأسر وهي تنسحب . فما بالنا والجيش المهاجم ثلاثون ألفاً والقوة المدافعـة في استحكاماتها مائة وخمسون ألفاً . مرّت الأيام على ذلك حتى كان ذات صباح من يوم جمعة ، فاجتمعت مجموعة من أهل الرأي من المسلمين يتداولون في الأمر ، ثم قـاموا إلى النعمان ليحدّثوه فوجدوه مع آخرين يقلبون نفس الموضوع ويتحدثون فيه ، فاستبقاهم النعمان وقال :

« على رسلكم لا تبرحوا » .

وأرسل إلى مَن لم يكن حاضراً من أهل النجدة وأصحاب الرأي في الحرب فقدِموا إليه فعقد منهم مؤتمراً حربياً . قال النعمان :

« قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنـادق والمدائن ، وأنهم لا يخرجون إلا إذا شاؤوا ولا يقدر المسلمون على إنغاضهم وانبعاثهم قبل مشيئتهم ، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه وعليه من الخيار عليهم في الخروج . فما الرأي الذي به نحمشهم ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل ؟»

كان من عادتهم أن يبدأ الحديث أكبرهم سناً ، وكان أكبرهم يومئذٍ عمرو بن ثبي ، فقال :

« التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم ، فدَعْهُم ولا تحرجْهم وطاوِلْهم وقاتِلْ مَن أتاك منهم » .

لم يكن رأياً موفقاً فردُّوا عليهم جميعاً رأيه ، وإنمـا كان اجتماعهم ليجدوا رأياً يخرجهم من ذلك وقالوا :

« إنـّا على يقين من إنجاز ربنا موعده لنا » .

---

(١) في الحروب ٢٠١ .

وتكلم عمرو بن معدي كرب فقال : « ناهِدْهم وكاثِرْهم ولا تخفْ » .
كان رأيه مهاجمتهم في الخنادق والحصون . فردّوا عليه جميعاً رأيه وقالوا : « إنما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعواناً علينا » .

بعض المسلمين يحسبون أنه من ثقتهم بالنصر ومن أن الله معهم أن يلقوا بأنفسهم في مهالك دونما تخطيط مرسوم ونظر في العواقب محسوب ، أو على تعبير ذوي الرأي والفكر من جيش النعمان أن « يناطحوا الجدران » . وليس من الضعف والخور في دين الله أن يبحث المسلم عن حسن العاقبة . ونرى على مدى التاريخ الاسلامي ذلك الفهم القاصر قد أدّى بالتحرّك الاسلامي والمخلصين من المسلمين إلى الهزيمة والفشل ، وهو فهم غير صائب من الناحية الحركية وليس هو الإدراك الصحيح لدين الله . كان جيلاً وصائباً من أصحاب الرأي وخبراء الحرب من مجلس النعمان أن يردّوه على عمرو بن معدي كرب وأن يبينوا له وجه الخطأ فيه ، ثم لم نجد عمراً ولا غيره يكابر في ذلك .

لقد كانت نهاوند مرتفعاً حاكماً، وكل مرتفع يشكّل حاجزاً أمام الاختراق والتقدم . نعم ، قد لا يكون مدى الرمي من أعلى إلى أسفل أكبر من مدى الرمايات الأخرى ، ولكنه أفضل بلا شك من الرمي بالاتجاه المعاكس [1] . كما وأن التمركز في المرتفع يعطي صاحبه ميزة الحصول على منظر شامل للأرض . ومع ذلك فتأثير الأرض يأتي بعد النسبة بين وزني الجيشين . وحتى هنا نجد أن جيش العجم كان خمسة أضعاف جيش المسلمين ، يُضاف إلى ذلك أن الهجوم على تحصينات نهاوند يجعل المعركة من الناحية التكتيكية هجومية بالنسبة للمسلمين، دفاعية بالنسبة للمجوس . وللمعركة الدفاعية ميزات ، فإن المحافظة على شيء مكتسَب أسهل من اكتساب شيء مفقود . ومن المعلوم أن الدفاع أسهل من الهجوم [2] إذا تساوت الوسائل ، كما وأن الوقت الذي ينقضي دون أن يستفيد

(١) في الحرب ١٠٩ .
(٢) في الحرب ١١٥ .

منه المهاجم يتحوّل بالتـالي إلى صالح المُدافِع ، فضلاً عن العون الذي يُتيحه الموقع الدفاعي لأصحابه .

فالموقف إذاً ينطوي على مشكلة تحتاج إلى حل . وقـد عُرِضَ على بساط البحث رأيان :

الرأي الأول : بالمطاولة ، رفضه المؤتمر .

والرأي الثاني : بالهجوم على التحصينات ، رفضه المؤتمر أيضاً .

ولقد كان الموضوع الذي طرحه النعمان هو « كيف نحمّشهم ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل » . ثم كان ثالث المتحدثين طليحة بن خويلد الأسدي ، فقدّم رأياً ثالثاً ، قال :

« قد قالا ولم يصيبا ما أرادا .

وأما أنا فأرى أن تبعث خيلاً مؤدية فيحدقوا بهم ثم يرموهم لينشبوا القتال ويحمّشوهم .

فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرَزوا [لجـأوا] إلينا استطراداً [مبـارزة على الخيل بالكرّ والفرّ] ، فإنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم .

وإنا إذا فعلنـا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكّوا فيها ، فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحَبّ » .

اقتراح طليحة أن تتقدم إلى العجم فرقة من الفرسان تتحرّش بهم وتغريهم على الالتحام بها مبارزة بالكرّ والفرّ ، بينما يترصّد سائر الجيش في أماكن إلى الخلف ، فإذا التحموا بهـا تظاهرت بالانكسار وظلّت تتراجع أمامهم حتى ترجع إلى حيث يستطيع جيش المسلمين أن يشترك في المعركة ويلتحم بهم بعيداً عن تحصيناتهم . وفي رواية ابن اسحق ما يضيف لنا تفصيلاً أكبر ، بأن الخطة اشتملت على تراجع صلب الجيش عن مواقفه التي كانوا عليها إمعـاناً في تضليل العجم ، وأن المؤتمرين قالوا للنعمان :

«انتقلْ من منزلك هذا حتى يروا أنك هارب منهم فيخرجوا في طلبك»[1].

القعقاع يتحرش

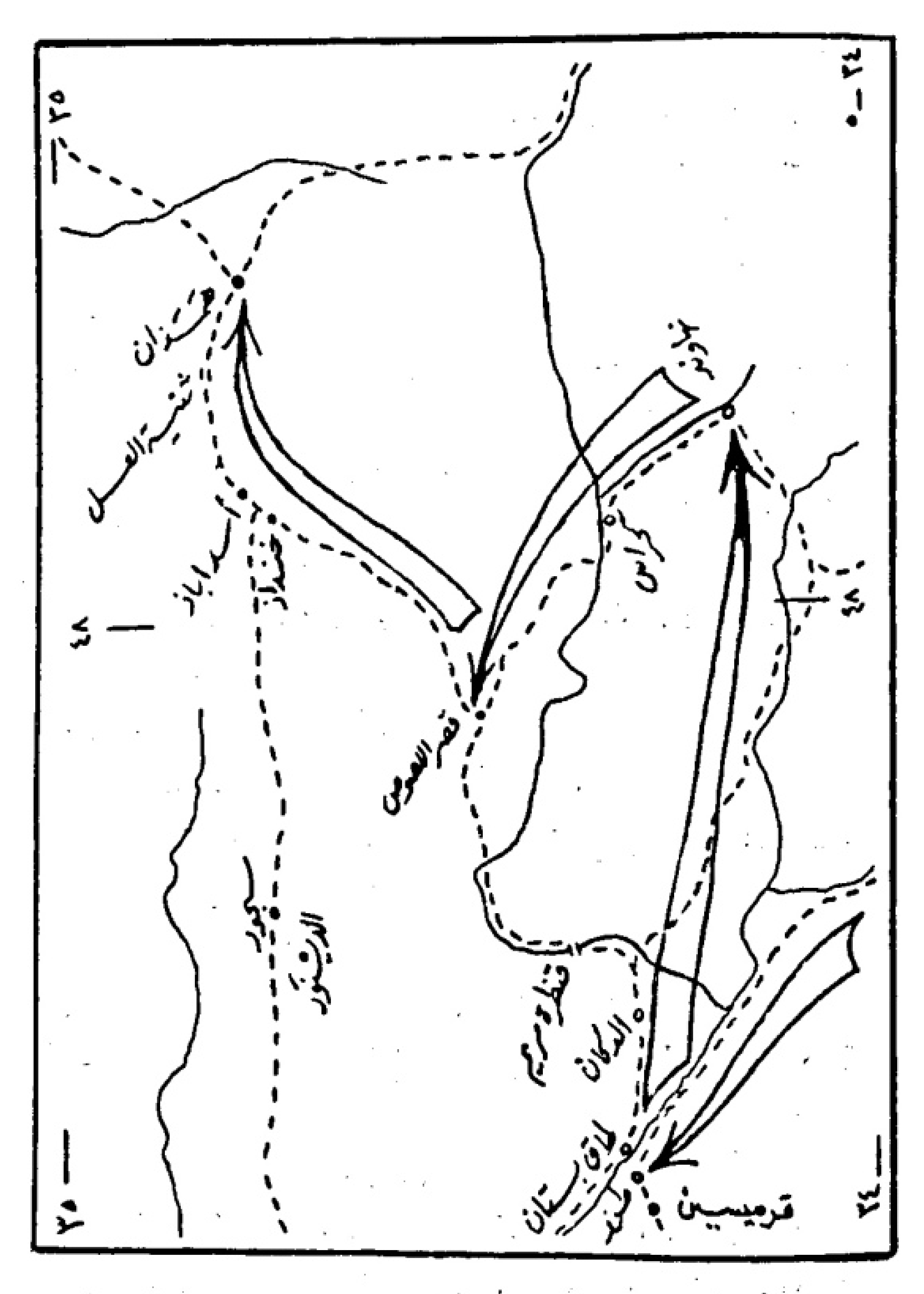
لقي هـذا الرأي القبول ، وفي حينها وكـّل النعمان تنفيذ دور الفرسان فيه إلى القعقاع بن عمرو . إنه قـائد الفرسان وهو لها . فتقدّم القعقاع بفرسانه نحو خنادق العجم وحصونهم وتحرّش بهم ورماهم فأنشب القتال بعـد احتجاز من العجم فأخرجهم . فلما خرجوا واقتتلوا جعل يتراجع ويتراجع ويتراجع على مراحل لا تنكشف بها الخطة وكأنه انهزام . إن وضع الخطة هو نصف الطريق وإنفاذها هو النصف الثاني ، وهي مهمة صعبة التنفيذ . نجح القعقاع في أدائها ، بينما كان النعمان ينتقل بقواته إلى موقع وراء ما كان يقف فيه كلما تراجع القعقاع ثم ضرب عسكره وعبأ كتائبه ، في حين ظنّ العجم أنهم وجدوا فرصة من خصمهم العنيد أرادوا أن يقتنصوها كما قدّر طليحة ، فظلوا يُخرجون قواتهم ويلقون بهـا ضد القعقاع حتى لم يبقَ في حصونهم إلا مَن يقوم على أبوابها ، وكنسوا حسك الحديد وظهر تفوّقهم على مَن أمامهم من المسلمين حتى رجع القعقاع إلى جيش المسلمين وانقطع العجم عن حصنهم بعض الشيء وهم يلاحقونه ، والمسلمون على تعبيتهم والنعمان معهم .

لقد كانت استحكامات العجم وحصونهم في المرتفع مواقع دفاعية حصينة ، وإذا كان الدفاع هو الشكل الأقوى لإدارة الحرب فمن المسلّم به أنه لا يُلجأ إليه إلا في حالة الضعف ، وأن من الواجب التخلي عنه عند الإحساس بكفاية القوة لتحقيق هدف إيجابي هجومي ، وإن البدء بالدفاع والانتهاء بالهجوم هو تطوّر طبيعي في الحرب ، حتى قالوا : « إن أروع لحظات الدفـاع هي لحظة الانتقال السريع والقوي إلى الهجوم كضربة ثأر بسيف بتّار »[2] . وكم كان

---

(١) الطبري ٤ / ١١٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

(٢) في الحرب ١١٧ . وهي نظرية كلاوزفيتز في الحرب .



خريطة (١٣) فتح نهاوند وهمذان المقياس ١ : مليون

رائعاً من المسلمين أن يستفيدوا من تلك الطبائع ويحوّلوها إلى صالحهم حين بنوا خطتهم ، على أنه لم يكن من المتصوّر أن يجد المجوسُ المسلمين ينهزمون في هجوم قاموا به ثم لا يستغلون ذلك بمزيد من الهجوم . وهذا أيضاً ما فعله المسلمون بتحوُّلهم من تحرُّش دفاعي إلى عملية هجوم مضاد شامل .

النعمان تلميذ سعد

كان ذلك من ذات يوم الجمعة الذي اجتمعوا في صباحه ، وقد تمّ هذا في صدر النهار ولم يحلّ الظهر بعد . وعهدَ النعمان إلى المسلمين عهدَه ، وأمرهم أن يلزموا أماكنهم ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم ففعلوا . وظلّ المجوس يرمونهم بالنبل والمسلمون يستترون بالحجف لا يتحركون حتى أكثروا فيهم الجراح ، وشكا بعضهم إلى بعض من ذلك ، ثم قالوا للنعمان :

« ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما لقي الناس ، فما تنتظر بهم ؟ ائذنْ للناس في قتالهم » .

قال النعمان : « رويداً رويداً » .

فأعادوا عليه القول وهو يجيبهم « رويداً رويداً » .

وفعل النعمان كما فعل أستاذه سعد بالقادسية . كان يرى المعركة محتدمة عنيفة مع فريق من جيشه فلا يحمله هذا على أن يلقي بثقله فيها انتظاراً لشيء .

قال المغيرة بن شعبة وقد رأى كثرة جيوش العجم وما تفعل :

« لم أرَ كاليوم فشلاً ، إن عدونا يُتركون يتأهبون ولا يُعجلون !! أما والله لو أن هذا الأمر إليّ [لكنتُ] قد أعجلتهم وعلمت ما أصنع ، ولو كنتُ بمنزلتك باكرتهم القتال » .

وكان النعمان رجلاً ليّناً ، فقال له :

« رويداً ترى أمرك . وقد كنتَ تلي الأمر فتحسن ، فلا يخذلنا الله ولا إياك ، ونحن نرجو في المُكث مثل الذي ترجو في الحثّ ، ربما باكرت القتال

ثم لم يسوّد الله وجهك ، فالله عزّ وجلّ يشهدك أمثالهـــا ، فلا يحزنك ولا يعيبك موقفك .

إنه والله ما منعني من أن أناجزهم إلا شيء شهدته من رسول الله ﷺ . إن رسول الله كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار لم يعجل حتى تحضر الصلاة [صلاة الظهر] وتهبّ الأرواح [الرياح] ويطيبَ القتال ، فما منعني إلا ذلك ،[1] .

فانتظر حتى زالت الشمس عن كبد السماء وبدأ الظلُ يميل ، ثم قال :

« نُصَلّي إن شاء الله ثم نلقى عدوّنا دُبر الصلاة » .

هذا والقعقاع وفرسانه يقاتلون . نفس الشيء فعـــله سعد يوم أرماث ويوم أغواث ويوم عمواس بالقادسية .

خطاب النعمان

فلما كان قريباً من تلك الساعة كان النعمان يتحرك في حماس، فسار في المسلمين على برذون أحوى [2] قصير القوائم قريب من الأرض ، وكان يقف على الرايات رايةً راية ، فيحمد الله ويثني عليه ويقول :

« قد علمتم ما أعزّكم الله به من هذا الدين وما وعدكم من الظهور ، وقد أنجز لكم هوادي ما وعدكم وصدوره ، وإنمـا بقيت أعجازه وأكارعه . والله منجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله . واذكروا ما مضى إذ كنتم أذلة وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزّة . فأنتم اليوم عباد الله حقاً وأولياؤه .

وقـــد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة والذي لهم في ظفرِكم وعزّكم ، والذي عليهم في هزيمتكم وذُلّكم .

وقد ترون ما أنتم بإزائه من عدوّكم وما أخطرتم وما أخطروا لكم . فأما ما أخطروا لكم فهذه الرثة وما ترون من هـذا السواد ، وأما ما أخطرتم لهم

---

(١) الطبري ٤ / ١١٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

(٢) كميت أحمر يخالطه سواد كلون صدأ الحديد – مختار الصحاح .

فدينكم وبيضتكم ، ولا سواء ما أخطرتم وما أخطروا . فلا يكونَنْ على دنياهم أحمى منكم على دينكم . وأتقى الله عبدٌ صدَقَ الله وأبلى نفسه فأحسن البلاء ، فإنكم بين خيرين منتظرين إحدى الحسنيين من بين شهيد حيٍّ مرزوق أو فتح قريب وظفر يسير . فكفى كل رجل ما يليه ولم يَكِلْ قرنه إلى أخيه فيجتمع عليه قرنه وقرن نفسه وذلك من الملاءمة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مسلط على ما يليه .

فإذا قضيت أمري فاستعدُّوا فإني مُكَبِّر ثلاثاً .

فإذا كَبَّرْتُ التكبيرة الأولى فشدَّ رجلٌ شسعه [رباط نعله] وأصلح من شأنه ، ولْيتهيأ مَن لم يكن تهيأ .

فإذا كَبَّرْتُ الثانية فشدَّ رجلٌ إزاره ولْيَشدَّ عليه سلاحه ولْيتأهبْ للنهوض ويتهيأ لوجه حملته .

فإذا كَبَّرْتُ الثالثة فإني حامل إنْ شاء الله ، فاحملوا معاً .

اللهمَّ إني أسألك أن تُقِرَّ عيني اليوم بفتح يكون فيه عِزُّ الإسلام ، وذُلَّ يُذَلُّ به الكفار ، ثم اقبضني إليك بعد ذلك على الشهادة واجعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونَصْر عبادك .

أمِّنوا يرحمكم الله »[1] .

فأمَّن المسلمون وبكوا .

هجوم وشهادة ونصر

كان الأعاجم قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفرُّوا . ورجع النعمان إلى موقفه فكَبَّرَ الأولى ثم الثانية ثم الثالثة ، وجنود المسلمين سامعون مطيعون مستعدُّون للقتال والمناهضة ، يحرص بعضهم أن يأخذ مواقف بعض وأن يغني

---

(١) الطبري ٤ / ١١٩ عن الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن المبارك بن فضالة عن زياد بن جبير عن أبيه .

كل منهم عن أخيه . ثم حمل النعمان مع التكبيرة الثالثة وهو يحمل الراية وقد رآها المسلمون تنقضّ نحو العجم انقضاض العقاب ، وكان النعمان مميّزاً بقباء أبيض وقلنسوة بيضاء، فحملوا جميعاً كل إنسان على مَن تجاهه من العجم. يقول جبير الراوية :

« فوالله ما علمت من المسلمين أحداً يومئذ يريد أن يرجع إلى أهله حتى يُقتل أو يظفر ، فحملنا حملة واحدة وثبتوا لنا ، فما كنا نسمع إلا وَقْعَ الحديد على الحديد حتى أصيب المسلمون بمصائب عظيمة ، فلما رأوا صَبْرَنا وأنّا لا نبرح العرصة انهزموا ، فجعل يقع الواحد فيقع عليه سبعة بعضهم على بعض في قياد فيُقتَلون جميعاً ، وجعلوا يعقرهم حسك الحديد الذي وضعوه خلفهم » .

واقتتلوا بالسيوف قتالاً شديداً يصفه الرواة بقولهم : « لم يسمع السامعون بوقعة يوم قط كانت أشد منها ». واستمرّ القتال من انتصاف النهار حتى هبوط الظلام ، وكثر قتلى الفرس حتى طبق أرض المعركة دماً يزلق فيه الناس والدواب، فانزلق فيه من خيول المسلمين وأصيب فرسانهم، وزلق فرس النعمان فلقي النعمان مصرعه . وفي رواية ابن اسحق [1] وجبير أنه رُمِيَ بنشابة فأصابت خاصرته فقتلته، وكان أخوه نعيم بن مقرن قريباً منه، فقد كان نعيم هو قائد المقدمة، وحين تحتدم المعركة في الجبهة تدخل المقدمة في القلب وتكون جزءاً منه كما رأينا تفصيل ذلك في القادسية. وأسرع نعيم فتناول الراية قبل أن تقع [2] وسجّى النعمان بثوب، ثم أتى حذيفة بن اليمان في الميمنة فدفع إليه الراية باعتباره

---

(١) الطبري ٤ / ١١٥ عن ابن حميد عن سلمة عن ابن اسحق .

« ٤ / ١١٩ عن الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن المبارك بن فضالة عن زياد بن جبير عن أبيه .

(٢) ترجع هذه الرواية على رواية ابن اسحق التي تجعل أخاه سويداً هو الذي لفه في ثوبه وكتم قتله حتى تم النصر (الطبري ٤ / ١١٦) حيث كان سويد قائد الميسرة. وفي رواية جبير أن أخاه معقل بن مقرن سجى عليه ثوباً وأخذ اللواء فقاتل .

خليفة النعمان ، فترك حذيفة مكانه لنعيم بن مقرن واتجه هو إلى مكان القيادة من القلب حيث كان النعمان فأقام اللواء . وقال له المغيرة :

«اكتموا مصاب أميركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم لكيلا يهن الناس».

واستمرّ القتال ، حتى إذا أظلم الليل انكشف العجم وتراجعوا والمسلمون ملتحمون بهم ملتبسون فيهم لا يرفهون عنهم ، فاختلط عليهم طريق التراجع وعمي عليهم قصدهم فخرجوا عنه واتجهوا نحو اللـّهْب [جرف من خندق أو واد عميق] الذي كانوا نزلوا دونه بأسبيذهان فوقعوا فيه ، فكان لا يهوي منهم أحد إلا صرخ بالفارسية « وايَهْ خُرْدْ » ، وبذلك سُمّي المكان وايه خرد وعُرف بذلك إلى عصر مؤرخنا الطبري ٣١٠ هـ وربما إلى بعدها . فمات فيه منهم مائة ألف أو يزيدون سوى مَن قُتِل بالمعركة . وفي رواية أنه قُتِل في اللـّهْب ممن هوى فيه ثمانون ألفاً وفي المعركة ثلاثون ألفاً مقترنون في السلاسل سوى مَن قُتل في المطاردة [١] .

واجتمع المسلمون بعد المعركة فتساءلوا : « أين أميرنا ؟ »

قال معقل بن مقرن: «هذا أميركم قد أقرّ الله عينه بالفتح وختم له بالشهادة».

فبايع الناس حذيفة ، وعمر بالمدينة يستنصر لهم ويدعو لهم مثل الحبلى[٢] !

وفي رواية عن معقل بن يسار قال : « فأتيت النعمان وبه رمق فغسلت وجهه من أداوة ماء كانت معي[٢] . فقال : مَن أنت ؟

قلت : معقل .

قال : ما صنع المسلمون ؟

قلت : أبشِرْ بفتح الله ونصره .

قال : الحمد لله ، اكتبوا إلى عمر .

---

(١) الطبري ٤ / ١٣٦ س ش س عن عمرو بن محمد عن الشعبي .

(٢) فتوح البلدان ٧٦٠ عن شيبان عن حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن علقمة بن عبدالله عن معقل بن يسار .

ولم يفلت إلا الشريد فكان منهم فيرزان ، هرب مع الفلول نحو همذان التي تقع إلى الشمال من نهاوند بما يزيد قليلاً عن مائة كيلومتر .

قدوة لمن بعدهم

هذه الخطة التي اتّبعها النعمان بن مقرن في نهاوند بناءً على مشورة طليحة بن خويلد الأسدي كانت درساً في التاريخ الحربي وقدوة لمن بعدهم يُقتدى بها في مثلها من المعارك المستعصية . تلك الخطة هي التي اتبعتها جيوش جانكيزخان من التتار المغول في اكتساح آسيا من أقصى شرقيها إلى أقصى غربيها حتى عين جالوت على الحدود بين فلسطين ومصر ، أن يقوم بهجوم كبير عنيف على صفوف عدوه ، فإذا اكتسحه كان بها ، وإنْ لم يتم له ذلك تظاهر بالهزيمة وتراجع إلى كمين أعدَّه من قبل في الخلف ، حتى إذا اتبعه عدوه مطارداً له في نشوة انتصاره أطبق عليه وأباده . وهي نفس الخطة التي استخدمها قاهر التتار قطز في إحراز النصر على تلك الجيوش ذاتها في عين جالوت .

إن معركة نهاوند من وجهة النظر الفارسية كانت معركة دفاعية من الناحية الاستراتيجية . وفي المعركة الدفاعية الناجحة [1] :

١ – يستطيع المُدافِع الاستعانة في إدارة العمليات بمعركة هجومية خالصة من الناحية التكتيكية – وإن كانت دفاعية من الناحية الاستراتيجية – إذا سار ضد خصمه وهاجمه في الوقت الذي يجتاح فيه خصمه مسرح حربه .

٢ – وبوسعه انتظار ظهور المهاجم على جبهته لينتقل إلى الهجوم فيما بعد بمعركة هجومية أيضاً من الناحية التكتيكية .

٣ – وبوسعه أيضاً انتظار الهجوم ضد مواقعه الدفاعية وأن يقاوم هذا الهجوم بدفاع محلي ثم يقوم بعمل هجومي بجزء من قواته .

---

(١) في الحرب ١٦٠ .

ولقد اختار الفرس الأسلوب الثاني ، ولكن المسلمين استطاعوا أن يخدعوهم فجعلوهم يخطئون التقدير في توقيت انقلابهم من الدفاع إلى الهجوم . كان يتعين أن يتم ذلك بعد أن يطمئنوا إلى أنهم أوقعوا بالمسلمين خسائر جسيمة في الأرواح في المعركة الدفاعية ، حينئذٍ يكون خروجهم من الحصون مأموناً مضمون العواقب .. ولكن حين يكون ميزان القوى المادية والمعنوية كما هو لم يتغير فيه شيء فأي مبرر يكون في التحوّل من الدفاع إلى الهجوم ؟.

لله جنود من عسل

ومع انهيار التماسك الفارسي في الجبهة عاد نعيم بن مقرن يقود المقدمة إلى مطاردة الفلول الهاربة نحو همذان ، وخرج معه فيها القعقاع بن عمرو بفرسانه فقدّمه نعيم أمامه . وانطلق القعقاع في أثر فيرزان حتى أدركه حين انتهى إلى ثَنِيَّة [1] همذان ، وتصادف أن كانت الثنية مشحونة بقافلة من البغال والحمير محمّلة بحمولة من العسل فحبست فيرزان عن المرور . فلما رأى القعقاع في أثره قد أدركه نزل عن جواده وجرى في الجبل إذ لم يجد سبيلاً يذهب فيه ، فللطرق الجبلية طبيعتها ولا يجتاز الجبل سوى الثنية وهي مسدودة بالبغال والحمير . ونزل القعقاع عن جواده أيضاً فتبعه حتى أدركه وقتله . وبذلك سُمّيت الثنية ثنية العسل . وفي ذلك أيضاً قال المسلمون متفكهين :

« إن لله جنوداً من عسل » .

واستاقوا البغال والحمير بما حملت من عسل وأحمال فأقبلوا بها ، ومضت بعض الفلول إلى همذان وخيول المسلمين في آثارهم حتى دخلوها ، فنزل المسلمون تجاههم وحووا ما حولها .

---

(١) الخل : الطريق في الرمل . والنقب : الطريق في الجبل . فإذا اتسع الطريق في الجبل وعلا فهو ثنية – الكامل للمبرد ٢ / ١٥ .

همذان تستسلم

كان حاكم همذان رجل يدعى خسروشنوم ، فلما رأى انهيار جيش نهاوند وبلوغ المسلمين مدينته وليس عنده إلا فلول يسيرة منهزمة ، استسلم للمسلمين على الأمان وأن يضمن لهم همذان ودستبي وأن لا يؤتى المسلمون منهم . وقَبِلَ المسلمون ذلك فأمن الناس ورجع كل مَن كان هرب ودخل المسلمون همذان [1].

خسروشنوم هذا التقينا به من قبل أكثر من مرة ، فقد كان على إحدى كتائب جيش رستم بالقادسية ، وممن حاولوا الصمود بها أمام ابن الهذيل الكاهلي بعد انهيار جيشهم الكبير . وحين خرج يزدجرد من حلوان ترك بهـا حامية عليها خسروشنوم لتعوّق تقدُّم المسلمين حتى يبتعد ، فجعل خسروشنوم على مقدمته زينبدي ، فقتله القعقاع بن عمرو على رأس فرسخ من حلوان وهرب خسروشنوم ، ويُعْرَف بخسروشنوم الهمذاني نسبة إلى مدينته همذان .

وبلغ أهل الماهين الخبر بأن همذان قد سقطت في أيدي المسلمين وأن نعيم بن مقرن والقعقاع بن عمرو قد نزلاها ، فاقتدى أهل الماهين بخسروشنوم وأرسلوا إلى حذيفة فأجابهم إلى ما طلبوا . وعزم ملوكهم على إتيان حذيفة ، وكان أكبرهم اسمه قارن ، ونصحهم واحد منهم اسمه دينار ألاّ يخرجوا إلى حذيفة في زينتهم ولكن يُظهِروا البساطة والتقشف ففعلوا ذلك ، غير أنه هو نفسه خالفهم فأتى في الديباج والحلي وأعطى المسلمين ما أرادوا فعاقدوه عن الماهين ، ولم يجد مَن معه من الملوك بُدّاً من متابعته والدخول في أمره ، وهذه قصة أخرى يعللون بها تسمية « ماه دينار » . وكان النعمان قبل استشهاده قد عاقد

---

(١) الطبري ٤ / ١٣٣ س ش س عن أبي بكر الهذلي .

وفي رواية البلاذري أن الذي فتح همذان جرير بن عبدالله البجلي، وجهه إليها المغيرة بن شعبة سنة ٢٣ هـ في ولايته على الكوفة ، وأن سهماً أصاب عينه في قتال أهلها فاحتسبها عند الله .

وقال الواقدي : إن جريراً فتحها عام ٢٤ هـ .

وذهب آخرون إلى أن المغيرة سار إليها وفتحها وعلى مقدمته جرير . (فتوح البلدان ٧٧٦)

بهراذان على مثل ذلك فنسبت جهته إليه . وكان النسير بن ديسم ما زال تجاه القلعة التي بمرج القلعة ، فلجأ إليها قوم لعلهم كانوا من فلول نهاوند ، فجاهدهم حتى افتتحها فنسبت إليه وقيل عنها قلعـــة النسير . وبذلك تمّ تطهير ذمام نهاوند وهمذان .

وقال القعقاع بن عمرو :

ونحن حبسنا في نهاوند خيلنا ... لشرّ ليـــالٍ أنتجت للأعاجم
ملأنا شعاباً في نهـــاوند منهمُ ... رجالاً وخيلاً أضرمت بالضرائم
وراكضهن الفيرزان على الصفا ... فلم يُنجِهِ منهـا انفساح المخارم

غنائم نهاوند

وفي نهاوند دخل المسلمون المدينة بعد اندحار قواتها خارجها واستولوا على كل ما فيها وما حولها ، وجمعوا ذلك كله إلى السائب بن الأقرع صاحب الأقباض ثم مكثوا ينتظرون مـا يأتيهم من إخوانهم بهمذان . وإنهم لكذلك إذ أقبل صاحب بيت النار ويدعى هربذ وقال لحذيفة :

« أتؤمنني على أن أخبرك بما أعلم ؟ »

قال : « نعم » .

قال : « إن النخيرجان وضع عندي ذخيرة لكسرى ، فأنا أخرجها لك على أماني وأمان مَن شئت » .

نخيرجان هـذا مرّ بنا ذكره من قبل . فبعد هزيمة المجوس بالقادسية أبقوا نخيرجان على رأس قوة باللسان الذي عليه الحيرة والكوفة ، فلما تقـــدم نحوه زهرة بن الحوية انسحب إلى الفلول المعسكرة في بابل وكان عليهم فيرزان ، فلما انهزموا ببـــابل هرب فيرزان إلى نهاوند فوضع يده على كنوز كسرى وبقي نخيرجان مع مهران للدفاع عن المدائن، وقد ترك نخيرجان قوة كبيرة بين كوثي ودير كعب عليها شهريار .

وافق حذيفة على مـا عرض هربذ فأخرج له ذخيرة كسرى من الجواهر التي كان قد أعدّها لنوائب الزمان . ونظر المسلمون في ذلك فأجمع رأيهم على رفعه إلى عمر وأن يحملوا أمر التصرُّف فيه إليه، فعزلوه حتى فرغوا ثم بعثوا به مع ما يرفع إليه من الأخماس . وقسّم حذيفة بن اليمان الغنائم بين جنود جيشه ، فكان نصيب الفارس يوم نهاوند ستة آلاف ، وسهم الراجل ألفين . ونفـّل حذيفة من الأخماس مَن شاء من أهل البلاء ورفع ما بقي من الأخماس إلى السائب بن الأقرع فاستلمها وخرج بها وبذخيرة كسرى إلى عمر . وأقـام حذيفة في نهاوند ينتظر أمر عمر ، وقد كتب إليه بالفتح مع طريف بن سهم أخو بني ربيعة بن مالك .

وجعل حذيفة مثل نصيب مَن شهد نهاوند لمن كان بمرج القلعـــة ومَن أقام بغضى شجر ولأهل المسالح جميعاً لأنهم كانوا عوناً وحماية لظهر الجيش المقاتل ، وفي ذلك إدراك من حذيفة ومن المسلمين بأن توفير الأمن للقوات المقاتلة عنصر من عناصر الحرب ، وأن مَن يقوم به ويرابط في مواقعه فقــد سام في المعركة . وألحق عمر مَن شهد نهاوند فأبلى بلاءً فاضلاً بأهل القادسية في العطاء، وكان عطاؤهم في ألفين من الدراهم [1] .

الخبر والغنائم في المدينة

قَدِمَ طريف إلى المدينة بالفتح ، فسأله عمر عن الخبر فقال :

« ما عندي أكثر من الفتح، خرجت والمسلمون في الطلب (مطاردة عدوهم) وهم على رِجل [يعني على قدم وساق] » .

وتقول الرواية أن طريفاً أخبر عمر بما يسرُّه وكتم عنه ما يسوؤه، ونستبعد ذلك من رسول أُرسل إلى عمر ، فضلاً عن أنّ العـادة جرت بأن يحمل الرسل رسائل مكتوبة بما أرسلوا به .

ثم خرج عمر إلى ظاهر المدينـــة كعادته حين ينتظر الأخبار وخرج معه

---

(١) الطبري ٤ / ١٣٧ س ش س عن محمد والمهلب وطلحة .

أصحابه، فأمعن النظر فرأى راكباً مقبلاً عن بُعْد، فقال لمن معه: «قولوا».

فقال عثمان بن عفان: «السائب».

وردَّد عمر يوافق عثمان: «السائب».

فلما دنا قال له عمر: «ما وراءك؟»

قال: «البشرى والفتح».

قال: «ما فعل النعمان؟»

قال: «زلق فرسه في دماء القوم فصُرع فاستشهد».

فانطلق عمر راجعاً إلى المدينة والسائب بن الأقرع يسايره. فسأله عمر عن عدد مَن قُتِل من المسلمين، فأخبره بعدد قليل وبأن النعمان أول مَن استشهد يوم فتح الفتوح.

ودخل عمر المسجد فحُطَّت الأحمال ووُضِعَتْ في المسجد، وأمر عمر نفراً من أصحابه منهم عبدالرحمن بن عوف وعبدالله بن أرقم بالمبيت فيه. ودخل عمر منزله فتبعه السائب بالسفطين اللذين كانت بهما ذخائر كسرى وأخبره خبرهما وخبر الناس، فلم يستحلّ عمر أن يقبضهما فهما حق لمن غنمهما، فقال له عمر: «يا ابن مليكة، والله ما دَرَوْا هـذا ولا أنت معهم، فالنجاء النجاء عَوْدُك على بدنك حتى تأتي حذيفة فيقسمها على مَن أفاءهما الله عليه».

فأقبل راجعاً حتى انتهى إلى حذيفة وهو بماه، فأقامها فباعها فأصاب أربعة ملايين درهم[1].

يروي السائب بن الأقرع[2] قصة كنز كسرى وقدومه المدينة فيقول:

---

(١) الطبري ٤ / ١٣٥ س ش س عن أبي بكر الهذلي.

(٢) الطبري ٤ / ١١٦.

الطبري ٤ / ١١٧ عن الربيع بن سليمان عن أسد بن موسى عن المبارك بن فضالة عن زياد بن حدير عن أبيه.

فتوح البلدان ٧٦١ عن شيبان عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن ابن عثمان النهدي. =

«...فلما فتح الله على المسلمين نهاوند أصابوا غنائم عظاماً ، فوالله إني لأقسم بين الناس إذ جاءني (ذو العوينتين) علج من أهلها ، فقال : أتؤمنني على نفسي وأهلي وأهل بيتي على أن أدلك على كنوز النخيرجان ، وهي كنوز آل كسرى تكون لك ولصاحبك لا يشركك فيها أحد ؟

قلت : نعم .

قال : فابعث معي مَن أدلّه عليها .

فبُعِثَ معه ، فأتى بسفطين عظيمين ليس فيهما إلا اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ، فلما فرغت من قسمي بين الناس احتملتهما معي ثم قَدِمْتُ على عمر بن الخطاب فقال : ما وراءك يا سائب ؟

فقلت : خيراً يا أمير المؤمنين ، فتح الله عليك بأعظم الفتح واستشهد النعمان ابن مقرن رحمه الله .

فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون .

ثم بكى فنشج حتى لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتده .

قال : ومَن ويحك !؟

فقال : [فلان وفلان ... حتى عددت له ناساً كثيراً] . يقول السائب : فلما رأيت ما لقي قلت : والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يعرف وجهه .

فقال [عمر وهو يبكي] : المستضعفون من المسلمين ! [لا يضرُّهم ألاّ يعرفهم عمر] لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم . ومـا يصنعون بمعرفة عمر بن أم عمر ؟

= فتوح البلدان ٧٦٢ عن أحمد بن ابراهيم عن أبي أسامة وأبي عامر العقدي وسلم بن قتيبة، جميعاً عن شعبة عن علي بن زيد عن علي أبي عثمان النهدي .

فتوح البلدان ٧٦٣ عن القاسم بن سلام عن محمـد بن عبدالله الأنصاري عن النهاس بن قهم عن القاسم بن عوف عن أبيه عن السائب بن الأقرع .

ثم قام ليدخل ، فقلت : إن معي مالاً عظيماً قد جئت به . ثم أخبرته خبر السفطين ، قال : أدخلها بيت المال حتى ننظر في شأنها ، والحقْ بجندك .

فأدخلتها بيت المال وخرجت سريعاً إلى الكوفة . وبات تلك الليلة التي خرجت فيها ، فلما أصبح بعث في أثري رسولاً ، فوالله ما أدركني حتى دخلت الكوفة ، فأنخْتُ بعيري وأناخ بعيره على عرقوبَيْ بعيري .

فقال : الحقْ بأمير المؤمنين فقد بعثني في طلبك فلم أقدر عليك إلا الآن .

فقلت : ويلك ! ماذا ولماذا ؟

قال : لا أدري والله .

فركبت معه حتى قَدِمْتُ عليه ، فلما رآني قال :

ما لي ولابن أم السائب ؟ بل ما لابن أم السائب وما لي ؟

قلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

قال : ويحك ! والله ما هو إلا أن نِمْتُ في الليلة التي خرجت فيها فباتت ملائكة ربي تسحبني إلى ذينك السفطين يشتعلان ناراً ، يقولون لنكوينك بها ، فأقول سأقسمها بين المسلمين . فخُذْهما عني لا أبا لك والحقْ بها فبِعْهُما في أعطية المسلمين وأرزاقهم .

فخرجت بها حتى وضعتها في مسجد الكوفة ، وغشيني التجار فابتاعها مني عمرو بن حريث المخزومي بألفَيْ ألف [مليونين] فباعها بأربعة آلاف ألف ، فما زال أكثر أهل الكوفة مالاً بعد . » اهـ .

وكان أبو لؤلؤة فيروز مولى المغيرة بن شعبة – وهو الذي سيقتل عمر بن الخطاب غيلة بعد ذلك عام ٢٣ هـ – كان من أهل نهاوند فأسره الروم في حربهم مع فارس ، ثم أسره المسلمون من الروم ، فكان في المدينة حين قَدِمَ إليها سبي نهاوند ، فكان لا يلقى منهم صغيراً إلا مسح رأسه وبكى وقال : « أكل عمر كبدي »[1] .

---

(١) الطبري ٤ / ١٣٦ س ش س عن عمرو بن محمد عن الشعبي .

ورجع أهل الحجاز إلى حجازهم وأهل البصرة إلى بصرتهم وأقام حذيفة بن اليمان في أهل الكوفة بنهاوند [1] .

توقيت نهاوند

اختلف الرواة في توقيت نهاوند .

فقالوا : سنة ١٨ هـ [2] .

وقالوا : عام ١٩ هـ [3] .

وقالوا : أول ١٩ هـ لتمام سنة ١٨ هـ [4] .

وقالوا : ١٩ هـ أو ٢٠ هـ [5] .

وقالوا : عام ٢١ هـ [6] . ويبدو أنه المختار عند الطبري .

ومـا دام الذي حرّك الفرس إلى حشود نهاوند هو هزائم هرمزان بالأهواز ونجاح جيش البصرة في إنقاذ جيش العلاء من طاوس ، وقد كانت تلك في أحداث عام ١٧ هـ على ما ذهبنا إليه ، فالذي نميل إلى الأخذ به أن عمليات نهاوند بدأت في أواخر ١٨ هـ ، وأن فتحها تمّ في أول ١٩ هـ في يوم جمعة من شهر محرم . يؤيد هـــذا أن كتاب النعمان لأهل الماهين قبيل سقوط نهاوند كان في محرم ١٩ هـ [وبعضهم جعلها ٢١ هـ] . ونرى على سبيل الظن أن فتح نهاوند كان يوم الجمعة ١٦ محرم ١٩ هـ — ١٥ ينـاير ٦٤٠ م ، أو الجمعة ٢٣ محرم ١٩ هـ — ٢٢ ينـاير ٦٤٠ م ، والله أعلم .

---

(١) فتوح البلدان ٨١٦ عن عبدالله بن معاذ العنقزي عن أبيه عن سعد بن الحكم بن عتبة.

(٢) الطبري ٤/١١٤ عن سيف .   (٣) الطبري ٤/١١٩ عن سيف عن أبي بكر الهذلي.

(٤) » ٤/١٣٦ » » عن عمرو بن محمد الشعبي .

(٥) فتوح البلدان ٧٦٥ عن أبي مخنف .

(٦) الطبري ٤/١١٤ عن ابن اسحق وعن أبي معشر وعن الواقدي .

فتوح البلدان ٧٦٦ عن أبي بكر الهذلي عن الحسن ومحمد. وهذه خلاف رواية الطبري عن أبي بكر الهذلي السابقة .



الباب السابع

انسياح من الكوفة

انطلاق الى الشرق

أمر عمر جيوش المسلمين بطلب جيوش العجم وتعقّبها حيث كانت للقضاء عليها . وكان ذلك على عدة محاور تتوازى أو تكاد من الجنوب إلى الشمال ، فتشقّ ممالك فارس من أرض إيران من الغرب إلى الشرق . فمن كان بقاعدة البصرة من جيش البصرة أو جيش الكوفة الذين انضمّوا إليهم أمرهم بالسير إلى أرض فارس و كرمان وأصفهان [ويقال لها أيضاً أصبهان] . ومَن كان بالكوفة أمرهم بالسير إلى أصفهان وآذربيجان والري .

* * *

فتح أصبهان

كان فتح أصبهان سنة ٢١ من الهجرة . وفي رواية البلاذري[١] أن فتحها وأرضها تمّ سنة ثلاث وعشرين وأربع وعشرين. ونذهب إلى التقدير الأول فهو الذي يساير الوقائع والمنطق . وأصبهان (أو أصفهان) كانت مدينة عظيمة وكانت عاصمة إقليم الجبال – أو ما كانوا يسمونه العراق العجمي – وكانت تتكوّن من مدينتين متجاورتين بينهما حوالي ٣٫٥ كيلومتراً ، هما : جَيّ[٢] واليهودية ، وبناؤهما من طين وهما أخصب مدن الجبال ، وكانت جَيّ هي العاصمة ، وقد جاء في صفتها أنها من أصحّ المواضع تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء ، وقد اختارها ملوك الفرس سكناً لهم . وكانت أصبهان [وكذا همذان والري] من بناء[٣] الاسكندر الأكبر حين اجتاح بلاد الفرس ، وقد بنى لها سوراً على هيئة الحيّة على زعم ألاّ يأويها حيّة ولا فأرة[٤] . وكان على السور أبراج لكل برج قرية تقوم بنفقته . وكان في داخل المدينة قلعة تقوم على تلّ شاهق منه .

---

(١) فتوح البلدان ٧٨٦ عن محمد بن سعد عن الهيثم بن جميل عن حماد بن سلمة .

(٢) المسالك والممالك للاصطخري ١١٧ .

(٣) الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ٢٦٥ .

(٤) المسالك والممالك لابن خرداذبة – هامش ١٦١ .

وبعد أن تمّ فتح نهاوند واستتبّ أمرها واتجه عمر إلى استكمال فتح فارس، أو ما يُعبّر عنه بـ « الانسياح »، كتب عمر إلى عبدالله بن عبدالله بن عتبان الأنصاري الذي كان سعد قد استخلفه على الكوفة، أن يسير من الكوفة حتى ينزل المدائن، وأن يفتح باب التطوّع [1] لحملة ليس فيها مُجَنّد مُجبَر. فكان ممن تطوّع معه عبدالله بن ورقاء الرياحي وعبدالله بن الحارث بن ورقاء الأسدي. وعَيَّن عمر زياد بن حنظلة خلفاً لعبدالله على الكوفة، غير أن زياداً استعفى بعد قليل فأعفاه عمر وولى عمار بن ياسر مكانه على الكوفة.

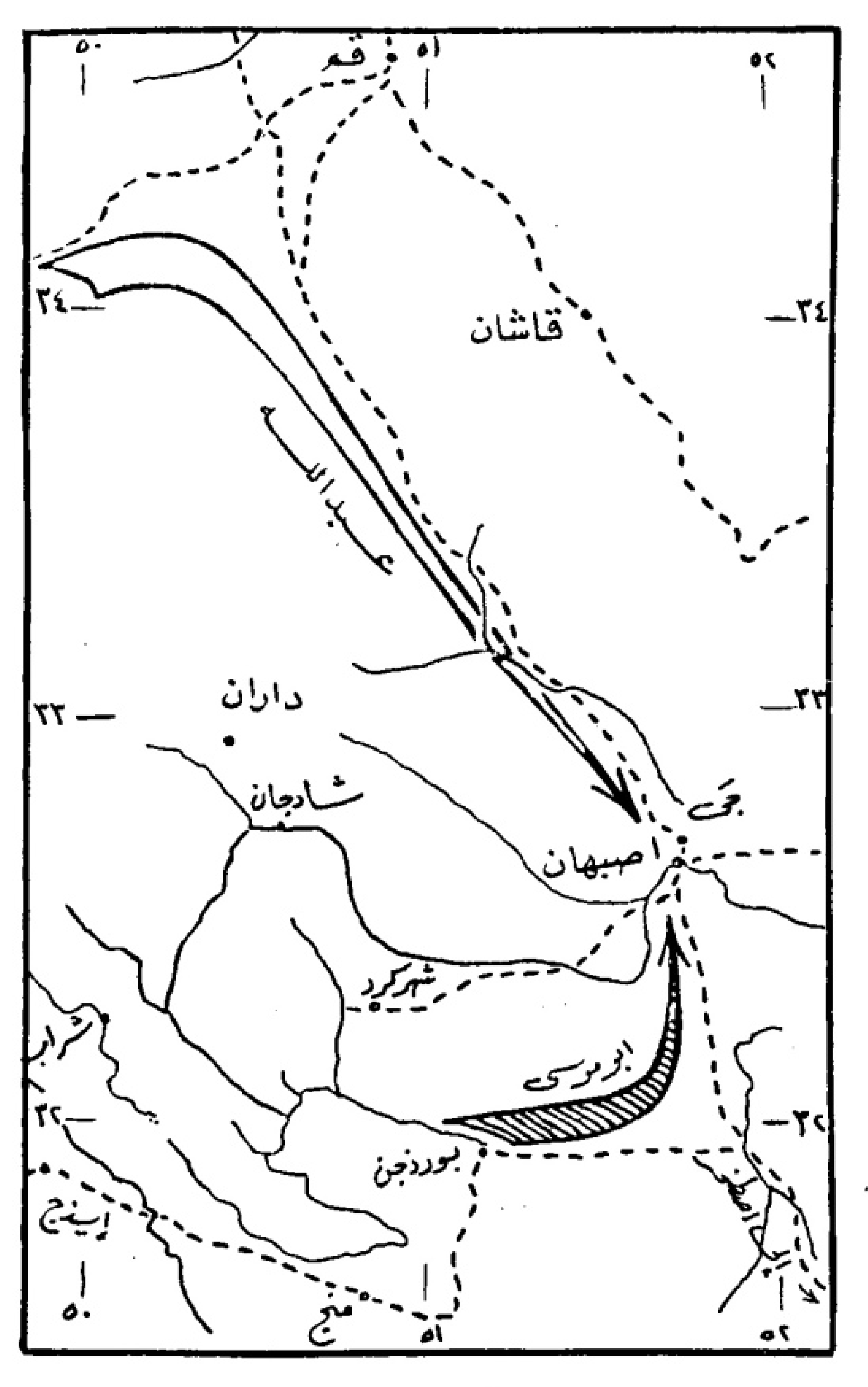
كان عبدالله من الأبطال الشجعان من أشراف الصحابة، وكان حليفاً لبني الحبلى من بني أسد. وقد أمدّه عمر لهذه المهمة بأبي موسى الأشعري من قاعدة البصرة، كان أبو موسى هو أمير القاعدة فعيّن عمر بدلاً منه عمر بن سراقة. وكتب عمر إلى عبدالله :

« أنْ سِرْ إلى أصبهان وزياد على الكوفة، وعلى مقدمتك عبدالله بن ورقاء الرياحي، وعلى مجنبتيك عبدالله بن ورقاء الأسدي [للميمنة] وعصمة بن عبدالله [ابن عبيدة بن سيف بن عبد الحارث – للميسرة] ».

رستاق الشيخ

وسار عبدالله بقواته حتى قَدِمَ على حذيفة بن اليمان، كان حذيفة أميراً على المدائن، ثم سار حتى نزل نهاوند فانضمّ إليه جمع من جنـد النعمان بن مقرن رضي الله عنه، الذين كانوا بنهاوند. ثم ساروا جميعاً نحو جموع الفرس الذين احتشدوا في جمع كبير بأصبهان يقودهم استندار، وقد جعل على مقدمته قائداً شيخاً كبيراً مُسِناً اسمه شهربراز جاذويه، فالتقى المسلمون بهذه المقـدمة في رستاق من رساتيق أصبهان فاقتتلوا قتـالاً شديداً وطلب شهربراز المبارزة فبارزه عبدالله بن ورقاء الرياحي وقتله وانهزم جيش أصبهان. وقـد أطلق

(١) الطبري ٤ / ١٣٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد.



خريطة (١٤) فتح أصبهان   المقياس ١/٢ مليون

المسلمون على ذلك الرستاق « رستاق الشيخ » . وطلب استندار الصلح فقَبِلَ عبد الله .

مبارزة وصلح

ثم سار لواء المسلمين من رستاق الشيخ نحو جي وكان عليها أمير يدعى فاذوسفان ، فحاصرهم عبدالله بها وتزاحفوا عدة مرات فاقتتلوا . وأخيراً قال فاذوسفان لعبدالله :

« لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ، ولكن ابرز لي (بارزني) فإن قتلتك رجع أصحابك ، وإن قتلتني سالمك أصحابي ، وإن كان أصحابي لا يقع لهم نشابة »[1] .

وخرج له عبدالله فكانت المبارزة بينهما بالرمح . قال عبدالله لفاذوسفان : « إما أن [أقف لك[2] و] تحمل عليّ ، وإما أن [تقف لي و] أحمل عليك » .

فقال فاذوسفان : « أحمل عليك » .

ووقف عبدالله وقد تترّس بترسه ، وحمل عليه فاذوسفان ووجّه إليه طعنة برمحه أصابت قربوس سرجه فكسره وقطع اللبب والحزام الذي يمسك السرج فزال السرج وما تحته وسقط عبدالله عن فرسه ولكنه نزل واقفاً على قدميه ، ثم قفز فاستوى على الفرس عرياً بدون سرج ولا ركاب . ومن المعلوم أنه وضعٌ لا يتيح للفارس ثباتاً على الخيل ولا يقدر عليه إلا الأشداء الأقوياء من الفرسان ، وقد كان عبدالله منهم ، ثم طلب عبدالله من فاذوسفان أن يثبت حتى يهاجمه كما يقضي عُرْفُ المبارزة ، ولكن هذا حاجزه وتراجع وقال :

« ما أحب أن أقاتلك ، فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً ، ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك ، على أن مَن شاء أقام ودفع الجزية

---

(١) يرجع إلى « الطريق إلى المدائن » ص ١١٢ .

(٢) إضافات من عندنا لتوضيح المعنى .

وأقام على ماله، وعلى أن تجري مَن أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون، ومَن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه ».

قال عبدالله : « لكم ذلك ».

هذا مثال من مكر الفرس وخبث المجوس ، فما كان لفاذوسفان أن يعرض مثل هذا إذا كان يحسُّ بقوّته ويثق في جبهته ، والذي لا شك فيه أنه كان يائساً منذ البداية ، فأراد أن يأخذ فرصة بتحكيم المبارزة بينه وبين عبدالله ، تلك المبارزة التي لم يتم منها إلا أن يقف عبدالله ليحاول هو قتله ، فلما أن جاء دوره رفض إتمامها وألقى السلاح مقابل الصلح . وقد كتب إليه عبدالله كتاب صلح :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

١ - كتاب من عبدالله لفاذوسفان وأهل أصبهان وحواليها .

٢ - إنكم آمنون ما أدّيتم الجزية ، وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم في كل سنة تؤدّونها إلى الذي يلي بلادكم عن كل حالم .

٣ - ودلالة المسلم وإصلاح طريقه وقِراه (إكرامه) يوماً وليلة ، وحملان الراجل إلى مرحلة .

٤ - لا تسلطوا على مسلم ، وللمسلمين نصحكم [إخلاصكم] وأداء ما عليكم .

٥ - ولكم الأمان ما فعلتم .

٦ - فإذا غيّرتم شيئاً أو غيّرَ مغيّر منكم ولم تسلموه فلا أمان لكم .

٧ - ومَن سبَّ مسلماً بُلِغ منه ، فإنْ ضربه قاتلناه .

كتب وشهد عبدالله بن قيس وعبدالله بن ورقاء وعصمة بن عبدالله »[1] .

وفي رواية البلاذري [2] أن فاذوسفان خاطب شعبه في شأن هذه المعاهدة فقال :

---

(١) الطبري ٤ / ١٤١ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو وسعيد .

(٢) فتوح البلدان ٧٨٤ عن محمد بن سعد عن الهيثم بن جميل عن حماد بن سلمة .

« يا أهل أصبهان ، رأيتكم لئاماً متخاذلين فكنتُ أهلاً لما فعلته بكم ! » .

وكان لأشراف [1] المجوس من أهل أصبهان معاقل في جفرباذ من رستاق الصيمرة الكبرى ببهجاورستان بقلعة ماربين ، فلما تمّ فتح جي أنفوا من الجزية فأسلموا ودخلوا في طاعة المسلمين على أن يؤدّوا الخراج .

مدد من البصرة

وجاء أبو موسى الأشعري في جيشه (نتبيّن فيه عناصر من بني تميم) ، جاؤوا من طريق الأهواز ، هذا الطريق يحدّده ابن خرداذبة تحديداً دقيقاً بأبعاده [2] التي كان عليها قبل عام ٣٠٠ هـ ، ووصفه الرحّالة ابن بطوطة كما عبره بعد نحو من أربعة قرون أخرى ، ونعتقد أنها لم تتغير كثيراً عن العصر الذي نبحثه ، ذلك أن الطريق في الجبال ليس من السهل إنشاؤها أو تعديلها في الزمن القصير ، لا سيما وأننا لا نجد على الخرائط التي بين أيدينا اليوم سوى طريق واحد بين الأهواز وأصبهان نذهب إلى أنه هو نفس الطريق ، ونقتطف مما قال ابن بطوطة [3] :

« ... ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثاً في جبال شامخة ... ووصلنا إلى إيذج .. وقد نُحِتَت الطرق في الصخور وسُوِّيَت ووُسِّعَت بحيث تصعدها الدواب بأحمالها. وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر (يوماً) في عرض عشرة، وهي شاهقة متصل بعضها ببعض تشقّها الأنهار،وشجرها البلوط ، وهم يصنعون

---

(١) فتوح البلدان ٧٨٩ عن محمد بن يحيى التميمي .

(٢) قال:من ايذج إلى جواردان ثلاثة فراسخ ثم إلى رستاجرد أربعة فراسخ ثم إلى سليدست ستة فراسخ ثم إلى برن خمسة فراسخ ثم إلى سوجر ستة فراسخ ثم إلى الرباط سبعة فراسخ ثم إلى خان الأبرار سبعة فراسخ ومن الخان إلى أصبهان سبعة فراسخ – المسالك والممالك ٥٧ لابن خرداذبة .

والفرسخ = ٥٥٤٤ متراً – « الطريق إلى المدائن » ص ١٤٤.

(٣) تحفة النظائر وعجائب الأسفار ١٤٧-١٥٣ .

من دقيقه الخبز .. وسافرنا في بلاد هـذا السلطان عشرة أيام في جبال شامخة . وفي اليوم العاشر سافرنا في بسيط من الأرض كثير الميـــاه من عمالة [إقليم] أصفهان. ثم وصلنا إلى بلدة اشتركان وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين... ثم رحلنا منها إلى مدينة فيروزان ... وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين ... وبتنا بها ليلة ، ومررنا بالغد بقرية يقال لها نبلان ، وهي كبيرة على نهر عظيم ... وسرنا يومنا .. ووصلنا بعـد العصر إلى مدينة أصفهان من عراق العجم ... وبهـا الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير له يسمونه بقمر الدين ، وهم ييبّسونه ويدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو ، ومنها السفرجل الذي لا مثل له في طيب المطعم وعظم الجرم والأعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشأن الذي ليس في الدنيا مثله إلا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم... وأهل أصفهان حِسَان الصُّوَر وألوانهم بيض زاهرة مشوبة بالحمرة ... »

وصل أبو موسى الأشعري[1] وجيش البصرة إلى أصبهان وقد تمّ الصلح بين فاذوسفان وعبدالله . ودخل أهل جيّ في ذمة المسلمين إلا ثلاثين رجلا خالفوا قومهم وتجمّعوا ثم اتجهوا مع حـــاشيتهم إلى كرمان فانضمّوا إلى جيش آخر للفرس احتشد بها. ودخل عبدالله وأبو موسى مدينة جي عاصمة أصبهان، واغتبط مَن أقام بها من المجوس على الصلح والذمة ، وندم مَن تركها وهاجر منها .

---

(١) في رواية البلاذري أن أبا موسى فتح قم وقاشان ثم جـــاء إلى عبدالله بن بديل فغزوا جيماً أصبهان ، وأن الأحنف بن قيس كان على مقـدمة أبي موسى الأشعري . ثم عاد – وقال : إن أصح الأقوال أن أبا موسى فتح قم وقاشان وأن عبدالله بن بديل فتح جي واليهودية .. نقول : من حيث أن أبا موسى جاء نحو أصبهان من الأهواز في الجنوب الغربي ، وأن قم وقاشان تقعان شمال أصفهان، فإنه يستحيل أن يكون قد فتحها وهو في طريقه من الأهواز إلى أصفهان. ولذلك أخذنا برواية الطبري وأغفلنا هنا رواية البلاذري .

مدد إلى كرمان

وكتب عبدالله بأخباره إلى عمر فجاء جواب عمر :

« أنْ سِرْ حتى تَقدِمَ على سهيل بن عدي فتجامعه على قتال مَن بكرمان وَخلِّفْ في جي مَن بقي عن جي واستخلِفْ على أصبهان السائب بن الأقرع».

فخرج عبدالله من أصبهان في جيش من الفرسان ليس معه مشاة ، وأدرك سهيلاً وهو ما زال بالطريق قبل أن يصل إلى كرمان . وكان ذلك سنة إحدى وعشرين من الهجرة ، وفي رواية أنه كان سنة ثلاث وعشرين .

* * *

جيوش الكوفة

بعث عمر خمسة بعوث تتبع قاعدة الكوفة بيانها كالآتي :

١ - نعيم بن مقرن المزني إلى همذان إذ أنها انتقضت بعد صلحها ، وبعد همذان كان عليه أن يسير إلى الري .

٢ - ومن الري بعث نعيم أخاه سويد بن مقرن إلى قومس وجرجان وطبرستان .

٣ - بكير بن عبدالله وعتبة بن فرقد إلى آذربيجان .

٤ - عمر بن سراقة إلى الباب من بعد آذربيجان .

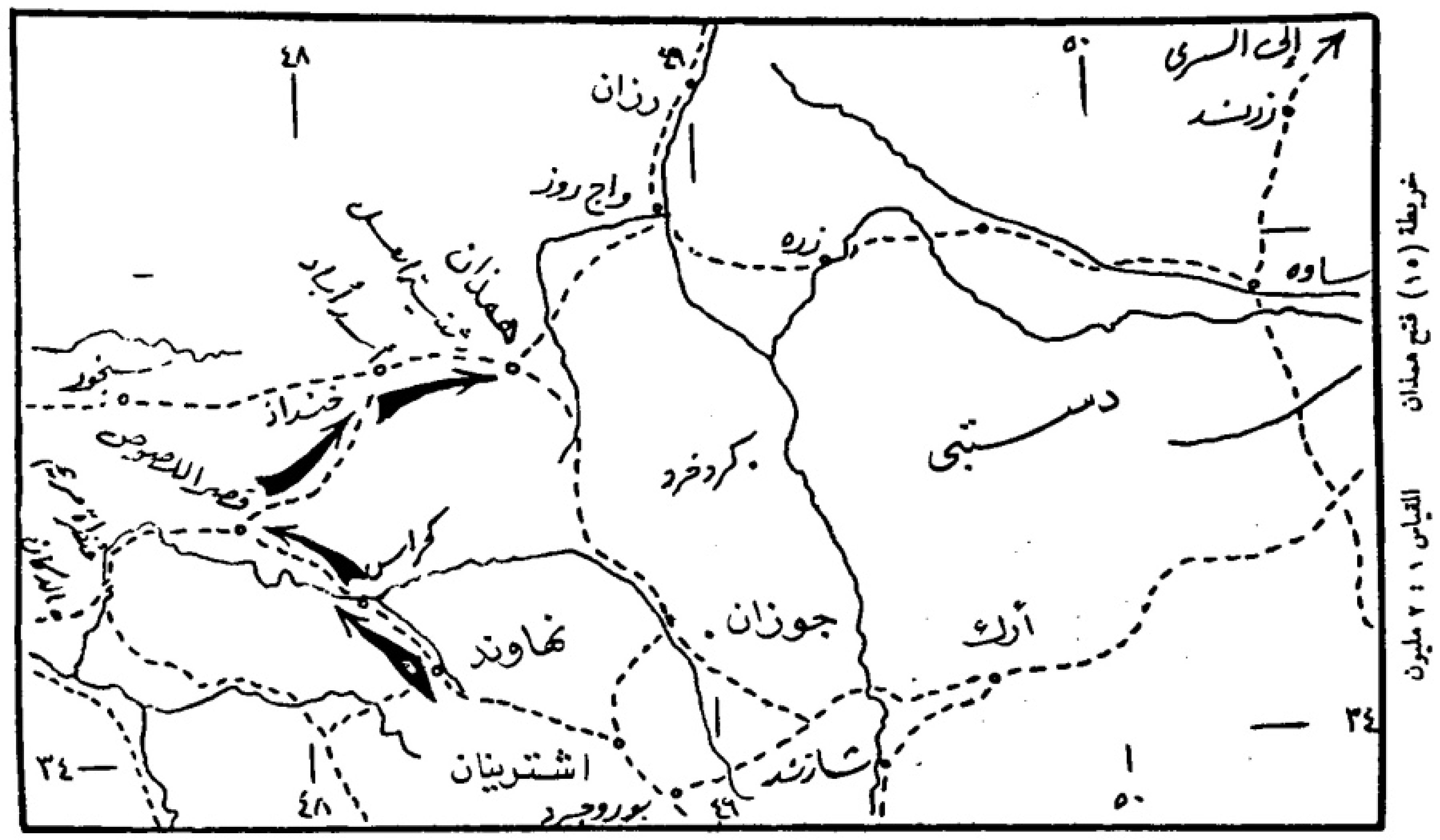
وكانت تلك البعوث في عام ٢٢ هـ .

فتح همذان

انتقض أهل همذان بعد الصلح الذي أبرم معهم ، فأرسل إليهم عمر لواء من جند الكوفة عليهم نعيم بن مقرن المزني ، وقد بلغ هذا اللواء اثني عشر ألفاً كان على مقدمته سويد بن مقرن وعلى ميمنته ربعي بن عامر التميمي وعلى ميسرته مهلهل بن زيد الطائي . وسار نعيم على تعبيته هـذه نحو ثنية العسل ، فلما نزلوا كَنَكَوَر سُرقت دواب من دوابهم فأطلقوا عليها قصر اللصوص.. ثم انحدر نعيم من الثنية حتى نزل على مدينة همذان وقد تحصّن منه أهلهـا ، فحاصرها واستولى على ما بينها وبين جرميذان [لم نستطع تحديدها على الخريطة] واستولى على ذمام بلاد همذان كلها ، فسأله أهل همذان [المدينة] الصلح على أن يعاملهم معاملة مَن استجاب ولم ينتقض، فأجابهم نعيم إلى ذلك وَقبِلَ منهم الجزية على أن يمنعهم ويحميهم .

بقي نعيم في همذان وفرّق دستبي على خمسة أمراء لحكمها وحمايتها وهم جميعاً من قاعدة الكوفة ، فكانوا :

- عصمة بن عبدالله الضبي .
- مهلهل بن زيد الخيل الطائي .
- سماك بن عبيد العبسي .
- سماك بن مخرمة الأسدي .



خريطة (١٥) فتح همذان   المقياس ١ : ٢ مليون

- سماك بن خرشة الأنصاري .

كان ذلك سنة اثنتين وعشرين [على قول سيف] .

وتكاتب [1] الديلم [2] وأهل الري [3] وأهل آذربيجان . ثم خرج جيش الديلم بقيادة موتا حتى نزل واج روذ . وجـاء جيش الري يقوده زينبدي أبو فرخان حتى انضمّ إليه . وجاء جيش آذربيجان يقوده اسفندياذ أخو رستم . وأمام هذه التحركات تحصّن أمراء مسالح دستبي في مواقف دفاعية ، وبعثوا إلى نعيم في همذان بهذه الأخبار ، وكتبوا إلى عمر . فاستخلف نعيم على همذان يزيد بن قيس [4] وخرج في جنده حتى نزل عليهم واج روذ ، فكان بينهم قتال شديد يعـدل قتال نهاوند وقُتل من المجوس عدد كثير لا يُحصى . واستطاع اسفندياذ أن ينجو ببعض قواته .

وبلغت رسلهم إلى عمر باجتماع المجوس ففزع واهتمّ بهذه المعركة الجديدة ، ثم فاجأه بريد آخر فقال له عمر : أبشير ؟

قال : بل عروة .

فلما أعادها عليه عمر : أبشير ؟

فطن إلى ما يريد فقال : بشير .

قال عمر : رسول نعيم ؟

قال : رسول نعيم .

---

(١) الطبري ٤ / ١٤٧ - ١٥٠ عن سيف .

(٢) كانت مدينة قزوين هي ثغر الديلم - ابن خرداذبة ٥٧ .

(٣) بالقرب من مكان طهران الحالي .

(٤) يزيد بن قيس بن تمام بن حاجب بن تمام بن مسعود بن كعب بن علوي بن عليان بن أرحب ابن عامر بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل بن حشم بن حيران بن نوف همذان الهمذاني الأرحبي . كان رئيساً في قومه . لما ثار أهل الكوفة على سعيد بن العاص زمن عثمان اجتمع قراء الكوفة وأقروا عليهم يزيد بن قيس . وكان مع علي في حروبه وولاه شرطته ثم ولاه أصبهان والري وهمذان - أسد الغابة ٩٠٤٩ .

قال : الخبر ؟

قال : البشرى بالفتح والنصر . وأخبره الخبر ، فحمد الله وأمر بالكتاب فقُرِيء على الناس فحمدوا الله .

ثم قَدِمَ على عمر وفد بالأخماس من جيش الكوفة ، فيهم سماك بن مخرمة وسماك بن عبيد وسماك بن خرشة ، فذكروا أسماءهم سماك وسماك وسماك ، فقال عمر : « بارك الله فيكم ، اللهم اسمك بهم الإسلام (أيِّدْ بهم الإسلام) وأيِّد الإسلام بهم » .

وكتب عمر إلى نعيم : « أما بعد ، فاستخلف على همذان وأمِدّ بكير بن عبدالله بسماك بن خرشة ، وسِرْ حتى تقدم الري فتلقى جمعهم ، ثم أقِمْ بها فإنها أوسط تلك البلاد وأجمعها لما تريد » ... فأقرّ نعيم يزيد بن قيس الهمذاني على همذان وسار بالجيش من واج الروذ إلى الري .

* * *

فتح الري[1]

أخرب نعيم بن مقرن واج روذ ، ثم خرج منها في جيشه إلى دستبي ومنها اتجه نحو الري ، حتى إذا كان في قها[2] لقيه جيش فارسي بعث به سياوخش ابن مهران بن بهرام جوبين[3] ، وقد كانت هي الأسرة الحاكمة لإقليم الري ، هذا الجيش بقيادة زنبدي وقد كلف بالتصدّي لنعيم . وكان زنبدي من أسرة منافسة لأسرة بهرام فكان يحسد سياوخش وآل بهرام جوبين ، ثم رأى من الظفر المستطرد للمسلمين ومن وفائهم ما كان له من أثر عليه ،فاستسلم لنعيم دون قتال وسالمه وسار معه إلى الري .

واستمدّ سياوخش الأقاليم المجاورة فأرسل إلى حكام دنباوند وطبرستان وقومس[4] وجرجان يقول : « قد علمتم إن هؤلاء حلّوا بالري أنه لا مقام

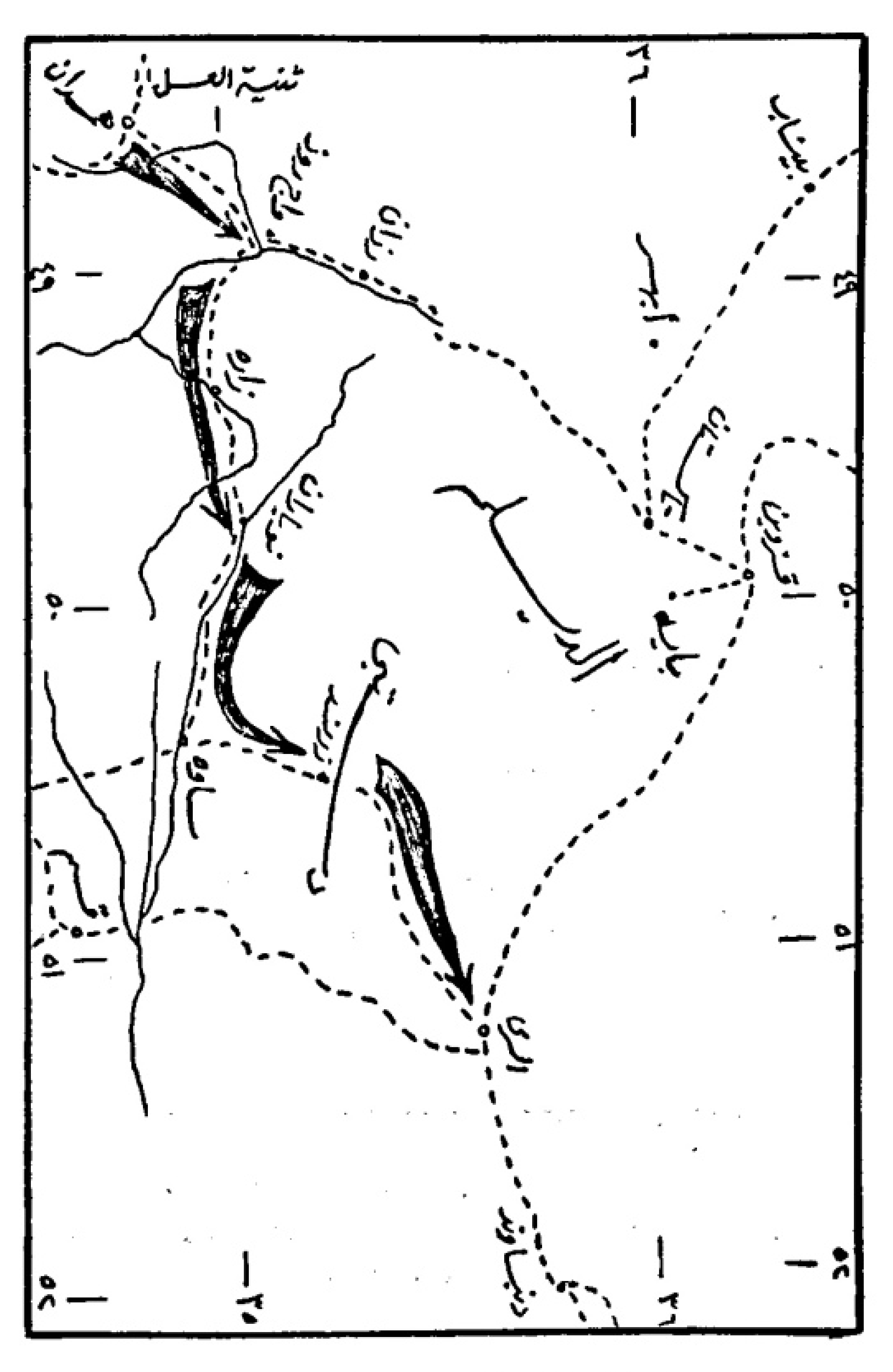
---

(١) الطبري ٤ / ١٥٠ .

(٢) لم نهتد إلى موقعها على الخريطة ، وهي على الطريق بين واج روذ والري .

(٣) بهرام جوبين هو صاحب الثورة المشهورة ضد هرمز الرابع ٥٨١ م (الطريق إلى المدائن ١٢٤) وابنه مهران هو الذي انخذل بالفرس في معركة عين التمر ضد خالد بن الوليد ١١ رجب ١٢ هـ (الطريق إلى المدائن ٢٨٧) .

(٤) قومس منطقة واسعة في شمال شرقي إيران تمتد بين الري ونيسابور ، ذات مدن وقرى ومزارع ، تحجزها جبال طبرستان التي تقع في شمالها عن بحر قزوين ، ومن الري إلى قومس ٣٥٠ كيلومتر .



خريطة (١٦) فتح الري   المقياس ١ : ٢ مليون

لكم » ، فأمدّوه واحتشدوا له وقاد سياوخش هذه القوات فالتقوا بنعيم على سفح جبل الري بجانب مدينة الري ذاتها ودارت بينهما المعركة . فقال زنبدي لنعيم : « إن القوم كثير وأنت في قلة ، فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم في مدخل لا يشعرون به وناهدهم أنت ، فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتوا لك » .

وفي الليل بعث نعيم خيلاً من جيشه عليها ابن أخيه المنذر بن عمرو بن مقرن، فساروا مع زنبدي متسللاً خلال ما يُعرف من المسالك حتى دخل بهم مدينة الري وسياوخش وجيشه لا يشعرون،في حين شنّ نعيم بجيشه هجوماً ليلياً عنيفاً فصمدوا له وصبروا في القتال حتى سمعوا تكبير المنذر في جنده من خلفهم ، فانهزموا وكثر القتل فيهم. يقول الرواة : « فقتلوا مقتلة عُدّوا بالقصب فيها». وكانت غنائم المسلمين بالري قريباً من غنائمهم من المدائن .

وصالح زنبدي سعيد بن مقرن عن شعب الري فأقامه نعيم مرزباناً عليهم ، وبذلك سقط الشرف عن آل بهرام وما زال بعدها في آل زنبدي (وقد ظهر منهم ولداه فرخان وشهرام) . وأخرب نعيم مدينة الري (العتيقة) وأمر زنبدي فبنى مدينة الري الحديثة .

وكتب نعيم بما فتح الله عليه مع المضارب [1] بن يزيد العجلي . وبعث أخماس الغنائم مع عتيبة بن النهاس العجلي [2] وأبو مفزر الأسود بن قطبة

---

(١) المضارب بن يزيد العجلي شهد معركة البويب مع المثنى بن حارثة في رمضان ١٣ هـ ، وخرج بعدها في غارات المثنى على شمال العراق ، وأغار المضارب على بني تغلب بالكباث . وقد شهد القادسية وكان من رسل سعد إلى رستم على العتيق ، كما كان من الخطباء الذين كلفهم سعد بن أبي وقاص يوم أرماث أن يخطبوا في المسلمين ويحمسونهم. (الطريق إلى المدائن – والقادسية). وقال يحيى بن يونس : لا أدري له صحبة أم لا . وقال جعفر : لا صحبة له وحديثه مرسل . (أسد الغابة ٤٩٣٠) .

(٢) عتيبة بن النهاس العجلي : كان شريفاً في قومه وكان ممن أقام على إسلامه حين ظهرت =

التميمي [1] من وجوه أهل الكوفة .

وكتب لشعب الري كتاب معاهدة :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

١ – هذا ما أعطى نعيم بن مقرن ، زنبدي بن قوله .

٢ – أعطاه الأمان على أهل الري ومَن كان معهم مِن غيرهم .

٣ – على الجزاء (الجزية) طاقة كل حالم في كل سنة .

٤ – وعلى أن ينصحوا ويدلوا ، ولا يغلوا ولا يسلوا [سيفاً] .

٥ – وعلى أن يُقرُوا [يكرموا] المسلمين يوماً وليلة .

٦ – وعلى أن يفخموا المسلم . فمَنْ سَبَّ مسلماً أو استخفَّ به نُهِكَ عقوبة ، ومَن ضربه قُتِل .

٧ – ومَن بدل منهم فلم يُسلِّم بِرُمَّتِه فقد غير جماعتكم ..

وكتب .. وشهد ..

= الردة في بني بكر بن وائل ، وتعاون مع العلاء بن الحضرمي في القضاء على الردة . وروي أنه كان مع خالد بن الوليد في قتال مسيلمة باليمامة. وقد كان مع جيش خالد لفتح العراق وكذلك كان معه ابنه المغيرة بن عتيبة وصار المغيرة بعد قاضي الكوفة . وكان عتيبة من أمراء جيش خالد وقد بقي بالعراق مع المثنى بعد خروج خالد إلى الشام . شهد البويب مع المثنى بن حارثة وساهم في الغارات على شمال العراق . كان عتيبة من الكماة الشجعان وكان أخوه عتاب شريفاً . ولم يرد ما يفيد صحبة عتبة للنبي (ص) . (الطريق إلى المدائن)

(١) كان في جيش خالد لفتح العراق وانتقل معه إلى الشام فشهد اليرموك كما شهد القادسية ، وله في ذلك كله أشعار كثيرة جيدة . وهو الذي قال لرسول كسرى : لا نصالحكم حتى نأكل عسل أفريذين بأترج كوثي . وقد بعث سعد سبي جلولاء إلى عمر معه . وكان أبو مفزر أحد ثلاثة عشر شهدوا وفاة أبي ذر بالربذة .

صلح دنباوند

استتبَّ الأمر لنعيم على الري [1]، فبعث - كأمر عمر - سماك بن خرشة الأنصاري إلى آذربيجان مدداً لبكير بن عبدالله، ونجـــد أخباره في الفصل الخاص بفتح آذربيجان. وأرسل مردانشاه مصمغان دنباوند (حاكمها) رسالة إلى نعيم يطلب الصلح على أساس شيء يفتدى به من المسلمين دون أن يسأله النصر والمنعـة، فقَبِـلَ نعيم منه وكتب بذلك كتاباً لا يتعهد فيه بحمايته ولا بمعونته على أحد خلافاً لِما جَرَتْ عليه العادة في كتب الصلح:

« بسم الله الرحمن الرحيم »

١ - هذا كتاب من نعيم بن مقرن لمردانشاه مَصْمُغَان دُنْباوند وأهل دنباوند والخوار والشَّرَز.

٢ - إنك آمن ومَن دخل معك على الكف أن تكف أهل أرضك.

٣ - وتتّقي مَن ولي الفرج بمائتي ألف درهم وزن سبعة في كل سنة.

٤ - لا يُغـــار عليك ولا يُدخَل عليك إلا بإذن مـــا أقمتَ على ذلك حتى تتغير.

٥ - ومَن غـيَّر فلا عهد له ولا لمن لم يسلمه.

كتب ... وشهد ...

وبالرغم من أن الرواة والمؤرخين يذكرون هذه العملية تحت صفة « الفتح »، إلا أننا بالتأمُّل في نصوص المعاهدة نشكُّ في ذلك، فإن هذه النصوص صريحة في عدم الإغارة أو حتى دخول الإقليم إلا بإذن، والإذن الذي نفهمه هنـــا هو

---

(١) يذكر البلاذري أن الري انتقضت في ولاية المغيرة بن شعبة على الكوفة، فبعث إليها كثير بن شهاب الحارثي فأخضعها وأذعنت بالخراج والجزية (فتوح البلدان ٢٩٢) .. وروي عن يحيى بن ضريس قاضي الري قال: لم تزل بعد أن فتحت أيام حذيفة (على الكوفة) تنتقض وتفتح حتى كان آخر من فتحها قرظة بن كعب الأنصاري في ولاية أبي موسى الكوفة لعثمان فاستقامت وكان عمالها ينزلون حصن الزنبدي (فتوح البلدان ٢٩٤).

إذن مصمغان دنباوند العجمي غير العربي المجوسي غير المسلم ، وما هكذا تكون صفة الغزو والفتوح .

لقد مرّ بنا في كتابنا « القادسية » ما عرَضَ المسلمون على يزدجرد الثالث حين خيّروه بين الإسلام أو الجزية أو الحرب ، فأبى إلا القتال . وقد أعادوا هذا العرض على رستم حيث عرض عليه زهرة بن الحوية الإسلام ، فقال له رستم: « ما أحسن هذا ! أرأيت لو أني رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعي قومي كيف يكون أمركم ، أترجعون ؟ » قال زهرة : « أي والله ، ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا في تجارة أو حاجة » . ثم بعث سعد ربعي بن عامر فدعاه إلى الإسلام ثم قال : « ... فمَن قَبِلَ منا ذلك قَبِلْنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومَن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى موعود الله » . وأخيراً بعث له سعد وفداً يدعوه فقالوا : « إن أميرنا يقول لك إن الجوار يحفظ الولاة ، وإني أدعوك إلى ما هو خير لنا ، ولك العافية .. أن تقبل ما دعاك الله إليه ونرجع إلى أرضنا وترجع إلى أرضك وبعضنا من بعض ، إلا أن داركم لكم وأمركم فيكم ، وما أصبته مما وراءكم كان زيادة لكم دوننا وكنا لكم عوناً على أحد إنْ أرادكم أو قَوِيَ عليكم ... » .

ونرى أن هذه المعاهدة نوع مما سبق أن عرضه المسلمون على الفرس قبل حربهم معهم ، ولو افترضنا جدلاً أن الفرس كانوا قد قَبِلوه ما غزا المسلمون بلادهم ... والآن فقط يقبلها مردانشاه مصمغان دنباوند ، فيجيبه المسلمون إلى ذلك ويعقدوا معه معاهدة سيادة وعدم اعتداء .. سيادة بأداء الجزية إلى المسلمين وعدم اعتداء متبادل ، فعلى شعب دنباوند أن يكفوا أذاهم وحربهم عن المسلمين ، وعلى المسلمين ألاّ يُغيروا عليهم ولا يدخلون بلادهم إلا بإذنهم .

وأياً ما كان ، فقد كان إتمام فتح أو صلح دنباوند مكسباً له قيمته للمسلمين ، ذلك أن دنباوند كانت موقعاً حصيناً ، وقد يستبين لنا هذا من وصف الاصطخري له ، ولو أنه ظاهر المبالغة . قال :

« .. ومن الجبال المذكورة بهذه الكورة (كورة الجبال) جبل دنباوند ، جبل مرتفع جداً يُرى فيما بلغني من خمسين فرسخاً (٢٢٧ كيلومتراً) لارتفاعه وما أن أحداً ارتقاه [١] .. وهو جبل رأيته أنا من وسط روذة الري ، وبلغني أنه يُرى من قرب سادة ، وهو جبل وسط جبال يعلو فوقها كالقبـــة ويحيط بالموضع الذي يعلو على الجبـال نحو أربعة فراسخ ... ويرتفع من أعلاه دخان دائم الدهر كله ... إلا أن القـُلة التي ترتفع عن هذه البقعة جبل أقرع ليس عليه كثير شجر ولا نبات ولا يُعلم بسائر الجبال ونواحي الديلم جبل أعظم منه [٢] .

* * *

(١) المسالك والممالك ١١٩ .
(٢) « « ١٢٣ .

فتح قومس (١)

وصل المضارب بن يزيد العجلي وكذلك أخماس فتح الري إلى عمر بالمدينة ، فكتب إلى نعيم : « أن قدِّمْ سويد بن مقرن إلى قومس ، وابعثْ على مقدمته سماك بن مخرمة (٢) ، وعلى مجنبتيه عتيبة بن النهاس [العجلي – للميمنة] وهند ابن عمرو الجملي (٣) [المرادي للميسرة] .

وخرج سويد بهذه التعبئة من الري إلى قومس التي تبعد أول حدودها حوالي ٣٥٠ كيلومتر ثم تمتد بعد ذلك إلى الشرق حتى خراسان . هذا الطريق الذي سلكه سويد بجيشه نذهب إلى أنه هو الطريق (٤) الذي ذكر تفصيله ومسافاته

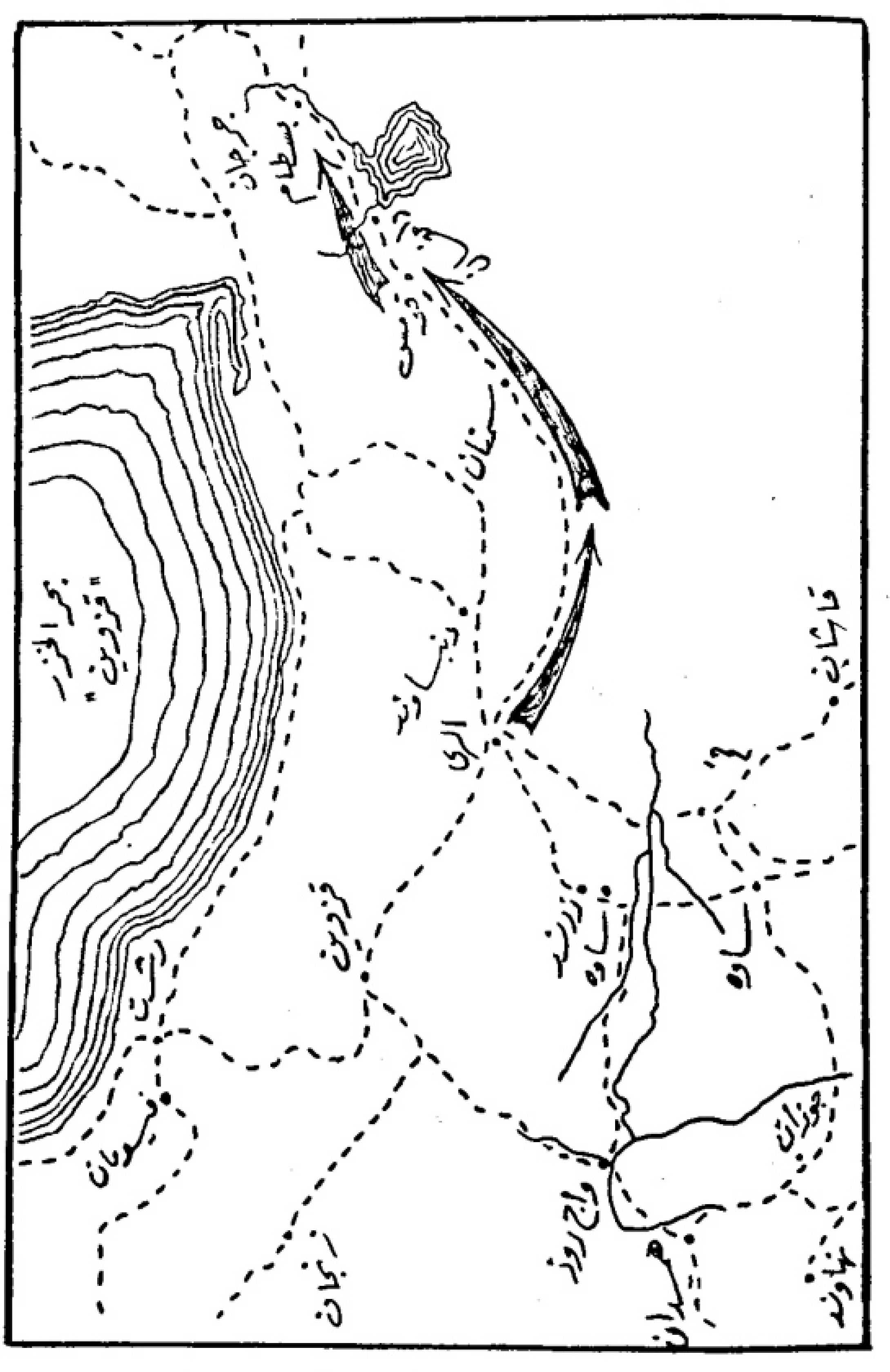
---

(١) الطبري ٤ / ١١٥ .

(٢) سماك بن مخرمة بن حمين بن ثلث بن الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة الهالكي الأسدي. كان بالكوفة فلما قدمها علي هرب منه إلى الجزيرة ومات بالرقة (أسد الغابة ٢٢٣٧) .

(٣) أول ما عثرنا عليه من أخبار هند بن عمرو أن عمر بن الخطاب في عام ١٧ هـ عزل الوليد بن عقبة عن عرب الجزيرة وأمر عليهم فرات بن حيان العجلي وهند بن عمرو (الطبري ٤ / ٥٦) وقد قتل يوم الجمل مع علي (الإصابة ٩٠٥٧) وله أخبار في ذلك .

(٤) قال : من الري إلى مفضل أباذ أربعة فراسخ ثم إلى كاسب ستة فراسخ ثم إلى افريذين ثمانية فراسخ ثم إلى خوار ستة فراسخ ثم إلى قصر الملح سبعة فراسخ ثم إلى رأس الكلب سبعة فراسخ ثم إلى شرخ أربعة فراسخ ثم إلى سمنان أربعة فراسخ ثم إلى آخرين تسعة فراسخ ثم إلى داية أربعة فراسخ ثم إلى قومس أربعة فراسخ فمن الري إليها ثلاثة وستون فرسخاً. كما قال : من الري إلى قومس ثلاثة وعشرون سكة يعني (محطة) فتكون السكة هنا حوالي ١٥ كيلومتراً .



خريطة (١٧) فتح قومس وجرجان — المقياس ١ : ٤ مليون

ابن خرداذبة [1] وقدامة بن جعفر [2] حوالي عام ٣٠٠ هـ . هذا الطريق القديم لم نجد سواه طرقاً ولا دروباً على خرائط إيران الحديثة التي بين أيدينا . سار سويد على هـذا الطريق من الري فلم يعترضه أحد حتى قومس فاستولى عليها سَلْماً وعسكر بها . وهناك فشا في المسلمين مرض قالوا عنه إنه القصر وذكروا أن أعراضه يبس في العنق ، وعزاه سويد إلى شربهم من نهر ملاذ [3] ، فقال لهم : غيّروا ماءكم حتى تعودوا كأهله ، ففعلوا واستمرؤوه . وفتحوا في سيرهم هذا الدامغان [4] .

صلح قومس

وكتب إليه الذين لجأوا إلى طبرستان والذين كانوا قد ذهبوا في المفاوز فراراً أمام زحفه ، فدعاهم إلى الصلح على أداء الجزية وكتب لهم بذلك كتاباً :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

١ – هذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس ومَن حشوا مِن الأمان على أنفسهم ومِلَلِهِم وأموالهم .

٢ – على أن يؤدُّوا الجزية عن يد ، عن كل حالم (بالغ) بقدر طاقته .

٣ – وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا .

٤ – وعلى أن يدلوا (دلالة الطريق) .

---

(١) المسالك والممالك ص ٢٣ ، ٤١ .

(٢) الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٠١ .

(٣) نهر ملاذ لم نجده فيما رجعنا إليه من كتب البلدانيين والرحالة كما لم نجد له اسماً على الخرائط الحديثة ، ولكننا وجـدنا مدينة بسطام (سيأتي ذكرها) على نهر نرجح أنه ملاذ ، وهو بذلك يحدد لنا مكان معسكر سويد .

(٤) يعزو البلاذري فتح الدامغان إلى سليمان بن عمر الضبي أو البراء بن عازب – فتوح البلدان ٢٩٧ .

٥ – وعليهم نزل (تموين) مَن نزل من المسلمين يوماً وليلة من أوسط طعامهم.

٦ – وإنْ بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة ..

كتب .. وشهد .. » .

وقد أورد الطبري فتح قومس ضمن أحداث عام ٢٢ هـ ..

هذا ويدلّنا تضمين الكتاب نصّاً عن دلالة الطريق على أن المسلمين بدؤوا يعانون من توغّلهم البعيد في أرض المجوس .

* * *

جرجــان

وعسكر سويد بن مقرن ببسطام [من مدن كورة قومس] وكتب إلى ملك جرجان وكان يدعى رزبان صول ، ثم سار إليها . وجاءه جواب رزبان صول يطلب الصلح على أن يؤدّي الجزية وأن يكفيه حرب جرجـــان ، فإنْ غلب أعانه . وَقبِلَ سويد ذلك منه، وخرج رزبان صول لاستقبال سويد قبل بلوغه جرجان فدخلها معه وعسكر بها حتى جبى إليه رزبان خراجها وحدّد حدودها وحامياتها وتكفّل بالدفاع عنهـا بعناصر من ترك دهستان ، فأسقط سويد الجزية عمن أقـام يدافع عنها وأخذ الخراج من سائر أهلها وكتب بينهم وبينه كتاباً :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

١ – هذا كتاب من سويد بن مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان .

٢ – أن لكم الذمة.

٣ – وعلينا المنعة .

٤ – على أن عليكم من الجزاء في كل سنة قدر طاقتكم ، على كل حالم .

٥ – ومَن استعَنّا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً من جزائه .

٦ – ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم .

٧ – ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم مـــا أدُّوا وأرشدوا ابن السبيل ونصحوا وَقرُوا المسلمين (أكرموهم) ولم يَبْـدُ منهم سَلّ (لسيف) ولا غلّ (لمال) .

٨ – وَمَن أقام فيهم فله مثل ما لهم،وَمَن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه .

٩ – وعلى مَن سَبّ مسلماً بلغ جهده (عوقب)، وَمَن ضربه حلّ دمه .

شهد سواد بن قطبة وهند بن عمرو وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس » .

وهنا في هذه المعاهدة نص يستوقف النظر هو البند رقم (٥) الذي يفيـــد إسقاط الجزية ومنح الجزاء لمن يستعين المسلمون به من أهـل جرجان . ومن المفهوم بطبيعة الحال أنها استعانة في مجال الدفاع وأنهم ما زالوا على مجوسيتهم . ولنا أن نتساءل هنا عن سرّ استعانة المسلمين بمجوس ؟ لقـد رأيناهم قبل ذلك ابتـداء من القادسية يقبلون في صفوفهم أفراداً من الفرس دخلوا الإسلام زادوا عدداً حتى بلغوا أربعة آلاف بعد فتح حلوان، وكان عليهم رؤساء ممن أسلم من الفرس ، أما الآن في فتح جرجان فنجد المسلمين بدأوا يستعينون بعجم ما زالوا على مجوسيتهم ، فأي تعليل وراء ذلك ؟

الذي نراه أنه ربما كان وراء ذلك دافعان :

الأول : أن حركة الفتح قـد امتدّت امتداداً شاسعاً كبيراً مع قلة في عدد الغزاة الفاتحين أمام كثرة أعدائهم ، ولقـد كان جيش سويد بن مقرن اثني عشر ألفاً منـذ خرج بهم من نهاوند وفتح همذان والري ، ومن الري بعث سماك بن خرشة إلى آذربيجان مدداً لبكير بن عبدالله ، فنقصت قواته عما كانت عليه بما لا يقلّ عن ألفين ، ومع ذلك سار نعيم يفتح قومس وجرجان وهو مُقدِم على فتح ما وراء ذلك من طبرستان ، فكان حتماً عليه أن يستعين في مجال الدفاع بأهل البلاد المفتوحة ما دام ذلك ممكناً ، ولا شك أنه تصرّف ينطوي على قدر من المرونة والسماحة والإدارة والكياسة التي يتطلبها الإسلام في القائد المسلم .

أما الدافع الثاني الذي ربما قام في تقدير سويد هو أنه كان يفتح الباب لتمزيق

جبهة المجوس سياسياً واجتماعياً بعد أن تمزقوا حربياً ، فهم إذا بدأوا التعاون مع المسلمين والعمل لحسابهم مقابل إسقاط الجزية عنهم أو تقاضي أجر على ما يقومون به ، فإنهـــا سوف تكون بداية تشجع الآخرين للتهافت على ذلك التعاون ، ثم يكون من بعد ذلك باباً مفتوحاً لشرح الإسلام لهم ونشر الدعوة إليه في منـاخ أكثر مناسبة .

إن معاهدة جرجان تستحق وقفـة تسجل فيها منتهى الإعجاب بسويد بن مقرن الرجل المارد في السياسة ، كما أنه كان الرجل العملاق في الحرب . وحريّ بنا ونحن ندرس هـذه الفتوح وتلك السِّيَر لنقدّم منها لشبابنا وأمتنا الدروس والعِبَر ، ألاّ ننسى أن سويد بن مقرن كان أعرابياً بدوياً بسيطاً من بني مزينة أسلم وإخوته مع أخيهم الأكبر شهيد نهاوند النعمان بن مقرن وذلك منـذ ثمانية عشر عاماً ليس إلا ، فتتلمذوا على رسول الله ﷺ مع صحابته الأبرار الأطهار في مدرسة الإسلام ، ثم تابعوا تحت لواء الخليفـة الأول أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ، ثم هم الآن يسيرون غزاة فاتحين بأمر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب . وما أحوجنـــا اليوم إلى دراسة تلك التراجم المشرقة لصحابة رسول الله ﷺ الفاتحين ، وللرسالة المبدعة المعجزة التي أحالتهم من بدو أعراب يرعون الإبل والغنم إلى قادة سادة يرعون الشعوب ويسوسون من الأمم امبراطوريات اشتهرت من قبل بالعتوّ والجبروت .

فتح طبرستان[1]

وكتب إصبهبذ خراسان [حاكمها] إلى سويد في طلب الصلح عن طبرستان وجيلان، وعلى أن يتوادعا ويؤدي شيئاً إلى المسلمين على غير نصر ولا معونة على أحد ، فقَبِلَ سويد ذلك منه وكتب له به كتاباً :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

١ – هذا كتاب من سويد بن مقرن للفرخان إصبهبذ خراسان على طبرستان وجبل جيلان من أهل العدو !

٢ – إنك آمن بأمان الله عز وجل على أن تكف لصوتك [لصوصك] وأهل حواشي أرضك ، ولا تؤدي لنا بُغْية [قاطع طريق] .

٣ – وتتقي من ولي فرج أرضك بخمسمائة ألف درهم من دراهم أرضك .

٤ – فإذا فعلتَ ذلك فليس لأحد منا أن يُغِير عليك، ولا يتطرق أرضك، ولا يدخل عليك إلا بإذنك .

٥ – سبيلنا عليكم [طريقنا إليكم] بالإذن آمنة ، وكذلك سبيلكم ، ولا تؤدون لنا بغية .

---

(١) الطبري ٤ / ١٥٣ س ش س .

٦ – ولا تُسِلُّون لنا [سيفاً] إلى عدو .

٧ – ولا تَغُلُّون [من الضريبة المتفق عليها] .

٨ – فإنْ فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم .

شهد سواد بن قطبة التميمي ، وهند بن عمرو المرادي ، وسماك بن مخرمة الأسدي ، وسماك بن عبيد الأسدي ، وعتيبة بن النهاس البكري . وكتب سنة ثمان عشرة »[1] .

* * *

(١) هذا في النص ، وقد ذهب الطبري إلى إدراج فتح طبرستان ضمن أحداث عام ٢٢ هـ ، وهو ما نراه معقولاً .

فتح آذربيجان[1]

أما آذربيجان فقــــد بعث عمر إليها طابورين وقسم فتحها بينهما .. الأول يخرج من حلوان إلى آذربيجان يقوده بكير بن عبدالله[2] الليثي ، والثاني يخرج

(١) الطبري ٤ / ١٥٣ عن سيف بن عمر - وآذربيجان معناها أرض النار .

(٢) بكير بن عبـدالله بن مسعر بن جعفر بن كليب بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وأخوه غالب بن عبدالله أكبر منه ، له ذكر في السيرة وفي القادسية . ونجد في التراجم بكير بن شداد بن عامر بن الملوح بن يعمر (وهو الشداخ) بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر .. إلخ ...

وبالرغم من تبـاين النسب في الحلقات الأخيرة ، فإننا نعتقد أنه مجرد اختلاف عنـد النسابين وأن صاحب الترجمتين رجل واحد لانطباق الأحداث البارزة فيها .

روى عنه عبد الملك بن يعلى الليثي أنه كان ممن يخدم النبي (ص) وهو غلام ، فلما احتلم جاء النبي فقال : يا رسول الله إني كنت أدخل على أهلك وقد بلغت مبلغ الرجال . فقال النبي (ص): « اللهم صدق قوله ولقه الظفر » . فلما كان في خلافة عمر بن الخطاب جاء وقد قتل يهودياً فأعظم ذلك عمر وخرج وصعد المنبر وقال:« أفيما ولاني الله واستخلفني تقتل الرجال ؟ أذكر الله رجلاً كان عنده علم إلا أعلمني ؟ » فقـام إليه بكير بن الشداخ فقال : أنا به . قال عمر : الله أكبر بؤت بدمه ، فهات المخرج . قال : بلى . خرج فلان غازياً ووكلني بأهله فجئت إلى بابه فوجدت هذا اليهودي في منزله وهو يقول :

وأشعث غره الإسلام مني ... خلوت بعرسه ليــــل التمام
أبيت على ترائبها ويمسي ... على قود الأعنـة والحزام
كأن مجامع الربلات منهـا ... فئام ينهضون إلى فئــام

=

من الموصل إلى غرب آذربيجان يقوده عتبة [1] بن فرقد . ويبـــدو أن القيادة العامة كانت لبكير بن عبدالله . كذلك – وكما مرّ بنا – أن عمر كتب لنعيم بن مقرن المزني بعـد أن هزم اسفندياذ بن فرخزاد في واج روذ أن يبعث سماك بن خرشة الأنصاري إلى آذربيجان مدداً لبكير ، ولكن نعيم بن مقرن أخّر تنفيذ ذلك حتى تمّ له فتح الري فأرسل سماكاً من هنـاك . وقد كان سماك بن خرشة وعتبة بن فرقد من أغنياء العرب ، وقد جاءا إلى الكوفة بغناهما .

= فصدق عمر قوله وأبطل دمه بدعاء النبي (ص): « اللهم صدق قوله » .. الترائب: عظام الصدر، الربلات : أصول الأفخاذ، الفئام : الجماعة من الناس . وقد مر بنا ذكر بكير بن عبدالله في كتابنا « القادسية » إذ كان في مقدمة سعد بن أبي وقاص التي قادها زهرة بن الحوية ، فما أن بلغ القادسية حتى بعث به على سرية من ثلاثين فارساً من أبطال المسلمين فيهم الشماخ الشاعر القيسي فأسروا زفة أخت مرزبان الحيرة .

وبعد أن انتهت معركة القادسية أمر سعد بن أبي وقاص القعقاع بن عمرو وشرحبيل بن السمط بمطاردة الفلول ، فلما عاد أمر سعد زهرة بن الحوية بمطاردة أخرى أكثر عمقاً ، فنـادى في المقدمة وانطلق حتى إذا أتى الردم وجد المجوس قد بثقوه خلفهم في انسحابهم ، وكان زهرة على حصان ذكر فقال لبكير: « يا بكير أقدم » ، وكان على فرس أنثى اسمها اطلال وقد اشتهر بها وعرف بفارس اطلال ، فضربها وقال : « ثبي اطلال » فتجمعت ثم وثبت فاجتازت البثق ، وأوثب زهرة حصانه خلفها وكذلك سائر الخيل . (القادسية – فتوح البلدان ٨١٨ – أسد الغابة ٤٨٧ – الإصابة ٧٨٤ ، ٦٩٠٥ – الاستيعاب ٣ / ١٨١) .

(١) عتبة بن فرقد بن يربوع بن حبيب بن مالك بن أسعد بن رفـاعة بن ربيعة بن رفاعة ابن الحارث بن سليم بن منصور السلمي . شهد خيبر ٧ هـ مع النبي (ص) ، وقسم له منها فـكان يعطي نصيبه منها لبني أعمامه عاماً ولبني أخواله عاماً ، وكان له أربعة نسوة وقيل ثلاث . وأول ذكر له في فتوح العراق وقفنا عليه هو إمارة الحرب والخراج للموصل ١٧هـ خلفاً لعرفجة ابن هرثمة ، وبعد أن استقر في الموصل فتح شهرزور والصامغان ودراباذ عام ٢٢ هـ ثم كتب إلى عمر : « إن فتوحي قد بلغت آذربيجان » ، فولاه فتح آذربيجان وأعاد عرفجة إلى الموصل . وقد بقي عتبة على آذربيجان ما دام سعد على الكوفة ، فلما وليها الوليد بن عقبة من قبل عثمان عام ٢٥ هـ عزل عتبة عن آذربيجان فنقض أهلها الصلح مع المسلمين وأعاد الوليد غزوها ..

وسكن عتبة الكوفة حتى توفي بها وخلف عقباً يقال لهم الفراقدة .

سار بكير بن عبدالله من حلوان حتى إذا كان تجاه جرميذان [١] طلع عليه اسفندياذ بن فرخزاذ – أخ رستم قائد المجوس في القادسية – كان اسفندياذ مهزوماً فيمن معه أمام نعيم بن مقرن في واج روذ ، ولم نجد ما يفيدنا وجهة فراره حينذاك ، ومن المحتمل أنه كان متجهاً إلى آذربيجان . والتحم به بكير فهزمه مرة أخرى وأخذه أسيراً . وخاف اسفندياذ القتل فقال :

« الصلح أحَبُّ إليك أم الحرب ؟ »

قال بكير : « بل الصلح » .

قال : « فامسكني عندك فإن أهل آذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجيء لم يقيموا لك وجلوا إلى الجبال التي حولها من القَبْج والروم ، ومَن كان على التحصُّن تحصَّن إلى يوم ما » .

فحبسه بكير عنده وأقام وهو في يده وصارت البلاد إليه إلا الحصون . وَقدِمَ سماك بن خرشة عليه وهو على ذلك ، وقد سبق بكير في فتح ما وكل إليه عتبة بن فرقد . وقال بكير لسماك حين َقدِمَ عليه : « ما الذي أصنع بك وبعتبة بأغنيين ؟ لئن أطعت ما في نفسي لأمضينّ قدماً ولأخلفنكما ، فإن شئت أقمت معي وإن شئت أتيت عتبة فقد أذنت لك ، فإني لا أراني إلا تاركما وطالباً وجهاً هو أكره من هذا .

وكتب بكير إلى عمر بن الخطاب يستعفيه من أمر آذربيجان .

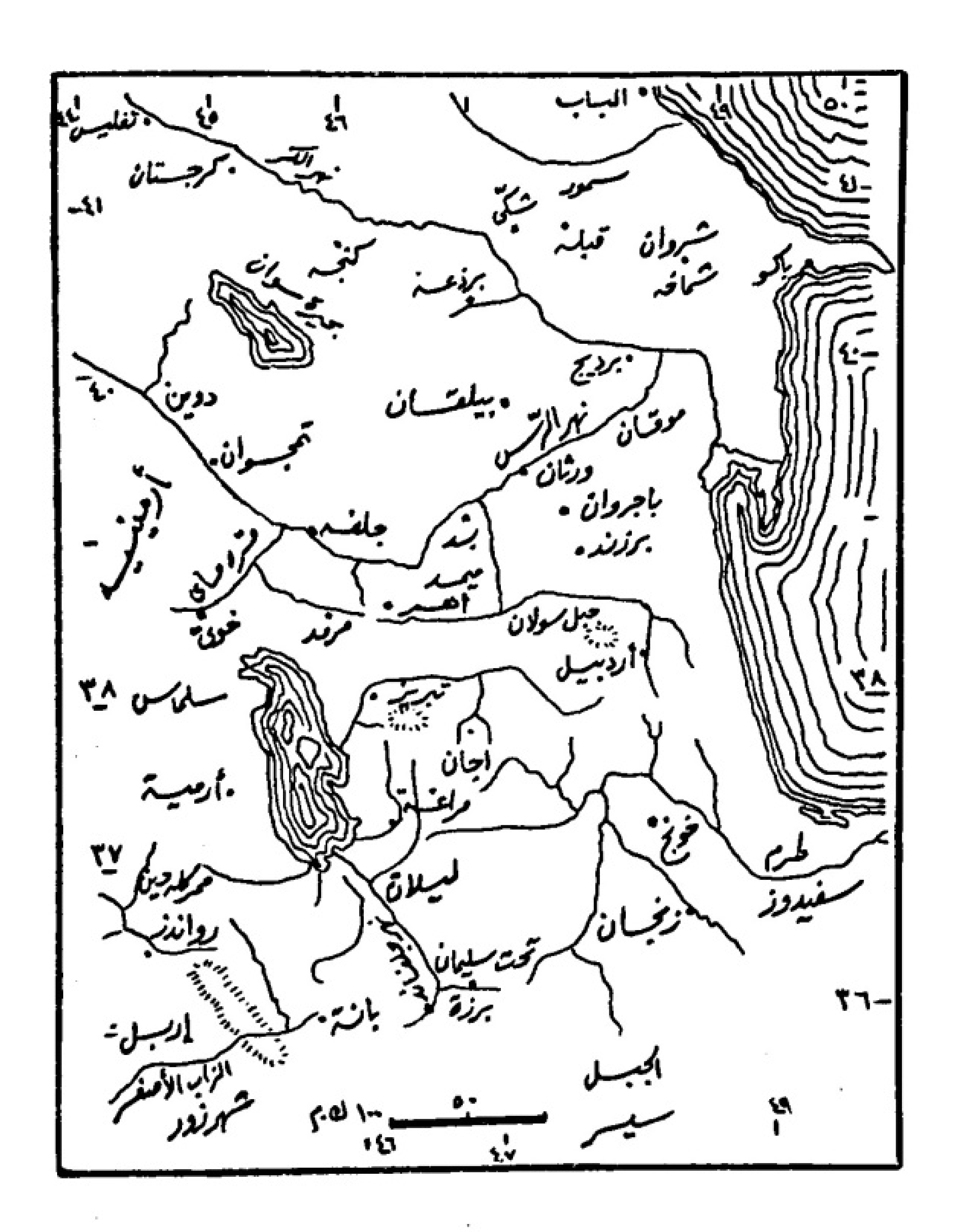
أما عتبة بن فرقد فقد سار من الموصل [٢] وقد اعترض طريقه بهرام بن فرخزاذ [٣] في عسكره فاقتتلوا وهزمه عتبة وهرب بهرام . ولم تذكر المصادر

---

(١) جرميذان لم نجدها على الخرائط الحديثة التي بين أيدينا ولا فيما رجعنا إليه من كتب البلدانيين . ونظراً للتشابه اللفظي فربما كانت جرميذان هي قرميسين التي هي تعريب كرمان شاهان وهي كرامنشاه اليوم . والله أعلم .

(٢) في رواية أنه سار من الموصل إلى شهرزور ومنها إلى آذربيجان .

(٣) يبدو أنه أخ رستم وبندوان واسفندياذ .



خريطة (١٨) آذربيجان

أين كانت تلك الموقعة. ولعل مما يحدّد لنا مساره رواية تفيد دخوله أردبيل[1]..

وبلغت هذه الأخبار إلى معسكر بكير، فقال اسفندياذ:

«الآن تمّ الصلح وطفئت الحرب».

فصالحه واستجابت كل آذربيجان واستسلمت..

وكتب بكير بذلك إلى عمر وبعث إليه بالأخماس مع الوفود.

وكتب عتبة كتاباً لشعب آذربيجان:

«بسم الله الرحمن الرحيم،

١ - هذا ما أعطى عتبة بن فرقد، عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، أهل آذربيجان - سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها - كلهم.

٢ - الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم.

٣ - على أن يؤدّوا الجزية على قدر طاقتهم، ليس على صبي ولا امرأة ولا زمن[2] ليس في يديه شيء من الدنيـا، ولا متعبّدٍ متخلّ ليس في يديه من الدنيا شيء، لهم ذلك ولمن سكن معهم.

٤ - وعليهم قرى المسلم [إكرامه] من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته.

٥ - ومَن حُشر منهم في سنة [للدفاع] وُضِع عنه جزاء تلك السنة.

٦ - ومَن أقـام فله مثلما لمن أقام من ذلك. ومَن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه.

كتب جندب وشهد بكير بن عبدالله الليثي وسماك بن خرشة الأنصاري..».

وكتب عمر إلى بكير ردّاً على طلب استعفائه يأذن له في التقدم نحو الباب وأمره أن يستخلف على عمله، فاستخلف عتبة على مـا تمّ فتحه من آذربيجان كلها وأسلمه اسفندياذ الأسير، ومضى بكير نحو مهمته لفتح الباب. وأمّر عتبة

---

(١) فتوح البلدان ٨١١ عن الحسين بن عمرو الأردبيلي عن واقد الأردبيلي.

(٢) الزمن: العجوز الكبير.

سماك بن خرشة على مـا كان بكير قد فتح من شرقي آذربيجان تحت رئاسته ، فقد جمع عمر آذربيجان كلها لعتبة بن فرقد .

قال أبو عثمان النهدي [1] : « كنت مع عتبة بن فرقد حين افتتح آذربيجان

---

(١) فتوح البلدان ٤١٤ عن المدائني عن علي بن المجاهد عن عاصم الأحول .

فتوح البلدان ٤١٧ عن العباس بن الوليد النرسي عن عبدالواحد بن زياد عن عاصم الأحول.

وأبو عثمان النهدي معدود في كبار التابعين وهو من قبيلة قضاعة . واسمه عبد الرحمن بن مل ابن عمرو بن عدي بن وهب بن ربيعة بن سعد بن كعب بن خزيمة بن كعب بن رفاعة بن مالك ابن نهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة .

سئل أبو عثمان: هل أدركت رسول الله (ص) ؟ قال: نعم، أسلمت على عهد رسول الله (ص) وأديت إليه ثلاث صدقات (من الزكاة) ولم ألقه، وغزوت على عهد عمر رضي الله عنه غزوات . وقال عاصم الأحول : سألت أبا عثمان النهدي : رأيت النبي (ص) ؟ قـال : لا . قلت : رأيت أبا بكر ؟ قال : لا ، ولكن اتبعت عمر حين قام .

شهد اليرموك والقادسية وجلولاء وتستر ونهاوند وآذربيجان ، رغم أنه كان كبير السن ، ويقال إنه عاش في الجاهلية أكثر من ستين سنة وفي الاسلام مثل ذلك ، وكان يقول : بلغت نحواً من ثلاثين ومائة سنة فما مني شيء إلا وقد عرفت النقص فيه إلا أملي فإنه كما كان . ولقـد توفي بالبصرة أول ولاية الحجاج بن يوسف العراق ، قيل سنة مائة وقيل سنة خمس وتسعين ..

ولقـد كان أبو عثمان ورعاً تقياً أدى ستين حجة وعمرة ، وكان يركع ويسجد حتى يغشى عليه . قال أبو عثمان : « أدركت الجاهلية ، فما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا مزمار أحسن من صوت أبي موسى الأشعري بالقرآن ، وإن كان ليصلي بنـا صلاة الصبح فنود لو قرأ بالبقرة من حسن صوته » . وقال : « إني لأعـلم حين يذكرني الله » ، فقيل له : من أين تعلم ؟ قال : « يقول الله تبارك وتعالى : (اذكروني أذكركم) ، فإذا ذكرت الله ذكرني » . وقال الراوي : كنا إذا دعونا الله قال : « والله لقد استجاب الله لنـا ، ألم يقل (ادعوني أستجب لـكم) ؟ » . ولقد تلقى أبو عثمان عن كبار الصحابة ، فروى عن عمر وعلي وسعد وسعيد وطليحة وابن مسعود وحذيفـة وبلال وأبي هريرة وأبي موسى الأشعري وعائشة ، كما روى عن خالد بن عرفطة وعن سلمان بن ربيعة الباهلي وسلمان وأسامة وغيرهم ، وكان ثقة في روايته كما كان من رواة الفتوح . =

فصنع سفطين من خبيص (طعام) وألبسها الجلود واللبود ثم بعث بها إلى عمر مع سحيم مولى عتبة. فلما قدم عليه قال : ما الذي جئت به ؟ أذهب أم ورِق؟ وأمر به فكشف عنه ، فذاق الخبيص فقال : إن هـذا لطيّب أثرٌ ! أكل المهاجرين أكل منه شبعه ؟ قال : لا إنما هو شيء خصّك به .

فكتب إليه : « من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى عتبة بن فرقد. أما بعد ، فليس من كدّك ولا كدّ أمك ولا كدّ أبيك. لا نأكل إلا ما يشبع منه المسلمون في رحالهم » .

* * *

= وكان من سكان الكوفة ولم يكن له بها دار لبني نهد ، فلما قتل الحسين تحول عنها فنزل البصرة وقال : « لا أسكن بلداً قتل فيه ابن بنت رسول الله (ص) » .

(الطبري – الطبقات الكبرى ٧ / ٦٩ – أسد الغابة ٢٠٨٧ – الإصابة ٦٣٨١ – الاستيعاب ٢ / ٤١٩ – فتوح البلدان) .

فتح الباب

وكان فتح الباب أيضاً عام ٢٢ هـ ، وهي التي يقال عنها أيضاً باب الأبواب ، وهي مدينة دربنـــد Derbent على الساحل الغربي لبحر قزوين من أرض أرمينيـا ، وهي تماماً على خط عرض ٤٢ شمالاً وتقع إلى الشرق قليلاً من خط طول ٤٨ شرقاً ، والمدينة من بناء كسرى أنو شروان وعلى ذلك فقد كانت في عصر الفتح مدينة جديدة واكتسبت اسمها من صفتها ، ذلك أنها بُنيت [١] على طرق في الجبل وأسكنها أنو شروان قوماً من جنـده .. ذكر الاصطخري [٢] صفة المدينة على ما كانت عليه نحو عام ٣٠٠ هـ فقال : « وأما باب الأبواب فإنها مدينة على البحر ، وفي وسطها مرسى للسفن وبين هـذا المرسى وبين البحر قد بُنِيَ على حافتي البحر سَدّان ، حتى ضاق مدخل السفن وجعل المدخل ملتوياً ، وعلى هذا الفم سلسلة ممدودة ولا يخرج المركب ولا يدخل إلا بأمر ، وهذان السدّان من صخر ورصاص [٣] ، وباب الأبواب على بحر طبرستان هي مدينـة

---

(١) قدامة بن جعفر ٢٥٩ .

(٢) المسالك والممالك ١٠٩ .

(٣) نشك في بناء سد من الرصاص .

وقد ذكر ابن خرداذبة أن الأبواب بنيت على أفواه شعاب في جبل القبق وأن فيهـا حصن وأن لها أبواباً ذكر منها ١٣ باباً منها باب صول وباب اللان وباب سمسخى.. (المسالك والممالك ١٢٢-١٢٤) .

تكون أكبر من أردبيل ، ولهم زروع كثيرة وثمار قليلة إلا ما يحمل إليهم من النواحي، وهي مدينة عليها سور من حجارة وآجرّ وطين، وهي فرضة (قلعة) بحر الخزر (قزوين) من السرير وسائر بلدان الكفر ، وهي أيضاً فرضة جرجان وطبرستان والديلم . ويرتفع منها ثيـــاب كتان ، وليس بالران وأرمينية وآذربيجان ثياب كتان إلا هناك ، وبها زعفران ، ويقع إليها رقيق من سائر دور الكفر ... » .

ولقـــد كانت الباب من موارد الدولة من حيث الإمداد الحربي ، فهي على حدودها الشمالية ، وكان عليها الحماية من تلك التخوم . ولقد مرّ بنا بعـد فرار فلول القادسية أن نخيرجان ترك قوة كبيرة عليها شهريار من دهـاقين الباب بين كوثي ودير كعب ، لعرقلة المسلمين في زحفهم نحو المدائن .

أعاد عمر إلى البصرة أبا موسى الأشعري، وبعث سراقة بن عمرو الأنصاري[1] إلى الباب ، وكان يقال له « ذا النور » . وحدّد عمر لسراقة تعبئة جيشه، فجعل على مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة [2] الباهلي ، وكان أيضاً يدعى « ذا النور » ،

---

(١) سراقة بن عمرو بن زيد بن عبد بن منـاة بن عامر بن عدي بن كعب بن الخزرج بن الحارث ابن الخزرج الأنصاري ، شهد أحداً وما بعدها ، وذكر بعضهم أنه استشهد يوم القادسية (الإصابة ٣١١٠ – أسد الغابة ١٩٥٢) .

(٢) عبد الرحمن بن ربيعة أدرك النبي (ص) ولم يسمع منه ولا روى عنه. ولقد مر بنا ذكره في القادسية إذ ولاه عمر القضاء وجعل إليه الأقباض وقسمة الفيء ، وكان من أبطال المسلمين بالقادسية . ولقد وجدناه بعد انهيار جيش رستم وقد حاولت بضع وثلاثون كتيبة منهم أن تصمد أن تصدى لهم بضع وثلاثون كتيبة من المسلمين ، فكان ابن هربذ أمام عبد الرحمن بن ربيعة فأباد عبد الرحمن جنده بخيله وقتل ابن هربذ . وهو عبد الرحمن بن ربيعة بن يزيد بن سهم بن عمرو بن ثعلبة بن غنم بن قتيبة بن معن بن مالك بن أعصر، نسبوا إلى أمهم باهلة بنت صعب بن سعد العشيرة ونسب ولد معن إليها ، وباهلة من قيس عيلان .

وجعل على الجناحين حذيفة بن أسيد الغفاري(١) وبكير بن عبدالله الليثي، وكان بكير قد سبق نحو الباب وقد اقترب منها قبل قدوم سراقة عليه، فكتب إليه عمر أن يلحق بسراقة بن عمرو وينضم إليه. كذلك جعل على الغنائم وقسمتها سلمان بن ربيعة الباهلي(٢).

(١) حذيفة بن أسيد بن خالد بن الأغور (أو الأنوس) بن واقعة (أو وقيعة) بن حرام بن غفار بن مليل. يكنى ابن أبا سريحة. شهد الحديبية وبايع تحت الشجرة وهي أول مشاهده مع النبي (ص). وقد روى عن أبي بكر الصديق ونزل الكوفة، كما روى عن أبي ذر الغفاري وعن علي. وروى عنه أبو الطفيل والشعبي والربيع بن عميلة وحبيب بن حماز وغيرهم. وأحاديثه في صحيح مسلم وعند أصحاب السنن. توفي بالكوفة سنة اثنتين وأربعين فصلى عليه زيد بن أرقم. (الإصابة ١٦٤٤ و ٥٠٦ كنى - الاستيعاب ١/ ٢٧٨، ٤/ ٩٧ - أسد الغابة ١١٠٨ و ٥٩٤٠).

(٢) أخ عبد الرحمن قائد المقدمة وكان عبد الرحمن أسنّ منه، مختلف في صحبته وقد ذكره البخاري في الصحابة، وكان يقال له سلمان الخيل ذلك أنه ولي أمر الخيول (الفرسان) أيام عمر، وهو أول من فرق بين الخيل العتاق الأصيلة والخيل الهجين المختلطة في العطاء، فقد اتخذ عمر في كل ناحية خيولاً على قدره من فائض مال بيت المال تكون احتياطاً للحوادث الطارئة، فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس وكان القيم عليها سلمان بن ربيعة، وهو أول من استقضى على الكوفة وكان رجلاً صالحاً يحج كل سنة. قال أبو وائل: «اختلفت إلى (ترددت على) سلمان بن ربيعة أربعين صباحاً فلم أجد عنده فيها خصماً». وحين نظم سعد جيش القادسية في شراف جعل سلمان على الفرسان. وقد شهد فتوح الشام مع أبي أمامة الباهلي ثم سكن العراق. وفي القادسية حاول بضع وثلاثون كتيبة من المجوس أن تصمد للمسلمين فتصدى لهم أمثالهم، وكان كناري قائد فرسان رستم أمام سلمان فقتله سلمان، وأبصرهم تحت راية لهم قد حفروا لها وقالوا: لا نبرح حتى نموت، فحمل عليهم وقتلهم. وكان سلمان حقاً فارس المسلمين بالقادسية، فكان يقال لسلمان: «أبصر بالمفاصل من الجازر بمفاصل الجزور». وهو الذي ولي قسمة الغنائم بالمدائن وبجلولاء. وفي ٢٤ هـ جاشت الروم فأمد عثمان أهل الشام بثمانية آلاف من العراق عليهم سلمان بن ربيعة، فدخلوا أرض الروم وشنوا الغارات وسبوا وافتتحوا الحصون. روي عنه أنه قال: «قتلت بسيفي هذا مائة مستلئم كلهم يعبد غير الله ما قتلت رجلاً منهم صبراً (سجيناً أو أسيراً)». روى عنه عدي بن عدي والصبي بن معبد وأبو وائل شقيق =

وبعث سراقة [1] أمامه عبد الرحمن بن ربيعة ثم خرج في أثره . فلما اجتازوا أرض آذربيجان وتقدموا نحو الباب التقوا ببكير بن عبدالله وتقدموا جميعاً على التعبئة المذكورة . كذلك بعث عمر إليهم بحبيب بن مسلمة مدداً من الجزيرة وجعل زياد بن حنظلة مكانه على الجزيرة . وكان ملك الباب يومئذ شهربراز ، وهو رجل من أهل فارس ، فلما اقترب عبد الرحمن كتب إليه شهربراز [2] يستأمنه على أن يأتيه ، فأجابه عبد الرحمن إلى ما طلب ، فجاء شهربراز وقال :

« إني بإزاء عدو كَلِب وأمم مختلفة ، لا ينسبون إلى أحساب ، وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يعين أمثال هؤلاء ، ولا يستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول ، وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان ، ولست من القبج في شيء ولا من الأرمن ، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي ، فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم و َميلي معكم وبارك الله لنا ولكم ، وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم » .

قال عبد الرحمن : « فوقي رجل قد أظلّك فسِرْ إليه » .

وبعث به إلى سراقة وعرض عليه ما عرضه على عبد الرحمن ، أن تكون قواته مع المسلمين في الدفاع عن تلك التخوم ضد الأمم التي وراءهم وأن يعفوا من الجزية . فقال سراقة :

= ابن سلمة وأبو ميسرة وأبو عثمان النهدي وسويد بن غفلة ، من كبار التابعين ، قتل في بلنجر من أرمينيا سنة ٢٨ أو ٢٩ أو ٣٠ أو ٣١ زمن عثمان .

(القادسية – الإصابة ٣٣٥٤ – الاستيعاب ٢ / ٥٩ – أسد الغابة ٢١٤٦ – سير أعلام النبلاء ٢ / ٧٧ – وانظر أيضاً الحاشية (٢) صفحة ٨٩ من هذا الكتاب) .

(١) الطبري ٤ / ١٥٥ س ش س .

(٢) كان من سلالة شهربراز الملك الذي أذل بني إسرائيل وأجلاهم عن الشام .

« قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هـذا ما دام عليه ، ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض [للدفاع] » .

فقَبِلَ شهربراز ذلك منه وصارت سُنـّة فيمن كان يحـارب العدو من المشركين ، فمَن استنفر منهم للحرب وضعت عنه الجزية ، فإنها إلى جوار كونها ضريبة سيادة فهي ضريبة دفاع .

وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك فأجـازه واستحسنه ، وطلب الأرمن من سراقة كتاباً بذلك فكتب لهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

١ – هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، شهربراز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان .

٢ – أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ومِلـّتهم ألاّ يضاروا ولا ينتقضوا .

٣ – وعلى أهل أرمينيـة والأبواب ، الطُرّاء منهم والتُنّاء [الرُحّل والمقيمين] ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالي صلاحاً .

٤ – على أن توضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر [التجنيد] والحشر عوض من جزائهم .

٥ – ومَن استغنى عنه منهم وقعـد فعليه مثل ما على أهل آذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوماً كاملاً ، فإنْ حشروا وضع ذلك عنهم ، وإنْ تركوا أخذوا به .

شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير بن عبدالله ..

وكتب مَرْضِيّ بن مُقَرّن وشهد » .

بعث سراقة بعد ذلك :

١ – بكير بن عبدالله إلى موقان .

٢ – حبيب بن مسلمة إلى تفليس .

٣ – حذيفة بن أسيد إلى جبال اللان .

٤ – سلمان بن ربيعة إلى وجه آخر (لم نقف على تحديده من المصادر) .

وكتب سراقة بالفتح وبالوجوه التي وجّه إليها هؤلاء القـادة إلى عمر بن الخطاب . فلما بلغ الكتـاب إلى عمر رأى أنه أمر لا يستتم من حيث أن تلك اللواءات لم تكن من القوة والمؤونة بحيث تفتح ما وجهت إليه ، وقد كان أعداؤهم في جند عظيم وكان شعب فارس في كل مكان آخر يعلـّق عليهم كل آماله وينتظر ما يصنعون ، فإن انتصروا في أرمينيا بعثوا الحرب في سواهـا ، وإنْ خسروا معركتها وضعوا أوزار الحرب .

فتح موقان

وهم كذلك ، توفي سراقة بن عمرو وقد استخلف عبد الرحمن بن ربيعة ، وقد مضى هؤلاء القواد بقواتهم إلى ما كلفوا به ، ولم يفتح أحد منهم ما وُجّه إليه فيما عدا بكير بن عبدالله فقد فضّ موقان ثم اتفقوا على الجزية ، وكتب لشعب موقان كتاباً بذلك :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

١ – هذا ما أعطى بكير بن عبدالله أهل موقان من جبال القبج ، الأمان على أموالهم وأنفسهم ومِلـّتهم وشرائعهم .

٢ – على الجزاء دينار على كل حالم [بالغ] أو قيمته .

٣ – والنصح [الإخلاص] .

٤ – ودلالة المسلم ونزله يومه وليلته .

٥ – فلهم الأمان ما أقرّوا ونصحوا ، وعلينا الوفاء ، والله المستعان .

٦ – فإنْ تركوا ذلك واستبان منهم غش فلا أمان لهم إلا أن يسلّموا الغشَشة برُمّتهم ، وإلا فهم متمالئون .

شهد الشماخ بن ضرار (١) ، والرسارس بن جنادب ، وحمَلة بن جُويّة

---

(١) الشماخ من فحول الشعراء المخضرمين ، مجيد في شعره من طبقة عالية يتساوى مع لبيد والنابغة وأخيه مزرد . مات أبوه وتركه وأخويه مزرد (وكان أسن من الشماخ) وجزء ، تركهم صبياناً فكانوا جميعاً شعراء . واسم الشماخ معقل بن ضرار بن حرملة بن سنان بن أمامة بن عمرو بن جحاش بن بجالة بن مازن بن ثعلبة بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث الغطفاني ، وأمه معاذة بنت بجير بن خلف بن إياس أنمارية من بنات الخرشب ويقال إنهن أنجب نساء العرب . ولقد قال الحطيئة في وصيته : « أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان » .

وكان شديد متون الشعر صحيح الكلام . ومما يتمثل به من قوله :

ليس بما ليس به بأس باس ... ولا يضر البر ما قال الناس

وكان من أوصف الناس للحمر والقوس.. وهو أحد من هجا عشيرته وهجا أضيافه ومنّ عليهم بالكرم . وقد هوى الشماخ امرأة اسمها كلبة بنت حوأل وغاب فتزوجها أخوه جزء فلم يكلمه بعدها وماتا متهاجرين .

أدرك الاسلام فأسلم وحسن إسلامه . وفي رواية أنه هو الذي قتل الحطم زعيم ردة البحرين. قدم الشماخ المدينة فلقيه عرابة بن أوس فسأله عما أقدمه فقال : أردت أن أمتار لأهلي ، وكان معه بعيران فحملها له عرابة بُراً وتمراً وكساء ، فخرج من المدينة وامتدحه بقصيدته المشهورة التي فيها :

رأيت عرابة الأوسي يسمو ... إلى الخيرات منقطع النظير
إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين

مر بنا ذكره في « القادسية » فكان من الفرسان الأبطال وكان من مقدمة سعد بقيادة زهرة ابن الحوية وكان في سرية بكير بن عبدالله الليثي التي أغارت على السيلحين فأسرت أخت مرزبان الحيرة من زفتها ، ويبدو أنه من يومها وهو يجاهد تحت قيادة بكير . وكان ممن كلفهم سعد يوم أرماث أن يخطبوا الناس ويحمسوهم قبل المعركة . وقد نشرت دار المعارف ديوانه وكتاباً عنه .

(الإصابة ١٩٢٤ و ٣٩١٨ و ٦٤٠٥ و ٧٩٢١ – أسد الغابة ٤٨٥١ – الأغاني ٣ – البخلاء ٢ / ١٣٤ – البيان والتبيين ٤ / ٣٤ – فتوح البلدان ٨١٨ – الطبري ٢ / ٥٠٥ – ٣ / ٤٩٣ و ٥٣٣ – ٤ / ١٥٧) .

[الكناني] [1] ، وكتب سنة إحدى وعشرين ، [2] .

وفي غزوة موقان توفي الشماخ الشاعر وأحد شهود الكتاب ، وفيها أيضاً قال بيته المشهور :

وغنيت عن خيل بموقان أسلمت بُكَيْرَ بني الشدّاخ فارسَ أطلال

* * *

(١) حملة بن جوية الكناني : ذكره ابن حجر فيمن أدرك النبي (ص) ولم يرد أنه رآه . (الإصابة ٢٠٠٨) . وهو أحد الذين بعثهم سعد بن أبي وقاص إلى يزدجرد ليدعوه إلى الاسلام (القادسية ٦٥) .

(٢) أورد الطبري هذه الوقائع من أحداث عام ٢٢ هـ ، ونذهب إلى أنه الأرجح .

غزو الترك

أقرّ عمر استخلاف سراقة لعبد الرحمن بن ربيعة على الباب وأمره بغزو الترك . فسار عبد الرحمن بجيشه حتى اجتاز الباب ، فقال له شهربراز : « ماذا تريد أن تصنع ؟ » قال : « أريد بلنجر » [1] .

قال : « إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب » .

قال : « لكنّا لا نرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم ، وتالله إن معنا لأقواماً لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغت بهم الروم » .

قال شهربراز : « وما هم ؟ »

قال عبد الرحمن : « أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الأمر بنية ، كانوا أصحاب حياء وتكرُّم في الجاهلية ، فازداد حياؤهم وتكرُّمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائماً لهم ولا يزال النصر معهم حتى يغيّرهم مَن يغلبهم ، وحتى يُلفَتوا عن حالهم بمن غيرهم » .

فغزا عبد الرحمن بلنجر في عهد عمر دون أن تُصاب قواته بأية خسائر حتى قال عنها الرواة إنها « غزاة لم تَئِم فيها امرأة ولم ييتم فيها صبي » . وأوغل عبد الرحمن في أرض الترك حتى بلغت خيله البيضاء على مسافة مائتي فرسخ من

(١) بناها كسرى أنو شروان . وبلنجر والبيضاء من مدن بحر قزوين (ابن خرداذبة ١٢٣ و ١٢٤) .

بلنجر [أكثر من ١١٠٠ كيلومتر] . وكانت العوامل النفسية من أسباب نجاح المسلمين في ذلك الغزو ، فكما رأينا كيف كانت نفسيات المسلمين على ما وصف عبد الرحمن لشهربراز ، كانت نفسيات الترك على النقيض . روى سلمان [١] بن ربيعة في ذلك فقال : « لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة حالَ الله بين الترك والخروج عليه ، وقالوا ما اجترأ علينا هـذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت . فتحصّنوا منه وهربوا . فرجع بالغنم والظفر . وذلك في إمارة عمر، ثم إنه غزاهم غزوات من زمن عثمان ، ظفر كما كان يظفر ... » .

ليس لدينـا خطوط واضحة لمسار عبد الرحمن في ذلك الغزو ، ولكن الذي يبدو لنـا أنه ساير بحر الخزر (قزوين) فدار حوله من جهة الشمال ، فإن بعض الروايات تعود بنا في مسار ذلك الجيش إلى جرجان ، وهي إلى الجنوب الشرقي لبحر قزوين .

ويمضي سلمان في روايته التي بدأناها فيقول :

« ... حتى إذا تبدّل أهل الكوفة لاستعمال عثمان من كان ارتدّ ، فغزاهم بعد ذلك ، تذامرت الترك وقال بعضهم لبعض : إنهم (المسلمون) لا يموتون ! قال : انظروا ، وفعلوا فاختفوا لهم في الغيـاض ، فرمى رجلٌ منهم رجلاً من المسلمين على غرّة فقتله وهرب عنه أصحابه ، فخرجوا عليه عند ذلك ، فاقتتلوا فاشتدّ قتالهم » . وقاتل عبد الرحمن حتى قُتل وانكشف الناس وأخـذ الراية سلمان بن ربيعة وخرج بالناس ومعه أبو هريرة الدوسي على جيلان فقطعوها إلى جرجان،وقد أثبتت هذه الحادثة للترك أن وهمهم الأول كان خاطئاً وأن المسلمين بشر يموتون كما يموت البشر فاجترأوا بعدها . ولم يمنعهم ذلك من اتخـاذ جسد عبدالرحمن وتعظيمه فهم يستسقون به [يقول الطبري حتى الآن ـ يعني عصره].

---

(١) الطبري ٤ / ١٠٨ س ش س عن الغصن بن القاسم عن رجل عن سلمان بن ربيعة .



الباب الثامن

انسياح من البصرة

جيوش البصرة

لعلنا لاحظنا أن جيوش الكوفة قد اختصت بغزو أقاليم الشمال والشمال الغربي للدولة ، أما الشرق والجنوب الشرقي فقد كان من نصيب جيوش البصرة التي كانت كالآتي :

١ – مجاشع بن مسعود السلمي إلى أردشير خرة وسابور .

٢ – سارية بن زنيم الكناني إلى فسا ودرابجرد .

٣ – عثمان بن أبي العاص – من البحرين – إلى إصطخر .

هذه الجيوش الثلاثة اقتسمت فتح إقليم فارس .

٤ – سهيل بن عدي الأنصاري ، وعبدالله بن عبدالله بن عتبان الأنصاري مدد له من أصبهان إلى كرمان .

٥ – عاصم بن عمرو التميمي إلى سجستان .

٦ – الحَكَم بن عمرو التغلبي ومعه شهاب بن مخارق وسهيل بن عدي وابن عتبان أمداد له إلى مكران .

٧ – الأحنف بن قيس في أثر يزدجرد إلى خراسان .

فتح فارس

وضح لنا مما سبق من دراسة ابتداء من «الطريق إلى المدائن» إلى «القادسية» ثم إلى هذا الكتاب ، أن هذه البلاد التي يغزوها المسلمون ويقتطعون منها قطعة بعد قطعة ، لم تكن دولة بالمعنى البسيط وإنما كانت امبراطورية تضم دويلات أو ولايات تخضع للحكم الفارسي . ونزيد الأمر إيضاحاً فنقول : إن فارس كانت هي الدولة التي قام فيها ملك بني ساسان ثم ضمّت إليها ما جاورها مما ورد ذكره في هذه الفتوح .. الأهواز والعراق والجزيرة وآذربيجان وأرمينية والجبال والري وطبرستان وكرمان وسجستان وخراسان . وبذلك كان مَلِكُ فارس يلقب بملك الملوك [شاهنشاه] .

والآن – في عام ٢٣ هـ = ٦٤٤ م – تتجه جيوش المسلمين نحو أصل هذه الامبراطورية ... إلى أرض فارس بأقاليمها ... إلى أرض الشعب الذي حكَمَ الشعوب المجاورة أربعة قرون . ولقد كانت فارس بحكم طبيعتها الجبلية وبحكم ما تركّز فيها من قلاع واستحكامات ، من أحصن البلاد التي تعرّضت لغزو المسلمين . يقول الاصطخري [١] : « وأما القلاع بها فإنه يقال فيما بلغني أن لفارس زيادة على خمسة آلاف قلعة مفردة في الجبال وبقرب المدن وفي المدن ، ولا يتهيأ تقصّيها إلا من الدواوين ، وكذلك ما ذكرناه من المدن المحصّنة فإني

(١) المسالك والممالك ٧٣ .

لا أقدر على تقصّيها ... » . ولقد كانت فارس خمسة أقــاليم أو كُوَر كما كانوا يسمونها :

١ - أرّجان ، وهو أولها من جهة الأهواز وكان ثالث أقاليم فارس من حيث الاتساع بعد إصطخر وأردشيرخرة ، وكانت عاصمته مدينة أرجان ويقال عنها أيضاً أرغان وهي على نهر طاب ، وربما كانت مكان مدينة بهبهان اليوم أو قريبة منها .

٢ - أردشيرخرة على ساحل الخليج قريبــاً من البصرة ، وكانت عاصمتها مدينة جور التي بناها أردشير فكانت دار مُلكه وكان لجور حصن ، وقد تغير اسمها بعد ذلك إلى فيروز أباد في عهد عضد الدولة البويهي وإلى الآن. ومن مدن هذا الإقليم شيراز ، غير أن شيراز مُحْدَثة في العصر الاسلامي ولم تكن في عصر الفتح . ومن حيث الاتساع فأردشيرخرة ثاني أقاليم فارس بعد إصطخر .

٣ - درابجرد وفسا ، وعاصمتها مدينـــة درابجرد المنسوبة إلى الملك دارا الذي ابتناها وكان لها حصن ، ولكن فسا كانت أكبر منها وأكثر عمراناً وكان لها حصن أيضاً .

٤ - إصطخر ، وكانت أوسع كُوَر فارس وأكثرها مدناً ونواحي .

٥ - سابور ، وهي أصغر كور فارس وتشتهر باسم شهرستان ، وعاصمتها سابور نسبة إلى الملك سابور الذي بناها وكان لها سور .

وتحركت اللواءات التي بعثها عمر بن الخطاب من قاعدة البصرة إلى وجهاتها وأهدافها . كانت القوات الفارسية محتشدة في تَوّج [1] . لقــد اتجه العلاء بن الحضرمي إلى غزوها جرأً من قبل دون إذن عمر في تلك الحمـلة التي لم تكلّل بالنجاح ، وكان نجاحها أن تمكّن المسلمون من إنقاذها بعـد أن تحطمت سفنها وحُصرت بأرض فارس.. ذكرناها من قبل بالباب الخامس تحت عنوان « عملية

(١) الطبري ٤ / ١٧٤ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو .

خريطة (١٩) فتوح فارس

طاوس » . في توج ذلك المكان الساحلي احتشدت قوات فارس في انتظار التحرك الاسلامي . ونهج المسلمون نهجاً مغـــايراً لما اعتاده الفرس منهم من قبل ... لم يوجهوا جيوشهم نحو تـوّج ! وإنمـا سار كل جيش من جيوشهم إلى وجهته تاركين حشود الفرس فيها . فكانت كالآتي :

١ – مجاشع بن مسعود إلى أردشير خرة وسابور .

٢ – عثمان بن أبي العاص إلى إصطخر .

٣ – سارية بن زنيم الكناني إلى فسا ودرابجرد .

أما إقليم أرجان فقد كان في طريقهم جميعاً ، ويبدو أنهم قد اجتازوه جميعاً دون لقاءات أو معـارك . وفي رواية [١] أن أبا موسى الأشعري وعثمان بن أبي العاص فتحا أرّجان صلحاً على الجزية والخراج .

* * *

(١) فتوح البلدان ٥٠٦ .

فتح توج

وبلغت تلك الأخبار إلى القوات الفارسية في تَوّج فكان لهـا أثرها الطبيعي ... انفضَّ تجمُّعهم واتجهت كل وحـدة من وحـداتهم إلى مواطنها لتذود عنه .. تماماً كما حدث في بُرْس بعـد القادسية حين وجّه عمر عتبة بن غزوان إلى الأبلة ، فأجبر هرمزان أن يتخلى عن معركة المدائن واتجه بجند الأهواز ومهرجانقذق إلى الأهواز ليحمي دياره . والآن يحدث نفس الشيء ، فكان ذلك أول هزيمة الفرس وبه تفرّقت جوعهم وتشتتت حشودهم وتشاءموا هم أنفسهم بذلك ، وكما نعلم إنهم كانوا أهل تشاؤم وتفاؤل وكان ذلك يؤثر في معنوياتهم وسلوكهم الأثر كله. من تلك الألوية التي اتخذت سُبلها في أرض فارس كان مجاشع بن مسعود السلمي يسير بلوائه نحو إقليمي سابور وأردشيرخرة ، والتقى في توج بمن بقي بها من الفرس .. ولا تسعفنا الروايات هنا بتفاصيل تلك المعركة ، وإنمـا تقول الرواية المقتضبة : « فاقتتلوا ما شاء الله ، ثم إن الله عز وجل هزم أهل توج للمسلمين وسلّط عليهم المسلمين فقتلوهم كل قتلة ، وبلغوا منهم ما شاؤوا ، وَغنّمهم ما في عسكرهم فحووه ، وهـذه توج الآخرة ، ولم يكن لها بعدُ شوكة... ثم دعوا إلى الجزية والذمة ، فراجعوا وأقروا ، وخمّس مجاشع الغنائم وبعث بها ، ووَفّد وفداً . وقـد كانت البشراء والوفود يجازون وُتقضى لهم حوائجهم لسُنّة جرت بذلك من رسول الله ﷺ » .

أمانة

عن عاصم بن كليب عن أبيه قال[1] :

« خرجنا مع مجاشع بن مسعود غازين توج، فحاصرناهم وقاتلناهم ما شاء الله، فلما افتتحناها وحوَيْنا نهْبَها نهْباً كثيراً ، وقتلنا قتلى عظيمة ، وكان عليّ قميص قد تخرّق ، فأخذت إبرة وسلكاً وجعلت أخيط قميصي بها . ثم نظرت إلى رجل في القتلى عليه قميص فنزعته، فأتيت به الماء فجعلت أضربه بين حجرين حتى ذهب ما فيه فلبسته ، فلما جمعت الرثة ، قام مجاشع خطيباً فحمد الله وأثنى عليه فقال : أيها الناس لا تغلوا ، فإنه مَن غلّ جاء بما غلّ يوم القيامة . ردّوا ولو المخيط . فلما سمعت ذلك نزعت القميص فألقيته في الأخماس » .

حملة بحرية

وكان عثمان بن أبي العاص الثقفي عامل عمر على البحرين بعد العلاء بن الحضرمي. ومن البحرين بعث عثمان أخاه الحكمَ في البحر في جيش كبير من عبد القيس والأزد وتميم وبني ناجية وغيرهم ، فغزا جزيرة ابركاوان ومنها اتجه إلى توج في أرض أردشيرخرة [ومعناها بهاء أردشير][2] . وفي رواية أن عثمان بنفسه كان على رأس تلك الحملة وأنه نزل توج وبنى بها المساجد وجعلها داراً للمسلمين وأسكنها بني عبد القيس وغيرهم ، فكان يُغير منها على أرجان وهي متاخمة لها . ولقد مرّ بنا أن فتح توج قد قام به مجاشع بن مسعود السلمي بَرّاً من البصرة ، ومعنى هذا أن المسلمين غزوا أردشيرخرة براً وبحراً. وتختلف الروايات في تحديد تاريخ ذلك ، فبعضهم يجعلها عام ١٩ هـ ، وبعضهم يجعلها من أحداث عام ٢٣ هـ . ونذهب إلى أن خلطاً وقع في الروايات وأن ما ذكر على أنه وقع عام ١٩ هـ إنما كان ينصرف إلى عملية طاوس .

---

(١) الطبري ٤ / ١٧٥ س ش س عن محمد بن سوقة عن عاصم بن كليب عن أبيه .

(٢) فتوح البلدان ٤٥٤ .

فتح اصطخر

مدينة اصطخر

جاء بدائرة المعارف الإسلامية أن مدينة اصطخر كانت أهم مدن الإقليم بل كانت هي مدينة فارس ، تقع على خط عرض ٢٩° ٥٠َ شمالاً وخط طول ٥٣° شرقاً في وادي بُلْوَر أو مُرْغاب الضيق [ويسمى أيضاً وادي سيوندرود] الذي لا يلبث أن يدخل في الأراضي الخصبة ، وهو الآن وادي مَرْوْدَشت الذي تغمر المياه بعض أجزائه .

كانت اصطخر مقرّ الزعماء الوطنيين قبل اضمحلال دولة الاشكانيين بعشرات السنين ، كما يعتبر إقليم اصطخر أيضاً موطن الساسانيين ، وكان ساسان جد أردشير الأول سادناً لبيت نار الآلهة أناهيذ في اصطخر ، وهو المعبد الذي يقال إن نيرانه انطفأت فجأة ليلة وُلِدَ رسولُ الله ﷺ. واستمرت اصطخر مركزاً دينياً بعد قيام الدولة الساسانية ، وكان ملوكهم يلقون رؤوس أعدائهم ومن بينهم شهداء النصارى في هذه المدينة التي اعتبرت العاصمة الرسمية للدولة وإنْ ظلّت طيسفون [المدائن] هي العاصمة الحقيقية ، وذلك بسبب أن إقليم فارس البعيد كان يصعب الوصول إليه ولا يصلح كثيراً لأن يكون مركزاً مناسباً لدولة قوية . ويبدو أن البيزنطيين لم يعرفوا شيئاً عن اصطخر ، بل كانوا يظنون

طيسفون هي العاصمة الوحيدة للساسانيين . ولم يكن لإصطخر شأن في التاريخ فلم تُذكَر إلا من حين لآخر .

وبعد أن فتح المسلمون العراق غزوا إقليم فارس وقاوم سكان اصطخر بصفة خاصة مقاومة عنيفة . وكانت محاولة العلاء بن الحضرمي والي البحرين عام ١٩ هـ للاستيلاء على اصطخر هي أولى المحاولات ، ولكنها فشلت لقلة قواته ولتصرُّفه دون أمر عمر ، فحصرت قواته حتى تحرّك جيش البصرة لإنقـــاذه وَمكّن جيش العلاء من الانسحاب إلى البصرة بعـد أن تحطمت سفنه . ولم تقع اصطخر في أيدي المسلمين إلا عام ٢٣ هـ على يدي أبي موسى الأشعري وعثمان بن أبي العاص. ثم سار سكانها وقتـلوا واليها العربي وتمكّن والي البصرة عبدالله بن عامر من إخضاعها مرة أخرى بعـد قتل عدد كبير من الفرس في ٢٨ أو ٢٩ هـ . وظلّت لإصطخر أهميتها حتى بُنيت شيراز عام ٦٤ هـ على مسيرة يوم إلى الجنوب منها . ومنـذ القرن الثالث الهجري – التاسع الميلادي – اضمحلّت اصطخر بشكل محسوس . وقـــد وصفها الاصطخري في القرن الرابع الهجري فكانت تشغل مساحة ميل عربي مربع وكانت أسوارها مهدّمة ...

وقد كانت بعض نقود الساسانيين تُسَكّ في اصطخر ، وظلت تسك بها حتى عام ٧٠ هـ . ويبلغ محيط أطلال اصطخر حالياً ثمانية أو تسعة كيلومترات يقسمها وادي بُلْوَر – وهو قناة صغيرة – إلى قسمين متساويين تقريباً ، ويبـدو أن أهم أجزائها هو الذي قــامت فيه قرية حاجي آباد . وفي جنوب اصطخر على مرحلة ساعة منها على الشاطىء الجنوبي لنهر بلوَر يوجد تخت [عرش] جمشيد ، كما يوجـد بشمالها بحوالي كيلومترين نقش رستم على الشاطىء الشمالي لهذا النهر ، وهما من أهم الآثار الساسانية .

ويوجد على مسيرة ثلاث أو أربع ساعات إلى الشمال الغربي من اصطخر ثلاث حصون مُقامة على رؤوس الجبال الصخرية ، وبين كل واحد منها والآخر ما بين كيلومترين وثلاثة كيلومترات . وهـذه الحصون الثلاثة تقع على خط مستقيم ،

وتسمى جميعاً قلعة أو « كُـوَّة اصطخر » ومعناه جبل اصطخر ... وأشهر الحصون الثلاثة لقلعة اصطخر ميان قلعة أي الحصن الأوسط .. وكانت هذه الحصون المنيعة تُعَدّ مراكز حربية هامة تسيطر على الأقاليم المجاورة . وقد كان ولاة إقليم فارس في عهد الخلفاء يقيمون غالباً في هذا الحصن لسهولة الدفاع عنه لمناعة موقعه ، وقد صمد فيه زياد بن أبيه طويلاً لمعاوية بعد وفاة علي . وكانت هناك بركة طبيعية كبيرة بهذه المنطقة تكفي لشرب سكانها . وكان الحصن يقوم على هضبة قطرها ٣٠٠ ياردة وترتفع ١٣٠٠ قدم عن سطح البحر . وقد بقي حتى اليوم من التحصينات القديمة الأسوار القوية التي شيدت من صميم الصخر [انتهى ما أخذناه عن دائرة المعارف الإسلامية] .

سقوط اصطخر

هبطت الحملة البحرية التي بعث بها عمر من البحرين وقوامها قبائل عبد قيس من ربيعة بقيادة عثمان بن أبي العاص الثقفي ، سواحل أردشيرخرة وسار عثمان بجملته متجهاً نحو اصطخر فالتقى بجيشها في جور وأوقع به هزيمة فادحة حتى صار بين قتيل وشريد هارب . ثم خضع الهربذ [رجل الدين للاقليم] وكل مَن هرب على أداء الجزية والدخول في ذمة المسلمين، وذلك بعد أن راسلهم عثمان على ذلك . وجمع عثمان الغنائم ففرّقها على الجند، ويذكر الرواة عنهم أنهم عَفّوا عن النهاب وأدّوا الأمانة واستدقوا الدنيا [استصغروها] ، فبعث الأخماس إلى عمر وخطب في جنده (١) فقال : « إن هذا الأمر لا يزال مقبلاً ولا يزال أهله معافين مما يكرهون ما لم يَغلّوا ، فإذا غلوا رأوا ما ينكرون ولم يسدّ الكثير مَسَدّ القليل اليوم . إن الله إذا أراد بقوم خيراً كفّهم ووفّر

(١) الطبري ٤ / ١٧٥ س ش س عن محمد بن سوقة عن عاصم بن كليب عن أبيه .
« ٤ / ١٧٦ « « « « أبي سفيان عن الحسن .

أمانتهم فاحفظوها ، فإن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ،فإذا فقدتموها جدّد لكم في كل يوم فقدان شيء من أموركم » .

وكان شهرك هو قائد الفرس في تلك الموقعة وقد قُتل فيها .

وتختلف الروايات بعض الشيء عن بعضها في تفاصيل الوقـــائع وفي تحديد أوقاتها ، ونرى أن السبب هنا هو تداخل الروايات مع ما كان من حملة العلاء بن الحضرمي في عملية طاوس .

* * *

فتح فسا ودرابجرد

(من فــــارس)

وكانت وجهة سارية بن زنيم الكناني الدؤلي إلى فسا ودرابجرد،فسار إليها[١] حتى انتهى إلى عسكرهم فنزل عليهم وحاصرهم فطلبوا المدد ممن وراءهم فجاءتهم أمداد من الشمال من أكراد فارس وجاؤوه من كل جانب ، ووجد المسلمون أنفسهم أمام أمر عظيم وحشد كبير . وفي المدينـــة حدث أمر عجيب ذكرته سلاسل متعددة من الرواة أثار كثيراً من تعليقات المعلقين عن الإحساس عن بُعـــد ، ذلك أن عمر بن الخطاب كان نائماً فرأى في منامه موقف جيش سارية بصحراء إن أقـاموا فيها أحيط بهم وإن لجأوا إلى جبل من خلفهم استطاعوا أن يسندوا إليه ظهرهم فيواجهوا عدوّهم من وجه واحـــد ، كما رأى عمر ما يواجه المسلمون من أعداد غفيرة من الفرس ، وذلك في ساعة معينة من النهار. فلمـا كان من غده نادى : « الصلاة جامعة » ، فاجتمع المسلمون بالمسجد ، حتى إذا كان بالساعة التي أريها في منامه خرج عمر إليهم فقال :

« يا أيها الناس ، إني رأيت هذين الجمعين » [وأخبر المسلمين بمـــا رأى من

---

(١) الطبري ٤ / ١٧٨ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو .
« « « « « « « أبي عمر دثار بن أبي مشبيب عن أبي عثمان وأبي عمرو بن العلاء عن رجل من بني مازن .

حالها] ، وانفعل عمر في حـــديثه فصاح وهو يتحدث : « يا سارية الجبل ، الجبل ! » ثم قــال : « إن لله جنوداً ولعل بعضها أن يبلغهم » . وبعضهم يروي أن ذلك كان وعمر يخطب الجمعة ، في نفس تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل ، وقاتلوا عدوَّهم من وجه واحد فكُتِبَ لهم النصر ، وكتبوا بذلك إلى عمر . لا تسعفنا المصادر هنـا بتبيان ذلك الجبل ولا البلد التي فتحها سارية في تلك الموقعة .

وأصاب المسلمون مغـــانم كان فيها سفط فيه جوهر ، فاستوهبه سارية من المسلمين إلى عمر فوهبوه له . فبعث به وبأخبـار الفتح مع رجل [1] ، وكما مرَّ بنا أن رُسل ووفود البشارات كانوا يجازون وتُقضى لهم حوائجهم . فقـــال سارية لذلك الرسول : « استقرض ما تبلغ به وما تخلفه لأهلك على جائزتك » . وَقَدِمَ الرجلُ البصرة فاقترض على أن يسدِّد قرضه من جائزته المرتقبـة ، ثم قدم المدينة على عمر فوجده يطعم الناس ومعه عصاه التي يزجر بهـــا بعيره كما يصنع الراعي ويدور على القصاع يقول : يا يرفأ زِدْ هؤلاء لحماً ، زد هؤلاء خبزاً زد هؤلاء مرقة ، فقصد له ولم يفاتحه فيما جـاء به حتى يفرغ مما هو فيه ، فأقبل عليه عمر وبيده عصاه فقال : « اجلس » ، فجلس في أدنى الناس . يقول سلمة : « فإذا طعام فيه خشونة ، طعامي الذي معي أطيب منه » ، حتى إذا أكل القوم قال عمر : « يا يرفأ ارفع قصاعك ثم أدبر » ، وانصرف عمر فقام الرسول يتبعه حتى باب داره ، فظنَّ عمر أن الرجل لم يشبع فأدخله داره ، فلما جلس جيء لعمر بغذائه وكان خبزاً وزيتاً وملح جريش لم يُدَقّ ، وخاطب عمر امرأته وهي في حجاب بيتها فقال : « يا أم كلثوم .. ألا تخرجين يا هـذه فتأكلين ؟ »

---

(1) في رواية أخرى أوردها الطبري ٤ / ١٧٨ - ١٩٠ : عن عبدالله بن كثير العبـدي عن جعفر بن عون عن أبي جنـاب عن أبي المجل الرديني عن مخلد البكري وعلقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة أن هـذا الرجل كان من جند سلمة بن قيس الأشجعي ، غير أنه ذكر القصة في موضع آخر هو قتال كان بين سلمة وبين الأكراد . والروايات على هذا الذي أخذنا به أكثر .

قالت : « إني لأسمع عندك حس رجل »، قال : « نعم ولا أراه من أهل البلد »، قالت : « لو أردتَ أن أبرز للرجال اشتريتَ لي غير هـذه الكسوة ولكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته وكما كسا الزبير امرأته وكما كسا طلحة امرأته »، فقال : « أوَما ترضين أن يقال أم كلثوم بنت علي وامرأة أمير المؤمنين عمر ؟»، قالت : « ما أقل غناء ذلك عني ! » فترك عمر حديثها والتفت للرجل وقال له : « ادْنُ فلو كانت راضية لكان أطيب مما ترى » . فأكلا حتى إذا فرغ عرّفه بنفسه ، فقال : « رسول سارية بن زنيم يا أمير المؤمنين » .

قال عمر : « مرحباً وأهلاً » . ثم أدناه حتى مَسّت ركبته ركبته ، وراح كعادته يسأله عن أحوال المسلمين وعن سارية ، فأخبره الرجل .. وذكر له : « سمعنا يا سارية الجبل ، وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا » .

قال عمر : « حدثني عن المهاجرين كيف هم ؟ » قال : « هم يا أمير المؤمنين كما تحب من السلامة والظفر على عدوّهم » ، قال : « كيف أسعارهم ؟ » قال : « أرخص أسعار » ، قال : « كيف اللحم فيهم فإنهـا شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا بشجرتها » ، قـال : « البقرة فيهم بكذا والشاة فيهم بكذا يا أمير المؤمنين ... الخ » . ثم ذكر له قصة السفط الذي جاء له به ، فنظر إليه عمر فلما رأى ما به من فصوص حمر وصفر وخضر انتفض قـائماً ثم جعل يده في خاصرته ثم صاح به : « لا ولا كرامة حتى تقدم على ذلك الجند فتقسمه بينهم. لا أشبع الله إذاً بطن عمر » ، وطرده عمر فظنّ نساء البيت أن الرسول يريد أن يغتـال عمر ، فجئنَ إلى الستر ينظرنَ من ورائها . فقال عمر : « كف ما جئتَ به ؟ يا يرفأ َجأ عنقه ! » .

يقول الرجل : « فأنا أصلح سفطي وهو يجأ عنقي » .

قال الرجل : « يا أمير المؤمنين إني قد أنضيت إبلي واستقرضت في جائزتي، فأعطني ما أتبلـّغ به... » وما زال به حتى أبدله بعيراً ببعيره من إبل الصدقة وأخذ بعيره فأدخله ، وقال عمر : « أما والله لئنْ تفرّق المسلمون في مشاتيهم

قبل أن يُقسم هــذا فيهم لأفعلنّ بك وبصاحبك الفاقرة ». ورجع الرسول مغضوباً عليه محروماً حتى قَدِمَ البصرة.

هذه المعارك

بذلك تمّ فتح أرض فارس أمّ الامبراطورية الساسانية.

والآن يحقّ لنا أن نتساءل: أهكذا تكون معركة فارس؟

لقد كانت جميع عملياتها معارك صغيرة إذا ما قيست بسابقاتها، فلم نجــد معركة في حجم البويب أو القادسية أو جلولاء أو نهاوند.. إلخ. ثم أين ذهبت الخمسة آلاف قلعة والمدن المحصّنة التي ذكر الاصطخري وجودها؟ ولماذا لم نشهد مقاومتها؟ نعم، لقد انتقضت بعض تلك الجهات في أول عهد عثمان فأعادها إلى طاعة المسلمين، ولكننا نتناول الآن عملية الفتح ذاتها فيستوقف نظرنا هــذا الضعف والتهــافت.. لا ريب أن امبراطورية بني ساسان كانت تترنح من أثر اللكمات كالملاكم الذي تصيبه ضربات قاضية تلقيه أرضاً، فإذا ما حاول القيــام عاد فسقط من تلقاء نفسه.

* * *

فتح كرمان

تقع كرمان إلى الشرق من فارس وإلى الجنوب من صحراء خراسان وسجستان وحدّها الجنوبي بحر فارس . وقد وجّه عمر إلى كرمان سهيل بن عدي الأنصاري الخزرجي من مجموعة جيوش البصرة . فكان على مقدمته النسير ابن عمرو العجلي ، وكان عبدالله بن عبدالله بن عتبان قد فرغ من فتح أصبهان فبعثه عمر مدداً لسهيل،وإذ يبعث عمر عبدالله مدداً لسهيل لا يغيب عن أذهاننا أن سهيلاً وعبدالله قد عملا معاً قبل ذلك في فتوح الجزيرة [1] تحت قيادة عياض، كان كل منهما يقود لواء ، سهيل إلى الرقة وابن عتبان إلى نصيبين ، ثم سارا معاً إلى حرّان . والآن يعود القائدان المتعارفان إلى العمل معاً في فتح ذلك الإقليم النائي .

لم يكن أهل كرمان يجهلون ما أحرز المسلمون من انتصارات حتى بلغوا أرضهم ، ولا شك أنه كان لذلك أثره النفسي عليهم ، وقد ضاعف هذا الأثر أن عثمان بن أبي العاص الثقفي حين خرج بحملته البحرية من البحرين إلى تـوّج أن مرّ بجزيرة أبركاوان [2] [أو ابن كاوان] بالقرب من الساحل ، وتبعد عن هرموز بمقدار سبعة فراسخ [3] ، وكان بها مرزبان كرمان في غير قواته فقتله

(١) يرجع إلى فتح الجزيرة .
(٢) فتوح البلدان ٩٦٨ .
(٣) المسالك والممالك لابن خرداذبة ٦٢ .

عثمان فوهن ذلك قلوب شعبه . علم أهل كرمان بزحف المسلمين إليهم ولا بد أنهم كانوا يتوقعونه ، فاستعانوا بعناصر من جبال القفس بجنوب كرمان فأعانوهم .. يقول عنها الاصطخري [1] في القرن الرابع الهجري : « ... ويقال إنها سبعة أجبل وبها نخيل كثير وخصب من زرع وضرع ، وهي جبال منيعة ولكل جبل رئيس ، وهم ممتنعون وللسلطان عليهم جراية يستكفهم بها ، وهم مع ذلك يقطعون الطريق في عامة كرمان إلى مفازة سجستان وإلى حدّ فارس ، وهم رَجّالة لا دواب لهم ! والغالب على خلقتهم النحافة والسمرة وتمام الخلق ... ».

والتقى النسير بهذا الحشد عند أول حدود إقليمهم فهزمهم وقتل مرزبانهم [2]، وسار سهيل بن عدي من طريق القرى [3] إلى جيرفت ، في حين تقدم عبدالله بن عبدالله من مفازة [صحراء] شير . وكانت غنائمهم عظيمة من الإبل والغنم .

ويبدو أن فتح كرمان لم يكن تاماً ، إذ إننا نجد أخباراً أخرى بأن عبدالله ابن عامر لما توجّه لفتح خراسان عام ٣٠ هـ ولى [4] مجاشع بن مسعود السلمي كرمان ، ففتح بيمند عنوة وأعطى أماناً لأهلها . ويذكر البلاذري أن بها قصر يُعرف بقصر مجاشع كأنما هو علامة على صدق هذه الرواية . وتمضي الرواية بأن مجاشع فتح بروخرة (لم نستدل على موقعها) ثم حاصر سيرجان [أو شيرجان] وأهلها متحصنون فيها ، ثم خرجت إليه فرسانهم فقاتلهم وغلبهم وفتحها عنوة فجلا عنها أكثر أهلها .

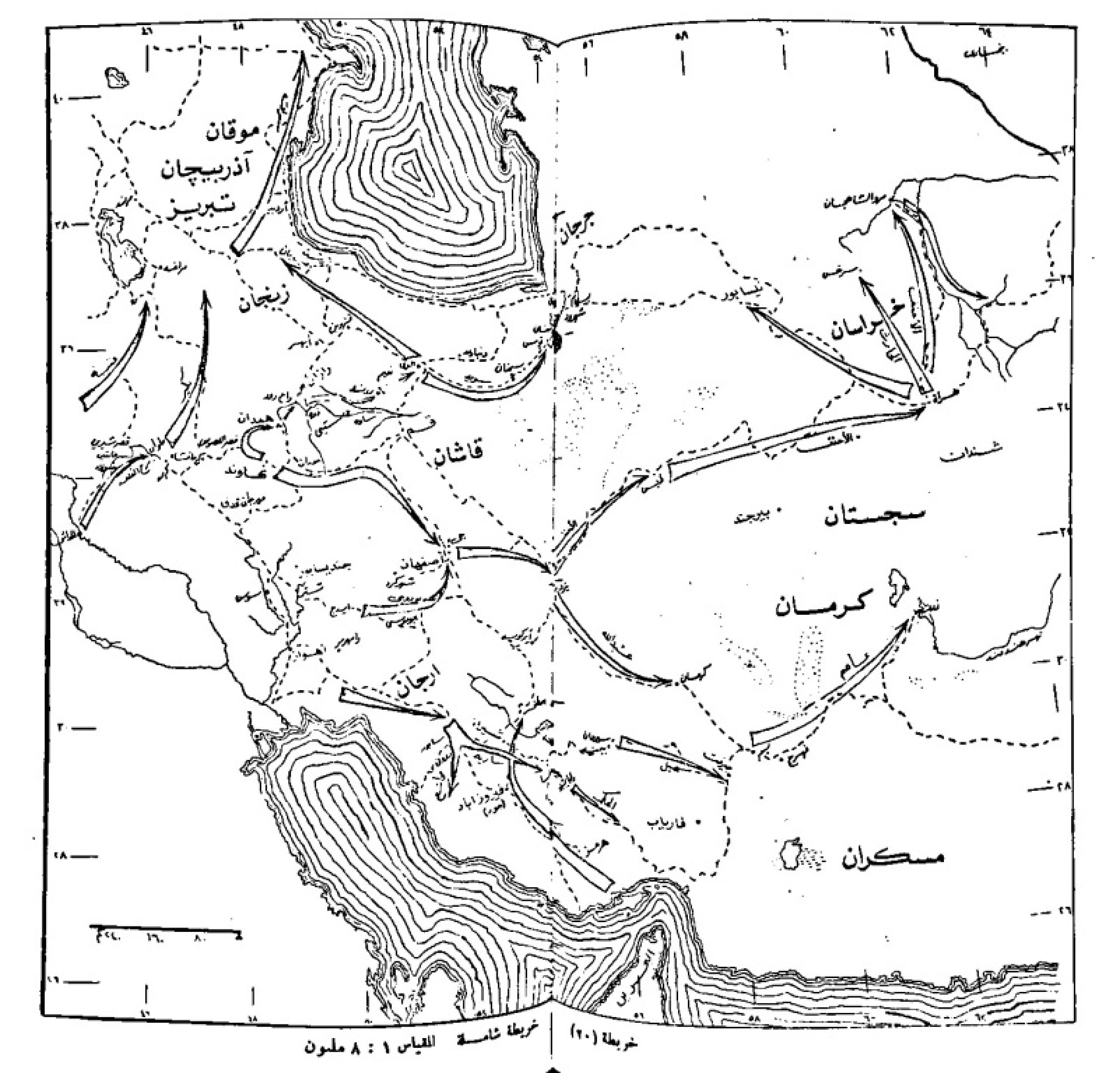
---

(١) المسالك والممالك ٩٨ .

(٢) الطبري ٤ / ١٨٠ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو .

(٣) لم نستطع التأكد بشكل قاطع من هذا الطريق .

(٤) فتوح البلدان ٩٦٨ .



خريطة (٢٠) — خريطة شاملة — المقياس ١ : ٨ مليون

فتح سجستان

يذهب رواة الطبري [١] إلى أن عاصم بن عمرو التميمي سار على رأس لوائه إلى سِجِسْتان ولحق به عبدالله بن عمير الأشجعي [من غطفان] فالتقوا بجيش سجستان على أول حدودهم في معركة هزموهم فيها ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزَرَنْج ومخروا أرض سجستان ما شاؤوا ، ثم طلب أهل سجستان الصلح على زرنج وما احتازوا من أرض فأجابهم عاصم ، واشترطوا في صلحهم أن تكون زراعاتهم حمى لهم لا يمسّه المسلمون ، فكان المسلمون إذا ساروا فيها حذروا خشية أن يصيبوا منها شيئاً فيلتزموا به . يقول الرواة : « فتمّ أهل سجستان على الخراج والمسلمون على الاعطاء ، فكانت سجستان أعظم من خراسان وأبعد فروجاً ، يقاتلون القُنْدُهار والترك وأمماً كثيرة . وكانت فيما بين السند إلى نهر بلخ بحياله ، فلم تزل أعظم البلدين وأصعب الفرجين وأكثرهما عدداً وجنداً حتى زمان معاوية ... » .

وفي الواقع إنها رواية جد مقتضبة عن فتح قطر كبير يشغل الآن أجزاء من إيران ومن أفغانستان. وللبلاذري [٢] رواية أخرى تختلف عن هذه في جوهرها وتفصيلها ، ومفـــادها أن الذي فتح سجستان هو الربيع بن زياد بن أنس بن

---

(١) الطبري ٤ / ١٨٠ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو .

(٢) فتوح البلدان ٩٧٠ ، ٩٧١ .

الديان الحارثي بتكليف من عبدالله بن عامر بن كريز حين توجّه إلى خراسان سنة ٣٠ هـ ، وأنه سار حتى نزل الفهرج ثم قطع خمسة وسبعين فرسخاً في المفازة ثم أتى حصن زالق قبل سجستان بخمسة فراسخ ومنها إلى قرية كَرْكُوَيه على خمسة أميال من زالق ، ثم نزل رستاق هيسون ثم أخذ الأدلاء إلى زرنج فسار حتى نزل هندمند وعبر وادي نوق فأتى زوشت على حوالي كيلومتر من زرنج فقاتله أهلها قتالاً شديداً فهزمهم ، ثم أتى ناشروذ فهزم جيشها فمضى منها إلى شرواذ ثم حاصر زرنج حتى فتحها صلحاً.. وبعد ذلك عبر وادي سناروذ فأتى القريتين ثم عاد إلى زرنج [1] .

ولو أن روايات الطبري بصفة عامة أكثر مدعاة إلى الثقـــة من روايات البلاذري، إلا أن رواية البلاذري هنا أكثر تفصيلاً ، فضلاً عن اضطراب رواية الطبري ، فقد ذكر الطبري فتح سجستان على يدي عاصم بن عمرو من أحداث عام ٢٣ هـ ، في حين ذكر – وجاء أيضاً في الكامل في التاريخ لابن الأثير – أن عاصماً توفي سنة تسع عشرة من الهجرة [2] .

---

(١) أكثر هذه المواقع لم نتمكن من تحديدها على الخريطة . ولذلك نعتذر عن رسم خريطة لفتح سجستان ، اكتفاء بالخريطة العامة ، وقد حددنا موقع زرنج بها من خريطة « إقليما خراسان وقوهستان مع قسم من إقليم سجستان » – قادة فتح فارس ٢٩٠ .

(٢) عن قادة فتح فارس ٢٨٨ .

فتح مُكران

يذكر البلدانيون مُكْران من بلاد السند [باكستان اليوم] ، ولكن جانباً منها ضمن أراضي إيران بحدودها الحاليـــة . وصفها الاصطخري [1] فقال : « ومكران ناحية واسعة عريضة الغالب عليها المفاوز والقحط والضيق » . وقد سارت إلى مكران عدة قولات [2] .. سار إليها الحكَمَ بن عمرو التغلبي حتى إذا بلغها لحق به شهاب بن مخارق بن شهاب فانضمَّ إليه ، ثم لحق به مدد آخر هو سهيل بن عدي وعبدالله بن عبدالله بن عتبان في قواتها ، واجتمعوا جميعاً قبل أن يصلوا إلى النهر [لا يذكر الرواة أي نهر هو] . واجتمع جيش مكران على شاطىء النهر بقيـــادة « راسل » ملك السند ، ثم زحف بهم نحو المسلمين فالتقوا على مسيرة أيام من النهر ، ودارت المعركة بين الطرفين فانتصر المسلمون وأباحوا معسكره وأصابوه بقتلى كثيرين ، واستمرت المطاردة أياماً يقتلون مَن أدركوا حتى انتهوا إلى النهر فرجعوا وأقاموا بمكران .

وكتب الحكَم إلى عمر بالفتح وبعث بالأخماس مع صحار العبدي ، فلمـــا قَـدِمَ عليه بالفتح والغنائم سأله عمر عن مكران ، وكان هذا دأب عمر ، لا يأتيه

(١) المسالك والممالك ١٠٥ .

(٢) الطبري ٤ / ١٨١ س ش س عن محمد وطلحة والمهلب وعمرو .

رسول إلا سأله عن الوجه الذي جاء منه ، فأجابه صحار [1] :

« يا أمير المؤمنين، أرض سهلها جبل، وماؤها وشل [قليل] ، وتمرها دَقَل [الدقل أردأ التمر] ، ولصُّها بطل وخيرها قليل وشرُّها طويل ، والكثير بها قليل ، والقليل بها ضائع ، وما وراءها شرٌّ منها » .

فقال عمر : « أسَجَّاعٌ أنت أم مخبر ؟ »

قال : « لا بل مخبر » .

قال عمر : « لا والله لا يغزوها جيش لي ما أطعت » .

وكتب إلى الحكم بن عمرو وإلى سهيل بن عدي : « لا يجوزَنَّ مكران أحد من جنودكما ، واقتصرا على ما دون النهر » . وكانوا قد غنموا بعض الفيلة فأمرهم ببيعها وقسم أثمانها على من أفاءها الله عليه .

وقال الحكم بن عمرو :

لقد شبع الأرامل غير فخرٍ ... بفيءٍ جاءهم من مُكْرانِ
أتاهم بعد مَسْغَبَةٍ وجَهْدٍ ... وقد صَفِرَ الشتاءُ من الدُّخان
فإني لا يَذُمُّ الجيشُ فِعْلي ... ولا سيفي يُذَمُّ ولا سناني
غداة أُدَفِّعُ الأوباش دفعاً ... إلى السند العريضة والمداني
ومهرانٌ لنـــا فيما أردنا ... مطيعٌ غير مسترخي العنان
فلولا مـــا نهى عنه أميري ... قَطَعْنَاه إلى البُدُدِ الزَّوَاني

---

(١) يذكر البلاذري أن هذا الحوار جرى بين عثمان بن عفان وهو خليفة وبين حكيم بن جبلة العبدي - فتوح البلدان ١٠٠٧ .

الطريق إلى مــرو

ربما كان الجيش الذي بعث به عمر بن الخطاب إلى خراسان ذا أهمية خاصة، بل كان له أكبر الأهمية وذلك بالنظر إلى اعتبارين :

أولهما، أن يزدجرد الثالث كان قد انتهى إلى خراسان واتخذها آخر الأمر مقاماً له يثير منه المجوس في بقاع مملكته الزائلة ضد الفتح الإسلامي، فكان من شأن سقوط هـــذا المعقل أن يزيل آخر ملوك بني ساسان عن مُلكه، فتسقط بذلك الأسرة الحاكمة، حيث لا يقوم بعـــدها حكام آخرون غير المسلمين الغزاة الفاتحين .

أما الاعتبار الثاني: فهو أن مرو - التي أقام بها يزدجرد من أرض خراسان - كانت في واقع أمرها آخر أطراف ملكه، وكان وصول المسلمين إليها يعني أنهم قد أتموا غزو دولة الفرس إلى آخر شبر فيها .

من هنا نرى أن فتح خراسان كان هو المحور الأساسي في كافـــة المحاور التي نخرت جبال إيران وهضابها من غربها إلى شرقها .

ما كان من أمر يزدجرد حتى بلغ خراسان واستقرّ في مرو، لن نتعرّض له هنا، وسوف نعود إلى ذلك في فصل قادم نعرض فيه لمصير ذلك الملك البائس . وسنقتصر هنا على عرض التحركات الحربية ومسارات الجيوش . وهـــذا اللواء

الذي قاده الأحنف [1] بن قيس التميمي كان يستهدف الأغراض التي ذكرنا ،

(١) الأحنف بن قيس الذي قاد هذا اللواء مر بنا ذكره في هـــذا الكتاب من خلال معركة الأهواز حيث بعث عتبة بن غزوان وفداً إلى عمر كان بينهم الأحنف بن قيس ، ثم ردهم عمر . كما ورد ذكره في عمليـة طارس ، فكان من أبطال البصرة الذين تطوعوا لنجدة جيش العلاء المحصور بأرض فارس . كذلك كان ضمن الوفد الذي حمل هرمزان أسيراً إلى المدينـة . وتحدث عمر إلى الوفد وسأل عن سبب انتقاض أهل الذمة ، فأخبره الأحنف بأن ملكهم لا يفتأ يثيرهم فيستجيبوا له ، وأقنع عمر بالانسياح في أرض العجم .

وإذا كان العرب يحددون مكان كل منهم في مجتمعه بنسبه إلى أبيه وقبيلته ، وقد درجنا نحن تبعاً لذلك على نفس المنوال ابتـداء من « الطريق إلى المدائن » لتحديد مكان الرجل من وحدات المسلمين المحاربة ، فقـد كان الأحنف هو الضحاك (وقيل صخر) بن قيس بن معاوية بن حصين بن عبادة بن النزال بن مرة بن عبيد بن الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم ، وأمه حبة بنت عمرو بن قرط بن ثعلبـة بن باهلة . وقد أنجب الأحنف ابنه بحراً وبه كان يكنى ، وتوفي بحر وانقرضت سلالته من الذكور . وقـد ولد الأحنف وبه حنف (اعوجاج) في رجله ، فقالت أمه وهي ترضعه: « والله لولا حنف في رجله ما كان في الحي غلام مثله ». فسمي الأحنف وغلب ذلك على اسمه حتى اختلف فيه .

وكان أحد الحكماء الدهاة العقلاء ، وقد اشتهر بالحلم وفي ذلك يقول عن نفسه في تواضع : « لست بحليم ولكني أتحالم » . (مسند أحمـــد باب الزهد عن الحسن) . وقال له رجل : « بم سدت قومك وأنت أحنف أعور؟ » قال: « بتركي ما لا يعنيني كما عناك من أمري ما لا يعنيك ». وقيل للأحنف : يا أبا بحر إن فيك أناة شديدة ، قال : « قد عرفت من نفسي عجـلة في أمور ثلاثة: في صلاتي إذا حضرت حتى أصليها ، وجنازتي إذا حضرت حتى أغيبها في حفرتها ، وابنتي إذا خطبها كفؤها حتى أزوجه » .

وقد أدرك النبي (ص) ولم يره ودعا له النبي . قال الأحنف : « بينا أنا أطوف بالبيت في زمن عثمان ، إذ أخـــذ رجل من بني ليث بيدي فقال : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى . قال : أتذكر إذ بعثني رسول الله (ص) إلى قومك فجعلت أعرض عليهم الاسلام وأدعوهم إليه ؟ فقلت أنت : إنك تدعو إلى خير وتأمر به وإنه ليدعو إلى الخير». فبلغ ذلك النبي (ص) فقال : « اللهم اغفر للأحنف » . فكان الأحنف يقول : فما شيء من عملي أرجى عندي من ذلك ، يعني دعوة النبي (ص) . (تفرد به علي بن زيد ، وفيه ضعف – الإصابة ٤٢٩) . =

وذلك حين أذِنَ عمرُ لجيوش المسلمين بالانسياح في أرض العجم ، فخرجت من قاعدتي البصرة والكوفة حتى أثخنت في الأرض .

= وكان ثقة مأموناً قليل الحديث ـ روى عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وأبي ذر وابن مسعود والأسود بن سريع وغيرهم .. وروى عنه أبو العلاء بن الشخير والحسن البصري وطلق بن حبيب وغيرهم .. وقد ذكره ابن سعد في الطبقة الأولى من تابعي أهل البصرة . وله قصص يطول ذكرها مع عمر وعثمان ومع علي ومع معاوية ثم مع من بعده حتى توفي . من ذلك أن عمر ذكر بني تميم (قبيلة الأحنف) فذمهم ، فقال الأحنف : يا أمير المؤمنين ائذن لي فأتكلم . قال : تكلم . قال : إنك ذكرت بني تميم فعممتهم بالذم ، وإنما هم من الناس فمنهم الصالح والطالح . فقال : صدقت . فعفا عمر بقول حسن من الأحنف ، فقام الحتات وكان يناوىء الأحنف ، فقال : يا أمير المؤمنين ائذن لي فأتكلم . قال عمر : اجلس ، فقد كفاكم سيدكم الأحنف .

وقد قدم الأحنف على عمر فرأى منه عقلاً وديناً وحسن سمت ، فاحتبسه حولاً كاملاً عنده ثم أحضره وقال له : يا أحنف ، هل تدري لم احتبستك عندي ؟ إن رسول الله (ص) خوفنا كل منافق عليم ، فخشيت أن تكون منهم ولست منهم إن شاء الله . يا أحنف ، قد بلوتك وخبرتك فلم أر إلا خيراً ، ورأيت علانيتك حسنة وأنا أرجو أن تكون سريرتك مثل علانيتك . هذا مثال غريب من جد عمر في اختبار من يريد أن يستعين به ويوليه أموراً في دولته . لم يكن الأحنف من المهاجرين ولا من الأنصار ولم يكن عمر يعرفه فلما لقيه ولاحظ فيه كفاءة وإخلاصاً لم يأخذ ذلك على ظاهره وإنما أراد أن يستوثق ، وصبر عاماً على ذلك قبل أن يكاشف الأحنف أنه كان تحت رقابته .. وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري : « أما بعد فأدن الأحنف بن قيس وشاوره واسمع منه » . وكتب له : « الأحنف سيد أهل البصرة » . فما زال يعلو من يومئذ . وقال الحسن : ما رأيت شريف قوم كان أفضل من الأحنف .

وكان الأحنف قل ما خلا بنفسه إلا دعا بالمصحف . وكانت عامة صلاته بالليل . وكان يضع إصبعه على المصباح الملتهب ويقول : « حس » من لسعة ، ثم يخاطب نفسه فيقول : « يا أحنف ما حملك على أن صنعت كذا يوم كذا ؟! » وفوق ما في هذا من دلالة على الصلابة الروحية ، فهي أيضاً تدلنا على احتماله وصبره وصلابة بدنه ، يؤيد ذلك رواية أخرى أنه لما أتى فارس أصابته جنابة في ليلة باردة ، فلم يوقظ أحداً من غلمانه ولا جنده وانطلق يطلب الماء فأتى على شوك وشجر حتى سالت قدماه دماً ، فوجد الثلج فكسره واغتسل به ! ولما كبر الأحنف قيل له: =

السير إلى خراسان

خرج الأحنف بن قيس في جيشه من قـاعدة البصرة إلى خراسان ، فسلك طريق مهرجانقذق ومنها إلى أصبهان (انظر الخريطة ٢٠) . وكان اجتياز الأحنف أرض أصبهان معاصراً لحصار عبدالله بن عبدالله بن عتبان لمدينة جيّ ، وهذا يعني أن هذه الحملة بدأت مسيرها عام ٢١ هـ ، غير أنها أتمّت مهمتها خلال عام ٢٢ هـ . وطلع الأحنف من أصبهان على طبس [ويقال عنها أيضاً طبسين] وأوغل حتى بلغ هراة فافتتحها عنوة .

وصف الاصطخري [١] هراة في حوالي ٣٠٠ هـ فقال : إنها مدينـة عليها حصن وثيق وحواليها ماء وداخلها مدينة عامرة ولها ربض [ما حولها من أرض ترعى فيه الإبل والماشية] وفي مدينتها قهندز [قلعة] ... وبناؤها [هراة] من طين وهي مقدار نصف فرسخ في نحوه - [٢,٧٥٠ × ٢,٧٥٠] ولمدينتها الداخلة أربعة أبواب : الباب الذي يخرج منه إلى بلخ ممـا يلي الشمال ، والباب الثاني الذي يخرج منه إلى نيسابور غربي .. والباب الذي يخرج منه إلى سجستان جنوبي .. والباب الذي يخرج منه إلى الغور شرقي ... وأبوابها من خشب غير باب بلخ فإنه حديد... وفي داخل المدينة والربض مياه جارية ، وللحصن أربعة أبواب بحذاء كل باب من أبواب المدينة باب لهذا الحصن ، وخارج الحصن جدار يطوف بالحصن كله أطول من قـامة وبينهما مقدار ثلاثين خطوة ... وهراة

= إنك شيخ كبير وإن الصيام يضعفك ، فقال : إني أعده لشر طويل . وكان يدعو فيقول : « اللهم إن تغفر لي فأنت أهل ذاك ، وإن تعذبني فأنا أهل ذاك » .

وكان الأحنف ممن اعتزل الحرب بين عائشة وعلي يوم الجمل ، وشهد صفين مع علي . وقد كان صديقاً لمصعب بن الزبير بن العوام فوفد عليه بالكوفة وهو أمير العراق لأخيه عبدالله فتوفي وهو عنده عام ٦٧ هـ وسار مصعب في جنازته .

(الإصابة ٤٢٩ / ١٦١ - أسد الغابة ٢٠٠٨ / ٥١ - الاستيعاب ١ / ١٣٥ - الطبقات الكبرى ٧ / ٦٦ - الأغاني ٧٤٩ - الطبري - فتوح البلدان) .

(١) المسالك والممالك ١٤٩ .

مطرح الحمولات من فارس إلى خراسان ، وهي فرضة [حاميــة] لخراسان وسجستان وفارس ، والجبل من هراة فرسخين على طريق بلخ .. وليس بهذا الجبل محتطب ولا مرعى ، وإنمـا يرتفقون منه بالحجارة للأرحية والفرش وغير ذلك ، وعلى رأس هذا الجبل بيت نار يسمى سيرشك وهو معمور ، وبينه وبين المدينة كنيسة للنصارى وليس بينها وبين المدينة مياه ولا بساتين إلا نهر المدينة على باب المدينة يعبر بالقنطرة ثم لا يكون بعـــدها ماء ولا خضرة . وعلى سائر الأبواب مياه وبساتين .. ويخرج ماؤهم من قرب رباط كروان ، فإذا خرج عن الغور إلى هراة يتشعب منه أنهـــار [وعدّ تسعة أنهر منها نهر آنجير يسقي مدينة هراة]

وبعث الأحنف من هراة مطرف بن عبدالله بن الشخير إلى نيسابور ، فلم يلقَ قتالاً حتى بلغها. ونيسابور تعرف أيضاً «أبْرَشَهْر» ، وصفها أيضاً الاصطخري(١) فقال : « إنها مدينة في أرض سهلة أبنيتها طين ومقدار عرضها فرسخ في فرسخ [٥,٥ × ٥,٥ كيلومتراً] ولها مدينة وقلعة وربض ... وللقلعة بابان وللمدينة أربعة أبواب وقلعتها خارج المدينة ويحيط الربض بالمدينة والقلعــة وللربض أبواب ... وليس بخراسان مدينة أصح هواء ولا أكبر من نيسابور » .

كما بعث الحارث بن حسان السدوسي إلى سَرَخْس ، وسرخس (٢) في أرض سهلة وليس لها ماء جارٍ إلا نهر يجري في بعض السنة ولا يدوم ماؤه ، وهو ما يفضل من مياه هراة وهي مدينة على نحو النصف من مرو ، عامرة صحيحة التربة والغالب على نواحيها المراعي ، قليلة القرى ومعظم أملاكهم الجمـال وماؤهم من الآبار وأبنيتها طين وأرحيتهم على الدواب .

واستخلف على هراة صحار بن فلان العبدي ليكون ردءاً ومؤخرة ، أو قاعدة متقـدمة لهم ، وكان ذلك لازماً إذ إن المسلمين ، ولو أنهم كانوا يغزون

---

(١) المسالك والممالك ١٤٥ .

(٢) الاصطخري ١٥٤ .

الري وقومس وجرجان وآذربيجان وأرمينية وكافة المناطق الشمالية في ذلك الوقت ، إلا أنهم لم يُخضِعوا تماماً المناطق الجنوبية من فارس وكرمان ومكران وسجستان ، ولا سيما أن يزدجرد كان يحاول الحصول على معونات حربيـــة من شعوب أخرى من وراء حدوده ، وبذلك ربما أمكن القول إن ميمنة الأحنف في تقدُّمه كانت في حاجة إلى تأمين ، ويخفف من هذا الاعتبار أن الدولة كانت قد سقطت بالفعل، وأن العملية كانت ضمن الإجراءات النهائية لاستلام الميراث. حصيلة ذلك كله أن الأحنف ترك جانباً من قواته في هراة بقيادة صحار بن فلان العبدي ، وسار هو إلى مرو الشاهجان حيث يقبع يزدجرد الثالث .

ومرو الشاهجان [1] كانت قديمة البناء يقال إنها من بناء الاسكندر الأكبر، وكان لها قلعة يقال إنها من بناء طهمورث . والمدينة في أرض مستوية بعيدة عن الجبال لا يُرى منهـــا جبل وليس في شيء من حدودها جبل ، وأرضها سبخة كثيرة الرمال وأبنيتها من الطين . وللقلعـة صحن مربع مرتفع سيقت له على ارتفاعه قناة ماء جار وكان يُزرع عليه البقول والبطيخ وغير ذلك . ولربوع المدينة أنهار تمرُّ بها ، فمنها نهر هرمزفـَرَّه في أول ما يدخل الداخل إلى المدينة من سرخس .. ومنها نهر الرزيق ومجراه على باب المدينة ومنه يشرب أهلها .. ومنها نهر أسعدى الخراساني وعليه كانت دور مرازبة مرو. وكان يحيط بالمدينة والأنهار سور كما كان بداخلها سور آخر على بعض أجزائها . وكل هـذه الأنهار كانت تتفرع من نهر المرغاب [أو مرو آب ، ومعناها ماء مرو] ، يجري هذا النهر على مرو الروذ . وهي من أطيب بلاد خراسان أطعمـــة وخبزاً ، فليس بخراسان أنظف خبزاً وألذ طعماً منه ، واليابس من فواكهها كالزبيب يفضل على ما سواه ، وبلدهم من النظافة وحسن الترصيف وتقسيم الأبنية والمحالّ في خلال الأنهار والغروس ، ومنها كان يُصَدَّر القزّ الكثير والقطن والثياب .

في مرو الشاهجان كان يزدجرد قد اتخذ بيتاً أقامه في بستان على فرسخين

(١) الاصطخري ١٤

منها [١١ كيلومتراً] ، كما بنى بيت نار للعبادة المجوسية وأقام آمناً مطمئناً من أن يصل المسلمون إليه على هـذا البُعْد الشاسع من مملكته ، ولكن الأحنف طوى إليه ذلك البعد. واقترب الأحنف من مرو الشاهجان فخرج منها يزدجرد كما اعتاد من قبل أن يخرج من المدائن ومن الري ومن سواهـا حتى نزل مرو الروذ [1] ، ونزل الأحنف مكانه في مرو الشاهجان . وحار يزدجرد في أمره ، لقد جرّده هؤلاء الغزاة من كل أرضه وألجأوه إلى آخر شبر منها وهم على وشك أن يجرّدوه من ثيابه ، فإلى أين يذهب وإلى مَن يلجأ ؟

فكـّر يزدجرد في ذلك ، فكتب من مرو الروذ رسائل إلى ثلاثة ملوك : كتب إلى خاقان الترك وإلى ملك الصغد يستمدّهما ويستنجد بهما . وكتب إلى ملك الصين يستعينه .. وخرجت رسله بالرسائل . ولكن الأحنف وقد لحقت به أمداد من الكوفة لم يمهـله ، بل استخلف حاتم بن النعمان الباهلي على مرو الشاهجان وزحف منها نحو مرو الروذ، وكان جيشه مقسّماً إلى أربع فرق على كل فرقة أمير :

١ – علقمة بن النّضْر النضري .

٢ – ربعي بن عامر التميمي .

---

(١) ذكر ابن خرداذبة مرو الروذ على الطريق من مرو الشاهجان إلى طخارستان ، وعلى ما ذكر تكون المسافة بينها ٢٢٧ كيلومتراً . قال : من مرو الشاهجان إلى فاز ٧ فراسخ ثم إلى مهدي أباذ ٦ فراسخ ثم إلى يحيى أباذ ٧ فراسخ ثم إلى الرقينين ٥ فراسخ ثم إلى أسد أباذ ٧ فراسخ ، على النهر إلى حوزان ٦ فراسخ ، على النهر ثم إلى قصر الأحنف بن قيس ٤ فراسخ ، على النهر ثم إلى مرو الروذ ٥ فراسخ ثم إلى ارسكن ٥ فراسخ ثم إلى الأسراب ٧ فراسخ ثم إلى كنجا باذ ٦ فراسخ ثم إلى الطالقان ٦ فراسخ ثم إلى كيسحاب ٥ فراسخ ثمّ إلى ارغين ٥ فراسخ ثم إلى قصر خوط ٥ فراسخ ثم إلى الفارياب ٥ فراسخ ثم إلى القاع من عمل الجوزجان ٩ فراسخ ثم إلى الشبورقان (شبرغان تظهر على الخريطة) ٩ فراسخ ثم إلى السدرة من بلخ ٦ فراسخ ثم إلى دست كرد ٥ فراسخ ثم إلى الغور ٤ فراسخ ثم إلى بلخ ٣ فراسخ . فمن مرو الشاهجان إلى بلخ ١٢٦ فرسخاً (حوالي ٧٠٠ كيلومتر) . (المسالك والممالك ٣٣)

٣ – عبدالله بن عقيل الثقفي .

٤ – ابن أم غزال الهمداني .

ومرة أخرى خرج يزدجرد من الروذ إلى بلخ [١] فاستولى الأحنف على مرو الروذ ، وبعث وحداته في أثره إلى بلخ ثم تبعها .

كانت بلخ [٢] مدينة في مستوٍ من الأرض بينها وبين أقرب الجبال إليها نحو أربعة فراسخ [٢٢ كيلومتراً] وهو جبل كور وعليها سور ولها ربض ، وكانت في حوالي ٣٠٠ هـ نحواً من نصف فرسخ في مثله ، وبناؤها من الطين ولها أبواب ذكر الاصطخري منها سبعة أبواب ، ولها نهر [نهر دِهاس] يجري في ربضها على باب النوبهار ويسقي رساتيق إلى سياه جرد ، ويحفّ بأبوابها كلها البساتين والكروم ، وكان سور المدينة من طين ولم يكن عليه خندق .

وفي بلخ التقى المسلمون لأول مرة منذ بدأت الفتوح بيزدجرد شخصياً فيمن بقي له من جنـــد . وماذا كان ينتظر في معركة كتلك غنية عن أي تعليق ! انهزم يزدجرد بطبيعة الحال وانسحب فيمن معه فعبروا نهر بلخ (نهر جيحون) ووصل الأحنف إلى قواته وقد غلبت يزدجرد على أمره .

ورغم سقوط هراة ونيسابور وسرخس ، إلا أن بعض شعب خراسان كان قد تحصّن أو شذّ عن الخضوع والتسليم فيما بين نيسابور إلى طخارستان [٣] ، فلما خرج يزدجرد إلى بلخ [٤] تتابع جميع شعب خراسان على الصلح والدخول في ذمة المسلمين، فاستخلف الأحنف على طخارستان ربعي بن عامر، وهو الذي امتدحه النجاشي الشاعر بقوله :

---

(١) من مرو الروذ إلى بلخ ٤٤٤ كيلومتراً .

(٢) الاصطخري ١٥٥ .

(٣) طخارستان أقصى إقليم خراسان نحو الشرق . وقد كانت خراسان أربعة أقسام هي : مرو الشاهجان ، وبلخ وطخارستان ، وهراة وابذغيش سجستان ومـــا وراء النهر . (ابن خرداذبة ١٨) .

(٤) بلخ اليوم من أفغانستان، وهي على خط طول ٦٧ شرقاً وشمالي خط عرض ٣٦ شمالاً.

ألا رُبَّ مَن يدعى فتى ليس بالفتى ... ألا إن ربعي بن كأس [1] هو الفتى
طويل قعود القوم في قعر بيتــه ... إذا شبعوا من ثفــل جفنته سقى

أي مجد ذاك الذي حاز المسلمون ؟ ومَن كان ربعي بن عامر قبل الاسلام ؟ ومن كان يبلغ القول عقله لو قيل له قبل ذلك بعشر سنوات إن ربعي بن عامر سوف يحكم طخارستان ؟! وما نحسب أن ربعي أو أحداً من العرب كان قد سمع شيئاً حينذاك عن طخارستان تلك أو كان يعرف الطريق إليها ، بل ما نحسب عموم المسلمين اليوم يعرفون ذلك ... ولكنه الإسلام ! ترك الأحنف في طخارستان ربعي بن عامر وعــاد هو إلى مرو الروذ ، فكتب إلى عمر بفتح خراسان فسار رسوله حتى بلغ المدينة .

وبلغ كتاب الأحنف إلى عمر فعــلم بغلبته على مرو الشاهجان ومرو الروذ وبلخ ، فقال في إعجاب شديد : « هو الأحنف ، وهو سيد أهل المشرق المسمى بغير اسمه » . ثم كتب إليه [2] :

« أما بعد ، فلا تجوزَنَّ النهر (نهر جيحون) واقتصِرْ على ما دونه ، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم خراسان ، فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يَدُمْ لكم النصر . وإياكم أن تعبروا فتنفَضُّوا » [3] .

من الواضح هنا أن عمر لم يكن يودُّ الالتحام بالترك أو الصغد اكتفاء بفتح

(١) كأس هي أم ربعي بن عامر نسبة إليها .

(٢) الطبري ٤/ ١٦٨ س ش س عن عيسى بن المغيرة وعن الوازع بن زيد بن خليدة رجل من بكر بن وائل .

(٣) تذهب بعض الروايات إلى أن عمر قال حين كتب إليه الأحنف بفتح خراسان: « لوددت أني لم أكن بعثت إليها جنداً ، ولوددت أنه كان بيننا وبينها بحر من نار . فقال علي : ولم يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأن أهلها سينفضون منها ثلاث مرات فيجتاحون في الثالثة ، فكان أن يكون ذلك بأهلها أحب إلي من أن يكون بالمسلمين (الطبري ٤ / ١٦٨) . ولا نميل إلى الأخذ بمثل هذه الروايات التي يبدو فيها عمر متنبئاً بالغيب .

فارس إلى أقصى حدودها ، وحين نقول فارس فلا بد أن يحضرنا أنهـــا كانت إحدى القوتين العظيمتين في العالم ، وقد صارت برُمّتها إلى المسلمين الذين قاموا يرثون الأرض وما عليها ، في حين كانوا يدوخون القوة الأخرى - الروم - ويقتطعون منها .

بلغ رسولا يزدجرد خاقان الترك وغوزك الصغد ، فلم يتسنّ لأحدهما إنجاده حتى عبر إليهما نهر جيحون مهزوماً ! وأقبل خاقان الترك في جنده الذين حشدهم من أهل فرغانة والصغد ، ثم خرج بهم وانضمّ إلى يزدجرد فكرّ راجعـــاً إلى خراسان وعبر نهر جيحون إلى بلخ . وانسحب المسلمون [جيش الكوفة] أمام هـــذا الزحف إلى مرو الروذ حيث انضمّوا إلى الأحنف في قوات البصرة ، وتبعهم يزدجرد وخاقان حتى نزلوا أمام الأحنف في مرو الروذ .

هجوم مضاد

إنه هجوم مضاد بقوات جديدة جاءت من وراء الحدود . وخرج الأحنف ليلاً يمشي بين عسكره يتسمّع لعله يسمع رأياً ينتفع به . فمرّ برجلين ينقيان علفاً (تبناً أو شعيراً) [1] لخيليهما ، وأحدهما يقول لصاحبه :

- لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدوّنا خندقاً

---

(١) وفي روايات البلاذري أن القائل كان رجلاً يطبخ قدراً أو يعجن لأصحابه عجيناً ، أو أنهم كانوا أهل خباء يتحدثون ، (وربما كانت إحدى هاتين الروايتين أقرب إلى الصحة حيث نستبعد تنقية الشعير ليلاً) ، وأن الرجل قال : « الرأي أن ينزل بين المرغاب والجبل فيكون المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره، فلا يلقى من عدوه - وإن كثروا - إلا مثل عدة أصحابه » فرأى ذلك صواباً ففعله ...

ويذهب البلاذري إلى أن الأحنف كان في خمسة آلاف من المسلمين: أربعة آلاف من العرب وألف من مسلمي العجم (فتوح البلدان ٩٨٦ و ٩٨٧) . والأرجح عنـــدنا فيما يختص بعدد المسلمين ما ذكره رواة الطبري من أنهم كانوا عشرين ألفاً ، إذ لا نستسيغ بسهولة أن يوغل المسلمون إلى أطراف خراسان بخمسة آلاف فقط منهم ألف من العجم .

وكان الجبل في ظهورنا من أن نؤتى من خلفنـــا ، وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله .

وأعجب الرأيُ الأحنف فاكتفى به ورجع وكان في ليلة مظلمة .. فلما أصبح جمع جيشه ثم وجّه إلى جنده الخطاب فقال :

« إنكم قليل وإن عدوكم كثير فلا يهولنّكم ، فكم من فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذن الله واللهُ مع الصابرين .. ارتحِلوا من مكانكم هذا فأسندوا إلى هذا الجبل فاجعلوه وراء ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوّكم وقاتِلوهم من وجه واحد » .

كان المسلمون نحواً من عشرين ألفاً نصفهم من جنـــد الكوفة ونصفهم من جنـد البصرة ، وكانت قوات الترك ومَن انضمّ إليهم يقتربون حتى يشتبكوا بالمسلمين، فإذا جاء الليل انسحبوا . وأراد الأحنف أن يعرف إلى أن ينسحبون ليلاً ، فخرج بنفسه ليـلة دورية استكشافية ولم يخبر بذلك أحداً من معسكره حتى وقف قريباً من معسكر خاقان يراقبه ، وفي وجه الصبح خرج فارس من الترك بطوقه وضرب بطبـــله ثم وقف أمام عسكره ، فحمل عليه الأحنف فتطاعنا واختلفا طعنتين وطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز :

إن على كل رئيس حقا أن يخضب الصَّعْدَةَ أو تندقا
إن لنا شيخاً بهـــا مُلَقّى سيف أبي حَفصٍ الذي تبقى

ثم وقف الأحنف موقف ذلك التركي وأخذ طوقه ، فخرج له من المعسكر تركي آخر فضرب بطبله ووقف أمام عسكره كما فعل الأول ، فحمـــل عليه الأحنف في مبارزة بالرماح فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف وهو يرتجز :

إن الرئيس يَرْتَبِي ويطلَعُ ويمنع الخُـــلاةَ إما أربعوا

ثم خرج تركي ثالث ففعل فِعْلَ زميليه القتيلين ، فكان مصيره كسابقيه وقتله الأحنف وهو يرتجز :

جَرْيَ الشموسِ ناجزاً بناجزْ محتفـــلا في جريه مُشارِزْ

وانصرف الأحنف عائداً إلى عسكره . وكان من عادة الترك في حروبهم أنهم لا يخرجون في زحفهم حتى يخرج ثلاثة من فرسانهم كهؤلاء كلهم يضرب بطبله ثم يتحركون بعد خروج الثالث . وفي ذلك اليوم فعلوا ذلك فخرج الترك للقتال، فمرّوا على فرسانهم صرعى فتشاءم خاقان ، وفي الواقع إنها كانت معركة لا ناقة له فيها ولا جمل ، فقال : « لقد طال مقامنا ، وقد أصيب هؤلاء القوم بمكان لم يُصَبْ بمثله قط، ما لنا في قتال هؤلاء القوم من خير، فانصرفوا بنا » . فرجعوا وارتفع النهار للمسلمين ولا يرون شيئاً، ثم جاءهم الخبر بانصراف خاقان والترك معه إلى بلخ . هذا ما ذكره رواة الطبري ، أما البلاذري [1] فيذكر أن الموقعة حدثت فعلاً ، فهزّ الأحنف رايته وحمل على عدوّه وحمل المسلمون معه ، فقصد إليه ملك الصغانيان فأهوى له بالرمح ، فانتزع الأحنف الرمح من يده وقاتل قتالاً شديداً ، فكان يقصد مَن كان معهم الطبول حتى قتل ثلاثة منهم، ثم رجحت كفة المسلمين فقتلوا من عدوّهم قتلاً ذريعاً ووضعوا السلاح أنّى شاؤوا منهم .

هذا عن الترك .. فماذا عن يزدجرد ؟

انفصل يزدجرد عن خاقان بمرو الروذ وسار إلى مرو الشاهجان ، وكانت حامية المسلمين بها بقيادة حاتم بن النعمان وكانت قوات قليلة بالنسبة لِما تحرّك به يزدجرد، فتحصّنوا منه واتخذوا موقفاً دفاعياً وحاصرهم يزدجرد . ماذا كانت وجهة يزدجرد في زحفه على مرو الشاهجان وماذا كان غرضه وهدفه منها ؟ كانت خزائنه مخبّأة هناك حين أعجله الأحنف بالفرار منها ، واستطاع في حصاره للمسلمين بمرو الشاهجان أن يستخرجها من موضعها بينما أقام خاقان الترك له في بلخ . هذا ما تذكره الروايات ، والذي نظنه أن الرجلين قد اتفقا على أن ينسحب خاقان إلى بلخ فيتبعه الأحنف وينشغل بمطاردته ، في حين يذهب يزدجرد لاسترجاع خزائنه وكنوزه من مرو الشاهجان .

---

(١) فتوح البلدان ٩٨٧ .

وفي معسكر المسلمين قالوا للأحنف : « ما ترى في اتباعهم ؟ »

قال : « أقيموا بمكانكم ودعوهم » .

لماذا اختار الأحنف الإقامة ؟ ربما وجدنا لذلك أكثر من تعليل، فلقد كانت تعليمات عمر واضحة للأحنف أن يقف عنـــد حدود معينة لا يتجاوزها ، هذه واحدة ، والثـانية أنه إذا سار في أعقاب خاقان لوضع نفسه بين قوات خاقان التركية وقوات يزدجرد الفارسية مع الإيغال نحو بلاد الترك .

هذا في حين اتجهت بعض الفلول إلى جوزجان فوجّه إليهم الأحنف الأقرع ابن حابس التميمي في خيل وقال لهم: « يا بني تميم تحابوا وتباذلوا تعتدل أموركم، وابدأوا بجهـاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم ». وسار الأقرع فالتحم بعدوّه في جوزجان فبدأت الدائرة على المسلمين وكانت لعدوّهم جولة ، ولكن المسلمين كرُّوا فهزموا عدوّهم وفتحوا جوزجان عنوة . وقال كثير بن الغريزة النهشلي :

سقى صوب السحاب إذا استهلت مصارع فتيـــة بالجوزجان
إلى القصرين من رستاق حوف أفادهم هنـــاك الأقرعان

وفي معسكر يزدجرد كانت خزائنه شيئاً عظيماً من أموال فارس ، وأراد حملها واللحاق بخاقان ، فقال له أصحابه : « أي شيء تريد أن تصنع ؟ »

قال : « أريد اللحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين » .

قالوا : « مهلاً ، فإن هذا رأي سوء .. إنك إنمـا تأتي قوماً في مملكتهم .. وتدع أرضك وقومك ، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم (المسلمين) فنصالحهم فإنهم أوفيـاء وأهل دين ، وهم يلون بلادنا .. وإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا مملكة من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ، ولا ندري ما وفاؤهم » .

فأبى يزدجرد أن ينزل على رأيهم ، وأبوا عليه رأيه فقالوا :

« فدَعْ خزائننا نردّهـــا إلى بلادنا ومَن يليها ، ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها » .

فرفض يزدجرد ، فتمرّدوا عليه وقالوا له : « فإنا لا ندعك تذهب بها » .

ولم يكن مع يزدجرد في موقفه ذاك إلا حاشيته ، ووقع التحام بين الطرفين فهزموه وأخـذوا الخزائن واستولوا عليها عنوة ونكبوه ، وكتبوا إلى الأحنف بالذي كان ، فأسرع نحوهم واعترضهم وهم يدافعون يزدجرد ، فقاتله المسلمون وهزموه وأعجلوه عن أثقاله ومتاعه ، فمضى هارباً ولاجئاً حتى عبر نهر جيحون إلى فرغانة والترك . وأقبل الفرس على الأحنف فصالحوه وعاقدوه وأسلموا تلك الخزائن والأموال إليه، وانفضّوا كجيش فرجعوا إلى بلدانهم وأموالهم على أمان من المسلمين ، فكانوا على أفضل مـــا كانوا في عهود الأكاسرة .. يقول الرواة : « فكانوا كأنما هم في مُلكهم إلا أن المسلمين أوفى لهم وأعدل عليهم، فاغتبطوا وغبطوا » . وأصاب الفارس في هـذا اليوم (يوم يزدجرد) كسهم الفارس يوم القادسية . لقد كان سهم الفارس يوم القادسية ستة آلاف درهم ، ومعنى هـــذا أن الخزائن المستولى عليها بلغت مائة وخمسين مليون درهم . وفتح الأحنف طالقان [1] صلحاً كما فتح فارياب ، ثم سار إلى بلخ وهي عاصمة طخارا فصالحه أهلها على سبعمائة ألف درهم ، فاستعمل عليها أسيد بن المُتَشَمِّس .

وأرسل الأحنف بالخبر وبالأنفـال [خُمس الغنيمة ٣٠ مليون] إلى عمر بن الخطاب ، فجمع الناس وخطبهم ، وأمر بكتاب الفتح فقُرِىء ثم قال : « إن الله تبارك وتعالى ذكر رسوله ﷺ وما بعثه به من الهدى ، ووعد على أتباعه من عاجل الثواب وآجله خير الدنيا والآخرة ، فقـال : ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليُظْهِرَهُ على الدين كله ولو كَرِهَ المشركون ﴾ . فالحمد

---

(١) على ٣٦٠ كيلومتراً من مرو الشاهجان . ويقول ابن خرداذبة : إن جبـــال الطالقان والفارياب والجوزجان على ذات اليسار على شط نهر جيحون (للقادم من مرو الشاهجان) .

[المسالك والممالك ٣٣]

لله الذي أنجزَ وعدَه ونَصَرَ جنده . ألا إن الله قد أهلك ملك المجوسية وفرّق شملهم فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضرُّ بمسلم . ألا وإن الله قــد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم ، لينظر كيف تعملون ! ألا وإن المِصْرَين (الكوفة والبصرة) من مسالحها اليوم كأنتم والمصرين فيما مضى من البعد ، وقد أوغلوا في البلاد ، والله بالغ أمره ، ومنجز وعده ، ومُتْبِع آخر ذلك أوله ، فقوموا في أمره على رجل يُوَفّ لكم بعهده ويؤتِكم وعده ، ولا تبــدّلوا ولا تغيّروا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تؤتى إلا من قبلكم » .

* * *

الأخبار المعاصرة

وإذا مددنا أبصارنا بعيـداً عن ذلك النطاق نحو الغرب وراء أهم الأخبار المعاصرة ، وجدنا خالد بن الوليد قد توفي عام ٢١ أو ٢٢ هـ بحمص (أو بالمدينة) وأوصى إلى عمر بن الخطاب بوصيته . وفتح عقبة بن نافع برقة من قبل عمرو بن العاص والي مصر .

* * *

آثار سقوط بني ساسان

كان لسقوط الامبراطورية الساسانية في الشرق والهزائم المتتالية للامبراطورية الرومانية في الغرب وبسط سلطان المسلمين على منطقـــة الشرق الأوسط آثار نجملها في الآتي :

١ — سيادة السلام من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهنـدي وانتهاء الحرب العالمية الدائمة التي شملت المنطقة قروناً بين الفرس والروم ، فاطمأنّ الناس من كافة الأجناس والأديان إلى دمائهم .

٢ — إلغـاء كافة أنواع الضرائب والاكتفاء بالجزية والخراج وتحديد قيمتها تحديداً ثابتاً ، فاطمأنّ الناس اقتصادياً وعمّهم رخاء لم ينعموا به من قبل .

٣ — إلغاء امتيازات الطبقات وإعلان حقوق الإنسان وتحقيق المساواة بين الناس لأول مرة في التاريخ ، فتمتعت هذه الشعوب بحرّيتها الاجتماعية .

٤ — كفالة الحرية الدينية لكافة الناس في الديار المفتوحة ، فاطمأنّ الناس على أديانهم وعقائدهم . لا يجبرهم أحد على عقيدة معينة ، لأن عقيـدة الفاتحين كانت (لا إكراه في الدين) .

٥ — ظهور الإسلام كدولة لها مكانتها وقوتها وسطوتها في العالم، ولها تشريعها وقوانينها ، ولها قِيَمُها ومُثُلها ، ولها حضارتها وعلومها ومعارفها التي سادت العالم، فأدّت دورها الذي لا يُنكَر في تاريخ الحضارة وازدهار العلم والمعرفة .

البائس يزدجرد

هذا ما كان من أمر التحركات الحربية في ميادين القتال. فماذا عن الشاهنشاه ؟ لقد كان يظهر لنا من حين لآخر ونحن نتابع تلك الفتوح ابتداء من « الطريق إلى المدائن » إلى « القادسية » ثم إلى هذا الكتاب . ومن حيث كان لهذا الملك أهمية خاصة في موضوعنا ، فإننا نورد هنا مختصراً لما سبق ذكره في هذه الكتب مع استكمال سيرته ، حتى يتضح تاريخه كاملاً من مولده إلى مصرعه ..

ميلاد عجيب

ويزدجرد هو ابن شهريار بن كسرى برويز ، وكان شهريار ابن شيرين الزوجة المفضلة المحظية لدى برويز . كان لكسرى برويز ثمانية عشر ولداً ذكراً وبنتين هما : بوران وآزرميدخت ، وكان شهريار أكبر إخوته . كان المجوس يؤمنون بالتنجيم ، فقال المنجمون لكسرى : إنه يولد لبعض ولده غلام يكون خراب الملك وزواله على يديه ، وعلامته نقص في بعض بدنه . فأمر كسرى بحبس أولاده عن النساء حتى لا ينجبوا ، ومكثوا حيناً لا يصلون إلى امرأة حتى بعث شهريار إلى أمه شيرين أن تدخل عليه امرأة وإلا قتل نفسه . فأجابته : إني لا أصل إلى إدخال النساء عليك إلا أن تكون امرأة لا يؤبه لها ولا يجمل بك أن تمسّها . فقال : لست أبالي ما كانت بعد أن تكون امرأة . فأرسلت إليه بجارية

لما كانت تحجمها فحملت ، فأمرت شيرين بها فحُبست حتى ولدت يزدجرد ، فكتمت أمر مولده خمس سنوات .

الطفل في المنفى

ورأت شيرين من كسرى رقة للصبيان حين كبر ، فقالت له : هل يسرُّك أن ترى ولداً لبعض بنيك على ما كان في ذلك من المكروه ؟ فقال: لا أبالي. فأمرت شيرين بيزدجرد فطُيِّبَ وحُلِّيَ وأدخلته عليه وقالت : هـذا يزدجرد بن شهريار . فأجلسه في حِجره وأحَبَّه حباً شديداً حتى كان يبيته معه . فبينا هو يلعب يوماً بين يديه ذكر قول المنجمين ، فدعا به فعرّاه من ثيابه وأخذ يفحصه ظَهراً وبطناً حتى استبان نقصاً في أحد وركيه ، فاستشاط غضباً وحمله ليجتلد به الأرض ، ولكن شيرين تعلّقت به وقالت : إنه إنْ يكن أمرٌ قد حضر في هذا الملك فليس له مَرَدّ .

قال : هذا المشؤوم الذي أخبرتُ عنه فأخرجيه فلا أنظر إليه . فأمرت به فحُمِلَ إلى سجستان ، وقيل : بل كان بسواد العراق .

مذبحة ملكية

وثار الفرس على كسرى بعـد أن حكَمَهم ثمانياً وثلاثين عاماً ، وقتله ابنه شيرويه بن مريم الرومية الذي مَلَكَ بعـده . وقتل شيرويه إخوته الذكور السبعة عشر ، وكانوا ذوي أدب وشجاعة ومروءة ، وذلك حتى لا ينافسه أحد منهم على عرش فـارس ، فكان شهريار والد يزدجرد من هؤلاء القتلى . وأباد شيرويه مَن قَدِرَ عليه من أهل بيته، وجمع نساء آل كسرى فحبسهن في القصر الأبيض بالمدائن . فلما كان اليوم التالي دخلت عليه أختاه بوران وآزرميدخت فأغلظتا له القول فقالتا : حملك الحرص على مُلك لا يتم ، على قتل أبيك وجميع إخوتك وارتكبت المحارم ! فبكى وجزع ورمى التـاج عن رأسه ، ولم يزل أيامه كلها مهموماً حتى مات بعد ثمانية أشهر . في تلك المذبحة قامت أم يزدجرد

بتهريبه وإخفائه عنـــد أخواله في إصطخر ، وكان حينذاك دون العشرين من عمره .

المسلمون يغزون العراق

في عهد شيرويه هذا بدأ زحف خالد بن الوليد على العراق ، ومات شيرويه وخالد يدقُّ أبواب الحيرة ، وما زال يزدجرد مختبئاً عنـد أهل أمه . ومَلكَ أردشير بن شيرويه وكان طفلاً ابن سبع سنين ، فثار عليه شهربراز أحد قواد الفرس وقتل الملك الطفل ونَصَّبَ نفسه ملكاً أربعين يوماً قتـله بعض الفرس بعـدها وسحلوه وملكوا بوران بنت كسرى عمـة يزدجرد . ثم توالى الملوك والمؤامرات على عرش بني ساسان والمعارك مشتعلة بين الفرس والمسلمين ، حتى أحرز المثنى بن حارثة نصره الكبير على الجيش الفارسي يقوده مهران في معركة البويب ، وراح يُغير على كافـة أنحاء العراق من تكريت شمالاً إلى شط العرب جنوباً ، وعَبَرَ الفرات وعبر دجلة وتجاوز في غاراته تلك المدائن، فاتجه ساسة الدولة إلى الرجلين الأولين فيها – رستم وفيرزان – وأنحوا عليهما باللائمة في كل ما وقع لفارس .

يزدجرد ملكاً

وأراد الرجلان إنقاذ ما يمكن إنقاذه . وإذ كانوا يفتقدون رجـلاً من بني ساسان ، فقد طلبا من بوران بنت كسرى قائمة بنساء أبيها وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم ، فأتوا بهنّ جيعاً وصَبُّوا عليهن العذاب يستدلوهن على ذكر من آل كسرى . واعترفت إحداهن بوجود ذلك الذكر يزدجرد ، فطلبوه من أمه حتى جاؤوا به ونصّبوه ملكاً بعد أن توّجوه في بيت نار أردشير بإصطخر ثم أتوا به المدائن وهو ابن إحدى وعشرين سنة ، واجتمعوا عليه وتباروا في طاعته . حدث ذلك في ذي القعـــدة ١٣ هـ – ديسمبر ٦٣٤ / يناير ٦٣٥ م .
وشرع يزدجرد في العمل بمعاونة جميع رجال فارس، وقد نبذوا خلافاتهم للوقوف

في وجه الفتح الاسلامي . وحدّد يزدجرد المسالح والثغور التي كانت لكسرى وخصّص لكل قطاع جنداً، وقام رستم بتدبير هجوم مضاد للمسلمين، فانسحب المثنى من العراق إلى الصحراء .

ورستم قائد

ثم جاءت حملة سعد بن أبي وقاص ونزلت القادسية في ١٦ صفر ١٥ هـ — ٢٩ مارس ٦٣٦ م ، وراحت تُغير على سواد العراق حتى استغاث أهله بيزدجرد ، فبعث إلى رستم فدخل عليه . قال يزدجرد : إني أريد أن أوجّهك في هـذا الوجه ، وإنما يُعَدّ للأمور على قدرها . وأنت رجل أهل فارس اليوم وقد ترى ما جاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ وليَ آل أردشير . وتظاهر رستم بقبول هذه المهمة الثقيلة آملاً في أن يجد بعد ذلك مخرجاً ، ولكن يزدجرد أرغمه على قيادة الجيش .

وفد سعد إلى يزدجرد

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقـاص ، فأرسل وفداً من المسلمين إلى يزدجرد ليدعوه إلى الله ويشرح له مطلب المسلمين . واختـار الوفد من نفر ذوي أصل وحسب ورأي ومظهر، وكان النعمان بن مقرن المزني أمير ذلك الوفد الذي بلغ عدده أربعة عشر ، فيهم عاصم بن عمرو والمثنى بن حارثة والمغيرة بن شعبة والأشعث بن قيس وغيرهم .. وقد أوردنا مـا دار من حوار بين وفد سعد وبين يزدجرد في « القادسية » .

وعاد يزدجرد يستحثّ رستم للتقدم إلى القادسية ، وعاد هـذا يتلكأ عسى أن يجد مخرجاً من هذه المهمـة الثقيلة على نفسه ، ولكنه في آخر الأمر لم يجد مناصاً من الانصياع . ووضع يزدجرد نظاماً لوصول الأخبار من يوم بعث رستم من المدائن ، فوضع رجلاً على باب الإيوان ، ووضع آخر من الدار حيث يسمعه الرجل الأول ، ثم وضع ثالثاً حيث يسمعه الرجل الثاني .. وهكذا . فلمـا نزل

رستم بساباط صاح الذي عند رستم « قد نزل » ، فتناقلها الذي بعده ثم الذي يليه .. وهكذا .

هزائم منكرة

وأخيراً وقعت موقعة القادسية ومُنيَ رستم بأنكر هزيمة وقُتِلَ بها .. وتقدّم جيش المسلمين نحو المدائن حتى حاصر بهرسير إحدى المدائن السبع ، وكانت على الشاطىء الأيمن لدجلة. في هذا الحصار أرسل يزدجرد رسولاً أشرف على المسلمين من فوق الأسوار وقال لهم : « إن الملك يقول لكم ، هل لكم إلى المصالحة على أن لنا ما يلينا من دجلة وجبلنا ، ولكم ما يليكم من دجلة إلى جبلكم ؟ أما شبعتم لا أشبع الله بطونكم ! » فأجاب أبو مفزر الأسود بن قطبة من صفوف المسلمين : « لا يكون بيننا وبينكم صلح أبداً حتى نأكل عسل إفريذين بأترج كوثي » [إفريذين على بحر قزوين ، وكوثي بين دجلة والفرات ، والأترج نوع من التمر] .

وسقطت بهرسير في أيدي المسلمين ، فشرع يزدجرد ينقل كنوزه وأمواله ونساءه وحريمه وعياله من المدائن . فجعل بيت ماله في النهروان ، وأرسل عياله إلى حلوان على أكثر من ٢٠٠ كيلومتر من المدائن، وبقي بنفسه في الإيوان بالمدائن ووكل أمر المعركة إلى مهران الرازي ونخيرجان معتصماً من المسلمين بدجلة وقد علا فيضانه . ولكن المسلمين فاجأوه بعبور غريب على ظهور الخيل فأصابه الذعر حتى خشي الخروج من أبواب القصر ، فدلاّه قومه في زبيل (مقطف) من الشرفات الخلفية لقصره الأبيض ، ومضى هارباً إلى حلوان ومعه وجوه أساورته وما استطاع حمله مما بقي بالمدائن ، وكان معه — على ما ذكر الثعالبي — ألف طبّاخ وألف مطرب وألف مدرّب حيوانات وألف بازيار (عازف) فضلاً عمن سواهم .. واستولى سعد على المدائن .

مزيد من الهزائم

واصل جيش المسلمين زحفه في أثر يزدجرد الذي أعاد حشد ما استطاع من قوات وضمها في جلولاء على الطريق بين المدائن وحلوان. وبجلولاء دارت معركة من معـارك الفتوح الكبيرة مُنيَ فيها الفرس بهزيمة أخرى. واستمر المسلمون في تقدّمهم، فلما بلغت أخبار الهزيمة يزدجرد وعلم بصرع قائده مهران ووصول المسلمين إلى خانقين، خرج من حلوان سائراً في الجبال شمالاً نحو الري بشمالي إيران، وقـد بعث خسروشنوم على ما بقي عنده من قوات لتعطيل المسلمين حتى يمعن في الفرار. ودحر المسلمون هذه القوة وفتحوا حلوان وطهّروا ما حولها في دائرة بلغ نصف قطرها نحواً من مائتي كيلومتر.

وجعلوا ليزدجرد في رحلته إلى الري مَحْمَلاً واحداً على ظهر بعيره، فكان من عجلته ورغبته في سرعة الوصول ينـام فيه أثناء السير دون أن ينزل. فاعترضتهم مخاضة وهو نائم في محمله فأيقظوه حتى لا يفزع إذا خاض به البعير، فعنّفهم وقال: بئس ما صنعتم! والله لو تركتموني لعلمتُ ما مدة هذه الأمة. إني رأيت في المنام أني ومحمداً تناجينا عند الله، فقال له: املكهم مائة سنة، فقال: زدني، فقال: عشراً ومائة سنة، فقال: زدني، فقال: عشرين ومائة سنة، فقال: زدني، فقال: لك ... وأنبهتموني، فلو تركتموني لعلمتُ ما مدة هذه الأمة.

وجاست جيوش المسلمين مملكة يزدجرد كالأسد يتنـاول من فريسته التي سقطت بين أنيابه ما يشاء، ففتحت ماسبذان والأهواز واستولت على الجزيرة ودحرت جيشاً كبيراً للمجوس بنهاوند قوامه مائة وخمسين ألفاً حشده يزدجرد من كافة أنحاء دولته وأمدّه بكل ما أتيح له من إمكانيات. ثم أمر عمر جيوش المسلمين بطلب جيوش العجم وتعقّبها وسحقها حيث كانت. فمخرت أرض فارس من الغرب إلى الشرق على محورين أساسيين.. أحدهما من قاعدة البصرة، والثاني من جند الكوفة.

هوان

وصل يزدجرد إلى الري وعليها حاكم من قِبَله يدعى آبان جاذويه استقبله، وقد هان في عينه بعـــد ما مُنيَ به من هزائم ، فانقضّ عليه فأخذه ، فقال : يا آبان جاذويه تغـدر بي ؟ قال : لا ، ولكن قد تركت مُلكك وصار في يد غيرك فأردت أن أكتتب على ما كان لي من شيء وما أردت غير ذلك .. وأخذ آبان من يزدجرد خاتمه عنوة، فكتب لنفسه بعض الوثائق والصكوك والسجلات بكل مـا أعجبه وختمها بالخاتم ثم ردّه إليه . وأحسّ يزدجرد بمزيد من الهوان وعدم الأمان على نفسه إنْ بقي بالري ، فخرج منها إلى أصبهان .

واتجه المسلمون لفتح أصبهان فخرج منها يزدجرد إلى اصطخر . وأرسل المسلمون في أثره عبدالله بن بديل بن ورقاء بعد فتح أصبهان لاتباعه فلم يقـــدر عليه . وكان مرزبان طبرستان قد أرسل إلى يزدجرد أن يأتيه وأخبره بحصانة بلاده ، غير أن يزدجرد بدا له أن يلجـــأ إلى كرمان . وجلس ذات يوم وهو بكرمان، فدخل عليه مرزبانها فلم يكلمه يزدجرد تيهاً وكبراً ، فأمر به فجرُّوه من رجله وقال له : ما أنت بأهل لولاية قرية فضلاً عن الملك ، ولو علم الله فيك خيراً ما صَيَّرك إلى هذه الحال. فعاد يزدجرد يحسُّ بهوان أكبر مما ناله في الري، فخرج من كرمان إلى سجستان فأكرمه ملكها وأعظمه . فلمـا مضت أيام سأله يزدجرد عن الخراج فتنكـّر له .

نهاية الطريق

ومرة أخرى خرج الملك الشريد من سجستان وسار إلى خراسان، فلما صار إلى حدّ مرو (في الأراضي الروسية اليوم) استقبـــله مرزبانها ماهويه معظـّماً مبَجّلا ، وقدِمَ عليه نيزك طرخان فرحّب به وأعطاه وأكرمه ، وأقام نيزك عند يزدجرد شهراً ثم رحل إلى عمله .. ويقـال إن يزدجرد حين دخل مرو كان معه أربعـة آلاف فارس لا يصلحون للقتال [ولو أصاب لقيل راكب فرس ،

فليس كل مَن ركب فرساً صار فارساً] ، وكانوا من الكتّاب والطبّاخين والفرّاشين والحريم وغيرهم من نساء وشيوخ وأطفال الأسرة الساسانية ، ولكن لم يكن معه محارب واحد ، ولم يكن معه من الموارد ما يفي بإعالة هذا العدد .

وكانت جيوش المسلمين ما زالت تزحف وتفتح . ودخل الأحنف بن قيس خراسان وافتتح هراة عنوة ثم سار إلى مرو الشاهجان ، وأرسل إلى نيسابور قوة استولت عليها كما استولت قواته على سرخس . فلما اقترب الأحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد ونزل مرو الروذ ، فاستولى الأحنف على مرو الشاهجان . لقد بلغ يزدجرد آخر حدود مملكته ، فكتب وهو بمرو الروذ إلى خاقان الترك يستغيث به ويستمدّه ، وكتب إلى ملك الصغد وإلى ملك الصين يستعينهما . وتقدّم الأحنف بن قيس بالمسلمين من مرو الشاهجان إلى مرو الروذ ، فاضطرّ يزدجرد إلى الخروج منها إلى بلخ . وسار المسلمون إلى بلخ والتقوا به فيها فانهزم يزدجرد وعبر بمن بقي معه من الفرس نهر جيحون إلى خاقان الترك ، قبل أن يتسنى له ولا لملك الصغد إنجاده حتى عبر إليهما مهزوماً . وكان الملوك يرون على أنفسهم إنجاد الملوك ، فأقبل خاقان الترك في جيشه وحشر معه أهل فرغانة والصغد ، ورجعوا ومعهم يزدجرد إلى خراسان وعبروا النهر إلى بلخ ، ثم خرجوا منها في جيش كبير إلى مروالروذ حيث كان الأحنف في جيش المسلمين الصغير . ولكن الترك انهارت معنوياتهم في حرب لا شأن لهم بها فعادوا إلى بلخ . وتركهم يزدجرد بمرو الروذ واتجه بمن معه من الفرس إلى مرو الشاهجان حيث كانت خزائنه ، فحاصر المسلمين واستخرج خزائنه من موضعها .

جواب ملك الصين

وعاد رسول يزدجرد إلى ملك الصين بهدايا وجواب وسألوه عما وراءه فقال: لما قدمت على ملك الصين بالكتاب والهدايا كافأنا بما ترون - وأرام هديته ! - ثم قال لي : قد عرفت أن حقاً على الملوك إنجاد الملوك على مَن غلبهم ، فصِفْ لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم ، فإني أراك تذكر قلة منهم وكثرة

منكم ، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشرّ فيكم .

فقلت : سلني عما أحببت .

فقال : أيوفون بالعهد ؟

قلت : نعم .

قال : وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم ؟

قلت : يدعوننا إلى واحـــدة من ثلاث : إما دينهم ، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم ، أو الجزية والمنعة ، أو المنابذة .

قال : فكيف طاعتهم أمراءهم ؟

قلت : أطوَع قوم لمرشدهم .

قال : فما يحلـّون وما يحرّمون ؟ فأخبرته .

فقال : أيحرّمون ما حُلـّل لهم أو يحلـّون ما حُرّم عليهم ؟

قلت : لا

قال : فإن هؤلاء قوم لا يهلكون أبداً حتى يُحلـّوا حرامَهم ويحرّموا حلالـَهم .. ثم قال : أخبرني عنْ لباسهم ، فأخبرته ، وعن مطاياهم ، فقلت : الخيل العراب (الأصيلة) – ووصفتها – فقال : نعمت الحصون هذه . ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها ، فقال : هذه صفة دواب طوال الأعناق .

وكتب معه إلى يزدجرد : « إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله عمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحقّ عليّ ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبـــال لهدّوها ، ولو خلى سربهم أزالوني ما داموا على ما وصف ، فسالِمْهم وارْضَ منهم بالمساكنة ، ولا تهجهم ما لم يهجوك ! » .

انفضاض انصاره

كانت الخزائن التي استعادها يزدجرد من مرو الشاهجان أمراً عظيماً من

أموال أهل فارس ، فأراد أن يحملها ويلحق بخاقان ليكون معه أو بالصين . ولكن الفرس الذين معه قالوا له : « مهلاً ، فإن هذا رأي سوء ، إنك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتدَع أرضك وقومك ، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم (المسلمين) فنصالحهم فإنهم أوفياء وأهل دين ، وهم يلون بلادنا ، وإن عدواً يلينا في بلادنا أحَبّ إلينا مملكة من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ، ولا ندري ما وفاؤهم » .

ورفض يزدجرد ، فقالوا له : « فدَعْ خزائننا نردّها إلى بلادنا ومَن يليها ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها » . فأبى ، فقالوا : « فإنا لا ندعك » ، واعتزلوا وتركوه وكتبوا إلى الأحنف بن قيس ، فجاء المسلمون لقتاله فأعجلوه عن أثقاله ، فمضى لاجئاً حتى عَبر النهر إلى فرغانة والترك ، وغنم المسلمون خزائنه .

مصرع يزدجرد

وكتب نيزك طرخان إلى يزدجرد يخطب ابنته . فأحفظ ذلك يزدجرد وقال : « اكتبوا إليه إنما أنت عبد من عبيدي فما جرّأك على أن تخطب إليّ ؟! » ، وأمر بمحاسبة ماهويه مرزبان مرو وسأله عن الأموال ، فكتب ماهويه إلى نيزك يحرّضه عليه ويقول : « هذا الذي قَدِمَ مفلولاً طريداً فمننت عليه ليردّ عليه مُلكه » . وتكاتبا وتضافرا على قتله . وأقبل نيزك في الأتراك حتى نزل الجنابذ ، فحاربوه فتكافأت ، وفي رواية إن يزدجرد أثخن في الترك ، وكان ماهويه يتظاهر بأنه معه ، فلما خشي انهزام الترك انحاز إليهم في أساورة مرو ، فدارت الدائرة على يزدجرد وقُتل أصحابه ونُهب عسكره وعُقر فرسه عند المساء ، فمضى ماشياً هارباً حتى انتهى إلى بيت طحّان فيه رحى على شاطىء نهر المرغاب ، فمكث فيه ليلتين وماهويه يبحث عنه ، فلما أصبح اليوم الثاني دخل صاحب الرحى بيته ورأى يزدجرد بهيئته ، قال : ما أنت ؟ إنسي أو جنّي !

قال : إنسي ، فهل عندك طعام ؟

قال : نعم .

فأتاه بطعام فأكل وبشراب فشرب حتى سكر . فلما كان المساء أخرج تاجه فوضعه على رأسه فبصر به الطحان فطمع فيه ، في رواية . وفي رواية أخرى أنه ذهب فأخبر إسواراً (ضابطاً) من الأساورة ، فأدخله على ماهويه فقال : هذا يزدجرد ، اذهبوا فجيئوني برأسه . فقـــال له الموبذ [رجل الدين المجوسي] : ليس هذا لك ، قد علمت أن الدين والملك مقترنان لا يستقيم أحدهما إلا بالآخر ، ومتى فعلت انتهكت الحرمة التي لا بعـــدها . وتكلم الناس وأعظموا ذلك ، فشتمهم ماهويه وقال للأساورة : مَن تكلم فاقتلوه . وأمر عدداً منهم فذهبوا مع الطحان وأمرهم أن يقتلوا يزدجرد ، فانطلقوا فلما رأوه كرهوا قتـــله ، وتدافعوا لذلك فقالوا للطحان : ادخل فاقتله . فدخل عليه الطحان وهو نائم ومعه حجر فشدخ به رأسه ثم احتزّه بفأس ، وقيل بل قتـــله بالفأس ، فدفعه إليهم وألقى جثته في المرغاب .. وتختلف الروايات كثيراً في كل جزئيـــة من تفاصيل مصرع يزدجرد . وفي رواية أن ماهويه قال : « ما ينبغي لقاتل ملك أن يعيش » . وأمر بالطحان فقُتِل . وفي رواية أخرى أن قوماً من أهل مرو خرجوا فقتلوا الطحان وهدموا رحاه .

وفي رواية أن يزدجرد وهو ببيت الطحان أنذرَ برُسل ماهويه وهم قادمون إليه فهرب ونزل الماء . فطُلِبَ من الطحان فقال : قـــد خرج من بيتي . فوجدوه في الماء ، فقال : خلـّوا عني أعطِكم منطقي وخاتمي وتاجي . فتغيّبوا عنه . وسألهم شيئاً يأكل به خبزاً ، فأعطاه بعضهم أربعة دراهم ، فضحك وقال: لقد قيل لي إنك ستحتاج إلى أربعة دراهم وأضطر إلى أن يكون أكلي أكل الهر ، فقد عاينت وجـاءني بحقيقته . ثم انتزع أحد قرطيه من أذنه فأعطاه الطحان مكافأة له لكتمانه عليه .

ثم أتاه رجال ماهويه وهجموا عليه ، فقال لهم : « ويحكم ! إنا لنجـــد في كتبنا أن مَن اجترأ على قتل الملوك عاقبه الله بالحريق في الدنيا مع ما هو قادم

عليه، فلا تقتلوني وآتوني الدهقان ، أو سرّحوني إلى العرب، فإنهم يستحيون مثلي من الملوك » .

فأخذوا ما كان عليه من الحلي فجعلوه في جراب وختموا عليه ، ثم خنقوه بوتر قوس وطرحوه في نهر مرو (المرغاب) .

الرثاء الوحيد

وحمل الماء جثة يزدجرد حتى فوهة الرزيق فتعلق بعود. وكان مطران مرو رجلاً من الأهواز اسمه إيلياء ، وقد بلغه مقتل يزدجرد ، فجمع مَن كان قبله من النصارى وقال لهم : « إن ملك الفرس قد قُتِل ، وهو ابن شهريار بن كسرى ، وإنما شهريار ولد شيرين المؤمنة التي عرفتم حقها وإحسانها إلى أهل مِلّتها من غير وجه ، ولهذا الملك عنصر في النصرانية مع ما نال النصارى في مُلك جدّه كسرى من الشرف ، وقبل ذلك في مملكة ملوك من أسلافه من الخير ، حتى بنى لهم بعض البِيَع وسدّد لهم بعض مِلّتهم ، فينبغي لنا أن نحزن لقتل هذا الملك من كرامته بقدر إحسان أسلافه وجدّته شيرين ، كان إلى النصارى ، وقد رأيت أن أبني له ناووساً (ضريحاً) وأحمل جثته في كرامة حتى أواريها فيه » .

فقال النصارى : « أمرنا لأمرك أيها المطران تبع ، ونحن لك على رأيك هذا مواطئون » . فأمر المطران فبنى في جوف بستان المطارنة بمرو ضريحاً ، ومضى بنفسه ومعه نصارى مرو حتى استخرج جثة يزدجرد من النهر وكفّنها في طيلسان له معطّر بالمسك وجعلها في تابوت من الخشب ، وحمله مَن كان معه من النصارى على عواتقهم حتى أتوا به قبره فواروه فيه وردموا بابه ... وفي رواية لا نعقلها أنهم حملوه إلى إصطخر .

وكان مقتل يزدجرد عام واحد وثلاثين من الهجرة ولما يبلغ الثامنة والعشرين من عمره على ما تذهب إليه الروايات ، ولكن إنْ صحّ أنه اعتلى عرش فارس

عام ١٣ هـ وهو في الواحد والعشرين من عمره ، لوَجبَ أن يكون قـــد بلغ التاسعة والثلاثين عنـد مقتله ، ولو صحّ أنه قُتل عام ٣١ هـ وهو ابن ٢٨ عاماً فإنه يكون قد ملك وهو ابن عشر سنوات .

وذكر المسعودي أنه كان ليزدجرد ابنان هما : بهرام وفيروز ، وثلاث بنات هنّ : أدرج وشهربانو ومرداوند. وقد توفي فيروز في الصين عام ٥٣ هـ - ٦٧٢ م بعد أن حاول عبثاً استرجاع إيران بعون من جنـد الصين مع الاعتراف بسيادة ملكه . وفي رواية شيعية غير وثيقة أن شهربانو تزوجت الحسين بن علي .. وفي ١١٠ هـ = ٧٢٨ - ٧٢٩ م تحالف أمير اسمه كسرى من نسل يزدجرد الثالث ، مع الترك لكي يستردّوا دولة آبائه ، ولكنه لم يوفـّق .

وقد درج الفرس على بدء تقويمهم بتاريخ جلوس كل ملك ، وإذ لم يَلِ عرش إيران أحد بعد يزدجرد الثالث ، فإن الزردشتيين قد استمرّوا حتى اليوم في احتساب السنين تبعاً لسنة ارتقائه العرش ، وهو ما يسمى بالتقويم اليزدجري .

* * *

سعد في المدينة

مرشح للخلافة

بقي سعد في المدينة مع أمير المؤمنين عمر، وزيراً من وزرائه ومستشاراً من مستشاريه ، حتى حدث ذات يوم أن اغتال أبو لؤلؤة المجوسي مولى المغيرة بن شعبة ، عمرَ بن الخطاب في صلاة الفجر وطعنه بخنجره عدة طعنات ، فحملوه إلى بيته بين الحيـــاة والموت . وطلب عمر من عبدالرحمن بن عوف أن يدعو له علياً وعثمان والزبير وسعد بن أبي وقاص . فلما حضروا قال لهم : « إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هـذا الأمر إلا فيكم . وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض .

إني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس. فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها فتشاوروا واختاروا رجلا منكم » .

فلما قاموا لينصرفوا قال لهم: «لا تدخلوا حجرة عائشة ولكن كونوا قريباً».

وراحوا يتداولون ويتناقشون وعَلَتْ أصواتهم، فصاح بهم عبدالله بن عمر: « سبحان الله ، إن أمير المؤمنين لم يمت بعد » .

فدعاهم عمر وقال لهم :

« ألا أعرِضوا عن هـذا أجمعين ، فإذا متُّ فتشاوروا ثلاثة أيام وليُصَلِّ بالناس صهيب. ولا يأتينَّ اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم. ويحضر عبدالله ابن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر – وكان غائباً – فإنْ قدِمَ في الأيام الثلاثة فاحضروه أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم ، ومَن لي بطلحة ؟ »

قال سعد : « أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله » .

قال عمر : « أرجو ألاّ يخالف إن شاء الله ، وما أظن أن يلي إلا أحد هذين الرجلين : علي أو عثمان . فإنْ وليَ عثمان فرجل فيه لين ، وإنْ وليَ علي ففيه دعابة وأحر به أن يحملهم على طريق الحق . وإنْ تولوا سعداً فأهلها هو ، وإلا فليستعِنْ به الوالي فإني لم أعزله عن خيـانة ولا ضعف . ونعم ذو الرأي عبدالرحمن بن عوف مسدّد رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه » .

وانطلق عمر إلى جوار ربه ، فانطلق سعد وعلي وعثمان وعبدالرحمن والزبير إلى داره فجهزوه ، ثم حمـله الناس إلى المسجد فصَلّوا عليه يؤمُّهم صهيب ، فحمله الخمسة : سعد ورفاقه ، ونزلوا به القبر . واجتمع رهط الشورى بحجرة عائشة ، ونظر سعد فرأى عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة يجلسان على بابها ، فأقامها وأبعدهما وقال لهما :

« تريدان أن تقولا حضرنا وكنا في أهل الشورى ! »

لم تكن المناقشات داخل الحجرة تسير سيراً حسناً ، فقـال عبد الرحمن بن عوف : « أيُّكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ »

فسكتوا . فقال عبد الرحمن : « أنا أنخلع منها » .

ورضي الآخرون بذلك .

وبعـد مفاوضات ومداولات بين عبد الرحمن وبين كل من إخوانه أهل الشورى ، أعلن تولية عثمان بن عفان .

يعتزل الفتنة

وعزل عثمان المغيرة بن شعبة عن الكوفة وولاها سعد بن أبي وقاص مرة أخرى فعاد إليها سعد ، وكان عبدالله بن مسعود على بيت مالها . وحدث بين سعد وعبدالله سوء تفاهم غضب له عثمان فعزلهما ، ورجع سعد إلى المدينة وبقي بها حتى اندلعت الفتنة وقُتل عثمان ، وسعد يحاول جهده تهدئتها ، ثم بايع الناسُ علياً . واختار سعد لنفسه موقف الاعتزال وعدم المشاركة فيما وقع بين المسلمين من خلاف وفرقة ، فلم يبايع علياً . وجاء هاشم بن عتبة إلى سعد يقول :

« يا عم ، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق الناس بهذا الأمر » .

فقال سعد : « أريد من المائة سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً وإذا ضربت به الكافر قطع » .

سعد يلقى الله

بقي سعد معتزلاً في بيته بالعتيق على عشرة أميال من المدينة ، فلما بلغ الثمانين أو الثمانية والسبعين من عمره — وهو الأرجح — وكان ذلك عام خمس وخمسين من الهجرة ، وقد ضعف ومرض واشتدّ به الوجع ، رأى ابنه مصعباً يبكي متأثراً من حاله ، فقال له :

« ما يبكيك يا بني ؟ والله إن الله لا يعذبني أبداً وإني من أهل الجنة ... إيتوني بتلك الجبة الصوف التي قابلت بها المشركين يوم بدر ، فما خبأتها إلا لهذا اليوم » .

فلما جاؤوه بها قال : « كفّنوني فيها » .

وتوفي سعد ، فجاء رجال من أهل المدينة فجهّزوه وكفّنوه في جُبّته التي

شهد بها بدراً ، ثم حملوه على أكتافهم فصَلـُّوا عليه في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة . وطلب أزواج النبي ﷺ أن يُدخَل به إلى حُجـَرِهنّ وأن يُترَك بها ليُصَلـِّينَ عليه . ثم دفنوه في البقيع حيث دُفِنَ أكثر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

وقد أحصى ابن حزم [1] ٢٧١ حديثاً رواها سعد عن رسول الله ﷺ ، كما عَدَّه من أصحاب الفتيا .

* * *

(١) قـادة فتح العراق والجزيرة - عن أسماء الصحابة وأصحاب الفتيـا ملحقين بجوامع سيرة .



الباب التاسع

الباعث والمشروعية وعوامل النجاح

١ ــ الباعث على حركة الفتح الاسلامي

كتاب مغرضون أم جهلاء

لم تكن حركة الفتوح حركة صغيرة أو ضعيفة الأثر في تاريخ البشرية ، وإنما كانت حركة سقطتْ بها ممالك واسعة وتهاوَتْ عروش وتيجان ، وتلاشت لغات وَحلَّتْ محلها لغة أخرى ، وانحسر ظل أديان ليقوم مقامها دين جديد . فحقَّ علينا أن نتساءل عن البواعث وراء خروج العرب من شبه جزيرتهم لغزو ما غزوا .

ولم نكن ابتداءً نظن أننا بحاجة إلى هذا التساؤل يقيناً منا بوضوح الباعث، غير أننا لاحظنا أن أقلام بعض المستشرقين وكُتَّاب الغرب المغرضة تزاور عن الحق تحاول عبثاً أن تلوي عنانه حتى يتبع أهواءهم .

يقول جورج كاستلان [١] عن الجيش الاسلامي :

« ... كان الجيش يتكوَّن في أساسه من قبـــائل البدو ، وَهمُّها السلب والمغامرة » .

ويقول : « ... قرَّر ـ الخليفة عمر ـ أن يترك الإدارات القـائمة في هذه

---

(١) الجزية والخراج في الاسلام ٤٨ و ٤٩ .

البلاد – المفتوحة – كما هي ، وأن يقتصر على الإبقـــاء عليها في ظل الاحتلال العسكري ، فكانت الأقاليم تحكم بقواد استطاعوا أن ينشئوا حقاً مدناً حصينة يستطيعون أن يتجنبوا بهـــا تفرّق القوات ، كالكوفة والبصرة في العراق ، والفسطاط في مصر ... »

ويقول آرثر كريستنسن (١) ، بعـــد أن استعرض فساد الأوضاع الداخلية في فارس :

« ... هـذا هو حال إيران حين أغارت جيوش البدو السذّج عبر الصحراء العربية يذكيها التعصب للدين وروح الغزو ، وقد نظمها الخليفة عمر الحاكم الفذّ لكي تغزو إيران في روح لا يقاوم ... »

ويقول : « ... وبعد الفتح العربي لم يستطع الغزاة – رغم عنفهم – أن يستولوا على ما في إيران من النقود التي جمعها ملوك الساسانيين، دون أن يتحالفوا مع الدهاقين » .

ويقول دانيت كنيث (٢) :

« ... وقد لاحظ كايتاني مصيباً أن نيّة العرب لم تكن إسقاط امبراطورية وإنما الحصول على الغنائم والأسلاب، وربما إلى جانب ذلك تحويل القبائل العربية في المنطقة إلى الإسلام » .

ويقول : « ... هذا وقد كان تصرّف خالد مبنياً على عاملين : أحدهما عملي والآخر قانوني ، فقد كان جيشه صغيراً وكان هدفه الغنائم والأسلاب ، وكانت معلوماته عن الحكومة أولية وفكرته عنها محدودة ، لذلك كان تصرّف خالد واقعاً عملياً وكانت أمامه السورة التاسعة آية ٢٩ (٣) مستنداً شرعياً » .

---

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط ٢٤ .

(٢) الجزية والخراج في الاسلام ٤٨ و ٤٩ .

(٣) يقصد قوله تعالى: « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتـــاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » .

ويقول جورج كيرك [1] :

« وكانت بعض جموع المسلمين قد خرجت في عهد محمـــد في غارة على بعض أطراف الدولة البيزنطية إلى مـا وراء نهر الأردن من الجنوب فلقيت صدمة عنيفة . فلما انتخب الآن الخليفة الثاني عمر ، قام قواده العظام بقيـادة غارات كبيرة إلى فلسطين والشام والعراق ومصر ، فكان مـا لقوه من سهولة الإغارة وقلة المقاومة يُعَدُّ من المدهشات . واستحال ما كان الغرض منه في الأصل مجرد السطو والغنم — على نمط ما ألِفَه العرب — إلى غزوات وفتح دائم » .

وغير كاستلان وكريستنسن ودانيت وكيرك كثير ، ولا غرابة في ذلك ، ولكن العجب أن نجد من كتّابنا العرب والمسلمين مَن ينساق في غير تبصُّر وراء ترهات أمثال هؤلاء . فنجد كاتباً عربياً مسلماً يتطوّع فيقول [2] :

« لا نوافق بعض المستشرقين (يقصد المستشرق ايرفنج في كتابه حياة محمد) في قولهم : إن العرب كانوا مدفوعين نحو الفتح بالحمـاس الديني ، وإن الحروب التي قاموا بها تعتبر حروباً دينية ... فنحن لا نظن أن العرب — ومعظمهم من البدو — كانت تسودهم الروح الدينية والرغبة في نشر الاسلام . فقد رأينا كيف انتقضت العرب وأنها لم ترجع إلى الاسلام إلى بحدّ السيف . ومهما تكن البواعث الدينية قوية عنـد الخلفاء وبعض أتقياء المسلمين في المدينة ومكة ، فإنه من غير الممكن أن يخرج البدوي — وهو الذي لا يهتمّ بالدين — لنشر الاسلام ، بل جاء القرآن بنَصّ صريح في حرية العقيدة (لا إكراه في الدين ..) » .

ثم يسترسل الكاتب ليصل إلى النتيجة التي أرادها ، وهي أن العرب وقد ارتفعت معنوياتهم بالدين الجديد (الاسلام) أرادوا أن يلمّوا شمل جميع العناصر العربية حتى تلك التي كانت ما تزال تحت سيطرة الفرس أو بيزنطة ، أو يحوّلوا مَن لم يُسْلِم منهم إلى الدين العربي !! وإن هذا هو الذي جرّ إلى حركة الفتوح ...

---

(1) موجز تاريخ الشرق الأوسط ، ٢٤ .

(2) التاريخ السياسي للدولة العربية — الدكتور عبد المنعم ماجد .

فأستاذ باحث كصاحب هـذا الرأي كان َحرِيّاً به أن يعلم أن شبه الجزيرة دخلت في الاسلام طائعة مختارة بعـد فتح مكة ، حين وفدت وفودها على النبي ﷺ عام ٩ هـ تعلن إسلامها ، حتى ُعرف ذلك بعام الوفود.. ونزل قوله تعالى: « .. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً » . فلما توفي النبي انتقض من كل قبيلة كبيرٌ يتمرّد على الحكم المركزي في المدينة ، بعضهم اقتصر على رفض سداد الزكاة وبعضهم ذهب إلى حدّ ادّعاء النبوّة، هؤلاء حملوا الناس ـ وأكثرهم كان حديث عهـد بالاسلام ـ على الردّة ، وافتنُّوا في تعذيب َمن ثبت على إسلامه ، فرضخوهم بالحجارة وأحرقوهم بالنار وخزقوهم بالسهام وألقوا بهم من شواهق الجبال . فإذا قام الخليفة أبو بكر رضي الله عنه ليقمع هـذا التمرُّد ويحمي المسلمين ويقتصّ من المعتدين وُيعيد الأمن والنظام إلى ربوع دولته، يأتي هذا « الأستاذ الباحث » بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، فيكتشف أن العرب ارتدّت باختيارها وأنهم لم يعودوا إلى الاسلام إلا بحدّ السيف !.

ومع ذلك نقول ـ قفلاً لباب الجدل ـ : إن أبا بكر رضي الله عنه اشترط في تعبئته لقوى الدولة وتجييش جيوش الفتـح ، ألا يغزو إلا مسلم لم تسبق له ردّة... ولم ُيسمح للمرتدّين ـ بعد أن ثبتت توبتهم وحسن إسلامهم ـ بالغزو إلا في عهـد عمر بن الخطاب ، وبشرط ألاّ يتولوا رئاسات . فلا معنى إذاً ألاّ يصدق « الأستاذ » أن الغزاة الفاتحين كانت تحفزهم روح الدين .

ونشير إلى تلك النماذج الفريدة من أولئك المرتدّين الذين عادوا إلى الاسلام وحاربوا تحت لوائه . وما أظن القارىء ، وهو يقلب صفحات هـذا البحث من أوله إلى آخره ، قد فاته أن يتابع بإعجاب شديد وتقـدير لإيمانهم وحسن إسلامهم ، مواقف أمثال طليحة بن خويلد وعمرو بن معدي كرب والأشعث بن قيس ... أما قوله : إن خروج العرب من شبه جزيرتهم للغزو إنمـا كان بهدف القومية، فهو نوع من مسايرة دعاوى حديثة في زمن تأليف الكتاب ، لم يكن لها

وجود في زمن الفتوح ، أراد المؤلف أن يجعل منها رداءً لحركة ارتدّتْ في في عصرها زيناً أبهى وأجمل على الدهر كله ، منذ خلق الله الأرض ومَن عليها إلى أن تقوم الساعة .. ومن المعلوم أن كافة الدعاوى القومية دعاوى حديثة لم تكن وُلدَتْ في عصر الفتوح .

الدعوة إلى الله

إن القارىء لصفحات ذلك التاريخ ليجد أن الفاتحين كانوا دُعاة قبل أن يكونوا غزاة .. دعا خالد هرمز إلى الاسلام أو الجزية قبل أن يقاتله . ودعا سعد بن أبي وقاص يزدجرد الثالث ودعا وزير حربه وقائد جيشه رستم . ومن قبل دعا رسول الله ﷺ كسرى برويز حين أرسل إلى هرقل الروم ومقوقس القبط بمصر وغيرهم . كتب النبي ﷺ إلى كسرى برويز مع عبدالله بن حذافة السهمي في العام السادس من الهجرة (١) :

« بسم الله الرحمن الرحيم ،

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على مَن اتّبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر مَن كان حيّاً ويحقّ القولُ على الكافرين . فأسلِمْ تسلَمْ ، فإنْ أبَيْتَ فعليك إثم المجوس » .

فمزّق كسرى الكتاب ، وبلغ ذلك رسول الله فقال : « مزّق الله مُلكه » .

فلم يكن اتجاه المسلمين بأبصارهم إلى خارج شبه الجزيرة من رسم أبي بكر ، ولا كان فكرة ارتجالية وليدة الساعة نشأت متطورة عن حوادث قمع الردة .

---

(١) الطبري ٢ / ٦٥٤ عن محمد بن عمر .
وعن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن يزيد بن حبيب .
« « « « « « عبدالله بن أبي بكر
عن الزهري عن أبي سلمة بن عبدالرحمن بن عوف .

أبداً ، وإنما بدأت في حياة النبي عام ٨هـ – ٦٢٨م . ثم كانت غزوة مؤتة ٨ هـ . . وتبوك ٩ هـ على تخوم الشام ، وكذلك جيش أسامة ١٠ هـ . كانت هذه الغزوات والبعوث بدء الطرق على أبواب جيران شبه الجزيرة. وقد بَشّر رسول الله ﷺ المسلمين أكثر من مرة أن الله سيفتح لهم أرض كسرى وقيصر . بشّر سراقة بن جعشم حين أدركه في تعقّب قريش له يوم خرج مهاجراً من مكة وقال له :

« كيف بك يا سراقة إذا سوّرت بسواري كسرى ؟ »

قال : « كسرى بن هرمز ؟ »

قال : « نعم » .

وكتب له بذلك كتاباً . وتحقق موعود الرسول ، فلبس سراقة سواري كسرى بعد ستة عشر عاماً .

وأعاد النبي ﷺ ذكر هذه النبوءة وهو يحفر الخندق مع المسلمين حول المدينة في غزوة الأحزاب ... بشّرهم بقصور الحيرة وقصور المدائن وقصور الروم وقصور صنعاء ، وكان ذلك عام ٤ أو ٥ من الهجرة .

ويروي البخاري [١] عن عدي بن حاتم الطائي أنه قال :

« بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال النبي : يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟

قلت : لم أرَها وقد أنبئت عنها .

قال : فإنْ طالت بك حياة لترينّ الظعينة (المرأة) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله .

فقلت – فيما بيني وبين نفسي – : فأين دعار طيء الذين قد سعروا البلاد ؟ »

بل لقد كانت هذه النبوءات مستقرّة في القلوب والأذهان إلى الحدّ الذي

(١) شرح صحيح البخاري للكرماني ٢ / ١٧٨ .

جعل الكذابين الذين ادّعوا النبوّة قد تابعوها ، فكان مما زعم طليحة بن خويلد أنه وحيٌ يوحى به إليه قوله : « والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قــد صُمنَ قبلكم بأعوام ، ليبلغنْ ملكنا العراق والشام » .

لم تكن قومية ، ولم يكن الاسلام ليفرّق بين عربي وعجمي ، ورسول الله ﷺ هو الذي قال في خطبة الوداع :

«... إن الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بالآباء والأجداد . الناس لآدم وآدم من تراب . لا فضــــل لعربي على عجمي ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى » .

فلا تعصّب للأجناس ولا تعصّب للألوان . لا مكان لذلك بين عقائد المسلمين. وإنما دأبَ الغزاةُ الفاتحون يقولون لأهل البـــلاد المفتوحة : « فإنْ أجبتم إلى الاسلام رجعنا عنكم ولكم ما لنا وعليكم ما علينا » .

الاسلام تحرير من العبودية

كان جيش المسلمين أو جيش الفرس لافتة ساخنة عما وراءه . في فارس حكم استبدادي ساحق يقوم على تأليه الفرد وعلى سلطانه المطلق المستمد من نظرية الحق الإلهي في الملك ، وعلى طبقات من المنتفعين المستبدّين وأخرى من العبيد الأذلاّء . وقد قام الاسلام للقضاء على ذلك وتحطيمه دون أن يقيم مكانه طبقة أخرى تتميّز على مَن سواها من عبـاد الله . ميزة الاسلام على سائر الحركات التحررية والإصلاحية أنه حركة عقيدة ومبدأ ، وأي عقيدة ؟ المتصلة بالله التي تؤمن به وباليوم الآخر .. تؤمن بالبعث والحساب والجزاء .. حتى أن الفاتحين لم يجعلوا من أنفسهم طبقة ممتازة فوق أهل البلاد المفتوحة، وهو ما لم يحدث قط في أي غزو آخر في التاريخ .

لقد كان من أعجب الأحداث أن تنتقل عاصمة الخلافة بعد قليل ، من شبه الجزيرة إلى عواصم بالبـــلاد المفتوحة في الشام ثم في العراق ، وأن يقوم نظام

الحكم والإدارة في الدولة العباسية على عناصر من الفرس ، وهو مـا لم يكن ليحدث قط لولا أن عقيدة الفاتحين كانت تسمح بهذا بمساواتها التامة بين الناس ، هذا مع ما للمدينة من قداسة خاصة لكونها مهبط الوحي، ولوجود قبر الرسول ﷺ ومسجده الذي تُشَدُّ إليه الرحال بها ، ولأنهـا موطن الأنصار ومهجر المهاجرين ، ولدورها الخـالد في تثبيت دعائم الاسلام .. فلا أجناس متميزة البتة ، وإنمـا باب مفتوح لمن شاء أن يدخل .. وحينئذٍ يكون له ما للمسلمين وعليه ما عليهم .

لم تكن الفتوح إلا لحماية تبليغ الرسالة . فإذا أبى آلهة الدول والشعوب فتح باب تبليغها ، فلا سبيل لمقاومة الصدّ عن سبيل الله بالقوة إلا بالقوة . ولذلك شُرِّعَ الجهادُ في سبيل الله . الاسلام رسالة عالميـة وليست عربية موضعية ، فكان لا بُدّ لها من الخروج خارج جزيرة العرب . جاء الاسلام ديناً عاماً عالمياً وتمتاز شريعته بأنها عالمية أنزلها الله على رسوله ليبلّغها إلى الناس كافة من عرب وعجم شرقيين وغربيين على اختلاف مشاربهم وتبـايُن عاداتهم وتقاليدهم وتاريخهم ، فهي شريعة كل أسرة وشريعة كل قبيلة وشريعة كل جمـاعة وشريعة كل دولة [1] . ولن يعوزنا كثير من الأدلة للتدليل على عموم فكرة الاسلام ، وحسبنا قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، وقوله : « قل يا أيهـا الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » ، وقوله : « وكذلك جعلنـاكم أمةً وَسَطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » ، وقوله : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظْهِرَهُ على الدين كلّه » .

يقول عبد الرحمن تاج [2] : « فإنها شريعة خالدة وعامة . عامة في المرسل إليهم تخاطب كل أصناف البشر ، وعامة في المرسل به ، أي إنه روعِيَ فيها

---

(١) الاسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه .

(٢) السياسة الشرعية والفقه الاسلامي ٥٣ .

حاجة الأمم في جميع العصور ، فوجب أن تكون أحكامها وافية بهذه الحاجة في كل عصر وكل أمة ».

فوَجبَ إذاً ، تبعاً لاعتبار فكرة الاسلام فكرة عامة للبشر كافة ، أن ينشرها المسلمون خارج شبه جزيرتهم التي آمنت بها.. في العراق وفي غير العراق. وكما اتجه المسلمون إلى غزو العراق ثم فارس ، اتجهوا في الوقت نفسه إلى الهند والصين ، وغرباً حتى بلغوا أبواب فرنسا وأطراف إيطاليا. فلم تكن حوادث الردة ومـــا أسفرت عنه حتى تطوّرت إلى دق أبواب العراق ، لم تكن إلا المناسبة التي أثارت المسلمين نحو تحقيق هدفهم الذي أنزله الله على نبيّه قبل ذلك بسنوات ...

* * *

٢ ـ مشروعية القتال [١]

الاسلام دين الرحمة

الإسلام شريعة السلام ودين المرحمة . واسمه مشتق من مادة السلام . والمؤمنون بهذا الدين لم يجدوا لأنفسهم اسماً أفضل من أن يكونوا المسلمين . وتحية أهله فيما بينهم السلام . وختام الصلاة عندهم سلام على اليمين وسلام على اليسار . وقد أنزل القرآن في ليلة وصفها بأنها سلام . ولن يتأخر المسلم عن الاستجابة لدعوة السلام ولن يردّها أبداً عملاً بقوله تعالى :

« وإنْ جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » [٢] .

وليست في الدنيا شريعة دينية ولا نظام اجتماعي فرض السلام تدريباً عملياً واعتبره شعيرة من شعائره وركناً من أركانه كما فرض السلام بالإحرام في الحج ، فمتى أهلَّ المسلم فقد حرم عليه أن يقصَّ ظفراً أو يحلق شعراً أو يقطع نباتاً أو يعضد شجراً أو يقتل حيواناً أو يرمي صيداً أو يؤذي أحداً بيده أو لسانه .

ومع ذلك ، فإن الحرب ضرورة من ضرورات الحياة دفاعاً عن النفس والوطن ، أو لردع المعتدي وكف الظالم ونصرة الحق . والاسلام دين لا يفرُّ من

---

(١) مختصرة عن السلام في الاسلام .

(٢) سورة الأنفال ، الآية ٦٢ .

الواقع ، ولذلك اعتبر الحرب شرّاً لا بدّ منه ، وعمل على تنظيم قواعدها وأحكامها .

اغراض الحرب في الاسلام

لذلك حدّد الاسلام أغراض الحرب بما لا يخرج عن الآتي :

١ – ردّ العدوان والدفاع عن النفس والأهل والمال والدين والوطن : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »[١]. « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله »[٢] .

٢ – تأمين حرية الدين والاعتقاد للمؤمنين الذين يحاول الكافرون فتنتهم عن دينهم : « يسألونك عن الشهر الحرام قتالٌ فيه ، قل قتالٌ فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله ، وكفرٌ به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل »[٣] . « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

٣ – حماية الدعوة حتى تبلغ إلى الناس جميعاً ويرفع الحجر عن بلوغها لكافتهم . فلا بد أن تزول من طريق إبلاغها وبيانها كل عقبة ، ثم يعرف موقف كل فرد وكل أمة بعد هذا البلاغ . وعلى ضوء هذا التحديد تكون معاملة الاسلام والمسلمين ، فالمؤمنون إخوانهم والمعاهدون لهم عهدهم وأهل الذمة يوفى بذمتهم والمحاربون ينبذ إليهم ، فإنْ عدلوا عن خصومتهم فبها وإلا حوربوا جزاء اعتدائهم ، حتى لا يكونوا عقبة في طريق الدعوة أو مصدر تهديد وخيانة لأهلها .. وليس في هذا بتاتاً أي إكراه لهم على تدينهم بدين الاسلام ، فالقرآن الكريم يقرّر « لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشدُ من الغيّ »[٤] . « فليقاتل في

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٠ .
(٢) الحج : ٤٠ .
(٣) « « « ٢١٧ .
(٤) البقرة : ٢٥٦ .

سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومَن يقاتلْ في سبيل الله فيُقتَل أو يَغلِبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً »[1] .

لقد كانت حركة الفتوح الاسلامية نوعاً من هذا .

٤ – تأديب ناكثي العهد من المعاهدين أو الفئة الباغية على جماعة المؤمنين ، المتمردة على أمر الله التي تأبى حكم العدل : « وإنْ نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتِلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمُّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة »[2]. « وإنْ طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلِحوا بينهما ، فإنْ بَغَتْ إحداهما على الأخرى فقاتِلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإنْ فاءت فأصلِحوا بينهما بالعدل وأقسِطوا إن الله يحب المقسطين »[3] .

٥ – إغاثة المظلومين من المؤمنين أينما كانوا والانتصار لهم من الظالمين : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير »[4] .

هذه أغراض إنسانية إصلاحية حقة . وكل ما سواها من المقاصد فإن الاسلام لا يجيز الحرب من أجلها بأي حال من الأحوال . وذلك واضح من إضافة لفظ « القتال » أو « الجهاد » المشروع دائماً إلى سبيل الله ، فلا تجده إلا « القتال في سبيل الله » أو « الجهاد في سبيل الله » .

ويقرر الاسلام إيثار السلم ما أمكن . فالمسلم لا يحارب إلا مكرَهاً على القتال بعد استنفاد الوسائل السلمية : « وإنْ جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم »[5] .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٧٤ .
(٢) التوبة : ١٢–١٣ .
(٣) الحجرات : ٩ .
(٤) الأنفال : ٧٢ .
(٥) الأنفال : ٦١ .

ويؤكد الاسلام الأخذ بالرحمة في الحرب ومراعاة آدابها الانسانية . فإذا رجحت كفة المسلمين وظهرت الغلبة لهم فعليهم - بحكم القرآن - أن يكفوا عن القتل ويكتفوا بالأسر ، ليمنوا على الأسير بعد ذلك بحريته أو يفتدوا به أساراهم : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضَرْبَ الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوَثاق ، فإما مَنّاً بعدُ وإما فداءً حتى تضع الحربُ أوزارَها »[١] . والمسلم في قتاله لا يغدر ولا يفجر ولا يفسد ولا يمثل بقتيل ولا يقتل امرأة ولا طفلاً ولا يتعرض لمسالم أو رجل دين ولا يقصد أن يضرب وجهاً ، وقد ورد نهي عن ذلك كله . كما فرض الاسلام الوفاء بالعهود والمواثيق والشروط : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مُدّتهم إن الله يحب المتقين »[٢] . « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً »[٣] .

الجزية

أما عن الجزية فقد أولع خصوم الاسلام بالخوض فيها . والجزية ضريبة تُجبى على الأشخاص نظير مقابل وهو الحماية والمنعة والإعفاء من ضريبة الدم ، فهي أشبه بالبدلية . وقد قرّر الاسلام الجزية على غير المسلمين في البلاد المفتوحة مقابل حراسة أوطانهم وأموالهم والدفاع عنها في الوقت الذي أعفاهم من الجندية تخفيفاً عليهم ورحمة بهم ، ومن باب عدم إحراجهم بالدفاع في صفوف المسلمين عن عقيدة لم يؤمنوا بها . فالجزية امتياز في صورة ضريبة ، كما أنها احتياط لتنقية صفوف المجاهدين من غير ذوي العقيدة الصحيحة والحماسة المؤمنة . وقد جرى العمل في كثير من البلاد التي فتحها المسلمون ، أنهم إذا تكفلوا أمر الدفاع أسقط الإمام عنهم الجزية . وفي حمص ردّ أمراء الجند ، بأمر أبي عبيدة بن الجراح ، ما كانوا أخذوه من الجزية من أهلها حين جلوا عنها لقتال الروم ، وقالوا لهم :

---

(١) سورة محمد ، الآية ٤ . (٢) التوبة : ٤ . (٣) الإسراء : ٣٤ .

« إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنـا ما جمع لنا من الجموع ، وإنكم قد اشترطتم أن نمنعكم وإنا لا نقـدر على ذلك الآن . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كان بيننا وبينكم إنْ نصرَنا اللهُ عليهم » .

فكان جوابهم : « ردَّكم اللهُ علينـا ونصرَكم عليهم ، فلو كانوا هم لم يردُّوا علينا شيئاً وأخذوا كل شيء ، لولايتكم وعدلكم أحَبُّ إلينا ممـا كنا فيه من الظلم والغشم » . وكذلك فعلَ مع أهل دمشق .

هل انتشر الاسلام بالسيف [1] ؟

هذا اتهام باطل أغرم خصوم الاسلام بتوجيهه إليه ، ويظهر هـذا البطلان من ثلاثة أوجه :

١ – باطل بشهادة التاريخ وواقعه . فقـد لبث النبي ﷺ والمسلمون يُضطهَدون ويُضطهَد دينُهم في مكة ثلاث عشرة سنة ، لا يقابلون أهل العدوان بسيف ولا عصا إلا الصبر على الأذى . ولم يأذَن الاسلام بالقتـال إلا في السنة الثانية من الهجرة ، ليدفع عن المسلمين كيد المشركين واليهود .

كذلك فتح الصحابة البلاد بدينهم وبأخلاقهم قبل أن يفتحوها بسيوفهم . ولا يعقل أن ثمانية آلاف من المسلمين (أو أربعة آلاف فقط على ما أخـذ به جورج كاستلان) يفتحون مصر وينشرون فيها دينهم ولغتهم وأدبهم وحضارتهم بالإكراه والجبروت . وقد رأينا فيما تقـدَّم أن كثيراً من أهل البلاد المفتوحة كانوا يتمنون عودة المسلمين إليهم بعد جلائهم عنهم .

٢ – وباطل بآيات القرآن الكريم التي تقرر حرية العقيدة. ولم يكن المسلمون منفصلين عن قرآنهم ، كما نجد كثيراً من ذوي السلطان منفصلين عن ما يعلنون من قوانين ومبادىء : « لا إكراه في الدين قـد تبيَّن الرشدُ من الغيِّ » [2] .

---

(١) السلام في الاسلام .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٦ .

« وقل الحق من ربكم فمَن شاء فليؤمنْ ومَن شاء فليكفرْ »[1] . « وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْهُ حتى يسمع كلامَ الله ثم أبلِغْهُ مأمنَه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »[2] . وهذا إلزام للمؤمنين إن استجار بهم أحد من المشركين أن يبلغوه الدعوة ويوضحوا له مقاصد الاسلام ثم يحرسوه حتى يصل إلى مأمنه ويتركوه ، حتى إذا أسلم كان ذلك عن رغبة واقتناع لا عن خوف ورهبة وإكراه وترويع .

٣ — وباطل لأن قواعد الاسلام وما جرى عليه العمل منها تأباها . فأساس الإيمان في الاسلام النظر والفكر واطمئنان القلب . وأساس المؤاخذة بلوغ الدعوة على وجه يدعو إلى النظر . والتقليد في الإيمان ليس أساساً صحيحاً فضلاً عن الإكراه .

وقول المكره في الاسلام مردود عليه ولا يؤاخــذ على عمله . فالدين الذي يقوم على العقل والحرية لا يمكن أن ينتشر بالسيف والإكراه . فإن كان قد شرع الحرب والقتال فلِما تقدّم من أغراض لا ينكرها إلا مكابر . وعلامة الإيمان الحق الاطمئنان إليه : « الذين آمنوا وتطمئنُ قلوبهم بذكرِ الله ألا بذكر الله تطمئنُ القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب »[3] .

خلاصة القول : إنه وإنْ كانت البلاد والممالك قد فُتحت بالسيف ، وهــذا حق ، فإن الاسلام كدين لم ينتشر بالسيف ، وإنمـا بالإيمان والاقتناع وانفتاح القلوب وانشراح الصدور له .

الحرب والشرائع السابقة

ليس الاسلام وحده هو الذي أشار إلى القتال والحرب والجهاد كوسيلة لحماية الحق ، بل إن الشرائع السابقة واللاحقة كلها جاءت بذلك .

فأسفار التوراة التي يتداولها اليهود وتعترف بهـا الطوائف المسيحية طائفة

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٩ . (٢) التوبة : ٦ . (٣) الرعد : ٢٨–٢٩ .

بأنباء القتال والحرب والتخريب والتدمير والهلاك والسبي ، وهي تقرّر شريعة القتال والحرب والتخريب بما لا نجد له مثيلاً في الاسلام. فقد جاء في سفر التثنية بالاصحاح ٢٠ عدد ١٠ وما بعده ما نصّه :

« حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإنْ أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد ذلك ، وإنْ لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصِرْها ، فإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضربْ جميع ذكورها بحدّ السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا ، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تبقي منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً — الحيثيين والأموريين والمنعانيين والفيرزيين والحويين والبوسيين — كما أمرك الرب إلهك » .

وفي إنجيل متى المتداول بأيدي المسيحيين في الاصحاح العاشر عدد ٢٥ وما بعده يقول :

« لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض بل سيفاً . فإنني جئت لأفرق الانسان ضد ابنه والابن ضد أبيه والكنّة ضد حماتها ... وأعداء الانسان أهل بيته . مَن أحَبَّ أباً أو أماً أكثر مني فلا يستحقني ، ومَن أحب ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني ، ومَن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني . مَن وجد حياته يضيعها ، ومَن أضاع حياته من أجلي يجدها » .

والقانون الدولي العصري قد اعترف بالظروف والأحوال التي تشرّع فيها الحرب ووضع لها قواعد ونظّمها . وما جاء به الاسلام أفضل وأدَقّ وأرحم .

هذا وقد كان الاسلام أول وأكمل تشريع خطا في سبيل إقرار السلام العالمي أوسع الخطوات ووضع لذلك ضمانات :

١ — تقديس معنى الإخاء بين الناس والقضاء على روح التعصّب .

٢ – الإشادة بفضل السلام وطبع النفوس بروح التسامح ، وفرض الوفاء وتحريم الغدر ونقض العهود .

٣ – حصر فكرة الحروب في أضيق الحدود وتحريم العدوان بكل صُوَره وإشاعة العدل واحترام القانون حتى في الحرب نفسها :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يَجرِمنّكم شنآنُ قومٍ على ألاّ تعدِلوا ، اعدِلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »[1] .

٤ – بعد كل ما تقدّم فالتأمين المسلح هو أفضل ضمان للسلام وردّ العدوان.

* * *

(١) سورة المائدة ، الآية ٨ .

٣ ـ عوامل نجاح الفتح

تكن العوامل التي أدّت إلى نجـــاح حركة الفتوح الاسلامية تفصيلاً في كل معركة خاضها المسلمون وفي كل خطوة خطوها ، مما عني هـذا البحث بتبيانه . ونتناول في هذا الفصل إجمـال ذلك ، بعد أن فصّلناه في مواضعه من الكتابين الأول والثاني .

مزاعم .

ذهب بعض الكتّاب في تعليل هـــذه الظاهرة النادرة في التاريخ مذاهب خاطئة .. فمنهم مَن زعم عوامل لا تمتّ إلى الصواب بأدنى صلة ، ومنهم مَن جَسّمَ عوامل أقلّ شأناً من أن تكون هي الحاسمة ، فجعل منها قطب الرحى في تعليل ذلك الظفَر الذي أحرزه المسلمون . وهم في هذا وذاك ينصرفون عمداً أو عفواً عن العامل الحاسم الفعّال الذي له سيطرته دائماً على ميدان المعركة .

العصبية العربية

يرجع بعضهم ذلك النجاح إلى أسباب عصبية ، فيذهب إلى أن عرب الحيرة وعرب الشام – وإنْ كانوا على غـــير دين عرب شبه الجزيرة – إلا أنهم كانوا يشعرون بأن العرب قومهم وفئتهم التي يرجعون إليها [1] . ولذلك فقد مهّدوا

(١) قـال بذلك كثيرون ، منهم : جورج كيرك في « موجز تاريخ الشرق الأوسط » . =

للفتح سبيله وأعانوا عليه بما مَكّن للمسلمين من عدوّهم . ويبــدو هذا الرأي اتفاقاً مع الرأي القائل بأن القومية كانت هي الباعث على حركة الفتح .

وهذا قول يناقضه الواقع التاريخي وينفيه . ولقد وجدنا في هذه الصفحات أن عرب العراق كانوا يقاتلون إلى جانب الفرس في كثير من الأحيان ، كما كانوا يقاتلون المسلمين منفردين أحيـاناً أخرى . وجدناهم إلى جانب الفرس يقودهم أندر زغر[1] في الولجة في صفر ١٢ هـ ، وهزمهم المسلمون وأكثروا فيهم القتل . ثم وجدناهم يجتمعون مرة أخرى في أليس [2] في نفس الشهر ، عليهم رؤساؤهم جابر بن بجير وعبــد الأسود العجلي ومالك بن قيس ، على بني عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية من أهل الحيرة ، فكان هؤلاء العرب هم ميمنة الجيش وميسرته وكان قلبه من الفرس يقودهم جميعاً جابان الفارسي ضد خالد بن الوليد. وهزمهم المسلمون يقودهم خالد .

واتجه خالد نحو الحيرة ليفتحها ، وتحصّن أهلها العرب في أربعة حصون يرمون المسلمين . وحاصرهم خالد وقــد انسحب الفرس عنهم حتى أنزلهم على حكمه ، وطلبوا الصلح فصالحهم على الجزية في ربيع الأول ١٢ هـ . وكان في كلام خالد لهم ما يؤكد نفي ذلك الزعم ، إذ يقول لهم [3] : « ويحكم ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ، أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل » . ثم حدث بعد خروج خالد إلى الشام أن نقضوا عهدهم .

وتكاتب الفرس وعرب الجزيرة وتجمّعوا في شمال العراق لقتال المسلمين ،

= وعبد الوهاب النجار في « الخلفاء الراشدون » ، والعقيد محمــد فرج في « المثنى بن حارثة الشيباني » وفي « الفتح العربي للعراق وفارس » ، ومحمد حسين هيكل في « الصديق أبو بكر » . ومحمد أحمد حسونة في « الجغرافيا التاريخية الاسلامية » ، وعبد الحميـد جودة السحار في « سعد ابن أبي وقاص » .

(١) الطريق إلى المدائن ٢٢٩ .

(٢) » » » ٢٣٢ .

(٣) » » » ٢٥٣ .

وسار إليهم خالد وقاتلهم في الأنبار [1] وفي عين التمر ، وكان عليهم عقة بن أبي عقة ، وهزمهم خالد . ثم خرج إلى دومة الجنـدل فحاصرها وفتحها عنوة وعاد إلى الحيرة وخرج منهـا حيث التحم بالفرس في حصيد [2] والخنافس ثم بالعرب الموالين لهم الذين احتشدوا لنصرتهم في المصيخ ، وكان عليهم الهذيل ، فأبادهم خالد . ثم أغار على عرب تغلب الموالية للفرس في الثني ثم في الزميل ، وعليهم ربيعة بن بجير ، فأبادهم بها . ثم علم خالد أن جمعاً آخر من العرب أيضاً يتجمع له في الرضاب، وما أن سار إليهم حتى انفضّوا خوفاً قبل أن يدركهم. ثم اتجه إلى الفراض وقد اجتمعت بها قوات مشتركة من الروم والفرس والعرب غير المسلمين ، فاشتبك معهم جميعاً وهزمهم .

وحين زحف سعد بن أبي وقاص نحو العراق بعد ذلك ، كان ممـا كتب إلى عمر في عام ١٥ هـ : « ... وإن جميع مَن صالح المسلمين من أهل السواد قبلي ألب [3] لأهل فارس قد خفوا لهم واستعدوا لنا ... » .

فأي عون هذا الذي قدّمه عرب العراق لأبناء عمومتهم عرب شبه الجزيرة ؟ وأية عصبية تلك التي يحدّث عنها أولئك الكتّاب المؤلفون ؟ إنها موقعة واحدة في البويب التي وردت عنها رواية (في الطبري) تقول: إن عرباً من نصارى تغلب عليهم أنس بن هلال النمري حاربوا الفرس مع المثنى، وإن أحد هؤلاء النصارى هو الذي قتل مهران . ولم تذكر هـذه الرواية عددهم حتى نستطيع أن نتبيّن إنْ كانوا قوة حقيقية أو قوة رمزية . غير أن الأحداث كلها تؤكد أن هـذا الحادث ــ جدلاً على فرض حدوثه ــ لم يتكرر قط لا قبلها ولا بعدها ، فهو إنْ صحّ يكون أقرب إلى الحوادث الفردية التي يستحيل أن يؤخذ بها على أنه اتجاه

---

(١) الطريق إلى المدائن ٢٨٣ ، ٢٨٧ .

(٢) » » » ٢٩٩ ، ٣١٢ .

(٣) الألب : القوم تجمعهم عداوة واحـد . ألب يألب : تجمع وتحشد ، وألب بينهم : أفسد بينهم . (المنجد)

عام يبرّر لنا نجاح الفتوح . هذا في حين أن ذلك الحادث لم يصح ، بل تنفيه كل الأحداث الأخرى .

إننا نجد في مصادرنا التاريخية والمراجع والأمهات ما ينفي تلك الواقعة ، فنجد أن البلاذري لم يذكرها بتاتاً لا تصريحاً ولا تلميحاً . وفي جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، أن المثنى بن حارثة هو الذي قتل مهران [1] . وفي فتوح البلدان [2] أن جرير بن عبدالله والمنذر بن حسان الضبي هما اللذان قتلا مهران . وقد أورد ابن حجر العسقلاني في كتابه « الإصابة في تمييز الصحابة » ترجمة تحت اسم أنس بن هلال النميري ، فنسبه إلى نمير وليس إلى نمر . فإنْ كانت نمر من تغلب وكانت تغلب من نصارى العرب القاطنين بالجزيرة بشمال العراق ، فلم تكن نمير كذلك وإنما نجد في قبائل العرب بطنين تحملان اسم نمير ، فنمير الأولى كانت من عامر بن صعصعة من هوازن من قيس عيلان ، وكانت مساكنهم بنجد إلى الشرق من مكة والمدينة ، وقد أسلمت كافة شبه الجزيرة قبل الفتوح ، فنمير هذه كانت من المسلمين بكل تأكيد . أما نمير الثانية فهي التي نرجح أن ينتسب إليها انسي بن هلال إذ إنها من بجيلة . ولقد أكدت الرواية التي ذكرت أنس بن هلال أنه كان تحت قيادة جرير بن عبدالله البجلي أمير بجيلة ، وكانوا مسلمين . وقد ذكر ابن حجر أنس بن هلال في القسم الذي نفى عنه صحبة النبي ﷺ ، ثم قال إن عمر بن الخطاب أمدّ به المثنى بن حارثة في فتوح العراق وإنه استشهد مع أخيه مسعود بن حارثة يوم البويب . فهو بهذا يؤكد أنه نفس الشخص المذكور في رواية الطبري ونفى عنه النصرانية وأكد أنه من المسلمين ، ولكنه لا تثبت له صحبة للنبي ﷺ [3] .

روايتان أخريان أوردهما الطبري في معرض معركة القادسية ، الأولى تقول:

---

(١) الفتح العربي للعراق وفارس ١٤٨ .

(٢) فتوح البلدان ٦٣٠ .

(٣) الإصابة ٤٩١ .

إن أناساً من الحمراء استجابوا للمسلمين فأعانوهم ، أسلم بعضهم قبل القتال وأسلم بعضهم بعده ، فأشركوا في الغنيمة وفرضت لهم فرائض أهل القادسية ألفين ألفين ، وسألوا عن أمنع قبائل العرب [1] فكانوا مع تميم . والثانية عن بعد معركة القادسية تقول: « قال الديلم ورؤساء أهل المسالح الذين استجابوا للمسلمين وقاتلوا معهم على غير الاسلام: إخواننا الذين دخلوا في هذا الأمر من أول الشأن أصوب منا وخير ، ولا والله لا يفلح أهل فارس بعد رستم إلا مَن دخل في هذا الأمر منهم فأسلموا .. » [2] .

وقد أيّد البلاذري هذه الروايات ، فروى رواية عن انحياز أربعة آلاف من الديلم إلى المسلمين بعد مقتل رستم [3]. هذه الرواية وتلك وما أيّدهما لا تتحدثان عن عرب العراق، وإنما تتناولان أقواماً من الديلم والعجم لم يكونوا من العرب، فهما تنصبّان على مَن آمن من المجوس بالاسلام إيماناً حقاً من أول الأمر ، مثل مسلم وضخم وعشنق ، أو إيمان صدق أو مصلحة بعد الفتح ، فهما نصّان على تضعضع الجبهة المجوسية أمام زحف الاسلام ولا تذكران شيئاً عن نصارى العرب.

فإذا أسلمت بطون من أياد وتغلب والنمر وانحازت إلى المسلمين في فتح تكريت ، فقد كان ذلك مؤخراً عام ١٦ هـ بعد القادسية وبعد فتح المدائن . بعد انهيار الدولة فقط بدأ إسلام مَن أسلم من قبائل العرب من تغلب وأياد والنمر ، وبدأ تعاونهم مع جيش سعد . ولا يمكن بأي حال أن يُعتبر ذلك الحادث المتأخر في زمنه سبباً يفسّر لنا انتصار المسلمين السابق عليه .

هذا العامل من عوامل نجاح الفتوح ننفيه وننكره ونعيب على أصحابه أن

---

(١) الطبري ٤ / ١٠٢ س ش س عن أبي عمرو عن أبي عثمان النهدي .

(٢) « ٤ / ١٣٤ « « « عن محمد وطلحة وزياد .

(٣) فتوح البلدان ٧٠٨ عن أبي مسعود الكوفي عن بعض الكوفيين عن مسعد بن كدام .

« « ٧٠٩ عن المدائني .

تبعوا المستشرقين على غير بصيرة وبيّنة ، فقالوا به وخالفوا به الواقع وناقضوا أحداث التاريخ الثابتة وما فصّلته المصادر .

اختلال أحوال فارس

سبباً آخر يذكرون في تعليل نجاح الفتوح ، هو ما كانت عليه أحوال فارس والروم من الاختلال الداخلي ، وإن حال كل من الدولتين كان في انحطاط وتدهور .

يقول جورج كيرك [1] : « ويعزو مؤرّخو العرب ما أحرزه أسلافهم من هذه الانتصارات العظيمة إلى الروح التي نفحهم بها الاسلام . ومع أننا لا ننكر أن الدين الجديد قد كان له أكبر الأثر في إيجـــاد رابطة اجتماعية جمعت لمدة ما شمّل تلك القبائل المتدابرة ، فإن العامل الأساسي في تيسير فتوح العرب إنما كان في ضعف القوات التي وقفت في طريقهم » . وبمثل ذلك أيضاً قال كريستنسن .

وهو عامل لا ننكره وإن كنا لا نتعدّى به حدوده المعقولة وآثاره المقبولة. نعم لقد كانت الأحوال الداخلية في فارس سيئة . كان نزاع السلطة على أشدّه ، حتى كانت ملوكهم هدفاً للانقلابات والقتل وأن تُفقأ أعينهم وتُقطع أوصالهم، وهذا هو ما عناه الكتّاب باختلال أحوال الدولة الداخلية. ولكن هذا العامل لا يتعدّى ما يحدثه في أرض المعركة وميدانها والمتعاركين فيها مادياً ومعنوياً ، ولا يجوز التجاوز بذلك عن هذه الحدود . وباستقراء المعـارك التي دارت على أرض العراق ، نجد أن خالداً هزم في أول الأمر هرمز أمير الأبلة في كاظمة ولم تكن للخلافات الداخلية بفارس دَخْلٌ في ذلك . ثم علمت المدائن بزحف خالد فأرسلت جيشاً يقوده قارن ضمّ إليه فلول كاظمة ، وانتصر عليه خالد بالمذار . ووصل الخبر إلى شيرويه الملك بالمدائن ، فأخرج جيشاً آخر يقوده أندرزغر وأرسل وراءه مدداً عليه بهمن جاذويه ، ولم تقصّر المدائن في شيء ومع ذلك

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط ٢٤ .

انتصر خالد على أندرزغر قبل أن يدركه جيش بهمن . وقدّم بهمن مقدمته يقودها جابان إلى أليس على الفرات ، ورجع هو إلى المدائن لمقابلة الملك فوجده مريضاً فبقي إلى جانبه ، والتحم جابان مع خالد فهزمه [1] خالد .

وزحف خالد نحو الحيرة . وهنا مات شيرويه وانسحب مرزبان الحيرة بجيشه إلى ما وراء الفرات ، فحاصر خالد حصون الحيرة وحارب أهلها حتى استسلمت له. وربما كانت هذه أول مرة نجد للظروف الداخلية في المدائن (موت الملك) أثراً في المعارك ، ولكنه ليس بحجة في الهزيمة . ولو جاز لنا أن نحتج بهذا لجاز لنا أن نتوقع هزائم للمسلمين بعد وفاة الخليفة أبي بكر مثلاً ، ولكن أحداً لم يقل بذلك ولم يحدث . ثم شغلت الأحداث الداخلية الفرس فترة عن القيام بهجوم مضاد على المسلمين ، بينما حالت ظروف أخرى بين المسلمين وبين الاستمرار في الغزو ، فهدأت العمليات بعض الوقت حين انتظر خالد قدوم عياض.

ثم اتجه خالد شمالاً ففتح الأنبار ، وكان حماتها من العرب يرئسهم القائد الفارسي شيرزاد . واتجه بعدها إلى عين التمر حيث اجتمعت بها جموع كبيرة من الفرس والعرب الموالين لهم ، ففتحها ثم اتجه إلى فتح دومة الجندل وعاد إلى الحيرة . وكان الفرس وعرب الجزيرة قد اتفقوا ، فتجمّع العرب في مسالحهم وخرج جيش فارس من بغداد في اتجاه الأنبار ، والتحم المسلمون بهذه الجموع الجمع تلو الجمع ، وهزمهم جميعاً في حصيد ثم الخنافس ثم المصيخ ثم الثني والزميل والفراض .

بعد ذلك خرج خالد بنصف الجيش نحو الشام وبقي النصف الثاني بقيادة المثنى ، فأخرج له شهربراز جيشاً فارسياً من عشرة آلاف ومعه فيل عليهم هرمز جاذويه ، فهزمه المثنى في بابل وكان في تسعة آلاف . وهنا قامت فتنة في بلاط فارس أتاحت للمسلمين هدنة اتجه المثنى خلالها إلى المدينة وأقنع الخليفة أبا بكر بإرسال مدد . وتوفي أبو بكر رضي الله عنه وولِيَ الخلافة عمر ، ولم يُحدِث هذا

(١) كافة للتفاصيل في « الطريق إلى المدائن » .

أي أثر على حركة الفتوح ، فأرسل عمرُ أبا عبيد على مدد جديد .

وولي رستم شؤون الحرب والقيادة العامة في فارس ، فأخرج جيشين من وسط السواد إلى أسفل العراق وإلى جهة الحيرة، والتحم أبو عبيدة بالجيش الأخير وهزمه في النمارق ، ثم بالجيش الآخر وهزمه في السقاطية ، ثم تحرّك من فوره لمصادمة جيش ثالث خرج مدداً للجيشين الأولين فهزمه أيضاً. وبعث رستم ثمانين ألفاً معهم عشرون فيلاً بقيادة بهمن جاذويه ، والتقى بالمسلمين في المروحة ، فانتصر الفرس وقتلوا أبا عبيد، وانسحب المثنى بن بقي إلى الصحراء حتى أمدّه عمر بحشود جديدة في حين أخرج له الفرس مهران في جيش كثيف دعمه رستم بكل طاقات فارس، فهزمه المثنى في البويب،وراح بعدها يغير على أنحاء العراق.

وأخيراً ولي ملك فارس يزدجرد الثالث، وبولايته انتهت الخلافات الداخلية في فارس ، وتبارى الجميع في طاعته . وأثار رستم أهـل السواد بالمسلمين ووجه إليهم جيوشاً في جهات مختلفة ، فانسحب المثنى إلى تخوم البادية دون أن يشتبك حرصاً على قواته ، وطلب المدد من عمر، فأرسل سعد بن أبي وقاص الذي خاض معركة حاسمة في القادسية بقوة قوامها أكثر من ثلاثين ألفاً هزم بهم جيشاً مجوسياً قوامه مائتين وأربعين ألفاً يقوده رستم بنفسه .

فلئن قامت أحوال فارس الداخلية عذراً جزئياً لبعض انتصارات المسلمين وهزائم المجوس ، وسلمنا بذلك جدلاً . فقد حدثت معركة القادسية الحاسمة ثم جلولاء ، وكذلك معركة نهاوند والفرس مجتمعون، قد عبأوا كل طاقاتهم لحرب المسلمين ودفع غزوهم.. وقمت وقد هدأت الفتن في بلاط فارس، واجتمع ساسة العجم منشرحة صدورهم حول يزدجرد متساندين لدفع ذلـك الخطر الدائم . حينئذٍ انقصم ظهرهم وتم ضرب القوة الأساسية لهم ، وانفتحت أبواب ديارهم ليستولي المسلمون على كل شيء فيها ، حتى إيوان كسرى بما حوى على تاجه وثيابه ودروعه وأسيافه وبسطه وفرشه وتحفه وجناته ونعيمه كله . يقول [1] العقاد :

---

(١) عبقرية خالد ٩ .

«.. وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر، ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين».

من هذه الزاوية، زاوية حشد جيوش ذات أعداد ضخمة من المقاتلين وتجهيزها بالعتاد والعدة والانفاق عليها وتوجيهها لصد الغزو ومقاومة الفتح، نخلص إلى أن الخلافات الداخلية للتنازع على السلطة في فارس لم يكن لها الأثر الفعّال في هذا الشأن. فإن كان أثر فهو محدود للغاية، ولا يبرر بأي حال نجاح المسلمين الساحق في إسقاط الدولة الساسانية.

الظلم يقوض الدول

غير أن هناك أمر آخر في الكيان الفارسي، لا بدّ وأن يكون له أثره المحسوس على ميادين القتال، هذا العامل الخفي كثيراً ما يتواجد في كيانات أخرى غير الكيان الفارسي فيحدث فيها نفس الأثر تماماً كما تحدث الميكروبات وأنواع الفطر المخربة وآثارها المدمّرة على الأجسام التي تحل عليها.

لقد مرّ بنا في «الطريق إلى المدائن» أن المجتمع الفارسي قام على نظام طبقي ظهرت فيه سبع طبقات هي الملوك والعائلات السبع الممتازة ورجال الدين والأساورة الفرسان وكتاب الدواوين والدهاقين رؤساء القرى، وأخيراً طبقة عموم الشعب. الطبقتان الأولى والثانية، هي التي كان منها قائد الجيش والقادة الكبار مثل قواد الميمنة والميسرة والمقدمة والفرسان. أما رجال الدين فلم يكن لهم في القتال إلا التحريض وبعض المراسم، كحمل النار المقدّسة مع الحملة وإطلاق أول سهم. في حين كان الفرسان هم عماد الجيش وقطب الرحى فيه، ولم يكن لكتاب الدواوين ولا الدهاقين وجود في صفوف المقاتلين، غير أن الدهاقين كان عليهم المعول في جمع الفلاحين للتجنيد الإجباري، ولقد وجدناهم دائماً في أماكن مسؤولياتهم يعرضون صلحاً أو يطلبون أماناً أو يعقدون جسراً أو يقدمون شيئاً من الأطعمة والعلف للغالب، فكانوا كما قال عنهم عمرو بن عبد المسيح: «إنما نحن بمنزلة علوج السواد عبيد من غلب».

كانوا كأي مسؤول مدني في إقليمه الصغير حين تجتاحه جحافل الغزاة .
أما الطبقة السابعة فهي جمهور الشعب ، ومنهم كان مشاة الجيش وهم كثرته العددية وكانت مؤخرة الجيش دائماً منهم ، وكثيراً ما كانوا يُربَطون بالسلاسل للحيلولة دون فرارهم ، ويؤخَذون إلى القتال دون تدريبٍ كافٍ .

فإذا أردنا أن نرى جيش الفرس في ضوء هذه الطبقات وجدنا :

١ – قيادة عليا من أفراد قلائل معدودة من أعلى الطبقات .

٢ – فرساناً من الأسَر الممتازة كانوا غالباً من مُلاّك الأراضي وكانوا معافين من الضرائب. هؤلاء كانوا من المنتفعين الحقيقيين بالنظام القائم في الدولة.

٣ – مشاة من الفلاحين البؤساء الذين لا ناقة لهم ولا جمل في شيء من هذه الحروب ولا يعود عليهم أي نفع في حالة النصر ولا يتقاضون على تجنيدهم أجراً ولا حتى كلمة شكر .

الفرسان من المترفين ، والمترفون من أحرص الناس على حياة .

والمشاة من البائسين ، والبائسون لا صالح لهم في الموت فداءً لأسيادهم .

ولقد كانت الضرائب فادحة يقع عبؤها على عاتق عامة الشعب الفقراء وحدهم ، في حين أعفي منها الطبقات الممتازة القادرة فعلاً على الدفع .

كما بلغت القوانين حدّاً من الصرامة يتجاوز الحدود المقبولة ، كانت تصل في عقاب جرائم معارضة الملك أو الخروج على الدين المجوسي إلى الإعدام ، بتقطيع الأوصال عضواً عضواً أو سلخ الوجه أو سمل العيون بإبر محماة بالنار ... ويبدو أن هذه العقوبات قد بدأ العمل بها من وقت مبكر ، وربما صاحبت بدء قيام الدولة الساسانية نفسها منذ عام ٢١٢ م . ومما يروى أن «ماني» نبي المانوية الذي ظهر في إيران في القرن الثالث الميلادي ، حُكم عليه بالكفر فأدخِلَ السجن حيث عُذّبَ عذاباً مميتاً توفي على أثره في عام ٢٧٦ م . وفي رواية أنه صُلِبَ وسُلِخَ حياً ثم قُطِعَت رأسه وحُشِيَ جلده وظلّ معلّقاً على أحد أبواب

مدينة جندي سابور [1] في الأهواز ، فسُمّيَ هذا الباب بعد ذلك باب ماني

هذه العقوبات امتدّ العمل بها إلى آخر العهد الساساني ، ولقد كان شهريار بن كسرى برويز والد يزدجرد الثالث واحداً من الإخوة السبعة عشر الذين قطع أخوهم شيرويه أيديهم وأرجلهم ثم قتلهم ، كما مرّ بنا كيف قتلت آزرميدخت فرخزاد والد رستم ، وكيف قتل رستم آزرميدخت بعد أن خزق عينيها .

هذه العقوبات الصارمة الرادعة حقاً ، وإنْ أدّت غرضها في إخافة الناس وإخضاعهم ، فقد أدّت أيضاً دوراً أكثر خطورة وأهمية ، وهي قتل الروح المعنوية وقبر الإيجابية المحركة لعامة الشعب. بعبارة أخرى إنه لكي يؤمّن الحاكم الظالم نفسه ضد تحرّك الناس ليتحرّروا من ظلمه ، قتل فيهم النخوة والحميّة ، حتى إذا جاء عدو خارجي لم يجد مَن يقاومه لأنه لم يعد عدواً مشتركاً لهم جميعاً بل عدو للحاكم وحده ، وقد انفصلت عنه أحاسيس جمهور شعبه وشعوره باستثناء طبقة المنتفعين .

ما صالح المحكوم في أن يبذل دمه ليمنع تغيير السلطة الحاكمة أو شخص الحاكم إذا كان في أسوأ الظروف يؤدّي إلى استبدال ظالم بظالم ؟ بينما في أحسنها يؤدّي إلى حلول عادل محله . لماذا يكره الناس الاستعمار ويقاومونه ؟.. لأن المستعمر لا يسعى إلا وراء مصالحه المادية وحدها ، في سبيل ذلك يستذلّ الناس ويبطش بهم . من أجل ذلك يسعى الناس إلى التحرّر والتخلص من الاستعمار الأجنبي في كل مكان ، ليقيموا مكانه حكماً وطنياً يشعر بشعور المواطنين ويعمل جاهداً على قضاء حوائجهم لأنه منهم . فإذا استقضى منهم ضرائب فلصالحهم ، وإنْ حشدهم إلى حرب فلصالحهم ومصالح أبنائهم وذويهم . أما إذا تحوّل هذا الحاكم المواطن إلى بطش وجبروت أشد من بطش المستعمر وجبروته ، ترحّمت الشعوب على أيام الاستعمار ! إذا قام الحكم على دعائم من القتل والسلخ والتعذيب والسجن وأنواع البطش والتنكيل، فإنه يكون أكثر سوءاً أو أبعد أثراً في قتل

---

(1) كريستنسن ١٨٧ .

معنوية أمته وإيجابيتها ، لأنها لم تعد ترى صالحاً عاماً . إن استطاع الفرد أن يكسب شيئاً لنفسه فبها ، وإنْ لم يجد ما يكسبه لذاته فلا حافز له .

شتان في مجال الدفاع والأمن القومي بين ديار يسود فيها العدل والطمأنينة بين الناس، وبين ديار تحكم بطشاً واستبداداً وظلماً وعتوّاً . شتان بين دولة أساس الحكم فيها السجن والكرباج والتعذيب ، وبين دولة يقول حاكمها لولاته : « لا تضربوا المسلمين فتذلّوهم » ، وحين يبلغه أن ابناً لأحد وُلاته ضرب أحد أترابه من أبنــاء مصر المفتوحة في لعبٍ بينهما ، يقتصُّ منه ويقول لأبيه : « يا عمرو ، متى تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ! » .

ونذكر في هذا المقام خطاب أبي بكر الصدّيق[1] رضي الله عنه بعـــد أن بويع بالخلافة، حمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله ثم قال: « أما بعد ، أيها الناس فإني قــد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإنْ أحسنتُ فأعينوني ، وإنْ أسأتُ فقوّموني . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي منكم الضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله. لا يدع أحد منكم الجهاد في سبيل الله فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذلّ ، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمّهم الله بالبلاء . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم . قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله » .

لقـــد داس ملوك فارس العدالة بأقدامهم وأهدروا حرمات مواطنيهم ، فحطموا بذلك أقوى خطوط الدفاع عن مملكتهم المتيدة ذات الحضارة الضاربة في أعماق التاريخ . وما أصْوَب القاعدة التي يقررها ابن خلدون إذ يقول : « إن الظلم مؤذن بخراب العمران » . وما أكثر تقرير هذه القاعدة في القرآن الكريم:

« وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »[2] .

---

(١) الطبري ٣/٢٠٣ عن ابن حميد عن سلمة عن محمد بن اسحق عن الزهري عن أنس بن مالك.
(٢) سورة هود ، الآية ١١٧ .

« وكم قصمنا من قريةٍ كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين . فلما أحسّوا بأسنا إذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تُسألون. قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين. فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين »[1] .

« فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون »[2] .

« وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »[3] .

« وكذلك أخْذُ ربك إذا أخَذَ القرى وهي ظالمة إنّ أخْذَهُ أليمٌ شديد »[4] .

« فكأيّنْ من قريةٍ أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئرٍ مُعطّلةٍ وقصرٍ مشيد »[5] .

« وكم أهلكنا من قريةٍ بطرَتْ معيشتها فتلك مساكنهم لم تُسكَنْ من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين . وما كان ربك مُهْلِكَ القرى حتى يبعث في أمّها رسولاً يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا مُهْلِكي القرى إلا وأهلها ظالمون »[6] .

من هذه الزاوية نقبل ظلم الحكام وفساد نظام الحكم في فارس كعامل من عوامل هزيمة العجم . بعبارة أخرى هزيمة جيش يسيّره القمع في مواجهة جيش يبتغي ما عند الله لا يحركه سوى ذلك : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين »[7] . جيش يؤمن أفراده فرداً فرداً أنهم يقاتلون في سبيل الخير ، خير الدنيا والآخرة : « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولَنِعْمَ دارُ المتقين »[8] . وبعبارة ثالثة هزيمة النظام الداخلي في فارس في مواجهة التشريع الاسلامي المتحرر .

---

(١) سورة الأنبياء : ١١ - ١٥ . (٢) النحل : ٥٢ .
(٣) العنكبوت : ٤٥ . (٤) هود : ١٠٢ . (٥) الحج : ٤٥ .
(٦) القصص : ٥٨ - ٥٩ . (٧) القصص : ٨٣ . (٨) النحل : ٣٠ .

التجنيد الإجباري المستند إلى الجبروت نجح في حشد عشرات الألوف بل ومئاتها إلى ميادين القتال. والخوف من حكامهم نجح في جعلهم يقاتلون . ولكن للمعارك مراحل وتأرجحات ، فما أن تبـدأ المعركة تميل في غير صالحهم ويفقد المسؤولون سيطرتهم الفعلية عليهم ويتطلب الأمر شيئاً من الصمود حتى يجدوها فرصتهم للفرار من ذلك كله . وهكذا رأينـا قتالهم يبدأ على حفيظة وحنق وربط بالسلاسل، ثم لا يلبث أن ينهار فجأة. وهذا يفسر لنا – ويفسره لنا – وصف الضابط الرومي[1] مارسلين بأنهم ذوي تسليح ممتاز، ولكنهم غير ذوي بأس في الحروب ولم يتعوّدوا النضال في جسارة . ووصف الامبراطور الرومي جوليان بأنهم معز مسختهم القذارة يلقون السلاح ويولّون الأدبار قبل أن يبتدرهم أحد بالحرب . لقد فقدوا العناصر المنشئة للمعنوية واكتسبوا العناصر التي تذيبها وتحللها . ولقد وصفهم المثنى بعد معركة البويب فقال : « ... إن الله أذهب مصدوقتهم ووهّن كيدهم ، فلا يَرُدَعنكم زُهَاءٌ ترونه ولا سواد ولا قسي فج ولا نِبـال طوال ، فإنهم إذا أُعْجِلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجّهتموها اتجهت » .

لقد بدأ زحف المسلمين نحو العراق عام ٦٣٣ م ، وقبل ذلك بسنوات خمس فقط انتصر الروم على الفرس ذلك النصر الكبير الذي تنبأت به سورة الروم ، ولكن فارس لم تركع له على ركبتيها رغم الأحوال الداخلية ذاتهـا . أما الفتح الاسلامي فقد أزال الدولة من الوجود وأسقط الحكم الذي بدأ قبل ذلك بأكثر من أربعـة قرون ، وما زلنا نبحث عن علة ذلك وكيفية حدوثه فلنستمر في رحلة البحث عن العامل الحاسم .

معجزة

وذهب بعضهم إلى أن حركة الفتوح الاسلامية إنما كانت جهاداً في سبيل الله،

---

(١) إيران في عهد الساسانيين .

ولا يعلل النصر فيها واستطراده في جانب المسلمين إلا بأنه تأييـــد من الله لأوليائه . وكأنما يريد أصحاب هذا القول أن يذهبوا إلى أنه شيء - من حيث هو حرب - هو شيء شاذ غير قـابل للدراسة ، لا يُقاس على غيره ولا يُقاس غيره عليه .

أما أن الله يؤيد عباده المؤمنين فقد ورد في آيات القرآن الكريم الذي نحن به مؤمنون ما يفيد هذا المعنى.. من ذلك قوله: « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني مُمِدُّكم بألفٍ من الملائكة مُردفين. وما جعله الله إلا بُشرى ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم »[1]. وقوله : « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يُمِدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هـذا يمدِدْكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئنّ به قلوبكم ، وما النصر إلا من عنــد الله العزيز الحكيم »[2]. وقوله : « وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمَكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومَن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[3]. وقوله: « إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كلّ خوّانٍ كفور »[4] . وقوله: « إنا لننصر رُسلنا والذين آمنوا في الحيــاة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد »[5] . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً »[6] .

هذه الآيات وأمثال لها كثير في كتاب الله ، فهل تعني أن تلك الفتوح كانت من خلق الله ولم تكن من صُنع البشر ؟ نبادر فنقول : إننا نذهب إلى أنه يمتنع أن نفهم من الآيات أن النصر حق على الله سبحانه للمسلمين حيثما وجدوا وكيفما

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٩ - ١٠ . (٢) آل عمران : ١٢٤-١٢٦ .

(٣) النور : ٥٥ . (٤) الحج : ٣٨ . (٥) غافر : ٥١ . (٦) الأحزاب : ٩ .

كانوا . بل إن الواقع والتاريخ ينفيان ذلك ، وسيرة الرسول أيضاً تنفي ذلك ، فقد هُزم ﷺ والمسلمون في أحد وقُتل جمع غفير من خيار صحابته وكسرت حلقات المغفر في وجهه الكريم وكسرت أسنانه الأمامية (رباعيته) ، وكان الذين انتصروا مشركين وثنيين يحملون صنمهم ويهتفون له « أعلُ هبل !! » .

ونجدها في الكتاب الكريم في صراحة ووضوح : « ... ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوَ بعضَكم ببعض ... »[1] . ويعيب على نوع من الناس أن يعيشوا على أمل لا يتخذون له أسبابه ، فيقول : « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلهِهِم الأملُ فسوف يعلمون »[2] . وأنكر أشدّ الإنكار في أسلوب لاذع على بني إسرائيل ادّعاءَهم بأنهم شعب الله المختار ، حيث قال : « ... وقالت اليهود والنصارى نحن أبناءُ الله وأحِبّاؤه ! قل فلِمَ يعذّبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشرٌ ممن خلق ... »[3] . ويحكي عن إبراهيم عليه السلام : « وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمَّهُنَّ ، قال إني جاعلك للناس إماماً ، قال ومن ذرّيّتي ، قال لا ينال عهدي الظالمين »[4] .

إذاً فالله سبحانه لا يحابي أحداً من خلقه ولا خليله إبراهيم عليه السلام ولا رسوله ﷺ ، ولو كان سبحانه وتعالى فاعلاً لكان رسوله أولى الخلق بمحاباته ، ومن باب أولى سائر خلقه بما في ذلك عباده المؤمنين . ومـا كان القرآن لينكر على بني إسرائيل منطقاً ويقبل أن يتخذه المسلمون .

الأخذ بالأسباب

إن الإسلام يربط ربطاً تاماً بين الأسباب ونتائجها ويؤاخي بينها، فلا يخرق ما وضع الله للكون من سُنن . لقـد خلق الكون بقدرته واستخلف بني آدم في الأرض ، ثم لم يَدَعْ ذلك كله يخبط خبط عشواء وإنمـا فطر سننه التي تسير

---

(١) سورة محمد ، الآية ٤ .
(٢) الحجر : ٣ .
(٣) المائدة : ١٨ .
(٤) البقرة : ١٢٤ .

بمقتضاها وقوانينه التي لا تتعدّاها : « ... فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً »[١] . وقيل في تفسير قوله : « ومَن يَتّقِ اللهَ يجعلْ له مخرجاً »[٢] : إنه مَن يتقِ الله في أمرٍ ما يجعل له مخرجاً فيه . فالطالب الذي يتقي الله في استذكاره وتحصيله لعلومه يجعل له مخرجاً بالنجاح في امتحانه ، وحاشا أن ينصرف معناها إلى أن الطالب الذي يتقي الله بكثرة الصيام والقيام والصدقة وينصرف عن تحصيل العلم ، أن يجعل له مخرجاً بالنجاح في امتحانه والفلاح في دنياه !! وذلك لسببين : الأول : أنه لم يتخذ الأسباب الكفيلة بالنجاح ، وكأنما يريد من الله أن يحابيه فيستثنيه مما وضع للكون من قوانين وسنن. والثاني : أنه أخطأ فهم معنى التقوى التي أمرنا الله بها ، فهمَ منها الأمر بالأخذ بالعبادات ولم يفهم منها الأمر بالأخذ بالأسباب ، فهو بهذا الفهم الناقص والإدراك الفاسد مع ترك العمل الواجب قد استوفى أسباب الرسوب والفشل . وفي الحديث عن رسول الله ﷺ : « ومَن أحسن تدبير معيشته رزقه الله »[٣] .

غزا المشركون مدينة الرسول ﷺ بجموع لا قِبَلَ للمسلمين بها ، فماذا فعلوا ؟ لم يركنوا إلى موعود الله بالنصر .. ولم يقولوا له أين الألف وأين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف من الملائكة ؟ ولم يقولوا لنبيهم اذهبْ أنت وربك فقاتِلا إنا ها هنا قاعدون ... ولو فعلوا لبادوا ، وبحق . ولكنهم ذهبوا يبحثون عن الوسيلة الكفيلة بردّ ذلك العدوان ، فكان أن أقاموا خط دفاع فحفروا خندقاً وتحصّنوا وراءه وأخذوا بكل ما قدروا عليه من أسباب الدفاع ، ولولا ذلك لاستأصل المشركون شأفتهم . فهموا جيداً أن الله يطالبهم بالعمل دفاعاً عن أنفسهم ، فعملوا بقوله : « وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... » فهم بتقديرهم السليم لموقفهم ودراستهم له وحفرهم الخندق ووقوفهم وراءه في

(١) سورة فاطر ، الآية ٤٣ .
(٢) الطلاق : ٢ .
(٣) أسد الغابة ٢٩٩ .

خط دفاعي قوي ، والعمل السياسي الناجح للحيلولة دون اتفـــاق المشركين واليهود ، بكل هــذا قد أعدّوا ما استطاعوا واستحقوا النجاة مما أعِدّ لهم . جمع العجم للمسلمين بالقادسية ما قد مرّ بنا ذكره ، وأمدّوهم بثلاثين من أفيال القتال ، فما وجدنا المسلمين جلسوا يقرأون سورة الفيل ، وإنما عالجوا الأمر بما يلزم من مقاومة وفكر وعمل من أساليب الحرب .

حتى حين ينزل الله معجزة لتأييــد نبي من أنبيائه – والمعجزة في طبيعتها أمر خارق للعادة يشذّ على ما يجري من سنن الكون – حتى في هــذا يأبى إلا أن يصاحب المعجزة عمل ما . يأمر مريم أن تهزّ بجذع النخــلة حتى تساقط الرطب ، والذي جعل جذع نخـلة يهتز بيد سيدة في حالة وضع ، كان سبحانه قادراً على إسقاط الرطب دون أن تهزّهـــا . ويأمر موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه الحجر ، وكان سبحانه قادراً على تفجير الماء دون ضرب الحجر . ويأمره أن يضرب بعصاه البحر لينفلق ، وكان سبحانه قادراً على فلقه دون عصا موسى . وكأنما يشير الخالق سبحانه إلى أن العمل في كل الظروف واجب وأنه من عناصر النتيجة ... وبهذا الإيمان خفق عمر بدرته المتبتّلين في المسجد وهو يقول : « لا تميتوا علينا ديننا أماتكم الله ، ولا تقعدوا عن طلب الرزق تقولوا يا رب يا رب وتعلمون أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

يقول الأستاذ محمد الغزالي : « جرت حيــاة الرسول الخاصة والعــامة على قوانين الكون المعتادة ، فلم تخرج – في جملتها – عن هذه السنن القائمة الدائمة ... وقد كان محمد من هذه الناحية بشراً كاملاً ، وكانت حياته مُتّسقة مع سنن الله الكونية في البطولات الممتازة ..

« وقد سَرَتْ في المسلمين لوثة شنعاء في نسبة الخوارق إلى الصالحين منهم ، وحتى كادت جمهرتهم تقرن بين علوّ المنزلة في الدين وخرق قوانين الأسباب والمسببات ..

« هذا فتح الباب الموصد من غير مفتاح ، وهذا طيّر في الهواء بغير جناح ،

وهذا بالَ على حجر فانقلب ذهباً... وأمثال هذه السخافات كثير.. وهي تدلُّ على جهل بحقيقة الدين وحقيقة الدنيا ، وتدلُّ على أن مروِّجيها أضلُّ عقولاً وقلوباً من أن يعرفوا سيرة رسول الله وسِيَر أصحابه ..

« ما كان محمدٌ رجلَ خيالٍ يتيه في مذاهبه ثم يبني حياته ودعوته على الخرافة ، بل كان رجل حقائق يبصر بعيدها كما يبصر قريبها ، فإذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه وبذل في تهيئتها – على ضوء الواقع المرّ – أقصى ما في طاقته من حذر وجهد . وما فكَّر قط ولا فكَّر أحدٌ من صحابته أن السماء تسعى له حيث يقعد أو تنشط له حيث يكسل أو تحتاط له حيث يفرط ، ولم تكن خوارق العادات ونواقص الأسباب والمسببات أساساً ولا طلاءً في بناء رجل عظيم وأمة عظيمة ..

« إن محمداً وصحبه تعلموا وعلموا وخاصموا وسالموا وانتصروا وانهزموا ومَدُّوا شعاع دعوتهم إلى الآفاق ، وهم على كل شبرٍ من الأرض يكافحون لم ينخرم لهم قانون من قوانين الأرض ولم تَلِنْ لهم سُنة من سنن الحياة ، بل إنهم تعبوا أكثر مما تعب أعداؤهم وحملوا المغارم الباهظة في سبيل ربهم ، فكانوا في ميدان تنازع البقاء أوْلى بالرسوخ والتمكين . ولقد لقَّنَهم الله هذه الدروس الحازمة حتى لا يتوقعوا محاباة من القدر في أي صدام ، وإن كانوا أحصف رأياً من أن يتوقعوا هذا » .

صراع البقاء

لا يجوز لنا اعتقاداً كمسلمين ولا علماً كباحثين ولا خلقاً كرجال جادِّين غير عابثين ولا هازلين ، أن نتغافل عن أسباب ذلك النصر العسكري الساحق الذي أحرزه المسلمون على الروم وعلى الفرس على السواء . ولا بدَّ أن نجد الأسباب على أرض ميادين القتال ، ومن العبث أن نذهب نبحث عن الأسباب في غير أرض المعركة ، حتى وإن كانت لها جذور من خارجها ، فأيُّ تعلات يتعلل بها المتعللون ليس لها أكثر مما تحدثه في أرض المعركة وفي أشخاصها . وإذاً لمن أراد

لجيوشه النصر ، عليه أن يعدّ لذلك كل عدّته وإلا فلا يلومنّ إلا نفسه إذا أصابته في الميدان هزيمة . وإذا رأينا جيشاً ينتصر أو جيشاً ينهزم ، فلا بدّ أن يكون لذلك أسبابه من أرض المعركة . لا شك أن الإيمان بالله من عناصر الغلب – لا بذاته المجردة – ولكن بما يفرضه ويصاحبه من طاعة الله بالعمل والأخذ بالأسباب وبما يحدثه من رفع للمعنوية أي رفع ، ومن الإيمان بالقضاء والقدر ومن الرجاء في اليوم الآخر وما عند الله لمن يستشهد . ولقد كان من صفات أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه أنه كان يعتصم بالإيمان حتى يقال لم يدع مزيداً للحيلة والتدبير ، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيداً للإيمان [١] .

يقول متى في إنجيله على لسان المسيح عليه السلام : « ... فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقلْ من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » [٢] . ونقول : إن هذا المنطق منطق إنجيل متى ، أبعد ما يكون عن المفاهيم الاسلامية الصحيحة ، وإنه تبعاً لمفاهيمنا الاسلامية لا يمكن نقل الجبل بدون آلات الحفر والنسف والنقل والبولدوزر وغير ذلك. الحق أقول لكم : لو كان لكل منكم إيمان مثل أكبر جبل ثم اجتمعتم في صعيد واحد لتقولوا لأصغر حجر انتقلْ من هنا إلى هناك ، ما انتقل قيد أنملة ما لم تحركه يد .

بهذا نحسب أننا أوضحنا المقصود . وحتى لا يظن ظان أننا نلاشي أثر الإيمان وما يفرغه من قوة على أصحابه ، نسوق هذه الفقرة من كتاب عمر إلى سعد والمسلمين ، وقد أتى بتمامه في موضعه :

« أما بعد ، فإني آمرك ومَن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحروب . وآمرك ومَن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوّكم ، فإن ذنوب

---

(١) عبقرية خالد ٩ .

(٢) إنجيل متى ، الاصحاح السابع عشر ، عدد ٢٠ .

الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنصَر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم . ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا وإن أسأنا ، فرُبَّ قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار المجوس ، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً . واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم »[1] .

وفي خطاب أبي بكر إلى جيوش الشام : « ... ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وإنما يؤتى العشرة آلاف والزيادة عليها بذنوبهم فاحترسوا من الذنوب... »[2].

خلاصة القول عبارة ذكرها العقاد : « إن العقيدة قوة لا تغني عنها قوة سواها لمن فقدها ، ومع ذلك فهي وحدها لا تغني عن الأخذ بالأسباب » .

وإذا بحثنا عن هذه العوامل بين الأسباب الحربية ، نجد أن المسلمين كانوا الأقل عدداً ، الأقل عدة في جميع المعارك، فكان هذا وذاك مما يضاعف من قيمة ذلك العامل الفعال الذي لم يكن سوى الكفاءة الحربية والمعرفة بعلم الحرب وتطبيق ذلك بمهارة في الميدان على كافة المستويات .

هذه الحقيقة المعبرة عن نفسها يريد بعضهم أن ينفيها دون مبرر مقبول . يقول باحث عربي[3] : « ... وأما الأساليب الحربية التي اعتمدها العرب فلم تكن شيئاً قط غير إيمانهم وشجاعتهم وتحريم تولية الظهر إلا تحرفاً لقتال ، ولو كان من سبيل إلى الحديث في الأساليب لكان هذا الحديث من نصيب الروم (!) هؤلاء الذين كان تاريخهم سلسلة من الحروب أفادتهم الدربة والمعرفة بفنون القتال

(١) سعد بن أبي وقاص ٧١ . (٢) سيف الله خالد ١٤٣ .
(٣) حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ، الدكتور شكري فيصل .

وعلمتهم استعمال الإبل والخيل على حدّ سواء ، لأنهم حاربوا الفرس في هـذه الأرض التي حاربهم بها المسلمون .. فلم يكن هناك مجال لهذه التعلات لا بطبيعة الأرض ولا بأدوات الحرب ولا بأساليبها ، فذلك كله ممـا ألِفه البيزنطيون وعرفوه تجربة وخبرة وممارسة خلال القرون الطويلة التي عاشوها في هذه البلاد والحروب الوبيلة التي أشجوا بها وشجوا » .

لا شك أن هذه نظرة غير صائبة إلى حركة الفتح من الناحية الحربية ، فقد كان المؤلف يهدف من بحثه هذا إلى بيان أثر الفتح الاسلامي على اللغة والأدب ونشأة المجتمعات الاسلامية ، ولم يكن من منهجه التعرُّض للنواحي الحربية .

جمود التكتيك الفارسي

لقد كانت فارس والروم دولتين ذواتيْ نظم حربية عريقة ، قد يُظَنّ أن المسلمين العرب كانوا متخلفين عنها كثيراً ، ولكن الذي أظهرته لنـا معارك الفتوح أن العكس هو الصحيح. لقد كان لكل من الفرس والروم نُظمه الموروثة التي جمدوا عليها وتطبّعوا بها ، فلم يكن من السهل عليهم أن يتطوّروا لمواجهة أساليب حديثة لم يألفوها من قبل .

كان الفرس يعتمدون على جيوش كبيرة ثقيـلة الوزن كثيرة المشاة بطيئة الحركة ، وجنودها من الفلاحين المجنّدين المقيّدين بالسلاسل ، وقادتها يشترط فيهم أول ما يشترط أن يكونوا من بيوتات الشرف ، فكان لكل ذلك نتائجه في الميدان . نتج عن ذلك بطء التحرُّك وثقـل الحركة وكثرة القتلى وانعدام المرونة والتزام الدفاع دون الهجوم غالباً ، والدفاع وحده لا يحقق النصر إذ لا يكفل لنـا النصر سوى العمل الهجومي : « ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »[1] .

نتج عن ذلك أيضاً ضعف التدريب وهبوط المستوى القتالي للجندي وانعدام

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٢٣ .

الكفاية للقـــادة . كان جيش الفرس جيشاً عجوزاً لامبراطورية شمطاء ، يُعنى كثيراً بالزينة والمظاهر دون الجاد والجواهر ، كان يُعنى كثيراً بالرايات والأعلام والطبول والرتب والنياشين والقلانس ... لكنها كانت كلها مظاهر جوفاء لا تنطوي على نظر في الحرب وكفاءة فيها ، فكانت هزيمتهم أمام المسلمين هزيمة النظم التقليدية الجامدة أمام الفكر الحربي الصحيح المتحرر من أي قيد .

خفة حركة المسلمين

هـذا بينما كان المسلمون ذوي نشاط ، خفيفي الأثقال يألفون خشونة العيش وشظفه ، يكفيهم الكفاف ويتجافون عن الترف ويألفون في جملتهم سكنى البادية ، بيوتهم من الوبر أو الشعر أو الجلد ، ليس الجوع ولا العطش طارئاً عليهم يجتزئون بمـــا يمسك الرمق . فكانت قواتهم أقلّ عدداً وأخفّ حركة وأهون مؤونة ، وأكثر من اعتمادها على المشاة ، فاستطاعت أن تحقق المرونة وأن تحرز المفاجأة وأن تحوز المطاردة قبل أن يستردّ العدو أنفاسه .

لقد كانت عمليات عبور السماوة من أبرز الأمثلة على ذلك ، حين احتاج الأمر إلى تحويل جيش خـالد من العراق إلى الشام ليدرك معركة اليرموك ، ثم حين رجع هذا الجيش إلى العراق ليدرك معركة القادسية معتمداً في هذا على الإبل ، ثم انطلاق القعقاع من الكوفة لمعـاونة أبي عبيدة حين حشد الروم ضد حمص . استطاع المسلمون بذلك أن يحققوا التناسق التام بين جبهة العراق وجبهة الشام ، ولولا خفـة حركتهم ومرونتها ما استطاعوا . كذلك كان انطلاق جيش عتبة ابن غزوان على البغال لإنقاذ جيش العلاء من طاوس . كل ذلك كان أمثـلة لانقضاضات صاعقة خاطفة أهم ما يميزها السرعة والخفة لم نرَ لها أي مثيل عند المقاتل الفارسي .

الجندية الممتازة

وكان خامة هــذه القوات الجندي المؤمن المتطوّع الذي لم يجبره أحد على

خوض الحرب ولم يربطه بالسلاسل خوف الفرار كما كان يفعل الفرس والروم . هذا الجندي، راجلاً كان أو فارساً، هو الذي رأينا في الباب الخاص بأثر البيئة[1] كيف تكوّن كمقاتل وكفارس قبل أن ينزل إلى حومة الحرب . كان الجندي المسلم أقدر من خصمه على تصريف الأعنة وعلى سداد الرمي ، حتى لنجد ضرار ابن الأزور الأسدي في حصاره أحد حصون الحيرة يأمر رجاله أن يرموا أهل الحصن وقد أطلوا من فوق جدرانه يرمون المسلمين ، فرشقهم المسلمون حتى أعروا رؤوس الحيطان. وفي فتح الأنبار أمر خالد رُماته أن يرموا حُماة الحصن المشرفين من أعلاه وأن يتوخوا العيون ، ففقأوا يومها ألف عين حتى عُرفت تلك الموقعة بـ « ذات العيون » . وكان المسلم أمهر لعباً بالسيوف والرماح ، ولذلك كان دائماً يفوز على مُبارزه . ولقد مرّ بنا كثيرٌ من الأمثلة على ذلك ، مثل إغارة طليحة بن خويلد الأسدي ليلاً على معسكرات رستم قبل التحام القادسية ، ومثل مبارزات عاصم والقعقاع وعمرو بن معدي كرب وغيرهم... كان المسلمون أغنياء بهذا النوع من المقاتل الكفء، ولقد أفردنا فصولاً للتدريب على الفروسية وكافة أسلحة القتال في الجزء الأول من « الطريق إلى المدائن » .

انصراف المسلمين عن المظاهر

لقد توفّر لجيوش المسلمين كل ما يلزمها من جوهر ، وانصرفت بعد ذلك عن كل مظهر ، فلا رُتَب ولا بيوتات شرف ولا طبول ولا مبالغة في الأعلام والرايات ولا زيّاً واحداً ولا سلاحاً متشابهاً ، وإنما لكلٍّ ما اتفق له . نعم لقد كان لجيوش المسلمين تنظيمها الذي وجدنا بمقتضاه عرفاء العشرات ورؤوس القبائل وأصحاب الرايات وأمراء الأعشار وغير ذلك ، ولكن ذلك كله كان تنظيماً إدارياً بحتاً لإمكان تحريك القوات وفقاً لمسؤوليات معلومة وواجبات محدّدة ، ولم يكن من قبيل الرتب المعروفة في الجيوش الأخرى . لم تكن رتباً

(١) الطريق إلى المدائن .

تمثل طبقات ، بل كانوا سواء فيما بينهم من علاقات ، سواء في العطاء ، دون أن تشكل هذه الإمارة لبعضهم على بعض أي طبقة حقيقية أو حتى مظهرية . فلم يكن أي رئيس ليتميز بملبس معين أو شارة مميزة ولم تكن له حقوقه تزيد عن حقوق مرؤوسيه ، بل لقد وجدنا بعض جند سعد بن أبي وقاص ينقده ويهجوه بالشعر ويشكوه إلى أمير المؤمنين عمر . ولم يكن هـــذا ولا أقل منه بكثير ليتصوّر في جيش الفرس .

الاعاشة والشؤون الادارية

كان التعقيـــد في جيش فارس يتبعه مشاكله الإدارية فيما يختص بالإعاشة في الميدان . كان جيشاً يأكل الرقاق ويُطعَم العسل ، وكان يضاعف من أثر ذلك كثرة العدد . كان جيش الفرس في القادسية مائتين وأربعين ألفاً نصفهم في مرتبة الخدم والتبع ، بينما لم يظهر لذلك ، مقابل يُذكـَر في جيوش المسلمين. كان طعامهم التمر ولبن الإبل ولحومها والقمح ، وكان لحم البعير يكفي لإطعام مائة في اليوم. وكانت إبلهم معهم في حروبهم كما كانت معهم في حلّهم وترحـــالهم تُطعَم من مراعي الصحراء أو من تخوم السواد . كذلك كانت خيلهم تشرب لبن الإبل وتُطعَم التمر وكانت أنجب من خيل الفرس والروم ، تدرك خصمها إذا كرّت وتفوته إذا فرّت .

ومن حيث كان المسلمون قادمين نحو العراق من صحرائهم الشاسعة ، فقد كان ريف العراق أمامهم يُغيرون على ما شاؤوا من أطرافه أو يوغلون فيه وفق ما تقضي به الأحوال ، ينتزعون من يد عدوّهم ما يقتاتون به من مختلف أنواع الأطعمة النباتية والحيوانية ، فكان جُلّ اعتمادهم على هذا .

شؤون الحملة

بالرغم من أن القتال بين المسلمين والعجم قد دار على أراضي الدولة الفارسية بعيداً عن المَواطن الأصلية التي نزحت منها جيوش المسلمين ، فقد كان هـــذا

الانتقال بعيد المدى يتمّ بأيسر مما كان يتيسّر لسواهم من الأمم ، وذلك بفضل استحواذهم على ذلك النوع من الركائب الذي يستطيع اجتياز المفاوز والمسافات الطويلة مهما كان الجوُّ حارّاً أو بارداً صافٍ أو عاصف ، دون الحاجة إلى تموين عاجل سريع ، ونعني بها الإبل . وقد كانت هذه الجيوش من الفرسان والمشاة ، وكانوا جميعاً يعتمدون في تنقلهم وحمل أثقالهم من بيوت ومراجل الطهي وما إلى ذلك على الإبل دون الخيل ، ثم لا تستعمل الخيل إلا في الميـــدان ، فلا تكون أنهكت أو استخدمت في شيء غير القتال. وقد أفردنا في الجزء الأول باباً خاصاً بالخيل عند العرب وكذلك بالإبل. وحين خرج ميدان القتال عن النطاق المألوف للإبل وانتقل إلى السير من خلال الجبال ، كانت جيوش المسلمين من المرونة بحيث استبدلت بالإبل البغال .

أما العجم فلم يعرفوا الإبل ولم يكن لهم من ركائب سوى الخيل للفرسان ، أما المشاة فكانوا يسيرون على أقدامهم من مَواطن تجنيدهم إلى ميـادين القتال مهما بَعُدَتْ . فلا شك أنهم كانوا يصلون إلى هذه الميادين وقد هدّهم الجهـــد والمشقة أكثر ممـا جهدَ خصمهم العربي المسلم الذي قطع مسافات أبعـد . هذا بالإضافة إلى أن جمهرة جيوش المسلمين كانت من الأعراب سكان البادية ولم يكونوا من أهل الحضر ، فهم ممن ألِفَ دوام الحلّ والترحال ، بخلاف الفلاحين المجوس الذين ارتبطوا بأرضهم وكأنهم نباتات نمَتْ عليها شأن الفلاحين في أي مكان .

ولنا أن نفترض مثل هـــذا بالنسبة لخيول الفرس التي كان عليها أن تقطع المسافات الطويلة محملة بالفرسان والأثقال على السواء ، فلا بدّ أن ينال منها الجهد بالإضافة إلى بري حوافرها ، فضلاً عن اعتيادها استخدامات غير الفروسية ممـا يفقدها الكثير من الصلاحية للحرب . شتان مـا كان بين خيول المسلمين وخيول المجوس في مجال القتال المتلاحم وفي شؤون الحملة على السواء ، وقد أجاد المسلمون في استخدامها على الحالين. وما أروع ما قام به سعد بن أبي وقاص من استخدامها كمركبات برمائية عَبرَ عليها ستون ألفاً نهر دجلة في فيضانه لاقتحام المدائن .

عفة المسلمين

كان جيش الفرس ضيفاً ثقيلاً حيث حلّ ، ينتهك الحرمات ويغتصب النساء ويسلب الأموال من مواطنيه ، ولقد مرّ بنا ما كان من جيش رستم في هذا الشأن ، في حين كان المسلمون شرفاء أمناء حتى لأهل البلاد المفتوحة . وكان لهم من دينهم ما يعصمهم ويردعهم ،ومن أهلهم ونسائهم القريبين وراء الجبهة ما يفي بحاجاتهم . خطب رستم في جيشه فقال : « ... والله للعرب في هؤلاء وهم لهم ولنا حرب أحسن سيرة منكم . إن الله كان ينصركم على العدو ويمكّن لكم في البلاد بحسن السيرة وكفّ الظلم والوفاء بالعهود والإحسان ، فأما إذا تحوّلتم عن ذلك إلى هذه الأعمال فلا أرى الله إلا مُغيّراً ما بكم ، وما أنا بآمن أن ينزع سلطانه منكم » .

قيادات ممتازة

من صفوف هؤلاء الجنود بزغ قـادتهم عن امتحان وتجربة لا عن شرف موهوم ونَسَب موروث . وكما كان خـامة جيش المسلمين من الجنود المهَرَة الممتازين الذين لا يبالون وقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم ، كذلك كانوا ذوي ثروة واسعة في عظماء الرجال من القادة المحنّكين المدرّبين. استطاعوا أن يطوّروا في أساليب القتـال ، بالجمع بين طريقة الكرّ والفرّ وطريقة الزحف بالصفوف المتراصّة ، وبالاستخدام المتبـادل للخيل والإبل أو الخيل والبغال . كانوا أصحاب نظرات سديدة في الحروب ، يعرفون متى يتقـدّمون ومتى ينسحبون ومتى ينتظرون عدوّهم ومتى يدهمونه وفي أي مكان وعلى أي أرض وبأي تكتيك يديرون معاركهم ، ولا يفوتهم في كل ذلك ما يلزم من حمـاية ظهرهم وأخذ حيطتهم والإمساك بعنصر الأمن لجيوشهم .

يتحدث كلاوزفيتز [1] عن وجه الاختلاف بين نوعين من القادة فيقول :

---

(١) في الحرب ١١ .

«... ويأتي هذا الاختلاف في معظم الحالات من قيام البعض بدور المخترعين والمعلمين لأفضل الأساليب واكتفاء البعض الآخر بدور المقلدين . ونحن نرى أن الجنرالات وقادة الفيالق والفِرَق يتبنون في كل مكان تقريباً الآراء والأساليب ذاتها ، لدرجة تجعل من الصعب تفوّق جيش على آخر إلا إذا تمتع أحد الجيشين بقائد موهوب بالصدفة التي لا علاقة لها بدرجة ثقافة الشعب أو الجيش أو كان هذا الجيش متمرّساً على فنون الحرب متعوّداً على خوض غمارها » .

هذا رأي رائد الاستراتيجية في القرن التاسع عشر . وفي الواقع أنه بالنسبة للعصور الوسطى ،بينما نجد انحطاطاً واضحاً في الاستراتيجية الأوروبية والفارسية واقتصار حروبهم على مصادمات مباشرة بالمواجهة بين جيوش أكثرها من الفلاحين بقيادة أمراء الاقطاع من هنا أو الأساورة من هناك ، نجد أن القادة المسلمين أمثال خالد بن الوليد كانوا يطبّقون الأساليب الاستراتيجية بمهارة وإتقان في المناورة والحركة والخداع والمفاجأة على أوسع نطاق ، مما دفع ليدل هارت ، رائد الاستراتيجية في القرن العشرين ، إلى وصف معاركهم بأنها فاقت ما سبقها من معارك في التاريخ [1] .

لقد تعدّدت صفات القيادة وكتب عنها كثير من الكتّاب والقادة. وبعض هذه الصفات من البديهيات التي لا يعوزهـا الذكر ، من مثل قولهم : الشجاعة وقوة الإرادة ... إلخ . ومنهم مَن أعدّ قوائم مزدحمة بالفضائل ، فما ترك مكرمة أو خُلقاً إلا جعله شرطاً للقيادة . ونقتصر هنا من ذلك كله على ما نراه يضع أصابعنا على السمات الهامة للقيادة من وجهة نظر كبار القادة المحدثين .

ففي نظر مونتجومري ينبغي أن يتحلى القائد بأن يكون موضع ثقة رجاله واعتمادهم ، ذا كفاية عسكرية عالية ، متفائلاً لا ييأس ، يحرص على معنويات قواته ، يحسن اختيار الرجل المناسب للعمل المطلوب ، متتبّعاً لِما يستجدّ من

---

(١) من دراسة أعدها مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بجريدة الأهرام ، عدد ٢٩ / ١ / ١٩٧١ .

المعارف العسكرية ، قادراً على اتخاذ القرار السليم ، عالماً بمبادىء الحرب ، هادئاً مستعداً للمجازفة عند الحاجة ، ملتزماً إلى أبعد الحدود بالدّين [1] .

ويقول : « هل من علاقة للدين بالقيادة ؟ إن القـــائد لا بد من أن يكون متمسكاً بمُثل عليا وبالفضائل الدينية » .

ويقول : « مَن هم أعظم القـــادة في كل الأزمان ؟ إنهم ولا شك مؤسّسو الديانات العظمى : المسيح ومحمد وبوذا . هل كانت الحياة الخاصة لهؤلاء القـــادة الثلاثة أحد الأسباب لنفوذهم ونجاحهم ؟ وهل يجب أن تكون حياة القائد الخاصة فوق الشبهات ؟ في رأيي الخاص في هذه القضية بعينها بل وجميع القضايا الأخرى ، إن العامل الأكبر هو إخلاص المرء ونفوذه وكونه قدوة خاصة فيما يتعلق بالفضائل الدينية ... إنني لا أدري كيف يستطيع امرؤٌ أن يكون قائداً إنْ لم تكن حياته الخاصة فوق الشبهات ، فإنْ لم تكن كذلك لا يحترمه الذين يقودهم وسيسحبون ثقتهم منه ، وإذا ما حدث ذلك فستفقد قيادته تأثيرها » .

ويقول : « إني أعتقد أنه يجب أن يكون لدى القائد يقين باطني مبني على العقل ، لكنه مع ذلك فوق العقل » .

بينما يقول ويفل : « يجب أن يكون القائد عفيفاً وقوراً يتحمل المشاق من الأعمال ، متوسط العمر ، فصيحاً ورب عائلة وأن ينتمي إلى بيت مجد له شهرة (!) وأن يكون مؤدّباً ودوداً سهل الاقتراب منه رزين الطبع » .

وقال نابليون : « إن أول ما يجب أن يتوفر في القائد رأس هادئة ، وبذلك تظهر له الأشياء على حقيقتها وفي مظهرها الصحيح ، ويجب ألاّ يتأثر بالأخبار الحسنة أو السيئة » .

وقال : « إن تطوُّرات فنّ القتال والعلوم الهندسية وفنون المدفعية يمكن

---

(١) الفاروق القائد ٧٣ و ٧٥ عن كتاب مونتجومري السبيل إلى القيادة .

أن تُدرّس من الكتب ، ولكن القيادة تجيء من التجارب ومن دراسة معارك كبار القادة » .

أما روميل فيؤكد في مذكراته على صفة تحمّل المسؤولية وأن يكون قادراً على تقدير الموقف وإصدار القرارات الصحيحة ، ويقول : « وثبت لي أثناء التحرّك إلى المخيل (بالصحراء الغربية) أنني لم أطلب الكثير ، لأنه ظهر لي أن القادة الذين استغلوا قدراتهم تمكّنوا من تنفيذ كل ما طلبته منهم ، وظهر في بعض الأحيان أن طاقات القائد وقدراته النفسية أهم من استعداداه العقلي ومعلوماتة العسكرية ، وهو أمر غير مفهوم جيداً للمفكرين العسكريين بالرغم من أنه مفروغ منه بالنسبة للرجل العملي . في هذه العمليات توفرت لي الفرصة لتدعيم علاقاتي مع الجنود ، فنتج عن ذلك أن حققوا كل ما طلبته منهم على الدوام ».

ويقول : « يجب على القائد أن يدرك أنّ مكانه ليس في الخلف مع هيئة أركانه وإنما في الأمام مع قواته ، فالجنود لا يشعرون بالصلة بينهم وبين قائد يجلس في الخلف بمقرّ قيادته ، والذي يرغبون فيه هو الاتصال به فعلاً . ومن السخف القول إن واجب قائد الكتيبة وحده هو المحافظة على الروح المعنوية لرجاله ، واتضح لي أنه كلما ارتفعت الرتبة كلما زاد أثر المثل المعطى ، وخاصة في لحظات الذعر والإرهاق أو الانحلال أو عندما يلزم الأمر مجهوداً غير عادي . فالمثل الذي يضربه القائد بوجوده تحت نفس الظروف يفعل المعجزات ، خاصة إذا كان القائد على قدر من الذكاء وكان قادراً على خلق أسطورة حول شخصيته ».

لعلّ وجهة نظر كل من هؤلاء القادة قد انصبّت على الصفات التي رآها في نفسه قبل سواها ، ومع ذلك فهي نظرات حقّة .

نستطيع إذاً أن نحدّد صفات القيادة الممتازة في الآتي :

١ ـ القدرة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب .

٢ ـ الشجاعة الشخصية .

٣ — الإرادة القوية الثابتة .

٤ — تحمّل المسؤولية بلا تردّد .

٥ — معرفة مبادىء الحرب والخبرة بأصولها .

٦ — نفسية ثابتة مستقرة لا تهتزّ ولا تتبدّل في حالتي النصر والهزيمة .

٧ — بُعد النظر والتوقع السديد وصدق التنبّؤ بما سيكون .

٨ — معرفة نفسيات الجنود وإمكانياتهم .

٩ — الثقة المتبادلة بين القادة والجنود .

١٠ — المحبة المتبادلة بين القيادة والقوات .

١١ — شخصية قوية نافذة .

١٢ — اللياقة البدنية .

١٣ — ماضٍ مشرّف وسابقة ناصعة مجيدة .

إن عوامل النصر تتركز في ثلاثة أسباب نقول إنها توفرت جميعاً لدى المسلمين:

١ — قيادة ممتازة .

٢ — جنود ممتازون .

٣ — قضية عادلة يقاتلون من أجلها .

الإيمان بالقضاء والقدر

ثم كان شرف الغاية ونُبل المقصد واعتقاد المسلم أن قتاله في سبيل الله من أهم عوامل ثباته واستماتته واستهانته ، فليس أمامه إلا إحدى الحسنيين : إذا انتصر فذاك ، وإنْ قُتِل فإلى الجنة . ثم ليس الموت أو الإصابة إلا بقضاء من الله وقدَر . هذا الإيمان بالقضاء والقدر الذي اتخذه الناس من دواعي التواكل مُعيناً على الخمول والكسل ، إنما ذلك لجهلهم به ، فإن الإيمان بالقضاء والقدر الذي جاء به الإسلام مفروض على المؤمنين في النتائج لا في الأسباب[1] . فالناس

(١) السلام في الاسلام .

مطالَبون بالأسباب مفروضٌ عليهم السعي لها والأخذ بها ، ثم مطالَبون بعد هذا الأخذ الصحيح بأن يتركوا النتائج لله مدبّر الكون .

من هنا كانت عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر من أسرار عظمة المسلمين الأولين لأنهم أخـذوا في الأسباب وبذلوا جهدهم في استقصائها إنفاذاً لأمر الله ، ولم يتهيّبوا النتائج المؤلمة رضىً بقضاء الله ففازوا بالحسنيين ، ولسان أحدهم يقول:

أيَّ يَوْمَيَّ من الله أفِرّْ ... يوم لا يُقْدَرُ أو يوم قُدِرْ
يوم لا يُقْـدَرُ لا أرهبه ... ومن المقدور لا يُنْجِي الحذَرْ

قذفت هـذه العقيدة كل معاني البطولة والشجاعة والاستبسال ، في الوقت الذي لم يكن لها الأثر المثبّط في إعداد العدّة وتحيُّن الفرص والخروج إلى الصف ومقارعة الأبطال .

وما ابتلى النـاس بهذا التواكل والكسل إلا يوم آمنوا بعقيدة القضاء والقدر إيماناً معكوساً ، فأخـذوا بها في الأسباب فلم يستعدوا ، ونسوها في النتائج فجزعوا ولم يرضوا .

وإذاً ...

نستطيع القول بأن أسباب هزيمة الفرس في مواجهة المسلمين كانت قـائمة ، وأن أسباب النصر عند العرب قبل الإسلام كانت ناقصة حتى أتمّها الإسلام ...

فوجدت العقيدة الحقّة التي هبّ بها المؤمنون لنشرها والذود عنها .

وقامت بها بين المسلمين وبين الأمم المجاورة القضية العادلة التي يجاهدون من أجلها والتي لم تكن من قبل .

وصاغ الإسلام – وفق ظروف البيئة – من أفراد هذه الأمة أعلى نموذج في العالم للجندي المقاتل المؤمن صاحب العقيدة الذي يبذل نفسه من أجلها .

ومن بين هؤلاء الجنود الممتـازين برزت – في ظلّ من نظام الإسلام –

أكفأ القيادات ، دون أن تحول أي حوائل طبقيـة أو اجتماعية أو غيرها دون هذا الظهور .

وبحكم الإسلام أيضاً تمّ توحيد شبه الجزيرة العربية في وحدة سياسية ،واعتبر جميع سكانها أمة واحدة انبعثت في حشد لم يكن في الإمكان قبل ذلك حشده.

هذا هو دور الإسلام كرسالة ودين في الفتوح ...

أقام العقيدة والمعتقدين .

ولن يصلح أمر آخر هذه الأمة بغير ما صَلـُحَ به أولها .

« إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم » .

« فهل من مُدّكِر ؟! »

* * *

فهارس الكتاب

دليل الخرائط

دليل الأعلام

آ ـ المسلمون

المجوس

دليل الأماكن

محتويات الكتاب

الباب الثالث : معركة جلولاء
(أول ذي القعدة ١٦ هـ – ٢٤ نوفمبر ٦٣٧ م)

الباب التاسع
الباعث والمشروعية وعوامل النجاح

صدر عن دار النفائس :

– سلسلة استراتيجية الفتوحات الاسلامية (للمؤلف) :

١ – الطريق إلى المدائن
٢ – القادسية
٣ – سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية
٤ – الطريق إلى دمشق (فتح بلاد الشام)

– سلسلة مشاهير قادة الاسلام لـ « بسام العسلي »

١ - عقبة بن نافع
٢ - موسى بن نصير
٣ - قتيبة بن مسلم الباهلي
٤ - سعد بن أبي وقاص
٥ - عمرو بن العاص
٦ - أبو عبيدة بن الجراح
٧ - خالد بن الوليد
٨ - معاوية بن أبي سفيان
٩ - صلاح الدين الايوبي
١٠ - المظفر قطز، وعين جالوت
١١ - الظاهر بيبرس، ونهاية الحروب الصليبية القديمة
١٢ - عبد الرحمن الداخل، (صقر قريش)
١٣ - عبد الرحمن الناصر لدين الله
١٤ - الحاجب المنصور
١٥ - المعتمد ابن تاشفين ومعركة الزلاقة (تحت الطبع)

- إعداد وتحقيق أحمد راتب عرموش :

- موطأ الامام مالك ، رواية يحيى بن يحيى الليثي .
- مسند عبد الله بن عمر ، تخريج أبي أمية الطرسوسي .
- الفتنة ووقعة الجمل ، رواية سيف بن عمر الضبي الأسدي
- الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ، ولي الله الدهلوي .
- الحج والعمرة والأدعية المأثورة .

- تحقيق عاصم بهجة البيطار :

- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ، للغـزالي .
- الفضل المبين على عقد الجوهر الثمين ، للقـاسمي .

- تحقيق الدكتور احسان حقي :

- تاريخ الدولة العلية العثمانية ، لمحمد فريد .

- إعداد الدكتور محمد حميد الله :

- مجموعة الوثائق السياسية والإدارية للعهد النبوي .

- تأليف بسام العسلي :

- سلسلة جهاد شعب الجزائر .
- الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية .